ماريان يورغنسن لويز فيليبس

تحليل الخِطاب:
النظريّة والمنهج

ترجمة
د. شوقي بوعناني

هيئة البحرين
للثقافة والآثار

تحليل الخِطاب:
النظريّة والمنهج

ماريان يورغنسن لويز فيليبس

تحليل الخِطاب:
النظريّة والمنهج

ترجمة

د. شوقي بوعناني

مراجعة

محمد المومني

هيئة البحرين
للثقافة والآثار

تحليل الخِطاب: النظريّة والمنهج
ماريان يورغنسن ولويز فيليبس
ترجمة شوقي بوعناني
مراجعة محمد المومني

الطبعة الأولى: المنامة، 2019

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر، بالضرورة، عن وجهة نظر تتبنّاها هيئة البحرين للثقافة والآثار»

Marianne Jørgensen and Louise Phillips
Discourse Analysis
as Theory and Method







هيئة البحرين للثقافة والآثار
Bahrain Authority for Culture & Antiquities

المنامة، مملكة البحرين، ص.ب.: 2199
هاتف: 298777 17 973+ ـ فاكس: 293873 17 973+
e-mail: info@culture.gov.bh - www.culture.gov.bh

توزيع: منتدى المعارف
بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص. ب.: 113-7494 حمرا ـ بيروت 2030 1103 لبنان
e-mail: info@almaarefforum.com.lb

طُبع في: مطبعة كركي، بيروت، e-mail: print@karaky.com

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: 516/ د.ع./ 2018
رقم الناشر الدولي: ISBN 978-99958-4-100-3

المحتويات

تمهيد

تتمثل وظيفة التمهيد في تنزيل النص ضمن سياق أوسع، فهو يطلع القارئ على الظروف المتعلّقة بخروج الكتاب إلى الوجود والطريقة التي ينبغي أن يُقرأ بها، ذلك أن استعمال المفاهيم التي سنطبقها لاحقًا في الكتاب يتطلب الإحاطة بملابسات إنتاج الكتاب وكيفية استعماله، إذ يمكن التمهيد من المراوحة بين ما هو فردي وما هو جماعي في النص. ونحن ندرك -باعتبارنا مؤلفين- أننا لسنا المنشئين الحصريين للكتاب، بل النص مدينٌ لنصوص أخرى ونقاشات مع أشخاص آخرين، وما إن يُخرج المؤلفون نصوصهم بنشرها، حتى يتخلوا كذلك عن سيطرتهم عليها. وقد يكتشف القراء في النص رسائل مخالفة تمامًا لتلك التي توقعها المؤلف.

يوفر التمهيد، وهو يسعى إلى ترويض القراء الجامحين، مبادئَ توجه قراءة النص. ومن خلال الإعلان عن مقاصد الكتاب، يطمح المؤلفون إلى التقليص من احتمالات التأويلات البديلة لدى القراء. ويتمثل غرض هذا الكتاب في توفير مدخل لحقل واسع متعدد التخصصات هو التحليل البنائي الاجتماعي للخِطاب. ونقوم في الكتاب بعرض مجال هذا الحقل من خلال تقديم ثلاث مقاربات

مختلفة لتحليل الخِطاب ومناقشتها: نظرية لاكلاو (Ernesto Laclau) وموف (Mouffe) في الخِطاب، والتحليل النقدي للخِطاب، وعلم نفس الخِطاب. ونحن نهدف إلى إبراز السمات النظرية والمنهجية المميزة لكل مقاربة، ونطمح من خلال عرض عدد مهم من الأمثلة الاختبارية إلى توفير ما يلهم دراسات جديدة في تحليل الخِطاب. وبالإضافة إلى ما سبق، فإننا نسعى من خلال تحديد الفرضيات الفلسفية المشتركة بين كل صور التحليل الاجتماعي البنائي للخِطاب ومناقشتها، إلى تيسير خريطة الأطر البحثية التي تعتمد أكثر من مقاربة من هذه المقاربات.

من البدهي أنه لا تمكن الإحاطة بكل هذه المسائل إحاطةً كاملة في كتاب واحد مفرد، لذا اكتفينا بالتطرق إلى بعض النقاشات على نحو موجز فحسب، وقمنا بتلخيص النظريات. ولا تمثل الأدوات المنهجية التي قدمناها إلا مجموعة صغيرة منتخبة من الإمكانات التي توفرها كل مقاربة. بهذا المعنى، فإن الكتاب ينبغي أن يُقرأ على أنه نوع من الدوافع التي تحث القارئ على مزيد من الاستكشاف لهذا الحقل المتعلق بتحليل الخِطاب.

بعد أن ناقشنا احتمالات دلالة النص وهو في طريقه إلى القارئ، فإن من مهام التمهيد كذلك أن يتضمن الاعتراف بالجميل، فبدايات هذا الكتاب كانت في قسم الاتصال في جامعة روسكيلد بالدانمارك (Department of Communication at the University of Roskilde in Denmark)، ونود أن نتوجه بجزيل الشكر إلى القسم

لما لقيناه من دعم في كل مراحل هذا المشروع. ومنذ أن ظهرت الصيغة الأولى للنص لم يبخل كثيرون بتخصيص الوقت الكافي لقراءته ومناقشتنا فيه وإبداء تعليقاتهم عليه وتقديم اقتراحاتهم حوله في شكله ومحتواه. فنحن مدينون لكل هؤلاء الناس. كما ساهم الطلبة في مختلف الأقسام التي درّسنا فيها تحليل الخِطاب بكثافة بتعليقات خاصة على النص، ومن خلال نقاشات عامة تناولت قضايا تحليل الخِطاب. وفي الوقت ذاته كان زملاؤنا وعائلاتنا وأصدقاؤنا كذلك خير محفز وداعم لنا، وهو ما ترك في هذا النص بصمة نقدرها تقديرًا عاليًا.

وعلى الرغم من أن كل هؤلاء الناس يسكنون عقولنا وقلوبنا، فإننا لن نذكر أغلبهم في هذا التمهيد ونقتصر هنا على الإشارة إلى عدد قليل من الذين مدوا لنا يد المساعدة ممن واكبوا المرحلة النهائية لهذا العمل، فقد قدم المجلس الدانماركي للبحوث في العلوم الاجتماعية دعمًا ماليًّا لإعداد مخطوط هذا العمل باللغة الإنكليزية. وقد قام إبي كليتغارد (Ebbe Klitgård) ولورا ترويابور (Laura Trojaborg) بإعداد المسودة الأولى للترجمة التي اعتمدت عليها طبعة الكتاب باللغة الدانماركية. وقد أنفق ألفريد فيليبس (Alfred Phillips) أسابيع في ترجمة النص، وأبدى كل من إريك بارغرين (Erik Berggren) وليلي تشولياراكي (Lilie Chouliaraki) وتوربن ديربرغ (Torben Dyrberg) ونورمان فركلاف (Norman Fairclough) وهنريك لارسن (Henrik Larsen) وشانتال موف (Chantal Mouffe) تعليقات قيمة على مسودات شبه نهائية لفصول مفردة.

ولم نكن قادرين على الأخذ بكل الأفكار الجيدة التي قُدمت لنا طوال الطريق والمتعلقة بكيفية تطوير النص وتوسيعه، لكننا ضمّناه العديد من الاقتراحات، وقد مثلت النقاشات التي أجريناها مع الناس حافزًا لنا لإعادة كتابة النص وتدقيقه. ولولا النقاشات التي أجريناها مع شركائنا ما كان للكتاب أن يخرج على الصورة التي هو عليها.

في هذا التمهيد أسندت كتابة النص إلى عمليات متضافرة ترك فيها عدد كبير من الناس بصماتهم. وقد يبدو الأمر كما لو أن المؤلفتين نفسيهما لم تقوما بشيء، ولكن الملاحظةِ التقليدية الختامية التي تقضي بأن المؤلف يتحمّل المسؤولية كاملةً عن أي أخطاء أو هفوات في النص، تمكّنهما من المطالبة، بشيء من التواضع، باستعادة مقدار من سلطتهما باعتبارهما مؤلفتين.

بذلك نكون بهذا التمهيد قد حاولنا أن نبسط سيطرتنا على النص، وما تبقى فهو الآن بين أيديكم.

ماريان و. يورغنسن ولويز ج. فيليبس

شكر وعرفان

نحن ممتنون لجامعة شيفيلد هالام (Sheffield Hallam University) وجامعة نيوكاسل أبون تاين (The University of Newcastle upon Tyne) في حصولنا على إذنهما باستنساخ الإعلانات التي ظهرت في ملحق التايمز للتعليم العالي (*Times Higher Education Supplement*) يوم 22 أيار/ مايو 1992.

1- حقل تحليل الخِطاب

منذ عشر سنين في الأقل، أصبح مصطلح «الخِطاب» متداولًا، وهو يستعمل على نحو عشوائي في النصوص والنقاشات العلمية من دون أن يتمّ تعريفه غالبًا. وقد أصبح المفهوم ملتبسًا، فإما أنه لا يعني شيئًا تقريبًا، وإما أنه يستعمل بمعانٍ أكثر دقة ولكن مختلفة اختلافًا ما، في سياقات متنوعة. ولكن تكمن خلف كلمة «خِطاب» في حالات عديدة الفكرة العامة المتمثلة في أن اللغة مُهَيْكَلَة (structured) بحسب أنماط مختلفة تخضع لها الأقوال البشرية عند المشاركة في مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة، ومن الأمثلة المألوفة على ذلك «الخِطاب الطبي» و«الخِطاب السياسي». إن تحليل الخِطاب هو تحليل لتلك الأنماط.

غير أن هذا التعريف الشائع لا يساعد كثيرًا في توضيح ماهية الخِطابات، أو كيفية اشتغالها، أو كيفية تحليلها، وهنا يتعين البحث عن نظريات ومناهج في تحليل الخِطاب أكثر تطورًا. وخلال البحث، سرعان ما يدرك المرء أن تحليل الخِطاب ليس مقاربةً واحدة، ولكنه سلسلة من المقاربات متداخلة الاختصاصات يمكن أن تستعمل في استقصاء عديد المجالات الاجتماعية المختلفة في أنواع عديدة ومختلفة من الدراسات. ولا يوجد إجماع واضح حول الخِطابات: ما هي؟ وكيف

نحللها؟ وتقدم منظورات مختلفة مقترحاتها الخاصة بها، وتتنافس على نحو ما لفرض تعريفاتها الخاصة بمصطلحي «الخِطاب» و«تحليل الخِطاب». أيًّا يكن، لنبدأ باقتراح تعريف أولي للخِطاب على أنه «طريقة مخصوصة للكلام على العالم (أو جانب من جوانبه) وفهمه».

سنقدم في هذا الفصل ثلاث مقاربات مختلفة للتحليل البنائي الاجتماعي للخِطاب: نظرية إرنستو لاكلاو وشانتال موف للخِطاب، والتحليل النقدي للخِطاب، وعلم نفس الخِطاب. وفي حين نقدم هذه المقاربات في الفصول الثلاثة التالية على نحو مستقل، تشترك كلها في منطلقاتها المتمثلة في أن طرائقنا في الكلام لا تعكس عالمنا وهوياتنا وعلاقاتنا الاجتماعية على نحو محايد، ولكنها فضلًا عن ذلك تنهض بدور فعال في إيجادها وتغييرها. وقد انتقينا هذه المقاربات من بين مجموعة متنوعة من المنظورات في تحليل الخِطاب على أساس اعتقاد لدينا بأنها تمثل نظريات ومناهج للبحث مثمرة للغاية في الاتصال والثقافة والمجتمع. فبالإمكان تطبيقها في تحليل مجالات اجتماعية متنوعة، بما في ذلك المنظمات والمؤسسات، وفي البحث في دور الاستعمال اللغوي في التطورات المجتمعية والثقافية الواسعة مثل العولمة وانتشار التواصل عبر وسائل الإعلام الجماهيرية.

لنضرب بعض الأمثلة على التطبيقات الممكنة لتحليل الخِطاب. قد يُتخذ تحليل الخطاب، على سبيل المثال، إطارًا لتحليل الهوية القومية. كيف يسعنا أن نفهم الهويات القومية؟ وما هي تبعات تقسيم العالم إلى دول قومية؟ يمكن انتخاب عدد كبير من الأشكال النصية

والكلامية المتنوعة لتحليلها، فقد نُركز مثلًا على البناء الخِطابي للهوية القومية في كتب التاريخ البريطاني، ويمكن المرء أن يختار بدلًا من ذلك البحث في أهمية الهوية القومية بالنسبة إلى التفاعل بين الناس في سياق تنظيمي ما، من قبيل مكان العمل. وقد يكون ثمة محور آخر من محاور البحث، هو الطرائق التي يتم بها نقل المعارف المختصة في وسائل الإعلام الجماهيري والآثار الناجمة عن ذلك بالنسبة إلى مسائل السلطة والديموقراطية. كيف تُبنى مزاعم المعرفة المختصة ويُتنازع فيها في وسائل الإعلام؟ وكيف «تُستهلك» مزاعم المعرفة المتنافسة من طرف جمهور وسائل الإعلام؟ إن الصراع بين مزاعم المعرفة المختلفة يمكن أن يُفهم ويُبحث فيه اختباريًّا على أنه صراع بين خِطابات مختلفة تمثل طرائق مختلفة في فهم جوانب من العالم، وفي بناء هويات مختلفة للمتكلمين (باعتبارهم «خبراء» أو «أشخاصًا عاديين»).

تشترك المقاربات الثلاث التي اخترنا التركيز عليها، باعتبارها أطرًا لتحليل الخِطاب، في بعض الفرضيات الأساس المتعلقة بالكيفية التي ينبغي أن تفهم بها كيانات من قبيل «اللغة» و«الذات»، وهي تشترك كذلك في الهدف المتمثل في إجراء بحث نقدي، ألا وهو دراسة علاقات السلطة في المجتمع وتحليلها وصياغة منظورات معيارية يمكن أن ينطلق منها نقد تلك العلاقات مع الاهتمام باحتمالات التغيير الاجتماعي. وفي الوقت ذاته، يتميز كل منظور بمجموعة من الفرضيات الفلسفية والنظرية تتضمن الأفهام المخصوصة للخِطاب والممارسة الاجتماعية والنقد، وهو ما يؤدي إلى أهداف ومناهج

ومراكز اهتمام اختبارية مخصوصة. إن الغرض من هذا الفصل التقديمي يتمثل في إبراز الحقل الذي تنتمي إليه المقاربات الاجتماعية البنائية في تحليل الخِطاب[1]. فاهتمامنا منصبٌّ على الأمرين معًا: على تلك الجوانب المشتركة بين كل تلك المقاربات، وعلى وجه الخصوص الجوانب المشتركة بين مقارباتنا الثلاث من ناحية، وعلى تلك الجوانب التي تفرق بين المقاربات من ناحية أخرى.

تتشابه المقاربات في ما بينها بنقطة الانطلاق الاجتماعية البنائية، ونظرتها للغة التي تنهل من اللسانيات البنيوية وما بعد البنيوية، وفهمها الفرد المؤسس على صيغة من صيغ الماركسية البنيوية. ونحن نعرض في هذا الفصل الأصول المشتركة والمصادر النظرية الملهمة، ونحاول خلال هذا الوصف أن نتطرق إلى سلسلة من المفاهيم -مثل «السلطة» و«الأيديولوجيا»- التي تصاحب مفهوم الخِطاب غالبًا.

وعلى الرغم من الفرضيات المشتركة، توجد فروق بين المقاربات: أولها أنه لا يوجد اتفاق بينها على نطاق الخِطابات: أهي تشكل الاجتماعي في كليته، أم هي ذاتها مُشَكلة جزئيًا من بعض الأبعاد الأخرى للاجتماعي؟ وثانيها أن المقاربات تتنوع أيضًا بالنظر

---

(1) على الرغم من أن هذا الحقل لا يغطي كل استعمالات العنوان المتمثل في «تحليل الخِطاب»، فإن مصطلح «تحليل الخِطاب» يستعمل في اللسانيات مثلاً للدلالة على تحليل العلاقات بين الجمل والعبارات في المستوى الجزئي (انظر مثلاً: Brown and Yule, 1983). كذلك استعمل تحليل الخِطاب للدلالة على تحليل الطرائق التي يستخدم بها الناس الخطاطات الذهنية في فهم السرد (van Dijk and Kintch, 1983).

إلى النقاط التي يركز فيها التحليل، فبعضهم يحلل خِطاب التفاعل الاجتماعي اليومي بين الناس، وبعضهم الآخر يفضل تحليل نماذج أكثر تجريدًا للخِطابات المتداولة في المجتمع. وسنفصل القول في نقاط الاختلاف هذه في نهاية هذا الفصل.

إن تقسيم الحقل إلى ثلاث مقاربات يوجد بينها نقاط تشابه واختلاف لا بد من أن يُفهم إلى حد ما على أنه بناء خاص بنا. فقد اخترنا المقاربات الثلاث، وارتأينا أن نخص كل واحدة منها بفصل مستقل، وارتأينا كذلك أن نخصص الفصل الخامس للمقارنة والمقابلة بينها، لتوفير مدخل واضح إلى حقل تحليل الخِطاب. ولا ينبغي أن يُنظر إلى هذا العرض على أنه وصف محايد أو انعكاس شفاف لهذا الحقل. وبالنظر إلى الاختيار الذي قمنا به، فقد غطينا ثلاث مقاربات فحسب من مجال تحليل الخِطاب البنائي الاجتماعي، مستثنين مثلًا المقاربة الفوكوية[2]. وفي ما يتصل بتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف بين المقاربات الثلاث، فإننا نقر بأن المقارنة بين المقاربات لم تكن عملية واضحة. فالمقاربات الثلاث تصدر عن تخصصات مختلفة ولها سماتها المميزة الخاصة بها. وفي الوقت ذاته، يتجاوز عدد كبير من محللي الخِطاب في عملهم الحدود بين التخصصات، كما توجد نقاط نظرية وأدوات منهجية عديدة لا يمكن أن تُنسب حصريًا إلى مقاربة بعينها.

---

(2) للاطلاع على عروض لأشكال التحليل الفوكوي [نسبة إلى ميشال فوكو] للخِطاب انظر مثلاً:

Howarth, 2000 and Mills, 1997.

حزمة كاملة

على الرغم من أن تحليل الخِطاب قابل للتطبيق في كل مجالات البحث، فهو غير قابل للاستعمال مع كل أنواع الأطر النظرية، وحتمًا لا يمكن اعتماده طريقةً في التحليل مقطوعة عن أسسها النظرية والمنهجية، فكل مقاربة نقدمها من مقاربات تحليل الخِطاب ليست مجرد طريقة في تحليل البيانات، ولكنها كل نظري ومنهجي، أي حزمة كاملة. وتتضمن الحزمة أولًا فرضيات فلسفية (أنطولوجية وإبستيمولوجية) تتعلق بدور اللغة في البناء الاجتماعي للعالم، وتتضمن ثانيًا نماذج نظرية (theoretical models)، وثالثًا قواعد إرشادية منهجية تتعلق بكيفية مقاربة مجال البحث، ورابعًا تقنيات محددة للتحليل. ففي تحليل الخِطاب تتداخل النظرية والمنهج ويكون على الباحثين أن يقبلوا بالفرضيات الفلسفية الأساس لكي يتمكنوا من اتخاذ تحليل الخِطاب منهجًا لهم في دراستهم الاختبارية.

ومن المهم أن نؤكد أنه بالرغم من أن الحزمة تشكل كلًّا متكاملًا، فإنه يمكن المرء أن يؤلف حزمته الخاصة بالجمع بين عناصر متأتية من منظورات مختلفة في تحليل الخِطاب، بل من منظورات مغايرة لتحليل الخِطاب إن كانت مناسبة. إن عملًا متعدد المنظورات من هذا القبيل لا يعتبر أمرًا جائزًا فحسب، بل هو يحظى بتقدير إيجابي في أغلب أشكال تحليل الخِطاب. وتتمثل وجهة النظر هنا في أن تعدد المنظورات يوفر أشكالًا متنوعة من المعرفة بالظاهرة بما يمكّنها مجتمعةً من إنتاج فهم أشمل. ويختلف العمل المتعدد المنظورات عن العمل الانتقائي القائم على خليط من المقاربات المتباينة من

دون تقدير جاد لعلاقة بعضها ببعض. ويتطلب تعدد المنظورات من المرء أن يوازن بين المقاربات، محددًا نمط المعرفة (الموضعية) التي يمكن أن تزوده بها كل مقاربة، ومعدلًا المقاربات في ضوء هذه الاعتبارات[3].

ولكي نبني إطارًا نظريًا منسجمًا، فإنه يجب علينا أن نكون متنبهين لوجوه الاختلاف والتشابه الفلسفية والنظرية والمنهجية بين المقاربات. ومن الواضح أن ذلك يتطلب نظرةً شاملة إلى الحقل. ويتمثل الغرض من عرض المنظورات الثلاثة خلال الفصول الثلاثة التالية في المساعدة على اكتساب هذه النظرة الشاملة من خلال تقديم السمات الأساس لثلاث مقاربات مهمة في تحليل الخِطاب، وكذلك الموضوعات الرئيسة للنقاشات الأكاديمية حول هذه السمات. إضافةً إلى ذلك، سنعمل على تقديم عدد كبير من المراجع والمقترحات لمزيد من القراءات.

فرضيات أساس

المقاربات الثلاث التي اخترنا التركيز عليها تتأسس جميعها على البنائية الاجتماعية (social constructionism)[4]. والبنائية

---

(3) انظر Kellner (1995) في دعوته إلى «دراسات ثقافية متعددة المنظورات». وانظر الفصل الخامس من هذا الكتاب لمناقشة تحليل الخِطاب متعدد المنظورات وتوضيحه.

(4) ما نسميه «بنائية اجتماعية» (social constructionism) في هذا النص يوسم في مواضع أخرى بـ(social constructivism) ونحن نستعمل مصطلح «بنائية اجتماعية» تجنبًا للخلط مع نظرية بياجيه البنائية. (انظر: Burr, 1995: 2).

الاجتماعية مصطلح جامع لعدد من النظريات الجديدة حول الثقافة والمجتمع[5]. وتعتبر مقاربة تحليل الخِطاب واحدة فقط من بين مقاربات بنائية اجتماعية عديدة، ولكنها واحدة من المقاربات المستعملة على نطاق واسع ضمن البنائية الاجتماعية[6]. إضافةً إلى ذلك، فإن كثيرين يستعملون مقاربات لها سمات مقاربات تحليل الخِطاب نفسها من دون أن ينسبوها إليها. وسنقدم أولًا لمحةً موجزة عن الفرضيات الفلسفية العامة التي تقوم عليها أغلب مقاربات تحليل الخِطاب، معتمدين العروض التي قدمها كل من فيفيان بار (Vivien Burr) (1995) وكينيث غرغن (Kenneth Gergen) (1985) للبنائية الاجتماعية. ثم سنركز على نحو خاص على الفرضيات التي تتبناها كل مقاربات تحليل الخِطاب حول اللغة والهوية.

وتحذر بار (1995: 2) من صعوبة تقديم وصف يسعى إلى تغطية كل المقاربات الاجتماعية البنائية، نظرًا إلى تشعبها وتنوعها. وعلى الرغم من ذلك، فإنها عددت في (1995: 2ـ5) أربع فرضيات تتقاسمها كل المقاربات الاجتماعية البنائية استنادًا إلى ما ذهب

---

(5) للاطلاع على نقاشات للأسس الفلسفية للبنائية الاجتماعية انظر مثلًا: Collin, 1997.

(6) تتجلى هيمنة تحليل الخِطاب في المقدمة التي وضعتها بار للبنائية الاجتماعية (Burr, 1995)، حيث تقتصر الأمثلة التي ضربتها للبحوث الاختبارية في كليتها على أشكال تحليل الخِطاب، على الرغم من تأكيدها أن البنائيين الاجتماعيين يستعملون أيضًا مقاربات أخرى.

إليه غرغن (1985). هذه الفرضيات تتبناها مقارباتنا الثلاث أيضًا. وهي كما يلي[7]:

• **مقاربة نقدية للمعرفة المسلّم بها**

ينبغي أن لا ننزل معرفتنا بالعالم منزلة الحقيقة الموضوعية. فليس بوسعنا أن ندرك الواقع إلا من خلال المقولات[*]، ومعرفتنا بالعالم وتمثيلاتنا إياه ليست انعكاسًا للواقع الخارجي، ولكنها نتاج طرائقنا في تصنيفه، أو هي، بمصطلحات تحليل الخِطاب، نتاج للخِطاب (Burr, 1995: 3; Gergen, 1985: 266-267). وسنزيد هذه الفرضية بيانًا في الصفحات من 28 إلى 35 التالية.

• **الخصوصية التاريخية والثقافية** (Burr, 1995: 3)

نحن أصلًا كائنات تاريخية وثقافية، ونظرتنا إلى العالم ومعرفتنا إياه هي «نتاج تبادل آراء تاريخيّة بين الناس» (Gergen, 1985: 267).

---

(7) نستند هنا إلى كل من بار (Burr, 1955) وغرغن (Gergen, 1985). ودراسة بار كما أشرنا تتأسس بدورها على دراسة غرغن.

(*) اخترنا ترجمة مصطلح category إلى «المقولة» كلما تعلق الأمر بلغة واصفة (metalanguage) ونقوم بترجمته إلى «الصنف» كلما تعلق الأمر بأشياء موصوفة في الخارج. وذلك لأن المصطلح الأجنبي يطلق على المفهومين معًا ويفهم منه بحسب السياق ما إذا كان المقصود هو المقولة أو الصنف. مثال ذلك أننا نتحدث في النحو العربي عن مقولات مثل الجنس والعدد والتعريف وهي مصطلحات تنتمي إلى لغة واصفة للغة، لكن إذا تحدثنا عن الجنس في الخارج، فإننا نتحدث عن أصناف من قبيل الرجل والمرأة لا عن مقولات. [الهوامش المشار إليها بنجمة (*) هي من وضع المترجم].

يترتب على ذلك أن الطرائق التي نفهم بها العالم ونمثله هي طرائق محددة وعرَضية تاريخيًا وثقافيًا. فنظرتنا إلى العالم وهوياتنا كان بالإمكان أن تكون مختلفة. وهي قابلة لأن تتغير بتغير الأزمنة. فهذه الرؤية التي تقتضي أن كل معرفة عَرَضِية تعبر عن موقف **مضاد للتأسيسانية** (anti-foundationalist) يقف على طرفي نقيض مع الرؤية التأسيسانية التي تقضي بأن المعرفة يمكن أن تقف على أرضية نظرية شمولية صلبة مفارِقة للأعمال البشرية العَرَضية. فالخِطاب شكل من أشكال الفعل الاجتماعي ينهض بدور في إنتاج العالَم الاجتماعي الذي يشمل المعرفة والهويات والعلاقات الاجتماعية، ومن خلال ذلك في الحفاظ على أنماط اجتماعية معينة. هذه الرؤية **مضادة للماهوية** (anti-essentialist): فكون العالم الاجتماعي مبنيًا اجتماعيًا وخِطابيًا فذلك يستلزم أن ليس له من خاصية معطاة سلفًا أو محددة بقيود خارجية، وأن الناس لا يملكون مجموعة من الخصائص أو الماهيات الثابتة والأصيلة.

- **الربط بين المعرفة والعمليات الاجتماعية**

إن طرقنا في فهم العالم تنشئها العمليات الاجتماعية وتحافظ عليها (Burr, 1995: 4; Gergen, 1985: 268). فالمعرفة تُوجد خلال التفاعل الاجتماعي الذي نبني من خلاله الحقائق المشتركة ونتنافس في ما هو صواب وما هو خطأ.

- **الربط بين المعرفة والفعل الاجتماعي**

ضمن رؤية مخصوصة للعالم، يغدو بعض أشكال الفعل طبيعيًا، وبعضها الآخر غير مُتَصَوَّر. فالأفهام الاجتماعية المختلفة للعالم تؤدي إلى

أفعال اجتماعية مختلفة، وبذلك يكون للبناء الاجتماعي للمعرفة والحقيقة تبعاتٌ اجتماعية (Burr, 1995: 5; Gergen, 1985: 268-269).

ويجادل بعض منتقدي البنائية الاجتماعية بأنه إذا اعتبرت كل معرفة وكل هُوية اجتماعية أمرًا عَرَضيًّا، فإنه يترتب على ذلك أن كل شيء في تغير مستمر، وأنه لا توجد قيود أو انتظام في الحياة الاجتماعية. يوجد قطعًا بعض المنظرين للبنائية الاجتماعية، أمثال كينيث غرغن وجان بودريار (Jean Baudrillard) ممن يتحتم تأويل [كتاباتهم] على هذا النحو. ولكن، على وجه العموم، فإننا نعتقد أن ذلك نوع من التصوير الكاريكاتوري للبنائية الاجتماعية، فأغلب البنائيين الاجتماعيين، بما في ذلك أتباع مقارباتنا الثلاث، ينظرون إلى الحقل الاجتماعي على أنه أكثر ارتباطًا بالقواعد وأكثر انتظامًا. فعلى الرغم من أن المعرفة والهويات تكون في الغالب عرضية من حيث المبدأ، فإنها تفتقر إلى المرونة نسبيًّا في وضعيات مخصوصة. وبعض الوضعيات المخصوصة تضرب قيودًا على الهويات التي يتبناها الفرد وعلى التعبيرات التي يمكن تقبلها على أنها مفيدة. وسنستأنف هذا النقاش في الفصل التالي الذي يتعلق بنظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف.

المقاربات الثلاث

إن للفرضيات الأساس للبنائية الاجتماعية جذورًا في نظرية ما بعد البنيوية الفرنسية وفي رفضها النظريات ذات النزعة الشمولية والكونية مثل الماركسية والتحليل النفسي. ولكن تسميتَي البنائية الاجتماعية وما بعد البنيوية كلتيْهما محلُّ جدال، ولا يوجد إجماع حول العلاقات

بينهما. ونحن نفهم البنائية الاجتماعية على أنها صنف أوسع لا يمثل ما بعد البنيوية إلا نوعًا من الأنواع المنضوية تحته. فكل مقارباتنا في تحليل الخِطاب تستند إلى النظرية اللغوية البنيوية وما بعد البنيوية، ولكن المقاربات تختلف في درجة انطباق صفة ما بعد البنيوية عليها.

إن نظريةَ الخِطاب لإرنستو لاكلاو وشانتال موف التي نقدمها في الفصل الثاني، هي أكثرُ النظريات ما بعد البنيوية «صفاءً» ضمن اختياراتنا. ومنطلق هذه النظرية يرجع إلى الفكرة ما بعد البنيوية القاضية بأن الخِطاب يبني العالَم الاجتماعي خلال الدلالة (meaning)(*)،

(*) مصطلح meaning له استعمالات متعددة في اللغة الإنكليزية تعبر عنها مصطلحات مختلفة في اللغة العربية، فهو يترجم بمصطلحات «الدلالة» و«المدلول» و«المعنى»، وما نتوخاه في ترجمة هذا الكتاب ما ضبطه علماء اللسانيات وتحليل الخِطاب من مفاهيم لهذه المصطلحات. والغالب على الدلالة ومشتقاتها، مثل الدال والمدلول، أنها تتعلق بمستوى من مستويات النظام اللغوي، هو المستوى الدلالي. أما مصطلح المعنى، فيشير إلى دلالة محددة مرتبطة بمقام معين وبمقصد معين للمتكلم في ذلك المقام، لذلك نحن نميز في ترجمتنا هذا المصطلح بين ما يحيل على المستوى الدلالي وما يحيل على المستوى التداولي، ونخص المستوى الأول بمصطلح الدلالة ونخص المستوى الثاني بمصطلح المعنى؛ والمعنى من معانيه في اللغة العربية الغرض والقصد، وهناك من يرى أن أصله اسم المفعول، من فعل عنى. وقد ميز التداوليون، مثل ديكرو، بين الدلالة والمعنى، معتبرين أن الجملة تكون لها دلالة باعتبارها وحدة نحوية شكلية، والقول يكون له معنى باعتباره وحدة إنجازية. وتحليل الخِطاب أقرب إلى التداولية، لأنه يعنى بالمعنى الاستعمالي أكثر من عنايته بالدلالة اللغوية إجمالًا، وإن كانت سياقات كثيرة في الكتاب تحيل على مقاربات للخِطاب تعتمد خلفية لسانية، خاصة تلك التي ترى أن الدلالة متغيرة لا يمكن تثبيتها. ففي هذه السياقات نستعمل مصطلحات الدلالة والمدلول ومشتقاتها. وفي السياقات التي تتناول الحديث عن معنى محدد سياقيًا ومقاميًا نستعمل مصطلح المعنى.

وأنه بالنظر إلى سمة عدم الاستقرار الأساس في اللغة، فإن لدلالة لا يمكن أبدًا تحديدها بصفة نهائية. فلا يوجد خِطاب يمثل كيانًا مغلقًا: فهو دائم التغير من خلال اتصاله بالخِطابات الأخرى، لذلك، فإن الكلمة المفتاح في هذه النظرية هي **الصراع الخِطابي**. فالخِطابات المختلفة -التي يمثل كل منها طرائق مخصوصة في الكلام على العالم الاجتماعي وفي فهمه- منخرطة في صراع متواصل لبسط سيطرتها، أي لتحديد معاني اللغات وفق طريقتها الخاصة. ويمكن أن تفهم السيطرة، إذًا، وبشكل موقَّت، على أنها هيمنة منظور واحد بعينه. ونحن نفصل القول في ذلك في الفصل الثاني.

والتحليل النقدي للخِطاب، الذي نناقشه في الفصل الثالث مركزين خاصةً على مقاربة نورمان فركلاف، يقيم أيضًا وزنًا كبيرًا للدور الفاعل للخِطاب في بناء العالم الاجتماعي. ولكن فركلاف يصر، على النقيض من لاكلاو وموف، على أن الخِطاب هو بُعد واحد بين أبعاد كثيرة لأي ممارسة اجتماعية. هذا التميز بين ما هو خِطاب وما ليس بخِطاب يمثل بقيةً من ماركسية تقليدية في نظرية فركلاف، تجعل التحليل النقدي للخِطاب أقل إيغالًا في ما بعد البنيوية من نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف.

يتمثل مجال مركزي من مجالات اهتمام تحليل فركلاف النقدي للخِطاب في دراسة **التغير**. فغالبًا ما يعتمد الاستعمال الملموس للغة على أبنية خِطابية سابقة كما يعتمد مستعملو اللغة على معان متحققة بالفعل. ويركز فركلاف اهتمامه في هذا الأمر من خلال مفهوم **التناصّ**، أي كيف يعتمد النص الفردي عناصر وخِطابات من نصوص أخرى.

إن الاستعمال الملموس للغة، بالجمع بين عناصر من خِطابات مختلفة، يمكِّن من تغيير الخِطابات الفردية وبذلك تغيير العالم الاجتماعي والثقافي أيضًا. فيمكن المرء، من خلال تحليل التناصّ، أن يدرس كلًّا من إعادة إنتاج الخِطابات على نحو لا تدرج فيه، أي عناصر جديدة فيها، والتغيير الذي يطرأ على الخِطاب من خلال التوليفات الجديدة فيه.

ويتقاسم **علم نفس الخِطاب**، وهو موضوع الفصل الرابع، مع التحليل النقدي للخِطاب التركيزَ ذا المنحى الاختباري على حالات محددة من الاستعمال اللغوي خلال التفاعل الاجتماعي. لكن غرض علماء نفس التخاطب لا يتمثل في تحليل التغييرات التي تطرأ على الخِطابات ضمن النطاق الاجتماعي الواسع، والتي يمكن التوصل إليها بالاعتماد على الاستعمال الملموس للغة، بمقدار ما يتمثل في دراسة كيفية استغلال الناس المرونة التي تتوافر عليها الخِطابات في بناء تمثيلات للعالم والهُويات وفي التفاوض حول تلك التمثيلات في أثناء التفاعل الكلامي وتحليل التبعات الاجتماعية لذلك الأمر. وبالرغم من الاختيار المعتمد في تسمية هذه المقاربة -بعلم نفس الخِطاب- فإن تركيزها الأساس ليس في الشروط النفسية الباطنية، ذلك أن علم نفس الخِطاب هو مقاربة من مقاربات علم النفس الاجتماعي طورت نوعًا من تحليل الخِطاب هدفُه استكشاف الطرائق التي يتم بها تشكيلُ أفكار الناس ومشاعرهم في ذواتهم وتحويلُها خلال التفاعل الاجتماعي، ويهدف أيضًا إلى إلقاءِ الضوءِ على دور هذه العمليات في إعادة الإنتاج والتغير الاجتماعيين والثقافيين.

ويعتمد عدد كبير من علماء نفس التخاطب صراحة النظرية ما بعد البنيوية، ولكن النتائج التي توصلوا إليها مختلفة عنها، كما هو الأمر مع لاكلاو وموف. إن التركيز في علم النفس التخاطبي ينصبّ على الأفراد باعتبارهم نتاجًا للخِطاب ومنتجين له في آن، في سياقات تفاعلية محددة، بينما تميل نظرية لاكلاو وموف للخِطاب إلى إظهار الأفراد باعتبارهم موضوعات للخِطاب فحسب.

وسنعمل خلال الفصلين الثالث والرابع، المخصصين تواليًا للتحليل النقدي للخِطاب وعلم النفس التخاطبي، على إبراز الأسس النظرية والقواعد الإرشادية المنهجية في تحليل الخِطاب، وسنعرض بعض الأمثلة الملموسة لتحليل الخِطاب في المدرستين كلتيهما، ولكنْ وقَعَ الاقتصار في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف على المبادئ المنهجية الخاصة بها وعلى أمثلة توضيحية. ولتدارك ذلك، قمنا باستخلاص مجموعة من أدوات التحليل من نظريتهما نعرضها في الفصل الثاني جنبًا إلى جنب مع أنموذج في التحليل يعتمد بعض تلك الأدوات. ويتمثل الغرض من عرض تلك الأمثلة والقواعد الإرشادية في الفصول الثلاثة في توفير نظرة ثاقبة حول كيفية تطبيق المقاربات المختلفة في تحليل الخِطاب خلال الأعمال الاختبارية. وسنعمل في كل فصل من الفصول على تعيين السمات المميزة لكل منظور، محددين في الوقت ذاته الجوانب المشتركة بين كل واحد منها والآخر، أو بين كل واحد منها والفصلين الآخرين. وسنعمل خلال كل ذلك على إبراز الروابط بين النظرية والمنهج. وسنقف في الفصل الخامس على نقاط الاختلاف النظرية والمنهجية بين المقاربات

وعلى نقاط التشابه بينها. وسنقارن بين المقاربات ونتفحص نقاط قوتها ونقاط ضعفها، ونشير إلى الطرائق التي يمكن أن تكمل بها كل واحدة منها بقية المقاربات. وسنطرح ختامًا بعض الأسئلة ذات الصلة بالمقاربات جميعها. كيف لنا أن نحدد الخِطاب؟ كيف لنا أن ننجز بحوثًا متعددة المنظورات بالجمع بين المقاربات المختلفة في تحليل الخِطاب والمقاربات المختلفة غير القائمة على تحليل الخِطاب؟ وكما فعلنا في الفصول الأخرى، فإننا سنقوم بعرض نماذج توضيحية لطرائق معالجة هذه المسائل في البحوث الاختبارية. ويعرض الفصل الختامي في الكتاب نقاشًا لطبيعة البحث النقدي داخل جدول البنائية الاجتماعية. وهنا نقوم بمناقشة مجموعة من المحاولات في التصدي للإشكال المتعلق بكيفية القيام ببحث نقدي مندرج ضمن الخط البنائي الاجتماعي، ونتولى تقويمها، مع التركيز على المواقف المختلفة إزاء مسألة النسبية ومنزلة الحقيقة والمعرفة[8].

من النظام اللغوي إلى الخِطاب

إضافةً إلى الفرضيات العامة للبنائية الاجتماعية، فإن كل مقاربات تحليل الخِطاب تلتقي في نظرتها إلى اللغة والموضوع. ولتوفير أساس مشترك للنقاشات التي ترد في الفصول القادمة،

---

(8) لقد تعاونا في كل فصول الكتاب وطورنا معًا عددًا من الأفكار والصياغات طوال الكتاب. ومع ذلك، فإن المسؤولية الأساس تلقى على النحو الآتي: على لويز فيليبس بالنسبة إلى الفصلين الثالث والرابع وعلى ماريان يورغنسن بالنسبة إلى الفصلين الثاني والسادس، وتتقاسم المؤلفتان المسؤولية سوية بالنسبة إلى الفصلين الأول والخامس.

فإننا نتولى الآن تقديم الرؤى المشتركة بين المقاربات تتلوها أهم نقاط الاختلاف.

تتخذ مقاربات تحليل الخِطاب ادعاءَ فلاسفة اللغة البنيويين وما بعد البنيويين، أن النفاذ إلى الواقع إنما يكون دائمًا من خلال اللغة، باعتبارها نقطةَ انطلاق لها. فبواسطة اللغة نبني تمثيلات للواقع هي ليست مجرد انعكاسات لواقع موجود سلفًا أبدًا، ولكنها تساهم في بناء الواقع. وذلك لا يعني أن الواقع لا وجود له في ذاته. فالدلالات والتمثيلات حقيقية. والأشياء المادية موجودة أيضًا، ولكنها لا تكتسب المعنى إلا من خلال الخِطاب.

لنضرب مثلًا على ذلك فيضان المياه على ضفتي نهر، فارتفاع منسوب المياه الذي يؤدي إلى الفيضان هو حدث يجري باستقلالية عما يفكر فيه الناس ويقولونه. كل الناس الموجودين في المكان الخطأ سيغرقون بصرف النظر عما يفكرون فيه أو يقولونه. وارتفاع منسوب المياه هو واقعة مادية، لكن إن حاول الناس إسناد معنى إليها فلن يكون ذلك خارج الخِطاب. وسيقوم معظمهم بإدراجها ضمن فئة «الظواهر الطبيعية»، لكنهم لن يقوموا بوصفها بالطريقة ذاتها، فبعضهم سيعتمد خِطاب الأرصاد الجوية، وسيعزو الارتفاع في منسوب المياه إلى هطول أمطار غزيرة على نحو غير معتاد. وسيقوم بعضهم الآخر بوصف الأمر معتمدين مصطلحات ظاهرة النينو(*)،

(*) ظاهرة النينو ظاهرة مناخية تتمثل في انتقال كتلة من المياه الدافئة في المحيط الهادئ وهو ما يتسبب في اضطرابات مناخية وأمطار غزيرة وتحدث عادة على سواحل أميركا اللاتينية وشرق القارة الأفريقية. انظر مدخل E.N.S.O. ضمن الموسوعة الكونية.

أو أنهم سيرون فيها واحدة من آثار «الاحتباس الحراري» العديدة في العالم. وسيرى فيها آخرون كذلك نتيجة «لسوء الإدارة السياسية»، مثل فشل الحكومة الوطنية في التخطيط لبناء السدود وتمويلها. وختامًا سيرى بعضهم فيها تجليًا لـلإرادة الإلهية، رادين ذلك إلى الغضب الإلهي على الخطايا التي يقترفها الناس في حياتهم اليومية، أو أنهم سيرون فيها علامة من علامات حلول معركة هرمجدون(*). فارتفاع منسوب المياه باعتباره حدثًا يتنزل في نقطة محددة من الزمن، يمكن إذًا أن يسند إليه معنى بالاعتماد على منظورات مختلفة أو خِطابات (يقع تأليفها أيضًا بطرائق مختلفة). والأهم من ذلك أن كل واحد من هذه الخِطابات المختلفة يقود إلى مسار مختلف من الفعل المحتمل والمناسب، مثل بناء السدود، أو تنظيم المعارضة السياسية للسياسات العالمية أو لسياسات الحكومة الوطنية، أو الاستعداد لمعركة هرمجدون الوشيكة. وبذلك، فإن إسناد الخِطابات إلى المعنى يقود إلى تشكيل العالم وتغييره.

اللغة إذًا ليست مجرد قناة يتم من خلالها إبلاغ المعلومات عن الحالات الذهنية الكامنة وعن السلوك أو عن الوقائع الحادثة في العالم. على النقيض من ذلك، هي «جهاز» يولد العالم الاجتماعي،

(*) هرمجدون في الكتاب المقدس معركة تشير إلى الحرب الأخيرة بين الحكم البشري والله، حيث يقود المسيح جيشًا من الملائكة لينتصر على أعداء الله، ويعتقد المسيحيون أن الله سيخوض هذه المعركة بالاعتماد على الزلازل والفيضانات والعواصف والأوبئة. انظر مثلًا الإصحاح السادس عشر من رؤيا يوحنا اللاهوتي.

ونتيجةً لذلك فهو يشكله. ويمتد الأمر أيضًا إلى تشكيل الهويات والعلاقات الاجتماعية. وهو ما يعني أن التغيرات في الخِطاب هي وسائل لتغيير العالم الاجتماعي. فالنضال في المستوى الخِطابي يساهم في التغيير وكذلك في إعادة إنتاج الواقع الاجتماعي.

إن فهم اللغة على أنها نظام لا يحدده الواقع الذي تحيل إليه نابع من اللسانيات البنيوية التي تَلَت في أعقاب الأفكار الرائدة لفردينان دو سوسير (Ferdinand de Saussure) في بدايات هذا القرن. وقد اعتبر سوسير أن العلامات تتكون من جانبين، شكل (دالّ) ومحتوى (مدلول)، وأن العلاقة بينهما اعتباطية (Saussure, 1960). فالمدلولات التي نسندها إلى الكلمات ليست كامنة فيها، بل هي ثمرة تواضع اجتماعي نربط به بعض المدلولات ببعض الأصوات. فالأصوات المكونة لكلمة «كلب» أو صورتها المكتوبة لا يربطها بصورة الكلب التي تظهر في أذهاننا عندما نسمع الكلمة أي رابط طبيعي، فأن نفهم ما يعنيه الآخرون عندما يقولون «كلب» فذلك يرجع إلى التواضع الاجتماعي الذي علمنا أن كلمة «كلب» تحيل إلى حيوان يمشي على أربع قوائم وينبح. وتتمثل إشارة سوسير في أن مدلولات العلامات المفردة تتحدد بعلاقتها ببقية العلامات: فالعلامة تكتسب قيمتها المخصوصة من اختلافها عن بقية العلامات. والكلمة «كلب» مختلفة عن الكلمة «قطة» وعن «فأر» وعن «حفرة» وعن «نقطة»، فكلمة «كلب» تمثل بذلك جزءًا من شبكة أو بنية من كلمات أخر تختلف عنها. ويتضح من كل ذلك بدقة أنه ليس من كلمة «كلب» نحصل على مدلولها.

قد رأى سوسير أنّ هذه البنية مؤسسة اجتماعية وأنها بالتالي متغيرة خلال الزمن. ويترتب على ذلك أن العلاقة بين اللغة والواقع هي أيضًا علاقة اعتباطية، وهي نقطة وقع تفصيلها بعد ذلك في النظريتين البنيوية وما بعد البنيوية. والعالَم لا يُحدد بنفسه الكلمات التي يتعين وصفه بها، مثال ذلك أن العلامة «كلب» ليست نتيجةً طبيعية لظاهرة مادية. فشكل العلامة يختلف من لغة إلى أخرى (مثال ذلك «chien» و«Hund»(*))، ويتغير محتوى العلامة كذلك في كل وضعية جديدة يقع استعمالها فيها (عندما يقال لشخص مثلًا، «أنت كلب»).

ودعا سوسير إلى جعل بنية العلامات موضوعَ علم اللسانيات. ويميز سوسير بين مستويين لغويين: هما **اللغة** و**الكلام**، فاللغة هي بنية اللغة، أي شبكة العلامات التي يمنح بعضها دلالة لبعضها الآخر، وهي ثابتة لا تتغير. و**الكلام**، من جهة أخرى، هو الاستعمال المقامي للغة، أي العلامات في حالة استعمالها الفعلي مِن الناس في مقامات معينة. فينبغي **للكلام** أن يعتمد دائمًا على **اللغة**، ذلك أنها هي بنية اللغة التي تجعل الأقوال المعينة ممكنة. وغالبًا ما يُنظر إلى **الكلام** في التقليد السوسيري على أنه عشوائي أفسدته أخطاء الناس وخصوصياتهم حتى إنه لم يعد صالحًا لأن يكون موضوعًا للبحث العلمي. وبذلك أصبحت **اللغةُ**، البنيةُ الكامنةُ الثابتةُ، موضوعَ اللسانيات الرئيس.

تتخذ ما بعد البنيوية من النظرية البنيوية منطلقًا لها ولكنها تُجري عليها تعديلات في نواحٍ مهمة. احتفظت ما بعد البنيوية

(*) كلمة (chien) هي المقابل لكلمة كلب في اللغة الفرنسية، وكلمة (Hund) هي المقابل لكلمة كلب في اللغة الألمانية.

من البنيوية بالفكرة المتمثلة في أن العلامات لا تستمدّ مدلولاتها من علاقاتها بالواقع ولكن من العلاقات الداخلية ضمن شبكة العلامات، وهي ترفض النظرة البنيوية للغة على أنها ثابتة لا تتغير، والتي تجعل من البنية كلًّا جامعًا، وهي تذيب الفصل الحاد بين اللغة والكلام.

نتوجه أولًا إلى النقد ما بعد البنيوي للبنية الثابتة غير المتحولة للغة. وكما أشرنا، في نظرية سوسير، فإن العلامات تكتسب مدلولاتها من خلال اختلافها عن العلامات الأخرى. وفي التقليد السوسيري، يمكن أن نتصور بنية اللغة كما لو كانت شبكة لصيد الأسماك تتخذ كل علامة موقعها منها باعتبارها واحدة من العقد في الشبكة. وعندما يقع بسط الشبكة، فإن موقع العقدة من الشبكة يتحدد بالمسافة التي تفصله عن بقية العقد في الشبكة، تمامًا كما تتحدد العلامة بالمسافة التي تفصلها عن بقية العلامات. ويستند جزء كبير من النظرية البنيوية إلى الفرضية التي تقتضي أن العلامات حبيسة العلاقات المخصوصة بينها: فلكل علامة موقعها الخاص على الشبكة ومدلولها الثابت. وقد انتقد البنيويون وما بعد البنيويين لاحقًا هذا التصور للغة، فهم لا يعتقدون أن للعلامات ذلك الموقع الثابت كما تقتضيه استعارة شبكة الصيد. ولا تزال العلامات تكتسب مدلولاتها في النظرية ما بعد البنيوية، من اختلافها عن بقية العلامات، ولكن تلك العلامات التي تختلف عنها يمكن أن تتغير بالنظر إلى السياق الذي تستعمل فيه (انظر: Laclau, 1993a: 433). فكلمة «عمل» مثلًا يمكن أن تكون في بعض الوضعيات، ضدًّا لكلمة «فراغ» بينما تكون، في سياقات أخرى، ضدًّا لكلمة «سلبية» (كما في «عمل

في الحديقة»). ولا يترتب على ذلك أن الكلمات منفتحة على كل الدلالات ـبما يجعل اللغة والتواصل متعذرينـ لكن يترتب عليه أن الكلمات لا يمكن قصرها على مدلول نهائي واحد أو أكثر من واحد. إن استعارة «شبكة الصيد» لن تعود صالحةً إذا لم نتمكن في النهاية من أن نحدد على الشبكة الموقع الذي يجب أن توضع فيه العلامة لتكون على علاقة بعلامات أخرى. وإذا بقينا مع استعارة «الشبكة»، فإننا نفضل أن نستعمل **الشبكة العالمية للمعلومات** باعتبارها نموذجًا، تكون فيه كل الروابط متصلة في ما بينها، ولكن الروابط تمكن إزالتها فتظهر روابط جديدة باستمرار وتغير البنية.

الأبنية توجد لكنها تكون دائمًا في وضع مؤقت وليس ثابتًا بالضرورة. لقد زود هذا الفهم ما بعد البنيوية بالوسائل التي مكنتها من حل إحدى المشاكل التقليدية في البنيوية، وهي مشكلة **التغير**. فمع التركيز الذي وُجد في البنيوية على البنية الكامنة والثابتة، يكون من المستحيل أن نفهم التغير، وأن نعرف من أين يأتي التغير؟ وقد أصبحت البنية ضمن ما بعد البنيوية قابلةً للتغيير وأصبح من الممكن أن تحول مدلولات العلامات علاقاتها فتنتقل من علامة إلى أخرى.

لكن ما الذي يجعل مدلولات العلامات تتغير؟ هذا ما يقودنا إلى ثاني الانتقادات الأساسية التي توجهت بها ما بعد البنيوية إلى البنيوية التقليدية، وهو المتعلق بالتمييز الأخير الصارم بين **اللغة والكلام**. وكما أشرنا، فإن **الكلام** لا يمكن أن يمثل موضوعًا للدراسة البنيوية لأن الاستعمال المتحقق للغة يعتبر على درجة من الاعتباطية لا تؤهله لأن يخبرنا شيئًا عن البنية، أي **اللغة**. على النقيض من ذلك، تعتقد

ما بعد البنيوية أنه في الاستعمال الملموس للغة تُنتجُ البنية، ويُعاد إنتاجها، وتتغير. ففي أعمال خِطاب مخصوصة (وفي الكتابة)، يعول الناس على البنية ـوإلا فإن الخِطاب لن يكون مفهومًاـ، ولكنهم أيضًا يتجاوزون البنية من خلال إدراج أفكار بديلة حول كيفية تحديد مدلول العلامات.

لا تنضوي كل مقاربات تحليل الخِطاب ضمن ما بعد البنيوية على نحو صريح، ولكنها تتفق جميعًا في النقاط الأساس التالية:

- اللغة ليست انعكاسًا لواقع موجود سلفًا.
- اللغة مُهيكَلة وفق أنماط أو خِطابات، فلا يوجد نظام عام واحد للدلالة كما هو الأمر في البنيوية السوسيرية، ولكن سلاسل من الأنظمة أو الخِطابات، تتغير فيها الدلالات من خِطاب إلى خِطاب.
- تتمّ المحافظة على هذه الأنماط الخِطابية وتحويلها في الممارسات الخِطابية.
- المحافظة على الأنماط وتحويلها يجب أن يدرسا إذًا من خلال تحليل السياقات المخصوصة التي تكون اللغة خلالها في طور العمل.

أركيولوجيا وجينيالوجيا فوكو

نهض ميشال فوكو (Michel Foucault) بدور مركزي في تطوير تحليل الخِطاب من خلال أعمالٍ نظريةٍ وبحوثٍ عمليةٍ في آن. لقد أصبحت شخصية فوكو موضع اقتباس وإحالة وتعليق وتعديل ونقد في كل مقاربات تحليل الخِطاب تقريبًا. فإذا كنا نتطرق أيضًا إلى

فوكو متعقبين مجالات مساهمته في تحليل الخِطاب، فإن ذلك لن يكون من باب احترام القواعد الضمنية للعبة فحسب، ولكن أيضًا لأن لكل مقارباتنا جذورًا في أفكار فوكو، وإن كانت ترفض بعض الأجزاء من نظريته.

تقسم أعمال فوكو تقليديًّا بين طور مبكر «أركيولوجي» وطور متأخر «جينيالوجي»، وعلى الرغم من التداخل بين الطورين، فقد واصل فوكو استعمال بعض الأدوات من أركيولوجياه في أعماله المتأخرة. وتمثل نظريته في تحليل الخِطاب جزءًا من أركيولوجياه. وما كان فوكو معنيًّا بدراسته على نحو أركيولوجي إنما هي القواعد التي تحدد الأقوال التي يقع تقبّلها على أنها دالّة وصحيحة في فترة تاريخية محددة. ويعرّف فوكو الخِطاب كما يلي:

> «سنسمي خِطابًا مجموعة من الأقوال بوصفها تنتمي إلى التكوين الخِطابي ذاته. [... والخِطاب] يتكون من عدد محدود من الأقوال، يمكن أن نعين لها مجموعة من شروط الوجود، فالخِطاب بهذا المعنى ليس شكلًا مثاليًّا متعاليًّا على الزمن [...] فهو في كل أجزائه تاريخي وهو جزء من التاريخ [...] وهو يطرح مشكلة حدوده الخاصة وانقطاعاته وتحولاته وصيغه الزمنية»(*) (Foucault, 1972: 117).

(*) استأنسنا في ترجمة هذا الشاهد بالنص الأصلي لميشال فوكو باللغة الفرنسية:

Michel Foucault, *L'Archéologie du savoir* (Paris: Gallimard, 1969), p. 153.

ويتمسك فوكو بالفرضية البنائية الاجتماعية العامة وهي أن المعرفة ليست مجرد انعكاس للواقع. فالحقيقة هي بناء خِطابي وأنساق المعرفة المختلفة هي التي تحدد ما هو صواب وما هو خطأ. ويتمثل هدف فوكو في دراسة بنية أنساق المعرفة المختلفة ـ أي، القواعد التي تحدد ما يمكن أن يقال وما لا يقال والقواعد التي تحدد ما يمكن أن يعتبر صوابًا أو يعتبر خطأً. وتتمثل نقطة الانطلاق في كوننا وعلى الرغم من امتلاكنا، من حيث المبدأ، عددًا غير محدود من الطرائق لصياغة الأقـوال، فإن الأقـوال التي يقع إنتاجها داخل مجال مخصوص تكون متشابهة ومتكررة إلى حد بعيد. وتوجد أقوال لا تحصى ولا تعد لم يتلفظ بها أحد، ولا يمكن أن تُقبل باعتبارها أقولًا دالّة. فالقواعد التاريخية للخِطاب المخصوص هي التي تحدد ما يمكن قوله[9].

تقتفي أغلب مقاربات تحليل الخِطاب المعاصرة تصور فوكو للخِطابات بأنها مجموعات من الأقوال تحكمها قواعد ثابتة نسبيًّا تفرض قيودًا تحدد ما يكون له معنى. وهي تعتمد أفكاره التي تعتبر الحقيقة، إلى حد كبير، صنعًا خِطابيًّا. ولكنها مع ذلك تنأى بنفسها عن توجّه فوكو القائم على تحديد نظام واحد للمعرفة في كل مرحلة تاريخية، وهي في المقابل تتعامل مع مشهد مليء بالصراعات توجد فيه الخِطابات المختلفة جنبًا إلى جنب أو تتنازع فيه الحق في تعريف الحقيقة.

(9) تشتمل أعمال فوكو الخاصة منذ مرحلة الحفريات في آن واحد، على عروض أكثر تجريدًا لنظريته ولأدواته المنهجية (مثلاً: Foucault, 1972) ولتحليلاته العملية (مثلاً: Foucault, 1973, 1977).

طور فوكو، في أعماله الجينيالوجية، نظرية في السلطة/ المعرفة. فبدلًا من التعامل مع الفواعل والأبنية باعتبارها مقولات أولية، يركز فوكو على السلطة. والسلطة في هذا الأمر تشاركُ الخِطاب في أنها لا ترجع إلى فواعل محددة مثل الأفراد أو الدولة أو مجموعات لها مصالح خاصة، وبدلًا من ذلك فإنها تتوزّع عبر ممارسات اجتماعية مختلفة. ولا ينبغي أن تُفهم السلطة بأنها قمعية على نحو مطلق، ولكن بأنها منتجة، فهي تشكل الخِطاب والمعرفة والهيئات والذوات:

«ما يجعل قبضة السلطة جيدة، وما يجعلها مقبولة، هو ببساطة أنها لا تجثم على صدورنا باعتبارها قوة رفض فحسب، ولكنها تخترق وتنتج أشياء وتثير لذة وتشكل معرفةً وتنتج خِطابًا. فلا بد من اعتبارها شبكة منتجةً تسري خلال كامل الجسم الاجتماعي، أكثر من كونها حالةً سلبية وظيفتها القمع» (Foucault, 1980: 119).

وبذلك، فإن السلطة توفر شروط الإمكان لما هو اجتماعي، إذ في كنف السلطة انبثق عالمنا الاجتماعي وتميزت الأشياء بعضها من بعض واكتسبت بذلك خصائصها الفردية وعلاقاتها في ما بينها. مثال ذلك، أن «الجريمة» وقع إنشاؤها على نحو تدريجي باعتبارها مجالًا له مؤسساته الخاصة (السجن مثلًا)، وذواته المخصوصة («المجرمون» مثلًا) وممارساته المخصوصة («إعادة الإدماج في المجتمع» مثلًا). ولطالما وقع الربط بين السلطة والمعرفة، فالسلطة والمعرفة تقتضي إحداهما الأخرى. يصعب مثلًا أن نتخيل النظام المعاصر للسجون من دون علم الإجرام (Foucault, 1977).

السلطة مسؤولة عن كليهما، إنشاء عالمنا الاجتماعي والطرائق المخصوصة التي تَشكل بها العالمُ والتي تُتيح لنا أن نتكلم عليه، مستبعدين طرائق أخرى بديلة من الكينونة والكلام. إن السلطة بذلك قوة منتِجة ومقيدة في آن واحد. وقد وقع تبني تصور فوكو للسلطة في نظرية الخِطاب للاكلاو وموف، وفي علم نفس الخِطاب، بينما يبدو التحليل النقدي للخِطاب أكثر ترددًا إزاءه. ونحن نناقش موقف التحليل النقدي للخِطاب في الفصل الثالث.

أما ما يتعلق **بالمعرفة**، فقد ترتب على الربط الذي أقامه فوكو بين السلطة والمعرفة ارتباط وثيق بين السلطة والخِطاب. فالخِطابات تساهم أساسًا في إنتاج الذوات التي هي ما نحن عليه، والأشياء التي نستطيع أن نعرف عنها أمورًا (بما في ذلك أنفسنا بما هي ذوات). وبالنسبة إلى كل المقاربات، فإن الانخراط في هذه الرؤية يؤدي إلى إشكالية البحث التالية: كيف يتشكل العالَم الاجتماعي، بما في ذلك ذواته وأشياؤه، في الخِطابات؟

كذلك كانت لمفهوم السلطة/ المعرفة لدى فوكو نتائج على مفهوم **الحقيقة**، إذ يزعم فوكو أنه يتعذر النفاذ إلى الحقيقة الكونية بما أنه يتعذر الكلام من موقع خارج الخِطاب. فلا مهرب من التمثيل. إن «آثار الحقيقة» تُوجد في الخِطاب. في المرحلة الأركيولوجية لدى فوكو، فُهمت «الحقيقة» على أنها نظام من الإجراءات لإنتاج الأقوال وتعديلها ونشرها. وقد قام في مرحلته الجينيالوجية بإيجاد رابط بين الحقيقة والسلطة بحجة أن الحقيقة جزء لا يتجزأ من أنظمة السلطة وهي من يقوم بإنتاجها. وبما أن الحقيقة لا تُدرك، فمن العبث أن

نتساءل إن كان أمر ما صادقًا أو كاذبًا. وبدلًا من ذلك، فإن التركيز يجب أن ينصب على كيفية إيجاد آثار الحقيقة في الخِطابات. فما ينبغي تحليله إنما هو العمليات الخِطابية التي يقع بها بناء الخِطابات على نحو يجعلها توحي بأنها تمثل صورًا للواقع صادقة أو كاذبة.

الذات

يرجع الفضل إلى فوكو كذلك في تزويد تحليل الخِطاب بنقطة الانطلاق في فهم الذات. وتتمثل رؤيته، كما أشرنا إليها سابقًا، في أن الذوات تُنشَأ في الخِطابات. وهو يحتج لذلك بأن «الخِطاب ليس هو التجلي، الذي يحدث على نحو مهيب، لذاتٍ مفكّرة عارفة متكلمة» (Foucault, 1972: 55). وكما هو الموقف الذي عبر عنه ستاينر كفايل (Steinar Kvale)، «لم تعد الذات تستعمل اللغة للتعبير عن ذاتها، بل اللغة هي ما يتكلم من خلال الشخص، لقد أصبحت الذات الفردية وسيطًا للثقافة وللغتها» (Kvale, 1992: 36).

هذا الفهم مختلف اختلافًا شديدًا عما استقر في الغرب من فهم للذات على أنها كيان مستقل ذو سيادة. وبحسب فوكو، فإن الذات فقدت مركزيتها. وهنا يبدو فوكو متأثرًا بمعلمه، لويس ألتوسير (Louis Althusser).

مقاربة ألتوسير البنيوية الماركسية تقيم ربطًا وثيقًا بين الذات والأيديولوجيا: فالفرد يغدو ذاتًا أيديولوجية عبر عملية نداء تستدعي فيها الخِطاباتُ الفرد باعتباره ذاتًا. وسنقوم أولًا بتحديد الخطوط العريضة لفهم ألتوسير للأيديولوجيا، ويلي ذلك فهمه للنداء. يعرّف

ألتوسير الأيديولوجيا بأنها نظام للتمثيلات يحجب العلاقات الحقيقية القائمة بيننا في المجتمع من خلال بناء علاقات خيالية بين الناس، وبينهم وبين التشكيل الاجتماعي (Althusser, 1971). وبذلك تكون الأيديولوجيا إدراكًا مشوهًا للعلاقات الاجتماعية الحقيقية. وبحسب ألتوسير، فإن الاجتماعي في كل أبعاده تتحكم به الأيديولوجيا التي تعمل من خلال «الجهاز القمعي للدولة» (مثل الشرطة) و«الجهاز القمعي للأيديولوجيا» (مثل وسائل الإعلام).

ويشير النداء إلى العملية التي تبني اللغة من خلالها موقعًا اجتماعيًّا للفرد وتجعل منه بذلك ذاتًا أيديولوجية:

> «إن «[الأنـا] ديولوجيا»(*) «تفعل» أو «تعمل» على نحو تقوم فيه «بانتـداب» ذوات من بين الأفـراد (تنتدبهم جميعًا)، أو تقوم «بتحويل» الأفراد إلى ذوات (تحولهم جميعًا) بواسطة هذه العملية الدقيقة جدًا التي سميتها النداء(**) والتي يمكن أن نتصورها من

(*) في ترجمة هذه الكلمة راعينا تصرف المترجمين بوضع معقوفتين حول الحرف [I] ([I]deology])، في إشارة إلى ضمير المتكلم في اللغة الإنكليزية، إلحاحًا على معنى اقتران الذات بالأيديولوجيا، وقد نحتنا لذلك كلمة من ضمير المتكلم والأيديولوجيا هي الأناديولوجيا. أما النص الأصلي لألتوسير فيستعمل كلمة أيديولوجيا كما هي. انظر مقاله ضمن موقع كلاسيكيات علم الاجتماع على الرابط التالي:

http://classiques.uqac.ca/contemporains/althusser_louis/ideologie_et_AIE/ideologie_et_AIE_texte.html.

(**) في النص الأصلي «nous appelons *l'interpellation*» وجاء هنا «I have called interpellation or hailing»، وهو ما يجعلنا نرجح أن المؤلفتين تعتمدان ترجمة تأويلية، وسنحاول الاعتماد في ترجمة نصوص ألتوسير على النص الأصلي ما وسعنا ذلك.

> خلال نمط المخاطبة البوليسي (أو غيره) المألوف جدًا واليومي: «يا، أنت هناك!» وإذا افترضنا أن المشهد النظري المتصور يجري في الطريق العام، فإن الشخص المنادى سيستدير ـ [...] وسيغدو ذاتًا». (Althusser, 1971: 174) (التشديد في النص الأصلي، مع حذف الهامش).

لنضرب مثالًا على ذلك مادة الإعلام العمومي حول الصحة في آخر حقبة الحداثة، فهي تستدعي القراء باعتبارهم مستهلكين يتحملون المسؤولية الشخصية في الحفاظ على أجسادهم عبر الاختيار السليم لنمط الحياة. وبقبولنا دور المخاطَبين بالنص، نكون قد أنزلنا أنفسنا منزلة الذات التي أنشأها النداء. وبهذا الصنيع نكون قد أعدنا إنتاج الأيديولوجيا الاستهلاكية واتخذنا موقع الذوات في ثقافة استهلاكية. وإذا اتخذنا دور الذات في ثقافة استهلاكية نكون قد قبلنا بصياغة بعض المشاكل على أنها مشاكل شخصية يتحمل الفرد مسؤولية حلها، بدل أن تكون مشاكل عامة تتطلب حلًّا جماعيًّا.

يفترض ألتوسير أننا نقبل دائمًا بمواقع الذات التي تُسند إلينا ونصبح بذلك ذواتٍ أيديولوجية، فلا توجد أي فرصة للمقاومة:

> «لقد بينت التجربة أن الإبلاغ العملي للنداء عبر وسائل الاتصال يكون بحيث لا يخطئ فيه النداءُ صاحبَه الموجه إليه أبدًا: فسواء أكان النداء لفظيًّا أم من خلال إطلاق صافرة، فإن الشخص

المنادى يعرف دائمًا أنه هو المقصود فعلًا بالنداء»(*)
(Althusser, 1971: 174)

وليس هذا، كما سنبينه في القسم التالي، إلا بعدًا واحدًا من أبعاد نظرية ألتوسير التي كانت موضوعًا لنقد شديد وجهَه إليها كثيرون ممن يعتمدون في أغلبهم مقاربات تحليل الخِطاب.

رفض الحتمية

كان لنظرية ألتوسير أثر كبير في البحوث التي تعتمد المقاربات الثقافية في دراسة الاتصال في السبعينيات من القرن العشرين. وكان البحث مركزًا على النصوص (أساسًا نصوص وسائل الإعلام)، لا على إنتاج النصوص أو تقبلها، بما أن الباحثين اعتبروا أن اشتغال النصوص وتأثيرها الأيديولوجي أمر مسلمٌ به. فوقع التعامل مع الدلالات كما لو أنها مكون غير ملتبس من مكونات النصوص وأن فهمها يحصل بطريقة سلبية من المتقبِّلين. وكانت الدراسات الثقافية ـ المتأثرة بشدة بألتوسير ـ تتأسس إلى حد كبير على الفكرة القائلة

(*) تعمد المؤلفتان هنا إلى استبدال interpellation بعبارة hailing ومشتقاتها التي تفيد النداء، على رغم أن الكلمة في الإنكليزية تفيد معنى النداء. وعبارة ألتوسير هي: «L'expérience montre que les télécommunications pratiques de l'interpellation sont telles, que l'interpellation ne rate pratiquement jamais son homme: appel verbal, ou coup de sifflet, l'interpellé reconnaît toujours que c'était bien lui qu'on interpellait.» ونحن نرجح أنهما لم تطّلعا على النص الأصلي في اللغة الفرنسية واكتفتا بترجمة إنكليزية تأويلية للنص الأصلي، ولذلك فإننا نعتمد ترجمة مصطلح Interpellation بالنداء ونغض الطرف عن كلمة hailing.

إن أيديولوجيا واحدة (الرأسمالية) هي المهيمنة على المجتمع، بما لا يدع مجالًا حقيقيًّا لمقاومة فعالة (أطروحة «الأيديولوجيا السائدة»).

لكن بدايةً من أواخر السبعينيات، تعرض منظور ألتوسير للنقد بطرائق عديدة. وقد طرح أولًا السؤال المتعلق بإمكانات المقاومة للرسائل الأيديولوجية التي تقدم للذات مسألة فاعلية الذات أو حرية الفعل. وقد بين فريق الإعلام بمركز الدراسات الثقافية المعاصرة ببرمنغهام، الذي يديره ستيوارت هول (Stuart Hall)، في هذا الصدد، تعقيد عملية تقبل وسائل الإعلام (Hall et al., 1980). وبحسب نظرية هول في «التشفير/ فك الشفرة»، فإن المتقبلين قادرون على تأويل الرسائل أو فك شفرتها بالاعتماد على شفرات مختلفة عن الشفرة المستعملة في النص (Hall, 1980). وقد تأسست النظرية من بين ما تأسست عليه على نظرية الهيمنة لدى غرامشي (Gramsci)، التي تعزو درجةً من الفاعلية إلى كل المجموعات الاجتماعية في إنتاج المعنى ومناقشته (Gramsci, 1991). ويوجد اليوم إجماع في الدراسات الثقافية والبحوث في التواصل وتحليل الخِطاب على أن فرضية الأيديولوجيا السائدة تقلل من قدرة الناس على مقاومة الأيديولوجيات. وقد يميل بعض المساهمات في الدراسات الاتصالية والثقافية إلى حد المبالغة في تقدير قدرة الناس على مقاومة الرسائل الإعلامية (انظر مثلًا نقدًا لهذا التوجه في Morley 1992)، ولكنْ غالبًا ما يأخذ محللو الخِطاب بعين الاعتبار دور السِّمات النصية في رسم الحدود لكيفية تأويل النص من متقبليه.

ثانيًا، ترفض مقاربات تحليل الخِطاب الثلاث المعروضة في كتابنا فهم الاجتماعي على أنه محكوم بأيديولوجيا شمولية واحدة. وتمامًا مثلما أنها تستبدل رؤية فوكو الأحادية لأنظمة المعرفة بمنوال أكثر تنوعًا تتنافس فيه خِطابات عديدة، فهي ترفض نظرية ألتوسير القائلة بأن كل الخِطابات تتحكم بها أيديولوجيا واحدة. ويترتب على ذلك أن الذوات لا تُستنطق من موقع الذات الواحدة: فالخِطابات المختلفة تُكسِب الذات مواقف مختلفة، وربما متناقضة، تصدر عنها في كلامها.

لقد طورت المقاربات المختلفة تصورات مختلفة للذات نناقشها في الفصول التالية. ولكن يمكن القول بصفة عامة إن كل المقاربات تنظر إلى الذات على أنها صنيعة خِطابات، وعلى أنها أزيحت بذلك عن المركز، فبناء الذوات هو المحور الرئيس للتحليل الاختباري. ومع ذلك، فإن المقاربات تختلف من ناحية درجة الاهتمام التي توليها «لحرية فعل» الذوات داخل الخِطاب، أي أنها تختلف في الموقف عند مناقشة العلاقة بين البنية والفاعل. وتحتذي نظرية الخِطاب للاكلاو وموف حذو فوكو إلى حد كبير، في إظهارها الفردَ في مظهر من تحدده الأبنية، في حين يتماشى التحليل النقدي للخِطاب وعلم نفس الخِطاب إلى حد أكبر مع الشعار الذي يرفعه رولان بارت (Roland Barthes) وهو أن الناس هم في آن واحد «سادة على اللغة وعبيد لها» (Barthes, 1982). ومن ثم، فإن المقاربتين الأخيرتين تؤكدان أن الناس يستخدمون الخِطابات باعتبارها موارد يُنشِئُونَ منها توليفات جديدة من الكلمات، والجمل

التي لم يتلفظ بها أحد من قبل، فمستعملو اللغة ينتخبون في أثناء الكلام عناصر من خِطابات مختلفة بالاعتماد على ما يقع من تواصل عبر وسائل الإعلام أو بين الأفراد. وهو ما تنتج عنه خِطابات جديدة مولدة. وخلال إنتاج الخِطابات الجديدة على هذا النحو يشغل الناس وظيفة المجددين في الخِطاب والثقافة. وقد عبر فركلاف عن الأمر باعتباره محللًا نقديًّا بالقول: «إن الأعمال الإبداعية الفردية تقيم على نحو تراكمي أنظمة للخِطاب أعيدت هيكلَتها» (1989: 172). ومع ذلك، حتى في هذه المقاربات التي تنزل ضمنها فاعليةُ الذات ودورُها منزلةً متقدمة، فإنه ينظر إلى الخِطابات على أنها أطر تحد من نطاق عمل الذات وإمكانات التجديد لديها. إن التحليل النقدي للخِطاب وعلم نفس الخِطاب يوفران كلاهما أساسًا نظريًّا ومنهجًا مخصوصًا لتحليل الممارسات الخِطابية النشطة التي يعمل مستعملو اللغة من خلالها في آن واحد كما لو كانوا يمثلون المنتَجَ الخِطابي والمنتِج - يعملون على إعادة إنتاج الخِطابات وتحويلها، ومن خلال ذلك على تحقيق التغيير الاجتماعي والثقافي.

تتمثل النقطة الثالثة والأخيرة المثيرة للجدل في نظرية ألتوسير في متصور الأيديولوجيا ذاته. فأغلب التصورات للأيديولوجيا، بما في ذلك تصور ألتوسير تفترض أن الوصول إلى الحقيقة المطلقة أمر ممكن، فالأيديولوجيا تشوه العلاقات الاجتماعية الحقيقية، وإذا حررنا أنفسنا من الأيديولوجيا فسيكون بوسعنا التوصل إليها وإلى الحقيقة. وكما نرى، فهذا النوع من الفهم يرفضه فوكو كليًّا. وبحسب فوكو، تُبنى الحقيقة والذوات والعلاقات بين الذوات في الخِطاب

ولا يوجد أي إمكان للحصول في ما وراء الخِطاب على حقيقة «أصدق»، لذا لا توجد لدى فوكو حاجة إلى متصور للأيديولوجيا. وقد تبنت نظرية لاكلاو وموف للخِطاب هذا الموقف، وتصورها للأيديولوجيا هو عمليًّا مفرغ. وفي المقابل، إن التحليل النقدي للخِطاب وعلم نفس الخِطاب لا يرفضان تمامًا التقليد الماركسي في هذه النقطة: فكلتا النظريتين مهتمتان بالآثار الأيديولوجية للممارسات الخِطابية. وفي حين تلتزمان رؤية فوكو إلى السلطة التي ترى أنها منتجة أكثر من كونها نوعًا من القهر المحض، فإنهما توليان أيضًا أهمية لأنماط الهيمنة، حيث يتم إخضاع فئة اجتماعية إلى فئة أخرى. وقد وقع الاحتفاظ بالفكرة القاضية ـعلى الأقل في تحليل فركلاف النقدي للخِطابـ بإمكان التمييز بين خِطابات أيديولوجية وخِطابات غير أيديولوجية، وبالتالي إبقاء الأمل في العثور على وسيلة للخروج من الأيديولوجيا، وهو أمل تجده نظرية لاكلاو وموف للخِطاب ساذجًا.

الفروق بين المقاربات

لا يمثل الاختلاف في طريقة تصور الأيديولوجيا إلا أحد الاختلافات بين المقاربات الثلاث. وسنسلط الضوء في القسم التالي على الاختلافات بين المقاربات بالنظر إلى دور الخِطاب في بناء العالم أولًا، وبؤرة التحليل ثانيًا. وفي كل من هذين الاعتبارين تظل مسألة الاختلافات مسألة درجة، وسنعمل على تنزيل المقاربات في علاقاتها في ما بينها ضمن مُسترسِلين هما اللذان نحيل عليهما في بقية الكتاب.

دور الخِطاب في تكوين العالم

في المقاربات الثلاث جميعها يمثل اشتغال الخِطاب ـالممارسة الخِطابيةـ ممارسةً اجتماعيةً تُشَكلُ العالم الاجتماعي. إن متصور «الممارسة الاجتماعية» يرى الأعمال من خلال منظور مزدوج: فمن جهة تكون الأعمال ملموسة وفردية ومرتبطة بالسياق، ولكن يكون لها، من الجهة الأخرى أيضًا، طابع مؤسسي وتكون متجذرة اجتماعيًّا، ولهذا فهي تميل إلى أن تكون لها أنماط من الانتظام. ويخصص تحليل فركلاف النقدي للخِطاب متصور الخِطاب للنص والكلام ولأنظمة سيميولوجية أخرى (مثل الإشارات والموضة)، وينأى به عن الأبعاد الأخرى للممارسة الاجتماعية. وينظر إلى الممارسة الخِطابية على أنها بُعد واحد من كل ممارسة اجتماعية أو لحظة ترتبط بعلاقة جدلية مع لحظات أخرى للممارسة الاجتماعية. وهذا يعني أن بعض أبعاد العالم الاجتماعي تشتغل وفق منطق مختلف عن منطق الخِطابات وأنها ينبغي أن تُدرس بأدوات مختلفة عن أدوات تحليل الخِطاب، فيمكن أن يتعلق الأمر على سبيل المثال بمنطق اقتصادي أو بمأسسة لأشكال مخصوصة للفعل الاجتماعي، فالممارسة الخِطابية تعيد إنتاج أبعاد أخرى للممارسة الاجتماعية أو تغيرها، تمامًا مثلما أن أبعادًا اجتماعية أخرى تصوغُ البعد الخِطابي. فالبعد الخِطابي وأبعاد الممارسة الاجتماعية الأخرى كلها تُكَون عالمنا.

ولا تميز مقاربة لاكلاو وموف النظرية للخِطاب بين الأبعاد الخِطابية وغير الخِطابية لما هو اجتماعي، فكل الممارسات ينظر

إليها حصرًا على أنها خِطابية. ولا يعني ذلك أنه لا يوجد شيء باستثناء النص والكلام، ولكنه يعني، على العكس من ذلك، أن الخِطاب في حد ذاته مادي، وأن الكيانات من قبيل الاقتصاد والبنية التحتية والمؤسسات هي أيضًا أجزاء من الخِطاب. وبذلك، فإنه لا توجد في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف أي علاقة جدلية بين الخِطاب وأي شيء آخر: فالخِطاب ذاته هو ما يُكون عالمنا بالكامل.

يمكن تجسيد هذا الاختلاف من خلال تنزيل المقاربات ضمن مسترسل (continuum). وضعنا فيه بعض المواقف الأخرى التي نحيل عليها في الكتاب بين قوسين. وفي الجانب الأيمن [من المسترسل] ينظر إلى الخِطاب على أنه مكون للاجتماعي على نحو كلي، بينما ينظر في الجانب الأيسر إلى الخِطابات على أنها مجرد انعكاسات لآليات اجتماعية أخرى.

إن صورة خطاطية من هذا النوع لا بد من أن تُقارَبَ بحذر، ذلك أن التعقيد الفعلي للنظريات يتجه إلى أن يقع اختزاله عندما توضع [النظريات] على خط واحد. وذلك واضح، مثلًا، بالنسبة إلى موضعة علم نفس الخِطاب. فقد وضعنا علم نفس الخِطاب قريبًا من الناحية اليسرى ضمن المسترسل، وإن كان يصعب في الواقع وضعه [في مكان محدد] بما أنه يزعم أن الخِطاب هو في آن واحد مكوِّن بالكامل ومندمج في الممارسات التاريخية والاجتماعية، وهذه ليست خِطابية بشكل كامل. أما المقاربات في أقصى يمين المسترسل

فلا تندرج ضمن تحليل الخِطاب. إن ادعى بعضهم، وهم كثيرًا ما يفعلون، أن الخِطاب مجرد إعادة إنتاج للممارسات الاجتماعية الأخرى بصفة آلية، من ذلك أن الخِطاب يتحدد كليًّا بشيء آخر مثل الاقتصاد، فلن تكون هناك فائدة من القيام بتحليل الخِطاب، ولا بد من أن يصرف الجهد، بدلًا من ذلك، إلى التحليل الاقتصادي مثلًا. وقد ارتأينا بذلك أن تكون المواقف الماركسية المختلفة في الجهة اليمنى من المسترسل وفقًا لمبدأ لا يعتبر منصفًا لها: لا المادية التاريخية ولا الماركسية الثقافية كما هو الأمر مع غرامشي وألتوسير، اعتمدتا «الخِطاب» أو «تحليل الخِطاب». فإدراجهما يقوم في آن على تأويل نظريتيهما واختزالهما، بل أكثر من ذلك، فإن كلًّا من غرامشي وألتوسير تركا مدى واسعًا لممارسات إنتاج المعنى، وهو ما يمكن تأوُّله على أنه بعد خِطابي. ولكنهما كليهما يريان الاقتصاد محددًا في «نهاية المطاف»، ولذلك انتهيا بعيدًا في أقصى اليمين.

الخطاب مكوِّن	العلاقات الجدلية	الخطاب مكوَّن
	التحليل النقدي للخطاب	
(المادية التاريخية) (غرامشي)	علم نفس الخطاب (ألتوسير) (فوكو)	نظرية الخطاب لدى لاكلاو وموف

الرسم 1.1 دور الخطاب في تكوين العالم

التركيز التحليلي

يركز بعض المقاربات على حقيقة أنّ الخِطابات يقع إنشاؤها وتغييرها خلال ممارسات الخِطاب اليومي، وهي تؤكد بالتالي الحاجة إلى تحليلات نظامية اختبارية لكلام الناس واللغة المكتوبة في وسائل الإعلام والمقابَلات البحثية مثلًا. وتبدو المقاربات الأخرى مهتمّة أكثر بالأنماط العامة والشاملة، وهي تهدف إلى رسم خريطة أكثر تجريدًا للخِطابات التي يقع تداولها في المجتمع في لحظة محددة من الزمن أو داخل مجال اجتماعي مخصوص.

ويمكن تمثيل هذه الاختلافات في مسترسل على النحو التّالي:

الخطاب المجرّد			الخطاب اليومي
نظرية الخطاب لدى لاكلاو وموف	التحليل النقدي للخطاب	علم نفس الخطاب	
	(فوكو)		

الرسم 2.1 التركيز التحليلي

في هذا المسترسل يقع التركيز على الفروق في الدرجة أكثر من الفروق النوعية. وبالرغم من أن تركيز علم نفس الخِطاب منصب على ممارسات الناس المعتادة، فإنه يستدعي باستمرار أبنية مجتمعية أشمل، يتوجه إليها الناس أو يغيرونها خلال الممارسة الخِطابية. وعلى الرغم من أن اهتمام نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف

منصب أكثر على الخِطابات الأكثر تجريدًا وغير «المشخصنة»، فإن الفكرة القاضية بأن الخِطابات يتم إنشاؤها والاحتفاظ بها وتحويلها خلال عدد ضخم من الممارسات المعتادة موجودة على نحو ضمني في النظرية.

لكن، في الوقت ذاته، تعكس المواقع المختلفة للمقاربات ضمن المسترسل، الاختلاف النظري في مواضع التركيز: فاهتمام علم نفس الخِطاب باستعمال الناس الفاعل والمبدع للخِطاب باعتباره موردًا لإنجاز أعمال اجتماعية في سياقات تفاعلية محددة أشد من نظرية لاكلاو وموف للخِطاب التي تهتم في المقابل، وعلى نحو أعم، بالكيفية التي يحد بها الخِطاب إمكانات الفعل لدينا.

دور المحلل

لا يتمثل غرض محلل الخِطاب في البحث في ما وراء الخِطاب لتحصيل ما يعنيه الناس حقيقةً عندما يتلفظون بهذا القول أو ذاك أو للكشف عن الحقيقة الكامنة خلف الخِطاب. إن نقطة الانطلاق تتمثل في أن الحقيقة لا يمكن إدراكها أبدًا خارج الخِطابات، وأن الخِطاب ذاته بذلك هو ما أصبح موضوعًا للتحليل. إن عمل البحث الأساس في تحليل الخِطاب لا يتمثل في بيان الإثباتات الصادقة حول العالم من الكاذبة في مادة البحث (على الرغم من إمكان القيام بتقويم نقدي في مرحلة لاحقة من التحليل)، بل إنه يجب على المحلل، بنقيض ذلك، أن يشتغل على ما وقع قوله أو كتابته فعلًا، مستكشفًا الأنماط داخل الإثباتات وعبرها، محددًا التبعات الاجتماعية للتمثيلات الخِطابية المختلفة للواقع.

خلال العمل على خِطابات قريبة من الذات ومألوفة جدًّا لديها يكون من الصعب معالجتها على أنها خِطابات، أي باعتبارها أنظمة دلالية مبنية اجتماعيًّا قابلة لأن تكون مختلفة. ونظرًا إلى أن المحللين يمثلون غالبًا جزءًا من الثقافة المدروسة، فإنهم يتقاسمون الكثير من المسلّمات والأفهام الشائعة المعبر عنها في مادة البحث. وإنما تكمن الصعوبة على وجه الدقَّة في الأفهام القائمة على الدلالات الشائعة التي ينبغي أن تُدرس: فالتحليل يركز على الكيفية التي يكون بها بعض الإثباتات مقبولًا باعتبارها صادقة أو «مُطبَّعة»، ولا تكون إثباتات أخرى كذلك. وتبعًا لذلك، فإنه من المجدي أن يحافظ المرء على مسافة من مادته، وأن ينزل نفسه مثلًا منزلة عالم الأنثروبولوجيا، إذ يدرس كونًا دلاليًّا أجنبيًّا بغاية الكشف عن الأشياء الدالّة فيه.

لكن المقترح المتمثل في أداء دور الأنثروبولوجي يُفترض أن ينظر إليه على أنه نقطة انطلاق مجدية لا على أنه جواب كامل عن المشكل المتعلق بدور الباحث. ولو أن المشروع البحثي كان مؤسسًا على منظور بنائي، فإن المشكل المتعلق بدور الباحث سيكون أعمق وسيتطلب معالجة عكسية. وإذا قبلنا أن «الحقيقة» تُنتجُ على نحو اجتماعي، وأن «الحقائق» هي وقائع يقع إنتاجها على نحو خِطابي وأن الذوات استبعدت من أن تكون في موقع المركز، فماذا سنصنع إزاء «الحقيقة» التي ننتجها باعتبارنا ذواتٍ باحثة؟ هذا المشكل هو مشكل جوهري في كل المقاربات البنائية الاجتماعية.

من بين المقاربات التي نقدمها، فإن صلة المشكل المتعلق بكيفية التعامل مع الطبيعة العارضة للحقيقة، أوثق بنظرية لاكلاو

وموف للخِطاب وبعلم نفس الخِطاب، والمقاربتان تحلان الإشكال بطريقتين مختلفتين. فقد وقع تجاهل المشكل على نطاق واسع من طرف لاكلاو وموف، فهما يقدمان نظريتهما وتحليلهما كما لو كانا أوصافًا موضوعية للعالم وآلياته. في المقابل يحاول علم نفس الخِطاب أن يأخذ بعين الاعتبار دور المحلل من خلال أشكال عديدة للانعكاس (انظر الفصلين 4 و6). وبالمقارنة مع نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف وعلم نفس الخِطاب، فإن المعضلة لا تبدو للوهلة الأولى ملحةً جدًّا في التحليل النقدي للخِطاب لدى فركلاف، لأنه يميز بين الخِطابات الأيديولوجية والخِطابات غير الأيديولوجية: فمن حيث المبدأ، يجب على الباحث أن يكون قادرًا على أن ينتج خِطابات غير أيديولوجية. لكن المشكل يظهر من جديد عند السؤال عن كيفية التمييز بين ما هو أيديولوجي وما هو غير ذلك، وعند السؤال عمن هو متحرر بما فيه الكفاية من البناء الخِطابي للعالم حتى يقيم هذا التمييز.

وإذا استعملنا عبارات الفلاسفة، فإن المشكل يبدو غير قابل للحل إذا قبلنا الفرضية المضادة للتأسيسانية التي تقوم عليها البنائية الاجتماعية، وهي أن الشرط الوحيد في كل معرفة أنها تمثيل واحد للعالم من بين تمثيلات أخرى عديدة ممكنة. إن الباحث غالبًا ما يتخذ موقفًا يتصل بالحقل المدروس، وهذا الموقف يتدخل في تحديد ما يمكنه أن يراه، وما يمكنه أن يقدمه كنتيجة. وتوجد دائمًا مواقف أخرى يبدو الواقع من خلالها مختلفًا. لكن هذا لا يعني أن كل نتائج البحوث متساوية من ناحية الجودة. وسنناقش في الفصل

الرابع، ومن منطلق اجتماعي بنائي، كيف أنه يمكن التحقق من صحة نتائج البحث وجعلها على مقدار كبير من الشفافية بالنسبة إلى القارئ. عمومًا، فإن اتساق النظرية يتطلب من محللي الخِطاب أن يعتبروا ويوضحوا مواقفهم المتصلة بالخِطابات المعيّنة التي تكون قيد البحث وأن يقوّموا النتائج المحتملة التي قد تترتب على مساهمتهم في الإنتاج الخِطابي لعالمنا.

النسبية الكامنة في البنائية الاجتماعية لا تعني أن المحللَ لا يمكن أن يكون نقديًّا. فكل مقارباتنا تعد نفسها نقدية، وسنناقش مطولًا في الفصل السادس كيف يتسنى لممارسة النقد الاجتماعي أن تكون ممكنة من دون أن ندعي طلب الحقيقة المطلقة.

بإيجاز، فإن موقفنا هو ذلك المتمثل في التطبيق الصارم للنظرية والمنهج اللذين يضفيان الشرعية على المعرفة التي وقع إنتاجها على نحو علمي. إنه بالنظر إلى العالم من خلال نظرية معينة يمكننا أن ننأى بأنفسنا عن بعض الأفهام المسلمَة وأن نُخضع المادة المتوافرة لدينا إلى أسئلة أخرى مختلفة عن تلك التي نكون قادرين على طرحها من المنظور السائد. يمكن النظر إلى الفصول الثلاثة التالية على أنها طرائق مختلفة لتحقيق هذا النأي، وفي الفصل السادس سنقوم بتنزيل النقاشات المتعلقة بالمعرفة العلمية والانعكاس والنقد ضمن سياق الحقل الأشمل للبنائية الاجتماعية.

2- نظرية لاكلاو وموف في الخِطاب

نعرض في هذا الفصل نظرية إرنستو لاكلاو وشانتال موف في الخِطاب (يقع اختصارها أحيانًا بنظرية الخِطاب). ونعتمد أساسًا على عملهما **الأساس الهيمنة والاستراتيجية الاشتراكية** (*Hegemony and Socialist Strategy*) (1985)، داعمين ذلك بعدد من النصوص التي كتبها لاكلاو منفردًا.

وتهدف نظرية الخِطاب إلى فهم الاجتماعي بما هو بناء خِطابي، من حيث المبدأ، حيث يمكن تحليل كل الظواهر الاجتماعية باستعمال أدوات تحليل الخِطاب. ونقوم أولًا بتقديم مقاربة نظرية الخِطاب للغة، ثم نوسع النظرية لتغطي المجال الاجتماعي بأكمله. ونظرًا إلى اتساع مجال اهتمامها، مثلت نظرية الخِطاب أساسًا نظريًا ملائمًا لمقاربات اجتماعية بنائية مختلفة لتحليل الخِطاب. ولكن منذ توجه نصوص لاكلاو وموف إلى تطوير النظرية، فإنهما لم يقوما بإدماج كثير من الأدوات العملية في تحليل الخِطاب ذي الوجهة النصية. ونتيجة لذلك، قد يكون من المفيد أن يدعما نظريتهما بمناهج مقتبسة من مقاربات أخرى لتحليل الخِطاب.

إن الفكرة العامة لنظرية الخِطاب هي أن الظواهر الاجتماعية لا تبلغ أبدًا نهايتها أو كمالها. إن الدلالة لا يمكن أن يقع تثبيتها

بصفة نهائية، وهذا ما يفتح الباب أمام أشكال الصراع الاجتماعي المتواصل حول تعريفات المجتمع والهوية، مع ما يترتب على ذلك من آثار اجتماعية. وتتمثل مهمة محلل الخِطاب في رسم مسار هذه الصراعات لكي يحدد المعنى في كل مستويات الاجتماعي.

طور لاكلاو وموف نظريتهما من خلال **تفكيك** أجزاء أخرى من النظرية. ومن خلال قراءتهما المتأنية لنظريات أخرى، نجدهما يؤكدان الكشف عن الفرضيات التي تعوزها الحجة وعن التناقضات الداخلية فيها. وعلى هذا النحو يتم الكشف عن المحتوى الأيديولوجي للنظريات الأخرى ويقع تحويل التناقضات التي تم تحديدها إلى أدوات لتعميق الأفكار. إن هذا المنهج التفكيكي، إضافةً إلى أسلوبهما في الكتابة، يجعل نظرية لاكلاو وموف صعبة المنال نوعًا ما، لكونهما يفترضان معرفة واسعة بالنظريات التي يعتمدان عليها.

إن عَرْضَنا نظرية الخِطاب في هذا الفصل يقدم مجموعة من المفاهيم الجديدة ويمنح محتوى جديدًا لتلك المألوفة في آن واحد.

نحو نظرية للخِطاب

لقد بنى لاكلاو وموف نظريتهما بالجمع بين تقليدين نظريين أساسيين وإجراء تغييرات عليهما: الماركسية والبنيوية. فالماركسية توفر نقطة انطلاق للتفكير في الاجتماعي والبنيوية توفر نظرية في الدلالة. وقد صهر لاكلاو وموف هذين التقليدين في نظرية ما بعد بنيوية واحدة يُفهم فيها المجال الاجتماعي بأكمله على أنه شبكة من

العمليات فيها تتكون الدلالة. وسنقوم بداية بعرض نظرياتهما في تكوين الدلالة وتصورهما «الخِطاب».

نعرض في الفصل الأول لسانيات سوسير البنيوية والنقد مابعد البنيوي للتقليد السوسيري. لقد اقترحنا أن الرؤية البنيوية للغة يمكن فهمها من خلال استعارة شبكة الصيد: فكل العلامات اللغوية يمكن النظر إليها على أنها عُقَدٌ ضمن شبكة، تكتسب مدلولاتها من خلال اختلاف بعضها عن بعضها الآخر، أي من خلال وضعها ضمن موقع معين في الشبكة. وكان الاعتراض ما بعد البنيوي يتمثل في عدم قابلية الدلالة للتثبيت بطريقة لا لبس فيها وبشكل نهائي. يوافق ما بعد البنيويين على أن العلامات تكتسب مدلولاتها من اختلافها عن العلامات الأخرى، لكننا ندرج العلامات خلال الاستعمال المتواصل للغة، في علاقات مختلفة تربط بعضها بالآخر بحيث تكتسب مدلولات جديدة. لذا، فإن استعمال اللغة هو ظاهرة اجتماعية: فمن خلال المواضعات والمفاوضات والنزاعات في السياقات الاجتماعية يقع تثبيت أبنية الدلالات والاعتراض عليها.

يأخذ لاكلاو وموف بعين الاعتبار النقد مابعد البنيوي للسانيات البنيوية، لكن البنيوية يمكن استعمالها لتقديم فكرة انطباعية عن الرسالة التي يريد لاكلاو وموف تبليغها. إن تكوين المعنى بما هو عملية اجتماعية يدور على تثبيت المعنى، كما لو أن بنية سوسيرية موجودة هناك. فنحن نسعى باستمرار إلى تثبيت مدلول العلامات من خلال إدراجها في علاقات محددة مع علامات أخرى. وبالعودة إلى المجاز، فإننا نحاول أن نمد شبكة الصيد بحيث يقع تقييد كل علامة بعلاقة محددة مع الأخريات. والمشروع مستحيل في النهاية لأن كل تثبيت ملموس

لمدلول العلامات يكون عَرَضيًّا، فهو ممكن، ولكنه ليس ضروريًّا. إنها بالضبط تلك المحاولات المستمرة التي لم تنجح قط نجاحًا كليًّا والتي تمثل نقطةَ النفاذ إلى تحليل الخِطاب. إن الهدف من تحليل الخِطاب يتمثل في رسم العمليات التي نتصارع فيها حول الطريقة التي يقع فيها تثبيت مدلول العلامات، والعمليات التي يصبح فيها بعض المدلولات التي وقع تثبيتها متواضعًا عليه كثيرًا إلى درجة اعتبارها طبيعية.

بوسعنا الآن ترجمة هذه الصورة الانطباعية للمفاهيم النظرية للاكلاو وموف:

«نسمي **تمفصلًا**(*) كل ممارسة تقيم علاقة بين عناصر بحيث يقع تحوير هويتها نتيجة لعملية التمفصل. وهذا الكل المُهيكَل الناشئ

(*) آثرنا ترجمة مصطلح Articulation بالتمفصل على الرغم من وجود ترجمات أخرى من قبيل التقطيع والتلفظ، ذلك أن مصطلح التمفصل يشير إلى العلاقة بين العناصر، خلافًا لبقية الترجمات، وقد أقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة صوغ تمفعل من مادة (ف، ص، ل) و(و، ض، ع) وقد كان لقراراته تلك أثر محمود في تطوير المصطلح العلمي في اللغة العربية، كما أشار محمد حسن عبد العزيز، انظر مقاله في مجلة **مجمع اللغة العربية بالقاهرة**: «جهود مجمع اللغة العربية بالقاهرة في تعريب المصطلح العلمي،» ج 68، ص 176ـ223. وصيغة تمفعل من الصيغ التي استدركها النحاة على سيبويه، وقد ذكر لها ابن جني ستة أمثلة في كتابه **الخصائص** هي تمسكن وتمدرع وتمنطق وتمندل وتمخرق وتمسلم (انظر: ابن جني، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار (المكتبة العلمية، القاهرة، 1952، ج1: 228). وقد استخرج شوقي ضيف أمثلة كثيرة لهذا الوزن من المعاجم القديمة مثل تمرأى وتمرفق وتمكحل، وأشار إلى اعتماد مجمع اللغة العربية هذه الصيغة سنة 1965 مستأنسًا بكلام ابن جني، وخلص إلى وجوب إضافة «صيغة تمفعل إلى أبنية الفعل الثلاثي المزيد في كتب التصريف واللغة» (انظر كتابه: **تيسيرات لغوية** (القاهرة: دار المعارف، 1990، ص 98ـ102).

من عملية التمفصل نسميه **خِطابًا**. ومنذ أن تظهر المواقع المتمايزة متمفصلةً داخل الخِطاب فإننا نسميها **لحظات**. وفي المقابل فإننا نسمي **عنصرًا** كل اختلاف غير متمفصل خِطابيًّا» (Laclau and Mouffe 1985: 105، التشديد في النص الأصلي).

يحدد لاكلاو وموف هنا أربعة مفاهيم مهمة نتناولها بالدرس في ما يلي. وخلال ذلك، لا بد من تقديم عدد من المفاهيم ذات الصلة: «المَعْقِد»(*)، و«حقل الخِطابية» و«الحاجز»[10].

لقد وقع فهم الخِطاب على أنه تثبيت للدلالة داخل مجال معين. وكل العلامات في الخِطاب هي **لحظات**. وهي العقد في الشبكة، وقع تثبيت مدلولاتها من خلال اختلاف بعضها عن الأخرى («تمايز المواقع»). ولنضرب مثلًا لذلك خِطابًا طبيًّا يقع فيه تمثيل الجسم والمرض والعلاج بطرائق مخصوصة[11]. إن كل البحوث الطبية تتعلق بتقسيم الجسم والمرض والعلاج إلى أجزاء ووصف العلاقات بين تلك الأجزاء بطريقة لا لبس فيها. ويُنظر إلى الجسم عادةً على أنه

(*) آثرنا ترجمة مصطلح nodal points بالمعقد، لأن المصطلح الأصلي يشير بكلمة nodal إلى العقدة ويشير بكلمة points إلى الموضع الذي يمثل نقطة التقاطع في العقدة، أو مركز العقدة، وقد بدا لنا لفظ معقد معبرًا عن المعنيين معًا، فهو يعبر بصيغته الصرفية عن مكان الانعقاد وبمادته اللغوية عن مفهوم العقدة.

(10) لشرح مفهوم الخِطاب والمفاهيم المتصلة به في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف، انظر كذلك:

Torfing, 1999: chap. 4 and Howarth, 2000: chap. 6.

(11) استلهمنا أمثلة الألم والصحة من Johannessen (1994).

منقسم إلى أجزاء ينبغي أن تُعامل منفصلة. ويُنظر إلى أسباب المرض عادةً على أنها موضعيَّة. وعلى سبيل المثال، فقد اعتُبر الالتهاب ناتجًا عن هجوم موضعي لكائنات حية دقيقة ينبغي القضاء عليها بالوسائل الطبية. فالخِطاب الطبي إذًا يبسط شبكة من الدلالات المترابطة ضمن مجال متصل بالجسم والمرض. بهذا المعنى يمكننا الحديث عن خِطاب: أي أن كل العلامات هي لحظات ضمن نظام ودلالة كل علامة تحددها علاقاتها بالعلامات الأخرى.

وقد وقع تكوين الخِطاب من خلال تثبيت جزئي للدلالة حول بعض **المعاقد** (Laclau and Mouffe, 1985: 112). إن المعقد هو علامة مميزة تنتظم حولها العلامات الأخرى، وتكتسب العلامات الأخرى مدلولاتها من علاقاتها بهذا المعقد. في الخِطابات الطبية، مثلًا، يكون «الجسم» معقِدًا تتراكب عليه مدلولات أخرى عديدة. فالعلامات من قبيل «العَرَض» و«النسيج» و«المبضع» تكتسب مدلولاتها من خلال ارتباطها «بالجسم» بطرائق مخصوصة. وتمثل «الديموقراطية» معقدًا في الخِطابات السياسية. ويمثل «الشعب» معقدًا في الخِطابات الوطنية.

أقيم الخِطاب باعتباره كلًّا وقع تثبيت كل علامة فيه على أنها لحظة، وذلك من خلال علاقاتها بالعلامات الأخرى (كما هو الأمر في شبكة الصيد). وحصل ذلك من خلال استبعاد كل الدلالات المحتملة الأخرى التي كان يمكن أن تقترن بها العلامات، أي: كل الطرائق الممكنة الأخرى التي كان يمكن العلامات أن تترابط من خلالها مع علامات أخرى، فالخِطاب بذلك هو اختزال

للاحتمالات، فهو محاولة لوقف انزلاق العلامات المرتبطة بعلاقات باتجاه علامات أخرى، وبالتالي إنشاء نظام موحد للدلالة. كل الاحتمالات التي يستبعدها الخِطاب يسميها لاكلاو وموف **حقل الخِطابية** (1985: 111). إن حقل الخِطابية خزان «لفائض الدلالة» الذي تنتجه عملية التمفصل ـ أي المدلولات التي تكون للعلامة، أو التي كانت لها، في خِطابات أخرى، ولكن تم استبعادها في خِطاب معين بغاية إنشاء وحدة للمعنى. مثال ذلك، الخِطاب الطبي الذي يتشكل من خلال استبعاد الخِطابات حول طرائق بديلة للعلاج ينظر فيها إلى الجسد، إلى حد كبير، على أنه وحدة كلية تخترقها الطاقة عبر مسارات مختلفة.

يمكننا في هذا الموضع أن نستبق الأمور من خلال نقد لنظرية الخِطاب نعود إليه في نهاية هذا الفصل. إن الخِطاب يتشكل غالبًا وهو على علاقة بما يقوم باستبعاده، من ذلك علاقته بحقل الخِطابية. ولكن لا يتضح دائمًا في نظرية الخِطاب إن كان حقلُ الخِطابية كتلةً غير مَبنيّة من كل أشكال تكوين الدلالة المحتملة، أم أنه مبنيّ في ذاته من خلال الخِطابات المتنافسة المعطاة. في الخِطاب الطبي مثلًا، لا تُعد كرة القدم موضوعًا للمحادثة، ولكن لا شيء يمنع العناصر من الخِطاب حول كرة القدم من أن تظهر في الخِطاب الطبي في نقطة معينة من الزمن. فهل يعني ذلك أن كرة القدم هي جزء من «حقل الخِطابية» الخاص بالخِطاب الطبي؟ أم أنها خِطابات حول العلاج البديل فحسب مثلًا، الذي يحتل إلى حد ما البقعة نفسها التي يحتلها الخِطاب الطبي ويشكل معه حقل الخِطابية الخاص

بالخِطاب الطبي؟ في نظرية لاكلاو وموف تنصهر الوضعيتان ضمن مفهوم حقل الخِطابية. ونحن نقترح فصلًا تحليليًّا بينهما. وبذلك يصبح حقل الخِطابية دالًّا على كل الأشكال الممكنة لتكوين الدلالة التي وقع استبعادها (كما هو الحال بالنسبة إلى كرة القدم في علاقتها بالخِطاب الطبي)، بينما يكون «نظام الخِطاب» ـوهو مفهوم مقتبس من التحليل النقدي للخِطاب لدى فركلاف ـ دالًّا على مجموعة محدودة من الخِطابات تتنازع البقعة نفسها (من ذلك مجال الصحة والمرض).

بالعودة إلى تعريفات لاكلاو وموف المفهومية، فإن حقل الخِطابية يفهم على أنه كل ما هو خارج الخِطاب، وكل ما يستبعده الخِطاب. ولكن ـعلى وجه التحديدـ، فإن الخِطاب يتعرض دائمًا إلى خطر تقويضه من طرف هذا الخارج، بسبب تشكله غالبًا بالنسبة إلى خارج. من ذلك أن وحدته الدلالية تكون معرضةً إلى خطر التمزق بسبب طرائق أخرى لتثبيت مدلولات العلامات. وهنا، يصبح مفهوم **العنصر** مفيدًا، فالعناصر هي العلامات التي لم يقع تثبيت مدلولاتها، أي العلامات التي يكون لها مدلولات محتملة عديدة (أي التي تكون **متعددة المدلولات**). وباستعمال هذا المفهوم، يمكننا الآن أن نعيد صياغة مفهوم الخِطاب: يعمل الخِطاب على تحويل العناصر إلى لحظات من خلال الحد من تعدد المدلولات فيها ليكون لها مدلول ثابت تمامًا. وبمصطلحات نظرية الخِطاب للاكلاو وموف، فإن الخِطاب يقيمُ **حاجزًا**، أي توقفًا مؤقتًا للتقلبات في مدلولات العلامات. لكن الحاجز ليس نهائيًّا: «**فالتحول من (العناصر) إلى**

(اللحظات) لا يكتمل أبدًا» (Laclau and Mouffe, 1985: 110).
إن الخِطاب لا يمكن أن يكون أبدًا مثبتًا بشكل كامل إلى درجة أنه لا يكون قابلًا للهدم والتغيير بواسطة تعدد المدلولات في حقل الخِطابية. مثال ذلك، أن التطور الذي حققه الوخز بالإبر أدى إلى تغيير الفهم الطبي السائد للجسد، بحيث أصبح يأخذ «شبكات الطاقة» بعين الاعتبار.

وبمصطلحات لاكلاو وموف، فإن «الجسد» هو عنصر، بحيث توجد طرائق كثيرة متنافسة لفهمه. وفي الخِطاب الطبي الغربي السائد، فإن الجسد يمكن اختزاله في لحظة من خلال تعريفه بطريقة محددة غير ملتبسة، وفي خِطاب العلاج البديل، يمكن تعريف الجسد بالمثل على نحو غير ملتبس، لكن بطريقة مختلفة عن الخِطاب الطبي. كذلك يتضمن الخِطاب المسيحي طريقة أخرى في فهم الجسد، تربطه بالعلامة المتمثلة في «الروح». إن كلمة «الجسد» إذًا، لا تعني الكثير في ذاتها، فلا بد من وضعها في علاقة بعلامات أخرى لكي يكون لها مدلول. وهذا يحدث خلال التمفصل. في الشاهد المذكور صفحة 60، يعرف لاكلاو وموف التمفصل بأنه كل ممارسة تنشئ علاقة بين العناصر بحيث تتغير هوية العناصر. فكلمة «الجسد» هي في ذاتها متعددة المدلولات وهويتها تتحدد بذلك من خلال ارتباطها بكلمات أخرى خلال تمفصل ما. مثال ذلك أن الملفوظ «الجسد والروح» يضع «الجسد» في خِطاب ديني، يقع فيه تقديم بعض مدلولات الكلمة إلى الواجهة وتجاهل أخرى.

أما الآن، وبعد أن حددنا «الجسد» على أنه في آن واحد مَعقِدٌ في الخِطاب الطبي وعلى أنه عنصرٌ، فإنه من المناسب أن نقدم توضيحًا موجزًا. المعاقد هي العلامات المميزة التي ينتظم حولها الخِطاب، لكن هذه العلامات فارغة في ذاتها. كما بيَّنا سابقًا، فعلامة «الجسد» لا تكتسب مدلولًا تفصيليًا إلا إذا وقع إدراجها في خِطاب معين. ولذلك، فإن علامة «الجسد» هي أيضًا عنصر. وفي الواقع، فإن نظرية الخِطاب تخصص مصطلحًا لتلك العناصر المنفتحة على نحو خاص على تحملات مختلفة للدلالة، وهو **الدوالّ المتغيرة** (Laclau, 1990: 28, 1993b : 287). الدوالّ المتغيرة هي العلامات التي تتنافس خِطاباتٌ عديدة على إكسابها معنى على طريقتها الخاصة بها. والمعاقد هي دوالّ متغيرة، لكن بينما يحيل مصطلح «معقد» على نقطة تبلور في خِطاب معين، فإن مصطلح «الدوالّ المتغيرة» ينتمي إلى الصراع الدائر بين الخِطابات المختلفة على تثبيت مدلول العلامات المهمة. وبهذا، فإن «الجسد» معقد في الخِطاب الطبي ودال متغير في الصراع بين الخِطاب الطبي وخِطابات العلاج البديل.

يمكن الآن أن نربط المصطلحات بعضها ببعض. يهدف الخِطاب إلى رفع اللبس من طريق تحويل العناصر إلى لحظات من خلال الحاجز. لكن الهدف لا يتحقق دائمًا بصفة تامة طالما أن احتمالات الدلالة التي يخرجها الخِطاب إلى حقل الخِطابية تهدد دائمًا بزعزعة ثبات الدلالة. لذلك، فإن كل اللحظات تحتمل تعدد الدلالة، وهو ما يعني أن اللحظات هي في الغالب عناصر محتملة. والتمفصلات

المخصوصة تعيد إنتاج الخِطابات الموجودة أو تتحداها من طريق تثبيت الدلالة بطرائق مخصوصة. ونظرًا إلى التعدد المحتمل الدائم للدلالة، فإن كل تعبير شفوي أو مكتوب (وحتى كل فعل اجتماعي، كما سنرى لاحقًا) هو أيضًا إلى حد ما، تمفصل أو تجديد، وعلى الرغم من أن التعبير يعتمد على عمليات التثبيت السابقة للدلالة -أي إنه يعتمد على الخِطابات التي تحولت فيها العلامات إلى لحظات- فإن التعبير ليس مجرد تكرار لشيء وقع إنشاؤه سابقًا بصفة مطلقة (Laclau and Mouffe, 1985: 113f). لذلك، فإن كل تعبير هو اختزال نشط لممكنات الدلالة، لأنه يضع العلامة في علاقة بعلامة أخرى في اتجاه واحد، فهو بالتالي يستبعد أشكالًا بديلة من الانتظام.

بذلك يمكن أن يفهم الخِطاب على أنه نوع من البنية بالمعنى السوسيري، أي تثبيت للعلامات في شبكة علاقية. ولكن على النقيض من التقليد السوسيري الذي تغطي فيه البنية كل العلامات في حاجز دائم، فإن الخِطاب لدى لاكلاو وموف لا يمكن أن يكون كلًا بالمعنى السوسيري، إذ إنه توجد دائمًا ممكنات أخرى للدلالة، تقوم في حالة تفعيلها ضمن تمفصلات معينة بتغيير بنية الخِطاب وتحويلها. بذلك فالخِطاب هو حاجز مؤقت: فهو يثبت الدلالة على نحو مخصوص، لكنه لا يفرض أن تكون الدلالة مثبتة دائمًا على ذلك النحو تمامًا. وفي مصطلحات لاكلاو وموف، فإن التمفصلات هي تدخلات عَرَضية في بقعة غير محددة. وهذا يعني أن التمفصلات تشكل أبنية الدلالة وتتدخل فيها باستمرار على نحو غير متوقع. إن الخِطابات أبنية غير مكتملة في البقعة نفسها غير المحددة التي

لا يمكن أبدًا أن تكون منظَّمة على نحو كامل. وبالتالي، فإنه سيوجد دائمًا مجال للصراع حول ما يجب أن تكون عليه بنية ما، وحول نوع الخِطابات التي ينبغي أن تسود، وحول كيفية إسناد المدلولات إلى العلامات المفردة.

لقد أدركنا الآن النقطة الأولى التي تمثل مدخلًا للتحليل الملموس للخِطاب. وتقترح علينا نظرية الخِطاب أن نركز على عبارات محددة بما هي تمفصلات: ما هي الدلالات الي تنشئها بوضع العناصر في علاقات مخصوصة بعضها مع بعض، وما هي ممكنات الدلالة التي تستبعدها؟ إن التمفصلات يمكن أن تدرس في علاقتها بالخِطابات من خلال طرح الأسئلة التالية. ما هو الخِطاب أو الخِطابات التي تعتمد عليها تمفصلات معينة، وما هي الخِطابات التي تعيد إنتاجها؟ أو بدلًا من ذلك، هل تقوم بتغيير خِطاب قائم وتحويله عبر إعادة تعريف بعض لحظاته؟ وبنقطة انطلاق للحصول على أجوبة عن هذه الأسئلة، فإن المعاقد في خِطابات معينة يمكن تعريفها: ما هي العلامات التي تمتلك وضعًا مميزًا، وكيف تم تعريفها بالاعتماد على علاقتها بعلامات أخرى في الخِطاب؟ وبما أننا قمنا بتعيين العلامات التي هي معاقد، سيكون بوسعنا أن ندرس كيف تقوم خِطابات أخرى بتعريف العلامات (الدوالّ المتغيرة) ذاتها بطرائق بديلة. وبعد فحص المحتويات المتنافس على إسنادها إلى الدوالّ المتغيرة، سيكون بوسعنا أن نبدأ في التعرّف إلى الصراعات الدائرة على الدلالة. بهذه الطريقة يمكننا أن نرسم تدرُّجيًا خريطة الهيكَلة الجزئية بواسطة الخِطابات لمجالات مخصوصة. أي ما هي

العلامات التي تمثل موضوعات للصراع على الدلالة بين خِطابات متنافسة (دوالّ متغيرة)، وما هي العلامات التي تمتلك مدلولات ثابتة نسبيًا ومسلم بها (لحظات)؟

على النقيض من سوسير الذي يرى في الكشف عن البنية غاية للعلم، فإن نظرية لاكلاو وموف في الخِطاب تهتم بتحليل كيفيّة وقوع تكوين البنية وتغييرها، وهي في شكل خِطابات. وهو ما يتحقق بالنظر في الكيفية التي تعيد بها التمفصلات إنتاج الخِطابات أو تستأنفها أو تحولها على نحو دائم. ولكي نواصل ضرب الأمثلة الطبية، فإن تحليلًا خاصًا يجب أن يدرس موضوع التنافس بين الخِطابين: الخِطاب الطبي السائد في الغرب وخِطاب العلاج البديل، كيف هو وأين ومتى، مثال ذلك تعريف الجسد، وكيف أن الخِطاب الطبي تحول في تمفصلات معينة، حتى إن أنواع العلاج البديل كالوخز بالإبر أصبح يحظى بمقبولية متزايدة داخل الخِطاب الطبي.

نقد الماركسية

في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف، لا تقتصر العمليات الخِطابية التي وصفناها سابقًا على ما نعده عادةً أنظمة علامية (اللغة في النصوص والأقوال، والتواصل البصري، وتقريبًا الموضة والمعمار)، بل هي تشمل كامل المجال الاجتماعي. إن نظرية الاجتماعي لدى لاكلاو وموف جزء لا يتجزأ إذًا من نظريتهما في الخِطاب. وقد تطورت نظريتهما للاجتماعي من خلال قراءة نقدية للنظرية الماركسية وهي التي نهتم بها الآن.

بادئ ذي بدء، سنرسم لوحة كاريكاتورية للمادية التاريخية[12]، فالمادية التاريخية التي جاء بها كارل ماركس، تميز بين قاعدة وبنية فوقية في وصفها للمجتمع، والظروف المادية، والاقتصاد، والأهم من ذلك، امتلاك وسائل الإنتاج، تنتمي إلى القاعدة، أما البنية الفوقية فتشمل الدولة، والنظام القانوني، والكنيسة، ووسائل الإعلام، والمدارس، وكل إنتاج للدلالة يُتَداول داخل المجتمع. ولكن السمة المركزية تتمثل في أن الاقتصاد هو المعطى الجوهري الذي بواسطته يقع تفسير كل شيء: والقاعدة تحدد البنية الفوقية، وبالتالي فالاقتصاد هو الذي يحدد ما يقوله الناس وما يفكرون به. وكذلك، فإن القاعدة هي التي تحفظ استمرارية التاريخ، لأن التحول يُفهم على أنه مسبَّب عن التحولات في الاقتصاد.

وتتميز قاعدة المجتمع الرأسمالي بكون أصحاب رؤوس الأموال يملكون منظومة الإنتاج، وبالتالي المنتجات التي يتم إنتاجها أيضًا. ولا يملك العمال إلا عملهم الذي يبيعونه لأصحاب رؤوس الأموال. وبذلك، فإنه يوجد في المجتمع الرأسمالي طبقتان تقف إحداهما في مواجهة الأخـرى، بمعنى أن أصحاب رأس المال يستغلون العمال. والسبب الذي يجعل العمال لا يتمردون على الفور هو أن وعيهم تشكله الأبنية الفوقية، التي تتحدد بدورها من خلال القاعدة. وهكذا، ترفد البنية الفوقية في النظام الرأسمالي الاقتصاد الرأسمالي من خلال إنتاج أيديولوجيا تضفي الشرعية على النظام. وبما أن وعي

---

(12) إن قراءة لاكلاو وموف لمختلف المنظّرين للماركسية أكثر دقةً من العرض الذي نقدمه في هذا المجال المحدود (Laclau and Mouffe, 1985: chaps. 1-2).

العمال تشكله الأيديولوجيا، فإنهم لا يستطيعون أن يدركوا مصالحهم الحقيقية من خلاله، إذ هم يعانون من «الوعي الزائف». والتحول إلى الاشتراكية ومنها إلى الشيوعية، بعد ذلك، إنما يحصل حين تدرك الطبقة العاملة مصالحها الحقيقية وتشارك في الثورة.

المشكل الرئيس في المادية التاريخية هو عدم وجود أي تفسير لهذا التحول في الوعي: كيف يمكن الطبقة العاملة أن تتعرف إلى مكانتها الحقيقية في المجتمع وإلى مصالحها الحقيقية إذا كان وعيها يتحدد من خلال الأيديولوجيا الرأسمالية؟ وقد حاول عدة مفكرين ماركسيين طوال القرن العشرين حل الإشكال من خلال التنبيه إلى ضرورة توافر المنوال على مكون سياسي[13]. فربما لم يكن الاقتصاد هو الذي يحدد بصفة كلية البنية الفوقية ووعي الناس، وربما كان المجال متاحًا للصراع السياسي على مستوى البنية الفوقية بما يؤثر في وعي الناس باتجاهات مختلفة. وبإدماج مكون سياسي ضمن منوال القاعدة/ البنية الفوقية، لن يعمل التحديد في اتجاه واحد فقط: ولن يصبح الاقتصاد هو المحدد لكل شيء آخر. فما يجري في البنية الفوقية يمكن الآن أن يعمل على نحو ارتدادي في القاعدة ويغيرَها. والسؤال التالي هو أين يمكننا أن نرسم الحد الفاصل بين الصراع السياسي والحتمية الاقتصادية: إلى أي حد يكون الاقتصاد محددًا وإلى أي حد يمكن ظواهر البنية الفوقية أن تعمل على نحو ارتدادي في القاعدة؟ وتنجم عن ذلك مسألة مهمة تتعلق بالطبقة الاجتماعية.

---

(13) انظر: (Laclau and Mouffe, 1985: chap. 1) حيث يعرض المؤلفان عددًا من مقترحات المنظّرين لحل المشكلة.

وبحسب المادية التاريخية يحتم الاقتصاد تقسيم المجتمع الرأسمالي إلى طبقتين موضوعيتين: الطبقة الحاكمة والطبقة العاملة، وهاتان الطبقتان موجودتان في الغالب، بالرغم من أن الناس لا يكونون بالضرورة واعين بوجودهما. ولكن إذا عمدنا إلى صياغة إشكالية للحتمية الاقتصادية، فلن يكون لدينا يقين من أن المجتمع يتكون من طبقتين، ومن هاتين الطبقتين بالذات تحديدًا، بل لن يكون لدينا يقين بأن الطبقات هي المجموعات المناسبة التي تنقسم إليها المجتمعات.

صاغ أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci)، وهو يمثل مصدر إلهام أساسًا بالنسبة إلى لاكلاو وموف، نظرية تهدف إلى حل هذا الإشكال[14]، فهو يخفف من وطأة الحتمية الاقتصادية ويرى أن موقع الطبقة الحاكمة من السلطة لا يمكن تفسيره من خلال أيديولوجيا يحددها الاقتصاد وحدها. وهو يطبق مفهوم **الهيمنة** لتفسير العمليات التي تتم في البنية الفوقية التي تنهض بدور في تكوين وعي الناس:

> «إن الهيمنة يمكن أن تفهم على نحو أفضل باعتبارها **تنظيم القبول** - أي العملية التي تُبنى من خلالها أشكال الوعي التابع من دون اللجوء إلى العنف أو الإكراه». (Barrett, 1991: 54، التشديد في النص الأصلي).

لتأمين الطبقات المهيمنة مواقعها، تضع [وسائل] العنف والقوة تحت سيطرتها. والأهم من ذلك أن تكوين المعنى هو وسيلة أساس

---

(14) انظر عرضًا لنظرية غرامشي واستعمال لاكلاو وموف لها ضمن:
(Laclau and Mouffe, 1985: chap. 2) and (Barrett, 1991: chap. 4).

لتحقيق الاستقرار في علاقات السلطة، فبفضل تكوين المعنى تمكن طبعنة علاقات السلطة وجزء كبير من المعاني الشائعة حتى لا تكون قابلة للشك فيها. مثال ذلك أنه خلال عملية بناء وطني لا بد للناس الذين ينتمون إلى قطاع جغرافي معين أن يبدأوا بالشعور بأنهم ينتمون إلى المجموعة نفسها ويقتسمون الظروف والمصالح ذاتها بصرف النظر عن الحدود بين الطبقات. إن الهيمنة في نظرية غرامشي هي عبارة عن التوافق الاجتماعي الذي يحجب المصالح الحقيقية للناس. وتتم عمليات الهيمنة في الأبنية الفوقية، وهي جزء من المجال السياسي، وثمرتها لا تتحدد بالاقتصاد على نحو مباشر، وبالتالي فإن العمليات الجارية في البنية الفوقية تفترض نوعًا من الاستقلالية وإمكان العمل على نحو ارتدادي في بنية القاعدة. وهو ما يعني كذلك، أنه من خلال تكوين المعنى في البنية الفوقية تمكن تعبئة الناس للثورة على الأوضاع القائمة، وهذا الرأي هو في تناقض حاد مع الصيغة التي أشرنا إليها سابقًا من المادية التاريخية. وكما سبق أن ذكرنا، فإن المادية التاريخية لا تستطيع أن تفسر من أين تأتي هذه المقاومة طالما أن وعي الناس تم تحديده كليًّا بالظروف الاقتصادية، أما مع غرامشي فإن الوعي يتحدد بدلًا من ذلك بعمليات الهيمنة في البنية الفوقية، ويكتسب وعي الناس مقدارًا من الاستقلالية بالنظر إلى الظروف الاقتصادية، وهو ما يتيح للناس إمكان التفكير في طرائق بديلة في تنظيم المجتمع، ولكن الظروف الاقتصادية -بحسب غرامشي- هي التي تتحكم دائمًا في ظواهر البنية الفوقية في نهاية المطاف، لذلك فالاقتصاد هو الذي يحدد المصالح الحقيقية للناس وانقسام المجتمع إلى طبقات.

إن نظرية غرامشي في الهيمنة تقتضي أن عمليات تكوين المعنى التي تتم على مستوى البنية الفوقية تستحق أن تدرس في ذاتها، خلافًا للمادية التاريخية، حيث تكون العمليات المهمة الوحيدة هي في الاقتصاد. هنا يمكننا أن نبدأ في تبين صلة ما مع نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف، وهي نظرية في تكوين المعنى. ومن خلال مفهوم الهيمنة لديه، يفتح غرامشي المجال السياسي، ولكنه يغلقه مرة أخرى عندما يعزو التقسيم الطبقي للمجتمع إلى الاقتصاد. والطبقات لدى غرامشي، كما في المادية التاريخية، هي مجموعات موضوعية ينتمي إليها الناس، سواء أدركوا ذلك أو لم يدركوه. ويضفي لاكلاو وموف على نظرية غرامشي نوعًا من الراديكالية من خلال إلغاء الموضوعية أو الماهوية التي لا تزال موجودة هنا. فبالنسبة إلى لاكلاو وموف، لا توجد قوانين موضوعية تقسم المجتمع إلى مجموعات مخصوصة، والمجموعات الموجودة هي التي يتم إنشاؤها في العمليات الخِطابية السياسية. ولا يعني ذلك أن لاكلاو وموف يقلبان منوال القاعدة/ البنية الفوقية للمادية التاريخية على رأسه ويدعيان أن الخِطابات هي التي تحدد الاقتصاد، ففي نظريتهما عن الاجتماعي يتجاوزان الماهوية الماركسية، من خلال الدمج بين هاتين المقولتين ـالقاعدة والبنية الفوقيةـ في مجال واحد تنتجه العمليات الخِطابية ذاتها.

نظرية الاجتماعي

مرة أخرى ننطلق من صورة انطباعية عن نظرية لاكلاو وموف قبل أن نعرف المفاهيم الخاصة بها. إن مفهوم «الخِطاب» لدى

لاكلاو وموف لا يشمل اللغة فحسب، بل كل الظواهر الاجتماعية. لقد تناولنا في موضع سابق النقطة المتمثلة في أن الخِطاب يحاول هيكَلة العلامات، كما لو أن كل العلامات تمتلك على الدوام معنى ثابتًا غير ملتبس ضمن بنية كلية. والمنطق ذاته ينطبق على كامل المجال الاجتماعي: فنحن نتصرف كما لو أن «الواقع» حولنا يمتلك بنية ثابتة غير ملتبسة، وكما لو أن المجتمع، أي المجموعات التي نتمي إليها، وهويتنا هي وقائع محددة على نحو موضوعي. ولكن كما أن بنية اللغة لا يمكن تثبيتها مطلقًا على نحو كلي، فالمجتمع والهوية كذلك هما كائنات مرنة متغيرة لا يمكن تثبيتها أبدًا على نحو نهائي. إن الغرض من التحليل، بالتالي، لا يتمثل في الكشف عن حقيقة موضوعية، بأن نعرف مثلًا ممّا يتكون مجتمع المجموعات «حقيقة»، ولكن أن نستكشف كيف يمكننا بناء هذا الواقع، بحيث يبدو موضوعيًّا وطبيعيًّا، فبينما تفترض الماركسية وجود بنية اجتماعية موضوعية ينبغي أن ينصرف إليها التحليل، فإن نقطة الانطلاق في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف تتمثل في أننا ننشئ الموضوعية من خلال الإنتاج الخِطابي للمعنى. إن عملية البناء هذه هي التي ينبغي أن تكون غايةً للتحليل.

قام لاكلاو وموف بتحويل التقليد الماركسي بثلاث طرائق، هي التي نوردها في الأقسام التالية، فقاما أولًا بإلغاء القسمة بين القاعدة والبنية الفوقية وفَهِما كل التشكيلات المجتمعية على أنها نتاج للعمليات الخِطابية، ورفضا ثانيًا التصور الماركسي للمجتمع، القاضي بأن المجتمع قابل للوصف موضوعيًّا على أنه كل متكون من بعض الطبقات.

وبحسب لاكلاو وموف، فإن المجتمع ليس أبدًا على ذلك المقدار من الوضوح الذي تقترحه المادية التاريخية، فـ «المجتمع» ـ كما يقولان ـ هو محاولتنا لتحديد دلالة المجتمع، وليس ظاهرةً موجودة على نحو موضوعي. ثالثًا، ونتيجةً لهذه الرؤية للاجتماعي، يرفض لاكلاو وموف الفهم الماركسي للهوية ولتشكل المجموعة، ففي الماركسية يمتلك الناس هوية (طبقية) موضوعية وإن لم يدركوا ذلك. وبالنسبة إلى لاكلاو وموف، فإننا لا نستطيع أن نحدد مسبقًا ما هي المجموعات التي سيكون لها اعتبار من الناحية السياسية. إن هويات الناس (الفردية والجماعية على حدٍّ سواء) هي نتيجة العمليات الخِطابية العرضية، وبما هي كذلك، فهي جزء من الصراع الخِطابي. في نهاية هذا القسم سنقوم بوصف الكيفية التي يفهم بها لاكلاو وموف الصراع والتنازع، وفي علاقة بذلك، كيف واصلا تطوير مفهوم غرامشي للهيمنة[15].

أوّليّة السياسة

بالنسبة إلى المادية التاريخية، تعتبر القاعدةُ الماديةُ نقطةَ الانطلاق، وتتحدد البنية الفوقية بالقاعدة. وقد أقام غرامشي جدليةً بين القاعدة والبنية الفوقية: أي أن ظروف القاعدة تؤثر في البنية الفوقية، ولكن العمليات السياسية التي تجرى في البنية الفوقية يمكن أن تعمل على نحو ارتدادي في القاعدة. وبالنسبة إلى لاكلاو وموف، فإن العمليات

---

(15) نتيجةً لهذه المراجعة الجذرية للنظرية الماركسية، فقد طُرح سؤال عما إذا كان بوسعنا اعتبار لاكلاو وموف ماركسيين مطلقًا. لن نذهب إلى هذا النقاش هنا ولكن نكتفي بالإشارة إلى أنهما يعرّفان نفسيهما بأنهما ما بعد ماركسيين (post-Marxists) مع تأكيد كل من «ما بعد» و«ماركسية» (1985: 4).

السياسية هي الأكثر أهمية: أي أن السياسي له الأولوية (Laclau 1990: 33)، فالتمفصلات السياسية هي التي تحدد كيف نتصرف ونفكر، وبالتالي كيف ننشئ المجتمع. إن الدور المحدد للاقتصاد، تعاظم أو نقص، وقع إلغاؤه كليًّا في نظرية الخِطاب. ولا يعني ذلك أن كل شيء هو لغة وأن المادة لا أهمية لها. وهو ما سيتضح عندما ننظر في كيفية فهم لاكلاو وموف لمُتَصَورَي الخِطاب والسياسة.

قمنا سابقًا في هذا الفصل بتقديم مفهوم لاكلاو وموف للخِطاب، حيث بدت الخِطابات كما لو أنها ظواهر لغوية محض، ولكن تلك لم تكن القصة الكاملة، إذ إن لاكلاو وموف لا يميزان بين الظواهر الخِطابية وغير الخِطابية. ولقد قدمنا في الفصل الأول مسترسلًا (الرسم 1.1) تتقابل فيه مقاربات تُرجع كل الظواهر إلى المنطق الخِطابي نفسه مع مقاربات تتميز برؤية أكثر جدليةً إلى العلاقات بين الظواهر الخِطابية وغير الخِطابية. وتقع المادية التاريخية في أقصى يمين المسترسل: وقد وقع تنظيم كل الظواهر بحسب منطق متجذر في غير الخِطابي، في المادة، فالخِطابات ليس لها أي استقلالية أو منطق داخلي. وقد وُضع أمثال غرامشي أقرب قليلًا إلى ناحية الوسط، لكنهم لا يزالون في الجانب الأيمن. وقد وُضعت نظرية لاكلاو وموف للخِطاب في أقصى اليسار، وهذا له تبعات على اختيار أدوات التحليل التي نحتاج إليها في دراسة الظواهر الاجتماعية المحددة. وبينما يميز فركلاف الذي وُضع في وسط المسترسل، بين أبعاد خِطابية وأبعاد غير خِطابية للممارسة الاجتماعية، ويرى وجود علاقة جدلية بين البعدين، فإن لاكلاو وموف يفهمان الممارسات

الاجتماعية على أنها خِطابية بشكل كامل. ونتيجة لذلك، فإن فركلاف يحتاج إلى مجموعتين من النظريات وأدوات التحليل، بينما يعمل لاكلاو وموف بواحدة فحسب. يستعمل فركلاف تحليل الخِطاب في تحليل الممارسات اللسانية ويستعمل نظريات أخرى، من قبيل النظريات الاجتماعية للحداثة المتأخرة، في تحليل أبعاد أخرى للممارسة الاجتماعية، بينما تُفهم كل الظواهر الاجتماعية، بالنسبة إلى لاكلاو وموف، وتُحللُ باستعمال المفاهيم ذاتها: مفاهيم الخِطاب، والتمفصل، والحاجز، وهلم جرًّا.

لكن هذا لا يعني، كما أشرنا، أن لاكلاو وموف يختزلان كل شيء في اللغة ذلك أن الخِطابات، بالنسبة إليهما هي مادة (1985: 108). مثال ذلك، أنه يُنظر إلى الأطفال في المجتمعات الحديثة على أنهم مجموعة تختلف عن المجموعات الأخرى في جوانب عديدة، وهذا الخلاف لا يتأسس فحسب على معطى لغوي. فقد جُعل الأطفال على نحو مادي مجموعةً في مجال مادي: فلديهم مؤسساتهم الخاصة، مثل دور الحضانة والمؤسسات، والأقسام الخاصة بهم في المكتبات وفضاءات اللعب الخاصة بهم في المتنزهات. هذه المؤسسات والسمات المادية هي أجزاء من الخِطاب حول الأطفال في المجتمعات الحديثة.

لقد فهم بعض النقاد نظرية لاكلاو وموف على أنها تتضمن، بما أن كل شيء هو خِطاب عندهما، أن الواقع لا وجود له[16]، وهذا سوء

---

(16) انظر لاكلاو وموف (Laclau and Mouffe, 1990) في مناقشتهما واحدًا من هؤلاء النقاد، هو نورمان جيراس (Norman Geras).

فهم، ففي مقاربة لاكلاو وموف، كما في مقاربات تحليل الخِطاب الأخرى، فإن كلًّا من الكيانات الاجتماعية والمادية موجودة، لكن النفاذ إليها يكون دائمًا بوساطة أنظمة الدلالة التي تتخذ شكل الخِطابات. فالأشياء المادية ليس لها معنى في ذاتها، المعنى هو شيء نسنده إليها من خلال الخِطاب. ويضرب لاكلاو وموف مثالًا لذلك الحجارة، إذ يمكنها أن توجد بشكل مستقل عن أنظمة التصنيف الاجتماعي، لكن فهمها على أنها مقذوفة أو عمل فني(*) يخضع للسياق الخِطابي الذي توضع فيه :Laclau and Mouffe, 1990) 101)، فالواقع المادي يفرضه الاجتماعي. وفي نظرية لاكلاو وموف للخِطاب، فإن انتظام كل الظواهر الاجتماعية يفهم على أنه خاضع للمبادئ ذاتها التي تنتظم بها اللغة. فتمامًا مثلما أن العلامات في اللغة تتحدد علاقيًّا وتكتسب بذلك مدلولاتها من اختلافها عن العلامات الأخرى، فإن الأعمال الاجتماعية كذلك تكتسب معانيها من علاقاتها بالأعمال الأخرى. مثال ذلك، أن قضاء العطلة في ماربيا في إطار حزمة كاملة(**) يكتسب معناه بما هو عمل من اختلافه عن رحلة إلى باريس، أو عدم الخروج في عطلة إطلاقًا. ونحن نُؤَول هذا العمل على أنه علامة خِطابية، وبالطريقة ذاتها التي يقع بها الاحتفاظ

(*) تستعمل كلمة الحجارة (Stone) في بعض السياقات في اللغة الإنكليزية للإشارة إلى الأعمال الفنية المنحوتة من الحجارة.

(**) هـذه العبارة ترجمة لعبارة (package holiday) وهي عبارة عن جولة تنظمها وكالة أسفار تتضمن حزمة كاملة تشمل الإقامة والأكل والتنقل بتسعيرة واحدة.

بمدلول العلامة اللغوية في مكان بواسطة الحواجز، بالرغم من أنها تبقى دائمًا معرضة لخطر الانزلاق باتجاه تمفصلات جديدة، فنحن نحاول دائمًا تثبيت معاني الأعمال الاجتماعية الأخرى، وهي محاولة لا تُكلّل بالنجاح المطلق أبدًا. فكل الممارسات الاجتماعية يمكن النظر إليها بالتالي على أنها تمفصلات (Laclau and Mouffe, 1985: 113)، لأنها تعيد إنتاج تحملات شائعة للمدلول أو تحولها.

إن إعادة إنتاج تحملات المدلول أو تحويلها هي، بشكل عام، أعمال سياسية. والسياسة في نظرية الخِطاب لا ينبغي فهمها فهمًا ضيقًا على أنها السياسات الحزبية مثلًا، بل هي على النقيض من ذلك مفهوم واسع يحيل على النحو الذي نشكل به الاجتماعي باستمرار بطريقة تستبعد الطرائق الأخرى. إن أعمالنا تمفصلات عرضية، وهي بذلك، عمليات تثبيت وقتية للدلالة في بقعة غير محددة تعيد إنتاج الخِطابات الموجودة أو تغيرها وهي من خلال ذلك تنظم المجتمع. ويفهم لاكلاو وموف السياسة على أنها تنظيم المجتمع بطريقة مخصوصة تستبعد كل الطرائق الأخرى الممكنة. فالسياسة، إذًا، ليست مجرد سطح يعكس واقعًا اجتماعيًّا أعمق، وإنما هي، التنظيم الاجتماعي الذي هو نتيجة العمليات السياسية المستمرة.

عندما ينشب صراع بين خِطابات معينة، يكون من الواضح أحيانًا أن الفاعلين المختلفين يحاولون فرض طرائق مختلفة لتنظيم المجتمع. وفي أحيان أخرى، يمكن أن تظهر ممارساتنا الاجتماعية طبيعية إلى حد يصعب معه أن ندرك إمكان وجود الأبدال. مثال

ذلك، أننا متعودون على فهم الأطفال ومعاملتهم على أنهم مجموعة لها سماتها المميزة حتى إننا نتعامل مع هذا الخِطاب حول الأطفال وكأنه أمر طبيعي. ولكن بالعودة إلى بضع مئات من السنين فقط، فإن الأطفال كان ينظر إليهم ويعاملون في مستوى أعلى بكثير من ذلك، على أنهم «كهول صغار» (Aries, 1962). وتوصف تلك الخِطابات التي أُسست على درجة من الصرامة نُسيت بها طبيعتها العرَضية، بأنها موضوعية في نظرية الخِطاب (Laclau, 1990: 34)[17]. ولا يعني ذلك استعادة القسمة بين المعطى الموضوعي من ناحية ولعبة السياسة من ناحية أخرى. فالموضوعية هي الثمرة التاريخية للعمليات السياسية وللصراعات، إنها خِطاب مترسب. إن الحد الفاصل بين الموضوعية والسياسي، أو بين ما يبدو طبيعيًا وما هو متنازع عليه، هو حدٌّ مائع وتاريخي، ويمكن الخِطابات التي ترسبت في وقت سابق، أن تدخل لعبة السياسة وأن تُجعل إشكالية في تمفصلات جديدة.

إن مفهوم الهيمنة يتنزل بين «الموضوعية» و«السياسي». تمامًا، مثلما أن الموضوعي يمكن أن يصبح سياسيًا مرة أخرى، فإنه يمكن صراعات ظاهرة جدًا أن تختفي، خلال مجرى الزمان، وتفسح المجال للموضوعية حيث تقع طبعنة منظور واحد ويسود التوافق. إن التطور من الصراع السياسي إلى الموضوعية يمر عبر تدخلات مهيمنة يقع من خلالها استبعاد أفهام بديلة للعالم، ما يؤدي إلى طبعنة

---

(17) ووسمت كذلك «بالاجتماعي». ولن نستعمل هذه التسمية هنا نظرًا إلى أن استعمالنا «للاجتماعي» أكثر اتساعًا، وهو يحيل على كل الظواهر الاجتماعية.

منظور واحد. وسنناقش مفهوم الهيمنة على نحو أكثر عمقًا لاحقًا في هذا الفصل.

الموضوعية بذلك يمكن أن تُعتبر المصطلح الدال على ما يبدو مسلمًا وثابتًا، وعلى ما لا يكتسب مدلوله في الظاهر من اختلافه عن أي شيء آخر. لكن هذا «في الظاهر» فحسب، وهذا هو السبب الذي يجعل نظرية الخِطاب تسوّي بين الموضوعية والأيديولوجيا (Laclau, 1990: 89ff.). كل مدلول هو رجراج وكل الخِطابات عَرَضية، والموضوعية هي ما يحجب عَرَضيتها، وهي إذ تفعل ذلك، تخفي احتمالات أخرى لولاها لأظهرت نفسها. فالموضوعية يمكن أن تعتبر بالتالي أيديولوجية. وكما سنرى في الفصول التالية، فإن التحليل النقدي للخِطاب وعلم نفس الخِطاب يعرفان مفهوم الأيديولوجيا على نحو يجعله صالحًا للاستعمال في تحديد علاقات السلطة الجائرة وفي انتقادها. وهو أمر غير ممكن في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف لأن المجتمع الخالي من الأيديولوجيا غير قابل للتصور في نظرية الخِطاب منذ أن وقع تعريف الأيديولوجيا على أنها موضوعية. ونحن محمولون دائمًا على التعامل مع مجالات واسعة من العالم الاجتماعي على أنها مفروغ منها في ممارساتنا، فلن يكون بوسعنا أن نتساءل دائمًا عن كل شيء. ولكي لا يقع الخلط بينهما وبين نقد تقليدي للأيديولوجيا، على غرار تحليل فركلاف النقدي للخِطاب، فإن لاكلاو وموف نادرًا ما يستعملان مفهوم الأيديولوجيا، وهما يفضلان بدلًا منه مفهوم الموضوعية. (وكاستثناء انظر: (Laclau, 1996a.

إن مفهوم **السلطة** في مقاربة لاكلاو وموف وثيق الارتباط بمفهومي السياسة والموضوعية لديهما. (Laclau, 1990: 31ff.). وهو شبيه بمفهوم فوكو للسلطة الذي عرضناه في الفصل الأول. فالسلطة لا تفهم على أنها شيء يمتلكه الناس ويمارسونه على الآخرين، ولكن على أنها ذلك الذي ينتج الاجتماعي. قد يبدو غريبًا أن نستعمل كلمة «سلطة» للدلالة على القوة والعمليات التي تنشئ عالمنا الاجتماعي وتجعله ذا مغزى بالنسبة إلينا، ولكن الفكرة هنا هي أن هذا الفهم للسلطة يؤكد الطابع العَرَضي لعالمنا الاجتماعي. فالسلطة هي التي تبني معرفتنا، وهوياتنا وكيف يرتبط بعضنا ببعض باعتبارنا مجموعات أو أفرادًا. والمعرفة والهوية والعلاقات الاجتماعية جميعها عَرَضية: فهي جميعها تتخذ، في وقت معين، شكلًا مخصوصًا، ولكن من الممكن أنها كانت مختلفة ـ ويمكن أن تصبح كذلك. لذلك، فالسلطة منتجة بما أنها تنتج الاجتماعي على نحو مخصوص. إن السلطة ليست شيئًا تستطيع أن تجعله يختفي: فنحن ملزمون بالعيش في نظام اجتماعي والنظام الاجتماعي تشكله السلطة دائمًا. ولكننا لسنا ملزمين بالعيش في نظام اجتماعي معين، كما أن استبعاد الأنظمة الاجتماعية الأخرى هو واحد من آثار السلطة. من ناحية، تنتج السلطة عالمًا قابلًا للعيش فيه بالنسبة إلينا، ومن ناحية أخرى، هي تمنع الاحتمالات البديلة[18].

---

(18) للاطلاع على المزيد حول مفهوم السلطة لدى فوكو ولدى لاكلاو وموف انظر: (Torfing, 1999: chap. 8)، ولبحث أوسع في الأفهام المختلفة للسلطة من منظور نظرية الخِطاب، انظر: (Dyrberg, 1997).

الموضوعية هي سلطة مترسبة حيث محيت آثار السلطة، وحيث نُسي أن العالم صنيعة سياسية (Laclau, 1990: 60). إن فهمنا نظرية لاكلاو وموف يقوم على أن السلطة والسياسة وجهان لعملة واحدة، بحيث تحيل السلطة على إنتاج أشياء من قبيل «المجتمع» و«الهوية»، بينما تحيل السياسة على سمة العَرَضية الملازمة دائمًا لهذه الأشياء، فالموضوعية تحيل إذًا على العالم الذي نعتبره من المسلّمات، والعالم الذي «نسيناه» تشكله السلطة والسياسة أيضًا.

في سبيل تلخيص هذه الفرضيات، لنناقش بإيجاز **العَرَضية** في مقابل **الاستمرارية**. نقطة الانطلاق في النظرية هي أن كل تمفصل، وبالتالي كل شيء اجتماعي، هو عَرَضي- ممكن ولكن ليس ضروريًّا. هذا هو الأساس الفلسفي للنظرية ومحرك التحليل فيها في آن واحد. إنه بتقليب النظر المستمر في تلك الممكنات المستبعدة يمكن المرء أن يحدد الآثار الاجتماعية لبناءات خِطابية معينة للاجتماعي. لكن واقع أن كل التشكيلات الاجتماعية يمكن أن تكون في كل الأوقات مختلفة لا يعني أن كل شيء يتغير كل الوقت، أو أن الاجتماعي يمكن تشكيله بحرية. فالاجتماعي دائمًا ما يكون مبنيًّا جزئيًّا على نحو معين، فالخِطابات تمتلك، إذا جاز التعبير، ثقلًا وقوة معطلة تأسرنا إن قليلًا أو كثيرًا، وسيبقى في كل الأوقات مجال واسع للموضوعية يصعب التفكير خارج نطاقه. إن الناس، مثل المجتمع، يقع تشكيلهم أساسًا على نحو اجتماعي (انظر الصفحات 88-101 حول الهوية وتشكيل المجموعة)، والإمكانات التي نمتلكها لإعادة تشكيل الأبنية محكومة بالأبنية السابقة. وعلى الرغم من أن نقطة الانطلاق الفلسفية

تتمثل في أن كل الأبنية عَرَضية، فإن تفكيرنا لا يمكن أبدًا أن يتجاوز كل الأبنية الموجودة، فإضفاء الدلالة على العالم يقتضي دائمًا هذه البنية أو تلك. إن المدلولات لا يمكن تثبيتها أبدًا على نحو كامل، ولكنها لا يمكن أن تكون رجراجة ومنفتحة كليًّا أبدًا (Laclau and Mouffe, 1985: 113). لقد فُهم كل من الناس والمجتمع على أنهم ظواهر تاريخية ملزمة بالعمل على أساس الأبنية القائمة التي تقتضي الاستمرارية في الاجتماعي وتضمنها.

المجتمع المستحيل

يدعي لاكلاو وموف أن المجتمع مستحيل، وأنه لا وجود له (1985: 111). وهما يعنيان بهذا، أن المجتمع باعتباره كيانًا موضوعيًّا لا يكون أبدًا تامًّا ومكتملًا. لقد بيَّنا سابقًا كيف أن مفهوم البنية في التقليد السوسيري تعرّض إلى نقدِ ما بعد البنيويين على أساس أن السوسيريين يفهمون البنية باعتبارها كلًّا تترابط فيه العلامات جميعًا في ما بينها على نحو غير ملتبس. ويستبدل لاكلاو وموف هذا المفهوم للبنية بمفهوم الخِطاب الذي يحيل كذلك على بناء العلامات ضمن علاقات تربط بعضها ببعضها الآخر، ولكن مع الإلحاح على أن البناء لا يمكن أن يستنفد كل احتمالات إسناد الدلالة. فالخِطاب يمكن دائمًا أن يتأثر سلبًا بفعل التمفصلات التي تدرج العلامات في علاقات مختلفة بعضها مع بعض. وبحسب نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف، فإن العلامات تقع هيكَلتها بذلك في علاقات بعضها مع بعض، ولكن ذلك لا يكون أبدًا في مجموعة نهائية، فالخِطابات

هي دائمًا تثبيتات للدلالة موقّتة وجزئية فحسب ضمن بقعة غير محددة أساسًا.

يوجه لاكلاو وموف النوع ذاته من النقد إلى الماركسية وعدد آخر من النظريات الاجتماعية. فالمادية التاريخية تنظر إلى المجتمع على أنه كل موضوعي فيه يُنتج الاقتصاد مجموعات مميزة (طبقات) لها علاقات ثابتة في ما بينها (على طرفَيْ نقيض من الصراع الطبقي). وقد غير لاكلاو وموف هذه الرؤية، مؤكدين أن المجتمع لا وجود له بما هو كل موضوعي يكون فيه لكل شيء موقع ثابت، ف «المجتمع» يكون مهيكَلًا جزئيًا في كل الأوقات، ولكن جزئيًا ووقتيًا فحسب. فإذا كان الناس، مثلًا، يتماهون مع طبقات مختلفة، فذلك لا يرجع إلى أن المجتمع يتشكل موضوعيًا من تلك الطبقات، ولكن بسبب وجود حاجز وقتي تكون فيه إمكانات التماهي الأخرى، مثل نوع الجنس والانتماء العرقي، مهمشة أو مستبعدة.

إننا نتتج المجتمع باستمرار ونتصرف كما لو كان موجودًا باعتباره كلًّا، ونحن نصفه بأنه كل. ومن خلال كلمات من قبيل «الشعب» و«البلد» نسعى إلى تحديد هذا الكل عبر تحميله محتوى موضوعيًا. ولكن هذا الكُل يبقى كيانًا وهميًا. فإذا ما أعلن، على سبيل المثال، سياسي عمالي خلال الحملة الانتخابية البريطانية أنه «سيعمل على تحقيق الأفضل للبلد»، وإذا ما قال سياسي محافظ الشيء ذاته، فالأرجح أنهما يحملان صورتين مختلفتين تمامًا عن البلد، وبرنامجين مختلفين تمامًا في ذهنيهما (انظر: Laclau, 1993b: 287). «البلد» وكل المصطلحات الأخرى الدالّة على المجتمع باعتباره كلًّا،

هي دوالّ متغيرة، فهي تستخدم بمحتويات مختلفة عبر التمفصلات المختلفة. والمصطلح الذي يجعله لاكلاو دالًّا متغيرًا يشير إلى الكل هو الأسطورة:

> «نعني بالأسطورة فضاء للتمثيل لا يحتمل أي علاقة اتصال مع «الموضوعية البنيوية» المهيمنة. فالأسطورة بذلك مبدأ لقراءة وضعية معينة، شروطها خارجة على نطاق ما هو قابل للتمثيل في الفضاء الموضوعي الذي شكلته البنية المعينة» (Laclau, 1990: 61).

هذه الطريقة في التفكير موازية لما رأيناه في نقد البنيوية: فلا توجد إلا بِنًى وقتية للاجتماعي، ولا توجد بنية واحدة نهائية وكلية. والبنية الكلية، مثل «المجتمع»، هي شيء نتوهمه لكي نجعل لأعمالنا معنى. فالأبنية الاجتماعية إذًا لا تتطابق مع الأسطورة، فالأسطورة هي تمثيل مشوه للواقع من جهة، ولكن هذا التشويه من جهة أخرى لا يمكن تجنبه، وهو بناء لأنه ينشئ أفقًا ضروريًّا لأعمالنا. من ذلك أن أسطورة «البلد» تجعل السياسات الوطنية ممكنة وتزود السياسيين المختلفين بأرضية يمكنهم النقاش من خلالها. وفي الوقت ذاته، فإن اختيار الأسطورة يحدد ما يكون لمناقشته مغزى والطريقة التي تنبغي مناقشته بها، فإذا كان «البلد» نقطة الانطلاق، فإن «الاقتصاد الوطني» إذًا يكون مهمًّا ويكون فهم كلٍّ من الاقتصاد المحلي والإقليمي والعالمي بالانطلاق من منظور وطني.

تتمثل غاية من غايات تحليل الخِطاب في تحديد أساطير المجتمع وتحليلها باعتباره واقعًا موضوعيًّا مضمنًا في الكلام وفي

أعمال أخرى. وتمثل الكيفية التي تظهر بها بعض الأساطير على أنها صادقة موضوعيًّا وتظهر بها أخرى على أنها مستحيلة سؤالًا مركزيًّا. ويمكن المرء أن يحلل كيف تُستثمر الأساطير باعتبارها دوالًّ متغيرة لها محتويات مختلفة، من جهة الفاعلين الاجتماعيين المختلفين، في الصراع من أجل أن يجعل [كل منهم] فهمَه المخصوص «للمجتمع» هو السائد دون سواه.

الهوية وتشكيل المجموعة

كيف يمكننا تصور الفاعلين الذين يشاركون في الصراعات حول تعريف الواقع وتشكيله؟ كما أشرنا في الفصل الأول، فإن كل مقاربات تحليل الخِطاب تنتقد الفهم الغربي التقليدي للفرد على أنه ذات مستقلة. وكما رأينا في نقد لاكلاو وموف النظرية الماركسية، فإنهما يرفضان كذلك الموقف القاضي بأن الهوية الجماعية (في النظرية الماركسية، الطبقات في المقام الأول) تتحدد بالعوامل الاقتصادية والمادية. بحسب لاكلاو وموف، تنتظم الهوية الفردية والجماعية كلتاهما طبقًا للمبادئ ذاتها في العمليات الخِطابية ذاتها. ونبدأ بتقديم فهمهما هويةَ الذات وهويةَ الفرد وننتقل بعد ذلك إلى بيان تشكيل الهوية الجماعية وهوية المجموعة.

مواقع الذات

كما أشرنا في الفصل الأول، فقد مثل مفهوم النداء مقترح ألتوسير البديل عن الرؤية الغربية التقليدية للذات. حيث يقع نداء الأفراد أو تنزيلهم في مواقع معينة بالاعتماد على طرائق مخصوصة في

الحديث. إذا قال الطفل «أمي» واستجاب الكهل، فهنا يكون الكهل نـودي بهوية مخصوصة ـهوية «الأم»ـ ترتبط بسلوكها توقعات معينة. وبمصطلحات نظرية الخِطاب، فإن الذوات تتحول إلى مواقع في الخِطابات. إلى حد كبير، هذا الفهم للذات هو الذي يستعمله لاكلاو وموف في [كتاب] **الهيمنة والاستراتيجية الاشتراكية**. ومع ذلـك، تبقى في نظرية ألتوسير جرعة من الحتمية الاقتصادية لا تتناسب مع نظرية الخِطاب: فألتوسير يفهم استنطاق الذوات على أنه أيديولوجي إلى درجة تحجب العلاقات الحقيقية بين الناس. وبالنسبة إلى لاكلاو وموف، لا وجود لعلاقات اجتماعية «حقيقية» يحددها الاقتصاد. لكن الناس يُستنطقون دائمًا من خلال خِطابات: أي أن الذوات ينبغي أن تفهم على أنها «مواقع الذوات» داخل بنية الخِطاب (1985: 115). الخِطابات تعيّن دائمًا مواقع للناس ليشغلوها باعتبارهم ذواتٍ. مثال ذلك، خلال الفحص الطبي يقع تعيين كلٍّ من موقعي «الطبيب» و«المريض». وبالنظر إلى هذين الموقعين، يوجد بعض التوقعات حول ما يمكن فعله وما يمكن قوله وما لا يمكن قوله، فالطبيب مثلًا يمتلك سلطة تعيين ما يشكو منه المريض، أما المريض فلا يملك إلا التخمين. وإذا كان الطبيب لا يعتقد أن قاصد العلاج مريض، وأنه يلح على أنه مريض، فإن قاصد العلاج عندها يكون قد تجاوز حد ما هو مسموح لوضعه، ويوصف بأنه يعاني من وسواس مرَضي.

لقد رأينا أن لاكلاو وموف يعتبران، وهما يتفقان في ذلك عمومًا مع تيار ما بعد البنيوية، أنه ما من خِطاب يستطيع أن يفرض نفسه

بقوة فيصبح الخِطاب الوحيد الذي يُهيكِل الاجتماعي. ستوجد دائمًا خِطابات عديدة متنافسة في الساحة. وكما هو الأمر مع ألتوسير، فإن الذات لا يمكن أن تفهم على أنها سيادية في النظرية ما بعد البنيوية: الذات ليست مستقلةً، ولكنها تتحدد بالخِطابات. إضافةً إلى ذلك، وعلى النقيض من نظرية ألتوسير، فإن الذات هي كذلك **مجزأة**: فلا يحدد موقعها بطريقة واحدة ومن خلال خِطاب واحد، لكن، تسند إليها بدلًا من ذلك مواقع عديدة مختلفة من خلال خِطابات مختلفة. في الانتخابات، تكون الذات «ناخبًا»، وفي حفلة العشاء، تكون «ضيفًا»، وربما كانت في الأسرة «أمًّا» و«زوجة» و«ابنة». هذه التحولات تحدث غالبًا من دون أن يلاحظها أحد، ولا يلاحظ الفرد غالبًا أنه يحتل مواقع مختلفة للذات في كل يوم. لكن، إذا كانت الخِطابات المتصارعة تسعى في الوقت ذاته إلى تنظيم الفضاء الاجتماعي ذاته، فإن الفرد يُستنطق في مواقع عديدة في الوقت ذاته. مثال ذلك أنه في يوم الانتخابات، يكون السؤال حول ما إذا كان الفرد سيترك نفسه يُستنطق باعتباره نسويًّا أو مسيحيًّا أو عاملًا. ربما بدت كل هذه الإمكانات جذابة، لكنها تشير إلى اتجاهات مختلفة عندما يتعلق الأمر بالتصويت. في مثل هذه الحالات، تكون الذات **متعددة التعريفات**. وهو ما يعني أن موقع المرء يتحدد من خلال خِطابات متضاربة عديدة هي في صراع في ما بينها. بالنسبة إلى لاكلاو وموف، تكون الذات متعددة التعريفات، لأن الخِطابات هي دائمًا عَرَضية، فلا يوجد منطق موضوعيٌّ يعين موقعًا مفردًا للذات. ومواقع الذات التي هي غير منخرطة في

صراع واضح مع المواقع الأخرى هي نتيجة عمليات الهيمنة (انظر الصفحات 101-105)، حيث وقع استبعاد مواقع بديلة وطبعنة خِطاب محدد.

نظرية الذات لدى لاكان

في النصوص التي كتبت منذ الهيمنة والاستراتيجية الاشتراكية استدعى لاكلاو نظريات جاك لاكان (Jacques Lacan)، من خلال سلافوي جيجاك (Slavoj Žižek)، من أجل مزيدٍ من تطوير مفهوم الذات. لاكلاو يستعمل لاكان كي يمنح الفرد لاوعيًا، يفسر به السبب الذي يجعل الناس يتركون أنفسهم ليستَنطَقوا من جهة الخِطابات. وكما سنبيّن لاحقًا، فإن نظرية الذات لدى لاكان توازي مفاهيم البنية والمجتمع لدى لاكلاو وموف: كذلك يفهم لاكان الذات على أنها بنية دائمة النقصان تسعى دائمًا لكي تتحول إلى كل مكتمل[19].

تنطلق نظرية لاكان من الرضّع، فالرضيع ليس مدركًا نفسه باعتباره ذاتًا محدودة ولكنه يحيا في تعايش مع أمه والعالم المحيط به. وشيئًا فشيئًا، ينفصل الرضيع عن أمه ولكنه يحتفظ بذكرى شعور بالكمال. وعمومًا، فإن الحالة التي تكون عليها الذات تتمثل في السعي المتواصل إلى استعادة وضع الاكتمال. وخلال التنشئة الاجتماعية، يُعطى الطفل صورًا خِطابية حول «من يكون» وما هي الهوية التي يمتكلها. وتتوصل الذات إلى تعرُّفِ نفسها بما هي فردٌ عبر التماهي

---

(19) انظر في قراءة لاكلاو للاكان (Laclau and Zac, 1994: 31 ff.).

مع **شيء ما** خارج الذات، أي من خلال الصور التي قدمت لها. هذه الصور يقع استبطانها، ولكن الطفل (والكهل، لاحقًا) يشعر باستمرار أنه لا يتناسب تمامًا مع الصور. وبذلك تكون الصور، في الوقت ذاته، أساسًا للتماهي والاغتراب في آن واحد، فالصور الوافدة من الخارج والمستبطنة تقع مقارنتها باستمرار بشعور الاكتمال لدى الرضيع، ولكنها لا تتطابق معه أبدًا. لذلك، فإن الذات بالأساس تعرف **انشطارًا**. ويتكلم لاكان عن «الانحراف الجذري للذات عن مركزها الذي يواجهه الإنسان» (Lacan, 1977a : 171): وبغض النظر عن الموقع الذي حددته الخِطابات للذات، فإن شعور الاكتمال يفشل في الظهور.

إن فكرة الذات الكاملة الحقيقية هي وهم (Lacan, 1977b: 2)، أو إذا استعملنا مصطلح لاكلاو الذي شرحناه سابقًا، هي أسطورة. والفردي، مثل الاجتماعي، تَبنيه الخِطابات جزئيًا، لكن البناء لا يكون أبدًا كليًا. إن الاكتمال وهم، لكنه أفق ضروري يقع داخله بناء الذات والاجتماعي كليهما.

من خلال دمج فهم لاكان للذات، تكون نظرية الخِطاب قد زودت الذات ب «قوة دفع» في الوقت الذي تحاول باستمرار «أن تكتشف ذاتها» من خلال الاستثمار في الخِطابات. ونحن نُلقي الآن نظرةً أعمق على كيفية بناء الفرد خِطابيًا. إن الهوية، عند لاكان، معادلة للتماهي مع شيء ما. وهذا «الشيء» هو مواقع الذات التي يمنحها الخِطاب للفرد. يتحدث لاكان عن الدوالّ الرئيسة، التي يمكن أن نسمها، مستعملين مصطلحات نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف،

بـ«معاقد الهوية». «رجل» هو مثال للدوالّ الرئيسة، والخِطابات المختلفة تقدم محتويات مختلفة لملء هذا الدال. وهو ما يحصل من خلال الربط بين الدوالّ في ما بينها في سلاسل التكافؤ التي تؤسس الهوية على نحو علاقي (Laclau and Mouffe, 1985: 127ff.). البناء الخِطابي ل «رجل» يحدد ما هو مكافئ ل «رجل» وما يختلف عنه. مثال ذلك أن الخِطاب المتداول على نطاق واسع يجعل «رجل» مكافئًا للـ «قوة» و«العقل» و«كرة القدم» (وأشياء أخرى كثيرة) ويقابل بينه وبين «امرأة» و«سلبي» و«عاطفة» و«طبخ»[20]. وبالتالي، فإن الخِطاب يوفر تعليمات السلوك للناس لكي يتماهوا مع رجل وامرأة تباعًا والتي سيكون عليهم اتباعها لكي ينظر إليهم على أنهم رجل (حقيقي) أو امرأة.

إنه من خلال تمثيله بهذه الطريقة بواسطة مجموعة من الدوالّ مع وجود معقد في المركز منها، يكتسب المرء هوية. والهويات إما أن تُقبل وإما أن ترفض وإما أن تناقش خلال العمليات الخِطابية. الهوية، بالنتيجة، هي شيء اجتماعي بالكامل. وبذلك، يكون لاكلاو وموف قد رفضا الفهم الغربي التقليدي للفردي الذي يُنظر إلى الهوية فيه على أنها فردية، وعلى أنها نواة باطنية يقع التعبير عنها خلال السياقات. وبالمثل، فقد هجرا المادية التاريخية ووجهة نظرها للهوية باعتبارها محددة من القاعدة، وهما ينزلان الهوية بدلًا من ذلك ضمن الممارسات الخِطابية وبالتالي السياسية.

---

(20) المثال مستلهم من Bracher (1993: 30)، الذي كتب هو الآخر عن الدوالّ الرئيسة (ص22 وما يليها).

يمكن تلخيص فهم الهوية في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف كما يلي:

- إن الذات بالأساس هي **منشطرة**، فلا يمكنها أبدًا أن تكون «ذاتها».
- هي تكتسب هويتها من خلال **تمثيلها** خِطابيًّا.
- الهوية هي هذا **التماهي** مع موقع لذات في بنية الخِطاب.
- الهوية تتشكل خِطابيًّا من خلال **سلاسل التكافؤ** حيث يتم فرز العلامات ووصلها في ما بينها في سلاسل مقابِلة لسلاسل أخرى تحدد بالتالي كيف تكون الذات، وكيف لا تكون.
- الهوية تُنظم دائمًا على نحو **علاقي**، فالذات إنما تكون شيئًا لأنها في تقابل مع شيء ليس هو هي.
- الهوية **متغيرة** تمامًا مثل الخِطابات.
- الذات **مجزأة** أو **منعدمة المركز**، فلها هويات عديدة بحسب تلك الخِطابات التي تكون جزءًا منها.
- الذات متعددة **التعريفات**، ومن حيث المبدأ، غالبًا ما يكون هناك إمكان لتعريفها على نحو مختلف في وضعيات محددة. ولذلك، فإن الهوية المعطاة **عَرَضية**، أي إنها ممكنة وليست ضرورية.

تكوين المجموعة

بالنسبة إلى لاكلاو وموف، كما أشرنا سابقًا، فإن الهوية الجماعية أو تشكل المجموعة يفهم طبقًا لمبادئ الهوية الفردية نفسها. الحد

الفاصل بين نوعي الهوية ملتبس: هناك فرق بين تحديد الهوية ب «رجل» وتحديد الهوية بالمجموعة «رجال».

كما رأينا في نقدهما للماركسية، يدعي لاكلاو وموف أنه لا توجد ظروف موضوعية تحدد المجموعات التي ينقسم إليها الفضاء الاجتماعي. وقد رأينا أن الأفراد يمتلكون هويات عديدة (انعدام المركز) وهي تمتلك إمكان أن تُعرَّف على نحو مختلف في وضعيات معينة (كثرة التعريفات). فكيف يمكن المجموعات أن تُفهم في هذه الفوضى؟ إن تشكيل المجموعة ينبغي أن يفهم على أنه حدٌّ من الاحتمالات. يتشكل الناس كمجموعات من خلال عملية يقع فيها تقديم بعض احتمالات التحديد على أنها مناسبة بينما يقع تجاهل احتمالات أخرى. تتم هذه العملية من خلال إنشاء سلاسل للتكافؤ. لنضرب مثالًا لذلك، مجموعة «السود». خلال عقود السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، أقدم «السود» على تكوين مجموعة في المملكة المتحدة، من بين أماكن أخرى. وفي البداية ليس من الضروري أن يكون «السود» هم من عرّفوا أنفسهم على هذا النحو، ربما كانوا يفضلون تعريف أنفسهم على أنهم جامايكيون، أو باكستانيون أو آسيويون، أو على أنهم نساء، أو مثليون جنسيون أو سائقو سيارات أجرة. لكن في المجتمع البريطاني كل من لم يكن أبيض تقع مساواته، في حالات عديدة، بآخَر مختلف ويقع تعريفه ومعاملته على أنه «أسود». ويشكل البريطانيون البيض هوية جماعية في مقابل مجموعة «السود». خلال الستينيات، بدأ كثير من «السود» في استعمال التسمية على نحو إيجابي، وأصبحت

«الأسود جميل»(*). بذلك، فإن التعريف الخِطابي المتشكل سابقًا كان موجهًا سياسيًّا، ومستعملًا للإشارة إلى الأوضاع الاجتماعية التي عانى منها «السود» جماعيًّا ونقدها. هذا المثال مقتبس من مقال لستيوارت هول (1991)، يتناول فيه أيضًا ما يمكن أن تستعمل له مقولة «الأسود» اليوم. مثل كل تشكيلات المجموعات الأخرى، فإن مقولة «الأسود» تحجب الاختلافات الموجودة داخل المجموعة. من ذلك مثلًا، أنه يتغاضى عما يكون للمرأة «السوداء» من قواسم مشتركة، في حالات كثيرة، مع المرأة «البيضاء» أكثر مما يكون لها مع الرجل «الأسود». إن تشكيلات المجموعات هي دائمًا حواجز في بقعة غير محددة، وكما هو الأمر مع الخِطاب عمومًا، فهي تعمل عبر استبعاد التأويلات البديلة.

في التشكيلات الخِطابية للمجموعة إذًا، يُستبعدُ «الآخر» الذي يحدد المرءُ به ذاته، وتُتجاهل الفروق داخل المجموعة. وبذلك يتم أيضًا تجاهل كل الطرائق الأخرى التي يمكن المرء أن يشكل بها مجموعات. بهذا المعنى يكون تشكيل المجموعة [أمرًا] سياسيًّا[21].

(*) عبارة «الأسود جميل» (Black is Beautiful) تشير إلى اسم حركة ثقافية انطلقت من الولايات المتحدة الأميركية في الستينيات على يد الأميركيّين من أصل أفريقي، وانتشرت بعد ذلك خارج الولايات المتحدة في بريطانيا وجنوب أفريقيا. وهي حركة تنادي بحقوق متساوية للسود مع البيض.

(21) للمزيد حول سلاسل التكافؤ والهوية الجماعية، انظر: (Silverman, 1985). ويعكس فهم لاكلاو وموف الهوية ذلك الفهم لما بعد الحداثة عمومًا، لكن بعض الكتّاب أيسر للفهم من لاكلاو وموف، انظر مثلًا: (Hall, 1990, 1991 and 1996). ونعرض فهمًا شبيهًا للهوية يعتمد أيضًا على أفكار هول في الفصل الرابع.

يمكن التقاط هذه العمليات الخِطابية مع زوج من المفاهيم لدى لاكلاو وموف: «منطق التكافؤ» و«منطق الاختلاف» (Laclau and Mouffe, 1985: 127ff.). ويعمل منطق التكافؤ كما لو أن كل من هو غير أبيض من الناس يُعرف على أنه أسود: فقد وقع إدماج خصوصية كل الألوان والأصول المختلفة في مقولة واحدة هي «الأسود»، ووقع تعريف «الأسود» بالمقابلة مع ما هو ليس كذلك، على أنه «غير الأبيض». بذلك يسقط الفضاء الاجتماعي في مقابلة قطبية تكون الهويات المتاحة طبقًا لها هي «الأسود» و«الأبيض» فحسب. وعلى النقيض من ذلك، يعزز تدخل ستيوارت هول منطق الاختلاف، إذ يحاول توزيع المقابلة القطبية في عدد أكبر من الهويات هو أكثر تحديدًا. بحسب هول، فإن المقولات المناسبة ليست الأسود والأبيض فحسب، ولكن أيضًا، على سبيل المثال، نوع الجنس. والفضاء الاجتماعي -في تمثيله- مأهول (على الأقل) بأربعة أنواع مختلفة من الهويات: النساء السود، والرجال السود، والنساء البيض، والرجال البيض. والمثال يُظهر أيضًا أنه لا منطق التكافؤ ولا منطق الاختلاف، باعتبارهما مشروعين سياسيين، قادران وبصفة مسبقة على تعيين الطريقة الأكثر تقدُّمًا للمضي فيها. فبينما يزود منطقُ التكافؤ «السودَ» بأرضية مشتركة ينطلقون منها للمطالبة بحقوق متساوية، فإنه يطمس أيضًا الاختلافات الداخلية والمظالم الشاملة لطرفي التمييز الأسود/ الأبيض. وبينما يلقي منطق الاختلاف لدى هول الضوء على هذه المظالم، فإنه يضعف في الوقت ذاته الأرضية المشتركة لحراك «السود».

التمثيل

التمثيل عنصر مهم في عمليات تشكيل المجموعة. وبما أن المجموعات لم يتم تحديدها مسبقًا على نحو اجتماعي، فإنها لا توجد حتى تتشكل في الخِطاب. وهذا يستلزم أن يتكلم شخص ما، أو من ينوبه، عن المجموعة. التمثيل يعني أساسًا أن المرء يمكن تمثيله بالوكالة عندما يكون غائبًا ماديًّا. مثال ذلك، أنه لا يمكن كل المواطنين أن يكونوا حاضرين في البرلمان لمناقشة القضايا السياسية، ولذلك فإن الديموقراطية التمثيلية تكون عملية. فالمواطنون ينتخبون ممثلين يكونون حاضرين في البرلمان نيابةً عنهم عندما لا يكون في وسعهم الحضور بأنفسهم. والوضع المثالي هو أن يكون هناك اتفاق بين المُمثل والمجموعة التي يُمثلها، ويجب على الممثل أن يجسد إرادة المجموعة. ولكن وفقًا للاكلاو وموف، فإنه لا توجد مجموعة موضوعية، بما أن المجموعات يتم إنشاؤها دائمًا بواسطة بناءات عَرَضية لتكافؤات بين عناصر مختلفة. إذًا، فالوضعية ليست وضعية مجموعة تشكلت أولًا ثم وقع تمثيلها لاحقًا، المجموعة والمُمثل يشكلان بحركة واحدة، لذا لن ننتظر أن يتكلم شخص ما عن مجموعة ما أو إليها أو بالنيابة عنها حتى تتشكل باعتبارها مجموعة .(Laclau, 1993b: 289 ff.)

وكلما وقع تمثيل مجموعة ما، فإن فهمًا شاملًا للمجتمع سيترتب على ما إذا كانت المجموعة تشكلت على أساس التقابل مع مجموعات أخرى:

«النقطة الأساس هي هذه: لا أستطيع إثبات هوية متميزة من دون أن أميزها عن سياق ما، وأنا أقوم، خلال عملية التمييز، بإثبات السياق في الوقت ذاته». (Laclau, 1996b: 27).

إن تشكيل المجموعة ينهض بدور في الصراع حول الكيفية التي تكون بها أسطورة المجتمع مليئة بالمدلولات. وعلى النقيض من ذلك، تقوم أفهام عديدة للمجتمع بتقسيم الفضاء الاجتماعي إلى مجموعات مختلفة. مثال ذلك أن الصراع الطبقي التقليدي يستلزم فكرة تقسيم المجتمع إلى طبقات يحارب بعضها بعضًا، في حين تؤكد وجهة نظر نسوية القسمة مُعْتَمِدَةً نوعَ الجنس. إن الفهم السائد للمجتمع وما يستلزمه من تقسيم إلى مجموعات، ذو عواقب خطيرة بالنسبة إلى أعمالنا.

لقد تأمل إريك هوبزباوم (Eric Hobsbawm) (من وجهة نظر ماركسية تقليدية إلى حد ما) في عمليات الهوية الجماعية خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى (Hobsbawm, 1990: 122ff.). في نهاية القرن التاسع عشر تنامى الشعور لدى الناس بالانتماء إلى دول قومية، وقد أصبح تقسيم العالم على أسس قومية يبدو طبيعيًا على نحو متزايد. في الوقت ذاته، تنامى تعريف العمال أنفسهم باعتبارهم عمالًا، وهذا التشكيل للمجموعة يتضمن فهمًا آخر للعالم، هو واحدٌ مكون من «عمال» في مقابل «رأسماليّين» عابر للحدود القومية. وهذا لم يكن يمثل مشكلًا كبيرًا، منذ أن وقعت تجزئة الذات، كما رأينا، وتشكيلها في مواقع كثيرة مختلفة للذات. لكن بالعودة إلى الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، فإن كلا الفهمين للعالم

كانا في صراع أحدهما ضد الآخر. ولكي نستعمل مصطلحات نظرية الخِطاب التي نقوم بعرضها في القسم التالي، فإن تنازعًا ما قد نشأ. فقد تنافس الدعاة إلى فكرة الناس باعتبارهم قومية لمصلحة الشعب مع دعاة تمثيل الناس على أنهم طبقات، وفي النهاية، ساد التمفصل القومي. وقد تأول هوبزباوم ذلك على أنه عامل مساعد على الحرب، التي كانت حربًا بين دول قومية، والتي لم يكن يمكن تصورها لو أنه وقع إرساء مبادئ تشكيل المجموعة المتعلقة بصراع الطبقات على أنها صحيحة من الناحية الموضوعية. (Hobsbawm, 1990: 130).

لم يمارس هوبزباوم تحليل الخِطاب، ولكن تحليله، كما قدمناه، يصلح مثالًا لما يمكن أن يكون عليه تحليل العمليات الخِطابية والسياسية في تحليل الخِطاب. هذا النوع من التحليل يركز على التمفصلات التي تشكل مجموعات معينة من خلال التمثيل، ويبحث في الأفهام التي تتضمنها للمجتمع. عند دراسة الهوية الجماعية (أو الفردية) في تحليل الخِطاب، فإن نقطة البداية تتمثل في تحديد مواقع الذات -الفردية أو الجماعية- التي تعيّنها الأبنية الخِطابية على أنها مناسبة. وهو ما يمكن أن يتم بالبحث عن المعقد الذي تنتظم حوله الهوية. ويمكن أن يكون «المهاجر» أو «ربة البيت» أو «العامل».

بذلك يمكن المرء أن يبحث في الطريقة التي تم بها ملء المعقد بالدلالة على نحو علاقي من خلال تسويته ببعض الدوالّ ومقابلته بأخرى. فمن المهم أن تكون لنا صورة عن الكيفية التي تتصارع بها خِطابات مختلفة لتقسيم الاجتماعي إلى مجموعات بطرائق مختلفة،

ولملء مختلف الدوالّ الرئيسة بمحتويات مختلفة من خلال التسوية بينها وبين دوالّ مختلفة. مثال ذلك أن إدراج «الرجل الجديد»(*) مثّل تحديًا للخِطاب التقليدي عن الرجولة الذي يقابل بين «الرجل» و«المشاعر». إن بناء مواقع الذات والهويات، بالتالي، هو ساحة معركة حيث تتصارع مجموعات مختلفة من العناصر لبسط سيطرتها. في القسم التالي، نقدم بشيء من التفصيل تنظير لاكلاو وموف للصراع.

التنازع والهيمنة

كان الصراع على تكوين الدلالة موضوعًا مستمرًا في هذا الفصل. وفي منظور نظرية الخِطاب، فإنّ النزاع والصراع يعمّان الاجتماعي حتى يصبح الصراع مركزًا أساسيًّا لتحليلات معينة. ونحن نلقي الآن نظرة فاحصة على كيفية فهم النزاعات العدائية نظريًّا داخل إطار نظري للخِطاب.

تتمثل نقطة الانطلاق في نظرية الخِطاب في أن الخِطاب لا يمكن أن يتأسس على نحو مكتمل، فهو في نزاع دائم مع خِطابات أخرى تعرف الواقع على نحو مختلف وتضبط موجهات أخرى للفعل الاجتماعي. في فترات تاريخية محددة، قد يبدو بعض الخِطابات طبيعيًّا وقد يكون نسبيًّا بلا منازع، فعلى هذه الظاهرة يحيل مفهوم الموضوعية. لكن الخِطابات المطبعنة لا تتأسس أبدًا على نحو نهائي، ويمكن لحظاتها أن تعود من جديد عناصر، وبالتالي موضوعات لتمفصلات جديدة.

(*) تشير عبارة «الرجل الجديد» إلى تصوّر جديد للرجل هو ثمرة من ثمار الحركة النسوية. والرجل الجديد يختلف عن الرجل التقليدي القوي والقاسي، فالرجل الجديد أكثر عاطفية يهتم بأعمال محسوبة عادة على المرأة مثل الطبخ والموضة، وهو يقتسم الواجبات مع زوجته ويرعى شؤون الأطفال والمنزل...

يحصل التنازع الاجتماعي عندما تشترك هويات مختلفة في استبعاد كل منها الأخرى. ورغم أن الذات تمتلك هويات عديدة، فإنه ليس على هذه الهويات أن ترتبط على نحو عدائي بعضها بالآخر. والآثار المترتبة على مثال هوبزباوم هي أن المرء يمكن أن يكون «عاملًا» و«إسكتلنديًّا» في الوقت ذاته. ولكن عندما تستبعد هوية العامل واجبات تجاه البلد في الحرب، مثلًا، أو عندما تدعو الهوية القومية الناس إلى قتل أولئك الذين يعتبرونهم زملاءهم في العمل في بلدان أخرى، فإن العلاقة بين الهويَّتين تصبح عدائية. فالهويتان ستكون لهما مطالب متناقضة على علاقة بالأعمال نفسها في بقعة مشتركة، وستقوم إحداهما حتمًا بإعاقة الأخرى. فكل من الخِطابات الفردية التي تشكل كل هوية هي جزء من حقل الخِطابية الخاص بالأخرى، وعندما ينشأ تنازع، فإن كل شيء استبعده الخِطاب الفردي يهدد بتقويض وجود الخِطاب وثبات الدلالة (Laclau, 1990: 17). وبذلك تصبح عَرَضيته، وعَرَضية الهويات التي شكلته، واضحة[22].

بذلك، فإنه يمكن العثور على العداوات حيث تتصادم الخِطابات. والعداوات يقع إنهاؤها من خلال **تدخلات مهيمنة**. والتدخل المهيمن

---

(22) في Laclau (1998) يميز المؤلف بين «التنازع الاجتماعي» و«الانسلاخ». ويحيل الانسلاخ على الشرط العام القاضي بأن كل الهويات تبنى من خلال استبعاد خارج تكويني، يهدد بدوره على نحو متواصل بتدمير كل ثبات للهوية (ص39). ما من خِطاب يمكنه أن يوفر بنية ثابتة ومكتملة، والانسلاخ هو عبارة عن اختلال البنية بفعل قوى قادمة من الخارج التكويني (ص50). و«التنازع الاجتماعي» هو إحدى السبل لمجابهة الانسلاخ. وهنا يقع إسقاط الانسلاخ على عدو، حيث يُحمّل كلّ خِطاب من خِطابات الهوية المسؤولية لـ «الآخر» لفشله في تشكيل هوية مكتملة وثابتة.

هو تمفصل يعيد تشكيل الوضوح بالاعتماد على القوة (Laclau, 1993b: 282f.). من ثم، كان سبب تجنيد الجنود في الحرب العالمية الأولى من بين «العمال» أن الهوية القائمة للعامل تم محوها من خلال التدخل المهيمن لمصلحة هوية قومية.

«الهيمنة» مماثلة للـ«خِطاب» لأن كلا المصطلحين يدل على تثبيت لعناصر في لحظات. لكن التدخل المهيمن يحقق هذا التثبيت عبر الخِطابات التي تتصادم بعدوانية. يتقوض خِطاب من الخِطابات انطلاقًا من حقل الخِطاب الذي يكون بالانطلاق منه طغيان خِطاب آخر عليه، أو انحلال له فيه، من خلال إعادة مفصلة عناصره. وينجح التدخل المهيمن عندما يتوصل خِطاب إلى الانفراد بالسيطرة، بعد أن كان هناك تنازع، وإنهاء للنزاع. مثال ذلك عندما تواجَهَ الناس من قوميات مختلفة في الحرب العالمية الأولى، فإن ذلك مَثَلَ علامة على أن المفصلة المهيمنة للناس على أنهم «ألمان» و«فرنسيون» تفوقت على حساب مفصلة الناس على أنهم «عمال». من ثم، فإن «التدخل المهيمن» هو عملية تجرى في بقعة معادية، و«الخِطاب» هو النتيجة، أي التثبيت الجديد للدلالة.

إن تأسيس الخِطابات المهيمنة على أنها موضوعية وانحلالها في ساحات معارك سياسية جديدة هو بُعدٌ مهم من أبعاد العمليات الاجتماعية التي يَبحث فيها تحليل الخِطاب. لكن انحلال الخِطابات المهيمنة، بحسب لاكلاو، هو أيضًا وصف مناسب لممارسة تحليل الخِطاب ذاتها. ولاكلاو إذ يستعمل مفهوم التفكيك لدى دريدا (Derrida) لالتقاط مثل هذه التدخلات، فهو يصف التفكيك والهيمنة على أنهما «وجهان لعملية

واحـدة» (Laclau, 1993b: 281). فالهيمنة هي التمفصل العَرَضي للعناصر في بقعة غير محددة والتفكيك هو العملية التي تبين أن التدخل المهيمن عَرَضي ـ وأن العناصر كان يمكن أن تأتلف على نحو مختلف (Laclau, 1993b: 281f.). بذلك، فالتفكيك يكشف عدم القابلية للتحديد، بينما يقوم التدخل المهيمن بطبعنة تمفصل معين (انظر: Torfing, 1999: 103). إن تحليل الخِطاب يهدف إلى تفكيك الأبنية التي نعتبرها مكتسبة، فهو يسعى إلى بيان أن التنظيم المعطى للعالم هو ثمرة عمليات سياسية لها تبعات اجتماعية، فإذا وقعت ـعلى سبيل المثالـ تسوية «المهاجرين» في خِطاب معطى مع «الجريمة»، فإن محلل الخِطاب بوسعه أن يبين كيف أن هذه المزاوجة وقع تأسيسها خِطابيًّا وما هي تبعاتها على كل من «المهاجرين» و«السكان الأصليين» على حد سواء.

لكن محلل الخِطاب، مثل أي شخص آخر، ليس له مدخل إلى وجهة نظر متميزة خارج أبنية الخِطاب، ولذلك فإن التفكيك يتخذ من الأبنية المعطاة منطلقًا له:

> «حركات التفكيك لا تطلب(*) الأبنية من الخارج. فهي لن تكون ممكنةً وفعالة، ولا يمكن أن تصيب أهدافها بدقة، إلا بسُكنى تلك الأبنية» (Derrida, 1998: 24).

(*) آثرنا استعمال كلمة «تطلب» بمعنى الحركة الهجومية في اتجاه شيء ما، كما في الاستعمال القرآني لهذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ (الأعراف: 54) وهو أقرب إلى كلمة (sollicitent) في النص الأصلي، وقد ترجمت في النص الإنكليزي ترجمة تأويلية على معنى الهدم (destroy). قارن مع نص دريدا باللغة الفرنسية:

Jacques Derrida, *De la grammatologie* (Paris: Les éditons de minuit, 1967), p. 39.

إن تركيز محلِّل الخِطاب غالبًا ما ينصب بالتحديد على الخِطابات نفسها التي يريد أن يحللها. وفي كل الأحـوال، فإن تركيز محلل الخِطاب ينصب غالبًا على هذه البنية أو تلك من أبنية الخِطاب. وعلى الرغم من أن تحليل الخِطاب يحاول أن ينأى بنفسه عن تلك الخِطابات و«أن يقدمها كما هي»، فلا أمل لنظرية من هذا النوع في الإفلات من الخِطابات وقول الحقيقة المحض، الحقيقة التي هي بناء خِطابي في حد ذاتها وعلى الدوام.

تتقاسم كل المقاربات البنائية الاجتماعية للبحث الاجتماعي والثقافي هذه المعضلة. ولكن المقاربات تختلف في طريقة معالجة ـأو فشل معالجةـ هذا المشكل. وقد أقر لاكلاو وموف به على نحو موجز في مقدمة **الهيمنة والاستراتيجية الاشتراكية** (1985: 3)، لكنهما لم يحددا آثاره بالنسبة إلى موثوقية نظريتهما الخاصة. وقد حاول باحثون آخرون معالجة المشكل من خلال الانعكاسية (انظر الفصلين 4 و6). وفي كل الأحوال، فإن نتيجة البحث ـتحليل الخِطاب المحدد مثلًاـ هو نوع من التدخل السياسي: تمفصل عَرَضي من العناصر يعيد إنتاج الخِطابات المعطاة أو يعترض عليها في صراع لا ينتهي أبدًا على تعريف العالم.

استعمال نظرية الخِطاب

وكما أشرنا، فإن لاكـلاو ومـوف لـم يجريا تحليلات تفصيلية للمواد الاختبارية ذاتـهـا. وعندما يعاينان خِطابات معينة، فإن اهتمامهما ينصب عليها باعتبارها ظاهرةً مجردة أكثر من كونها موارد

يعتمد عليها الناس ويقومون بتحويلها خلال ممارسة حياتهم اليومية (انظر الرسم 2.1). ولكن هذا لا يعني أن نظرية لاكلاو وموف أو مفاهيمهما لا يمكن استعمالها في تحليلات اختبارية مفصلة[23]. وهو ما يتطلب قليلًا من الخيال فحسب. ونحن نقوم هنا بحوصلة بعض مفاهيم لاكلاو وموف التي نجدها مجدية باعتبارها أدوات للتحليل الاختباري:

- المعاقد والدوالّ الرئيسة والأساطير التي يمكن أن توسم مجتمِعة بالدوالّ المفاتيح في تنظيم الخِطاب،
- ومفهوم سلاسل التكافؤ الذي يحيل على استثمار الدوالّ المفاتيح ذات المدلول،
- ومفاهيم متعلقة بالهوية: تكوين المجموعة والهوية والتمثيل،
- ومفاهيم لتحليل النزاعات: الدوالّ المتغيرة والتنازع والهيمنة.

لنبدأ أولًا، بمختلف الدوالّ المفاتيح: المعاقد والدوالّ الرئيسة والأساطير. بصفة عامة، تُنظم المعاقد الخِطابات («الديموقراطية الليبرالية» مثلًا)، وتُنظم الدوالّ الرئيسة الهوية («الرجل» مثلًا)، وتُنظم الأساطير الفضاء الاجتماعي («الغرب» أو «المجتمع» مثلًا). فكل هذه المفاهيم يحيل على الدوالّ المفاتيح في التنظيم الاجتماعي للدلالة. وعندما يقع تحديد الدوالّ المفاتيح ضمن مادة اختبارية معينة، يمكن البحث أن يبدأ في الكيفية التي تنتظم بها الخِطابات والهوية والفضاء الاجتماعي على نحو خِطابي. ويتم ذلك بدراسة

(23) انظر: Howarth et al. (2000) and Norval (1996).

الكيفية التي تترابط بها الدوالّ المفاتيح مع بقية العلامات. ما تشترك فيه الدوالّ المفاتيح هو أنها كلها علامات فارغة: أي إنها لا تعني شيئًا تقريبًا في ذاتها، حتى ترتبط، من خلال سلاسل التكافؤ، مع علامات أخرى تملؤها بالدلالة. «الديموقراطية الليبرالية» تصبح ديموقراطية ليبرالية من خلال ترابطها مع حاملات أخرى للدلالة من قبيل «الانتخابات الحرة» و«حرية التعبير». وبالبحث في سلاسل الدلالة التي تقوم الخِطابات بتجميعها على هذا النحو، يمكن المرء أن يحدد تدرُّجيًّا الخِطابات (والهويات والفضاءات الاجتماعية). ومن المهم أن نتذكر أن الممارسات غير اللغوية والأشياء هي أيضًا، بحسب لاكلاو وموف، جزء من الخِطابات. وبالنتيجة، فمراقبو الانتخابات وصناديق الاقتراع والإعداد المادي للبرلمان تنتمي إلى خِطاب الديموقراطية الليبرالية.

إن الهويات الفردية والجماعية وخرائط الفضاء الاجتماعي يمكن كذلك أن تدرس من خلال تتبع توليفات الدلالات في سلاسل التكافؤ. وفضاء اجتماعي من قبيل «الغرب» يربط على نحو نمطي جزءًا جغرافيًّا من العالم، على سبيل المثال، بـ«الحضارة» و«الإنسان الأبيض» و«الكنيسة المسيحية» و«المؤسسات الديموقراطية الليبرالية». وهنا نرى مرة أخرى أن العناصر في سلاسل التكافؤ هي على حدٍّ سواء لغوية وغير لغوية. ونرى كيف تنشأ على نحو علاقي دائمًا كيانات (خِطابات، أو هويات، أو فضاء اجتماعي) في علاقة بشيء مختلف عنها. ويقوم الغرب في مقابل بقية العالم الذي لا يُقبَل آليًّا على أنه متحضر وديموقراطي، بل يُعرف بدلًا من ذلك

بأنه «همجي» و«ملوّن». وتحليل «الآخـر» الذي يقترن في نشأته بـ «نحن» يمكن أن يقدم فكرة عمّا يستبعده خِطاب معطى عن ذواتنا وعن تبعات هذا الاستبعاد. وفي الحالة المشار إليها أخيرًا، فإن بقية العالم وقع استبعاده من الغرب ـ فهو مختلف تمامًا ولا تعلق له به. لكن هذا البناء للغرب يستبعد كذلك وجود الهمجية فيه، لأن الغرب يعرّف بالتحضر في مقابل همجية بقية العالم.

مع ذلك، يعتبر بعض الناس أن الهمجية توجد أيضًا في الغرب، وهو ما يشير إلى أن فهم أسطورة «الغرب» الذي وُصف للتو، ليس محل إجماع. «الغرب» هو (مثل «الديموقراطية» و«الرجل») دال متغير، تتصارع خِطابات مختلفة على ملئه بمدلولات مختلفة. وبصفة عامة، فإن النقطة النظرية للاكلاو وموف وهي أن الخِطابات ليست ثابتةً بالكامل وأنها غير متنازع عليها يمكن تحويلها إلى موجهات منهجية تتعلق بتعيين موقع خطوط النزاع في مادة اختبارية ما. ما هي الأفهام المختلفة للواقع التي يمكن الرهان عليها، وأين يكون بعضها في تقابل عدائي مع بعضها الآخر؟ وماذا تكون التبعات الاجتماعية إذا توصل واحد منها أو آخر إلى بسط سيطرته والتحكم في تحديد مدلول الدال المتغير؟

باستعمال هذه المفاهيم، من الممكن أن ندرس اشتغال الخِطاب في المادة الاختبارية: كيف يقوم كل خِطاب بتشكيل المعرفة والواقع، والهويات والعلاقات الاجتماعية، أين تعمل الخِطابات على نحو خفي جنبًا إلى جنب، وأين تكون هناك عداوات مفتوحة،

وما هي التدخلات المهيمنة التي تسعى إلى تجاوز الصراعات - في أي السبل وبأي تبعات.

في ما يلي مثال موجز لتحليل من هذا القبيل يركز على مفاهيم «الهوية» و«التنازع» و«الهيمنة» باعتبارها أدوات تحليل. وتتمثل مادة عملنا في رسالتين: رسالة من امرأة تبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا، «الشقية»، موجهة إلى محررة صفحة النصائح(*) في مجلة نسائية دانماركية وقد أجابتها محررة الصفحة.

الجنس والعلاقات

الحب يصدم إيماني

أنا أبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا. أعاني منذ سن الحادية عشرة من مشكل نفسي كبير. من دون سبب، تحولت عن كوني سعيدة، وأصبحت لا أشعر بالأمان، مع كثير من عقد النقص. لم أحظ بأي نوع من أنواع التعليم، ولكنني الآن أمتلك مزرعة صغيرة وشقة صغيرة جميلة.

وتبعًا لوالدي فأنا عضو في جماعة دينية معينة.

منذ ثمانية أشهر قابلت خليلي، وهو ملحد بالكامل. في بداية علاقتنا كان يشرب حتى يفقد الوعي في نهاية كل أسبوع عندما يغادر المنزل، ثم يعود ويسمعني شتى صنوف الشتائم، ويسخر من إيماني، ويهددني بأشياء

(*) ترجمة لعبارة (agony aunt) وهي عبارة عن شخص يكون عادةً امرأة تقدم النصائح للناس في ما يتعلق بمشاكلهم الشخصية، في مجلة أو جريدة يومية. ولا يوجد مقابل عربي لهذه الكلمة، وقد احتفظنا من الأصل بكلمة العذاب، ونحن نجد في الجرائد العربية صفحات تحمل عناوين من قبيل «القلوب الحائرة» أو «القلوب المعذبة» في مقابل هذه التسمية.

كثيرة، لكنه لم يضربني قط. وعندما لا أفتح له الباب يبقى يقرع الجرس لساعات طويلة، وغالبًا ما ينتهي بإعلان أنه سيقطع علاقته بي، ولكنه بعد ذلك يندم في اليوم التالي على ذلك ويقول إنه سيقلع. هو الآن نادرًا ما يشرب، ولكنه عندما يفعل، يصاب بالجنون مرة أخرى ويصبح شريرًا. ولذلك أنا خائفة من أن أتركه يبتعد من ناظري.

تخليت عن حياتي في جماعتي الدينية. فعلت ذلك عندما اكتشفت أنني أحبه ولأنني لا أستطيع أن أحتفظ بحياتين اثنتين. كان الأمر صعبًا، وأنا الآن لم يعد لدي أصدقاء، في الأقل ليس على النحو نفسه. وكان من الصعب أيضًا على والدي تقبل الأمر، وفترت العلاقة بيننا لفترة من الوقت. لحسن الحظ، إن الوضع يتحسن الآن أكثر.

لقد تحدثنا بشأن الخطوبة والزواج، وأنا لست خائفة من ذلك، لكنني قلقة من أن ينتهي بنا الأمر في الاحتفالات ثملين. سأشعر بخيبة كبرى إذا انتهى الأمر على هذا النحو.

فكيف يمكن تجنب ذلك وهو قد نشأ في عائلة لا يفارقها السكر والعنف، والعائلة بأسرها تمتلك هذا التوجه؟ أنا أعرف الآن أنني أنا المتسببة في كل مشاكلي، فالمشكلة فيَّ أنا وفي حياتي العاطفية. ماذا ينبغي لي أن أصنع بحياتي؟ كيف لي أن أسيطر على عواطفي؟ وإلى من ألجأ؟

الشقية

أنا لا أفهم كيف يمكنك أن تتخلي عن إيمانك من أجل فتى فظيع مثله. أول شيء ينبغي لك القيام به بالتأكيد، هو أن تستعيدي إيمانك من جديد. ويمكنك الحفاظ عليه بيسر من دون أن تكوني عضوًا في مجموعة دينية.

لا بد من سبب لما أصابك من مشاكل نفسية في سن الحادية عشرة. أنت تحتاجين إلى العلاج كي تكتشفي نفسك من جديد. ولكي تجعلي شعائرك الدينية إيجابية بالنسبة إليك.

أما بالنسبة إلى صديقك، فأنا أحذرك بشدة من الارتباط به والزواج وإنجاب الأطفال حتى يثبت لك

خلال فترة طويلة من الزمن أنه مستقر وقادر على عدم الإفراط في الشرب. وأقترح عليك أن تذهبي للعلاج فترةً طويلة من الزمن.

أنا لا أعرف أين يمكنك تلقي العلاج في المنطقة التي تعيشين فيها. ولكن تمكنك استشارة طبيبك أو ربما القس المحلي الذي يكون عادة جيدًا في المساعدة النفسية في مثل حالتك.

بريجيت داغمار جوهانسن
(Birgit Dagmar Johansen)

المثال 1.2. مثال من صفحة المشاكل في المجلة النسائية الدانماركية كل شيء للسيدات (*Alt for Damerne*)، العدد 49/ 1997، ص 128. الترجمة من الدانماركية من عملنا.

«الشقية» كانت عضوًا في جماعة دينية غادرتها بعد أن التقت بخليلها. وهي تقدم نفسها على أنها ذات هويتين، أو موقعين للذات، فقد تخلت عن إحدى الهويتين المبنيّة حول الدال الرئيس، «دينية» أو «عضو في جماعة دينية»، لتتبنى هوية باعتبارها «خليلة». وقد أشارت إلى أنها عايشت الهويتين على أنهما متناقضتان وأنها لا تستطيع «أن تحتفظ بحياتين اثنتين»، ذلك أن هويتها باعتبارها «خليلة» (في الأقل مع هذا الرجل المعين) مساوية لـ«اللاديني» (كان «يسخر من إيماني»). وبمصطلحات نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف، فقد كانت الهويتان في علاقة تنازع إحداهما مع الأخرى منذ أن أصبحت إحداهما تستبعد الأخرى: فهي باعتبارها خليلة لا تريد أن تكون متدينة، وباعتبارها متدينة لا تريد أن تكون خليلة.

داخل الكون الذي بنته، فإن الحل الوحيد يتمثل في اختيار هوية من اثنتين، فمن جهة كانت الحياة مع الخليل التي وقعت

تسويتها بالحب والإلحاد، ومن الجهة الأخرى الجماعة الدينية، وأبواها وأصدقاؤها. وقد أجرت تدخلًا مهيمنًا لمصلحة هويتها باعتبارها خليلة («تخليت عن حياتي في جماعتي الدينية. فعلت ذلك عندما اكتشفت أنني أحبه»)، ولم تكن تطلب النصيحة من محررة صفحة المعذبين بشأن هذا القرار. ما كانت تريد معرفته هو كيف لها أن تمنع خليلها من تعاطي الخمرة، وكيف لها هي نفسها أن تشعر بتحسن.

من خلال قراءة الرسالة، يساورنا الشك في أنها نجحت في تأسيس الهيمنة التي ادعتها، فالجزء الأساس من الرسالة يتعلق بالنزاع بين هويتين وقرارها باستبعاد إحداهما، على الرغم من أن الأمر لا صلة له بسؤالها المخصوص الموجه إلى صفحة المشاكل. إضافةً إلى ذلك، توجد هفوة نحوية: «وتبعًا لوالدَي **فأنا** عضو في جماعة دينية معينة» (التشديد من عندنا) بدل «كنتُ».

بوضوح، أسست محررة صفحة النصائح، بريجيت داغمار جوهانسن، جوابها عن هذا الشك، فقد تحدت التدخل المهيمن الذي قامت به «الشقية» («أنا لا أفهم كيف يمكنك أن تتخلي عن إيمانك من أجل فتى فظيع مثله»)، وهي تقترح أن يُمفصل واقعها على نحو مختلف. وعلاوة على ذلك، فإن جوابها يحدد نزاعًا في حياة المرأة الصغيرة ـ ولكن ليس مقدار النزاع بين «الإيمان» و«الخليلة» أكبر من النزاع بين «الخليلة» و«الصحة النفسية» («أما بالنسبة إلى صديقك، فأنا أحذرك بشدة من الارتباط به والزواج وإنجاب الأطفال حتى يثبت لك، خلال فترة طويلة من الزمن، أنه مستقر وقادر على عدم

الإفـراط في الشرب. وأقترح عليك أن تذهبي للعلاج فترة طويلة من الزمن»). «الصحة النفسية» هي أيضًا محور متكرر في رسالة «الشقية»، لكن من دون أن يقع ربطه ببقية أجزاء الرسالة («أنا أعرف الآن أنني أنا المتسببة في كل مشاكلي، فالمشكلة فيَّ أنا وفي حياتي العاطفية»). في المقابل، فقد وقع ربط «الصحة النفسية» في جواب جوهانسن ضمن سلاسل تكافؤ مع «العقيدة» و«العلاج» و«تغير الخليل» جميعًا. فجواب جوهانسن، إذًا، يعيد مفصلة العناصر في رسالة «الشقية»، ويبني بالتالي وضعيتها والخيارات المتاحة لها على نحو جديد يشير إلى أعمال مغايرة لتلك الظاهرة. فالخيار الآن هو بين «الإيمان» و«العلاج»، وتقريبًا «تغير الخليل» من جهة و«نقص الإيمان» و«الخليل المدمن على الكحول» و«البؤس النفسي» من جهة أخـرى. وهـذا التمفصل يشير إلى حل هيمنيٍّ آخر مختلف عن ذلك الذي ارتأته كاتبة الرسالة لنفسها: ينبغي عليها أن تستثمر في هويتها باعتبارها «دينية» وأن تبدأ في التعامل الجدي مع هوية «الخليلة» فحسب عندما يتغير الرجل.

في الفصلين التاليين، سنقوم بوصف كيفية إجراء تحليل الخِطاب في التحليل النقدي للخِطاب وعلم نفس الخِطاب تباعًا، انطلاقًا من صوغ أسئلة البحث، إلى إنتاج المادة الاختبارية وتحليل نتائج البحث وعرضها. ولا يوفر لاكلاو وموف مثل هذا الدليل للتعليمات، ولكن العديد من المراحل والتوجيهات التي ترجع إلى المقاربات الأخرى يمكن أن تستعمل في التحليل على طول خطوط نظرية الخِطاب للاكلاو وموف. وفي المقابل، فـالأدوات الراجعة لمقاربة لاكلاو

وموف، مثل تلك التي عرضناها للتو، يمكن تصديرها إلى الدراسات التي تستعمل التحليل النقدي للخِطاب أو علم نفس الخِطاب. وسواء أراد المرء أن يعمل عبر المقاربات أو أن يستعمل تحليل لاكلاو وموف للخِطاب وحده، فإن الخطوات والتوصيات التي نعرضها في الفصول التالية أعدت بحيث يمكن المرء أن يعتمد عليها لبناء إطار عمل يناسب مشروعه الخاص.

العَرَضية والاستمرارية

الآن، يجب أن يكون واضحًا أن نقطة الانطلاق في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف هي أن كل شيء عَرَضي. فكل الخِطابات والتمفصلات، وبالنتيجة كل أبعاد الاجتماعي كان يمكن أن تكون مختلفة، ويمكن أن تصبح مختلفة. وقد أثارت هذه الفرضية الأساس نقدًا للاكلاو وموف لمبالغتهما في تقدير إمكان التغيير. (كأمثلة لذلك: Chouliaraki, 2002; Chouliaraki and Fairclough, 1999; Larrain, 1994). وتدعي ليلي تشولياراكي ونورمان فركلاف (1999: 125)، مثلًا، أن لاكلاو وموف تغاضيا عن حقيقة أنه ليس كل الأفراد والمجموعات يحظون بإمكانات متساوية لمفصلة العناصر بطرائق جديدة، وبالتالي لإحداث التغيير. وهما يشيران، مثلًا، إلى الوضعية التي يكون المصنّع فيها مجبرًا من الزبون على الالتزام بمعايير محددة للجودة مضمَّنة في الوثائق الخاصة بإجراء العمل (1999: 127ff.). وذلك يستلزم في مصنع الشركة المُصنعة اعتماد بعض الممارسات الجديدة، أي وتيرة جديدة في

تنظيم العمل وطرائق جديدة في الكلام على إجرائه (كيفية تقسيمه، وتصنيفه، وتوثيقه). والشركة المصنعة مجبرة على تلبية طلبات الزبون إذا كانت تريد الحفاظ على العقد، والعمال مجبرون على القيام بالشيء ذاته إذا كانوا يريدون الحفاظ على وظائفهم. الناس في المصنع يغيرون خِطابهم لتمفصل العناصر بطرائق جديدة، لكن ليس نتيجة لاختيارهم الخاص. وبحسب تشولياراكي وفركلاف، فإن هذا المثال يبين أن خِطابات الناس تخضع غالبًا لقيود لا تتأتى من مستوى الخِطاب، ولكن من علاقات التبعية البنيوية. وتشملُ الشروطُ البنيوية المهمة التي يمكن أن تَحُد من إمكانيّات الفاعلين الطبقةَ والانتماء العرقي ونوع الجنس. ويذهب تشولياراكي وفركلاف إلى أن لاكلاو وموف تغاضيا عن القيود البنيوية بسبب أن تركيزهما على العَرَضية كان كبيرًا: أي أن كل شيء هو في حالة تغير مستمر وكل الاحتمالات واردة. ويعتبر تشولياراكي وفركلاف أنه من المهم معاينة مجال بنيوي يقع فيه إنشاء الأبنية اجتماعيًّا ولكنها تكون راكدة ويصعب تغييرها، في الأقل بالنسبة إلى المجموعات المهيمن عليها. وإضافة إلى المجال البنيوي، فإنهما يقترحان مجالًا عَرَضيًّا خاصًّا بالأبعاد التي يمكن التفاوض بشأنها وتغييرها.

نحن نتفق مع تشولياراكي وفركلاف على أهمية إدراج اعتبارات الاستمرارية والقيود في أي تحليل للاجتماعي، ونتفق معهما أيضًا على أن هذا البعد قد غُمِط حقه في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف، كما في إشارتهما، مثلًا، إلى «**الإغراق المتواصل لكل خِطاب بلانهائية حقل الخِطابية**» (1985: 113، التشديد في النص الأصلي).

ومع ذلك، فإن الاهتمام بكل من الاستمرارية وتوزيع إمكانات الفعل هو أبعد ما يكون من الغياب في نظرية الخِطاب[24].

أولًا وقبل كل شيء، حتى إن كان كل شيء مبدئيًّا قابلًا لأن يكون مختلفًا، فإن ذلك لا يعني أن كل شيء هو في حالة تغير مستمر أو أن التغيير هو بالضرورة يسير. ويميز لاكلاو وموف بين الموضوعي والسياسي من أجل تأكيد أنه، على الرغم من أن كل شيء عَرَضي، فإنه يوجد دائمًا حقل موضوعي لخِطاب مترسب، أي لسلسلة طويلة من الترتيبات الاجتماعية التي نعتبرها مكتسبة، وبالتالي لا نعيد فيها النظر أو نحاول تغييرها. وثانيًا، هما يعترفان بأنّه ليس كل الفاعلين يمتلكون إمكانات متساوية لفعل أشياء وقولها بطرائق جديدة، ولأن تقبل تمفصلاتهم الجديدة. ففي مقاربة لاكلاو وموف، يُفهم الفاعلون ـ سواء أكانوا جماعات أم أفرادًا ـ على أنهم مواقع للذات تحددها الخِطابات. ولا تتاح للجميع فرص متساوية للنفاذ إلى مواقع الذات، وفي مجتمعنا، فإن القيود يمكن، مثلًا، أن تكون دوالّ مقولية من قبيل الطبقة، والانتماء العرقي، ونوع الجنس. وكما أشرنا سابقًا، فإنه توجد حدود لما يمكن المريض أن يقوله خلال الفحص الطبي (إذا كان المريض يريد أن يؤخذ على محمل الجد). ويتمثل جزء من مهام تحليل الخِطاب في دراسة كيف يقع تصنيف الناس وكيف يؤثر ذلك في إمكانات الفعل لديهم. لذلك، فإن نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف تتضمن تصورات للاستمرارية والقيد، ولكننا نتفق

---

(24) انظر كذلك مناقشتنا للعرضية في مقابل الاستمرارية ضمن نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف الصفحة 84.

بالمقدار نفسه مع تشولياراكي وفركلاف في أن لاكلاو وموف لم يوليا في نظريتهما هذا الجانب من الممارسة الاجتماعية ما يستحقه من اهتمام. لقد اعترف لاكلاو وموف بوجود مجالات اجتماعية واسعة من الثبات والاستمرارية، ولكنهما لم يحددا كيف يمكن التعرف إلى وجوه التثبيت ودراستها في المجالات الاجتماعية المختلفة.

ونحن نقترح أن التقدم في هذا الاتجاه يتمثل في إدماج مفهوم «نظام الخِطاب» في مقاربة لاكلاو وموف. وكما سنبين في الفصل الثالث، فإن التحليل النقدي للخِطاب يستعمل هذا المفهوم، على الرغم من الاختلاف الطفيف عن مقترحنا الحالي. ويعمل لاكلاو وموف بالاعتماد على مفهومين: «الخِطاب» و«حقل الخِطابية»، وبينما يُخصَّص مصطلح «الخِطاب» للتثبيت الجزئي للمدلول، فإن «حقل الخِطابية» أعسر في التحديد، فهو المصطلح المخصص لفائض الدلالة، أي لكل شيء وقع استبعاده من الخِطاب المحدد. ولكن كما أسلفنا، فإنه من غير الواضح إن كان المفهوم يحيل على أي مدلول على الإطلاق خارج الخِطاب المحدد، أو إن كان على نحو أضيق يحيل على الأنظمة التي يحتمل أن تكون متنافسة وإلى شذرات من المدلول فحسب. وقد تساءلنا في مناقشتنا إن كانت كرة القدم، مثلًا، تنتمي إلى حقل الخِطابية (field of discursivity) للخِطاب الطبي الغربي التقليدي، بما أن كرة القدم لا تنتمي إلى الخِطاب الطبي، أم أن «حقل الخِطابية» يجب أن يحتفظ به ليغطي الدلالات التي تمثل تهديدًا محتملًا ضمن المجال ذاته فحسب، ومثال ذلك خِطابات العلاج البديل في حالة الخِطاب الطبي. ونحن

نقترح أن يقع الاحتفاظ بهذين الاستعمالين للمفهوم منفصلين، ونعتقد أن لاكلاو وموف، إذ تجاهلا القيام بذلك، لم يوليا العلاقة بين الخِطابات المختلفة ما تستحقه من تنظير، ونتيجة لذلك لم يوليا مسألة الاستمرارية في مقابل التغيير حظها من التنظير.

في صياغتنا الجديدة يحيل «الخِطاب» دائمًا على التثبيت الجزئي للمدلول، بينما يحيل «حقل الخِطابية» على أي مدلول فعلي أو محتمل خارج الخِطاب المحدد (أي أنّ كرة القدم تنتمي إلى حقل الخِطابية الخاص بالخِطاب الطبي). وفي ما بين الاثنين نقترح إدراج مفهوم «نظام الخِطاب»، الذي ينبغي أن يدل بالنتيجة على فضاء اجتماعي تغطي فيه الخِطابات المختلفة جزئيًّا الرقعة ذاتها التي تتنافس على ملئها بالدلالة كلٌّ على طريقته الخاصة (كرة القدم، مثلًا، لن تنتمي، آنذاك، إلى نظام الخِطاب نفسه في الطب الغربي)[25]. يمكن الآن صوغ العلاقة بين الخِطاب وخارجه باستعمال ثلاثة مفاهيم. يتواصل استعمال «الخِطاب» للدلالة على هيكَلة مجال

---

(25) يدرج لاكلاو وموف في نقطة واحدة مفهوم «التشكيل الخِطابي» (1985: 105 والصفحة التالية) المقتبس من فوكو (Foucault, 1972: Chap. 2). ونحن نفهم مفهوم فوكو، «التشكيل الخِطابي»، على أنه إطار للخِطابات المختلفة والمحتملة المتصارعة التي تعمل في الحقل ذاته. وهذا مطابق لما أطلقنا عليه، مستعملين مفهوم فركلاف، نظام الخِطاب. المشكل مع لاكلاو وموف هو أنه يبقى من غير الواضح إن كانا يشاركان في هذا الفهم لـ «التشكيل الخِطابي». وكما رأينا، يبدو أنهما يسويان بين «الخِطاب» و«التشكيل الخِطابي». وفي كل الأحوال، فهما لم يستعملا فعليًّا مفهوم «التشكيل الخِطابي» ـ فقد أدرجاه ثم أغفلاه.

مخصوص من لحظات. وتقع هيكَلة الخِطاب دائمًا عبر استبعاد المدلولات الأخرى الممكنة، والمصطلح المخصص لهذا الخارج العام هو «حقل الخِطابية». ولكن «نظام الخِطاب» يدل على خِطابين أو أكثر، يسعى كل منها جاهدًا ليتأسس في المجال ذاته. وبالنتيجة، يدل مصطلح «نظام الخِطاب» على النطاق الفعلي أو المحتمل للصراع الخِطابي. ولا بد لمصطلحي «التنازع» و«الهيمنة» من أن ينتميا في هذا البناء إلى مستوى «نظام الخِطاب»، و«التنازع» هو صراع مفتوح بين الخِطابات المختلفة في نظام خِطاب محدد، و«الهيمنة» هي حل الصراع من خلال إزاحة الحدود بين الخِطابات.

يُفهم «حقل الخِطابية» بذلك على أنه الخزان العام لكل الدلالات غير المضمنة في خِطاب محدد. وهذا المفهوم ضروري طالما أنه يؤكد عَرَضية كل الظواهر الاجتماعية وانفتاحها الأساس، مثال ذلك أن كرة القدم لا بد من أن تهدد، في لحظة معينة، بتقويض الخِطاب الطبي الغربي. ولكن في وضعية محددة، لا تكون كل الاحتمالات متساوية في رجحانها ولا تكون كل أبعاد الاجتماعي متساوية في انفتاحها. ولا يميز لاكلاو وموف بين هاتين الحالتين، وهما، بالتالي، لا يوفران أي مفهوم لتغطية الرجحان الذي تكون بعض المدلولات فيه أكثر احتمالًا من أخرى، والذي تكون فيه بعض الأبعاد موضوعات لصراعات مفتوحة في حين تبقى أبعاد أخرى غير مطروحة في لحظة معينة من الزمن. لكن تمييز لاكلاو وموف بين الموضوعي والسياسي وفر منفذًا لمفهوم مثل «نظام الخِطاب»، وبذلك وفر مزيدًا من التحليل لشروط إمكان الديمومة والتغيير.

لنختم بالتمثيل لتحليل من هذا النوع. كما أشرنا، يدل نظام ما للخِطاب على مجموعة من الخِطابات تشتغل في المجال الاجتماعي نفسه ـ كلها في صراع أو في توافق في ما بينها. مثال ذلك أن الجدل السياسي في الدانمارك حول الاتحاد الأوروبـي يمكن أن يفهم على أنه نظام خِطاب في بحث اختباري يهدف إلى الكشف عن موضوعات الصراع من ناحية والأبعاد المتفق على قبولها من ناحية أخرى. في الجدل حول الاتحاد الأوروبـي، مثلًا، فإنه من المفروغ منه أن الدانماركيين تربطهم صلة بالاتحاد الأوروبي من منظور قومي. وعلى الرغم من اختلاف الآراء حـول ماهية الدانماركية، فإن أغلب المتناظرين يفترضون أنها موجودة وأنها وثيقة الصلة بالأسئلة المطروحة عن الاتحاد الأوروبـي. في مقابل ذلك، يوجد صراع بين خِطابات مختلفة حول ما إذا كان للدانماركيين هوية أوروبية أم لا، وما هي الآثار المترتبة للهوية الأوروبية على الهوية القومية[26].

إن الجدل حول الاتحاد الأوروبـي يشير إلى أن احتمال ظهور هوية أوروبية أرجح من تلاشي الهوية الدانماركية، وذلك بسبب وجود صراع مفتوح حول الهوية الأوروبية، يجعل مثل تلك الهوية احتمالًا واقعيًا، في حين يوجد (تقريبًا) إجماع ضمني لا نزاع فيه حول وجود هوية قومية، يجعل من غير المحتمل أن تختفي فجأة باعتبارها مقولة مناسبة لتحديد الهوية. ولكن لا شيء مؤكد:

---

(26) انظر: (Larsen, 1999; forthcoming) للاطلاع على تحليل لكيفية تمفصل «أوروبا» على نحو مختلف في الخِطابات المختلفة في الدانمارك.

فمن الممكن أن تتوقف الدولة القومية عن أن تكون مصدرًا لتحديد الهوية، ومن الممكن أيضًا أن لا تظهر الهوية الأوروبية أبدًا. هذا الانفتاح للاحتمالات هو المقصود بالعَرَضية. لكن في الوقت الراهن، تنتمي مسألة الهوية القومية إلى مجال الموضوعية - فالهوية القومية ينظر إليها على أنها أمر مفروغ منه باعتباره طبيعيًّا، وهو بالتالي ليس موضع تساؤل. على العكس من ذلك، فإن مسألة الاتحاد الأوروبي تنتمي إلى مجال السياسي (إذا استعملنا مفهوم لاكلاو وموف للسياسة): فهو أمر نوقش بوضوح ووقع التناظر بشأنه، وتبعًا لذلك يكون تصور التغييرات الطارئة عليه أيسر. هذا النمط من التقويم للقيود على التغيير في مقابل احتمالات التغيير يتطلب مفهوم «نظام الخِطاب» الذي يمكن من خلاله فحص مختلف العلاقات الداخلية بين الخِطابات المختلفة. في الفصل التالي، نقوم بوصف استعمال مفهوم نظام الخِطاب ومناقشته باعتباره جزءًا من عرضنا التحليل النقدي للخِطاب، ونواصل تطويرنا المفهوم في الفصل الخامس.

3- التحليل النقدي للخِطاب

التحليل النقدي للخِطاب يوفر نظريات ومناهج للدراسة الاختبارية لعلاقة الخِطاب بالتطور الاجتماعي والثقافي في مجالات اجتماعية عديدة. وتستعمل تسمية «التحليل النقدي للخِطاب»، على نحو ملتبس، بطريقتين مختلفتين: يستعملها نورمان فركلاف (Fairclough, 1995a, 1995b) في أمرين لوصف المقاربة التي طورها هو، وعنوانًا لحركة أوسع داخل تحليل الخِطاب تعتبر عديد المقاربات جزءًا منها، بما في ذلك مقاربته الخاصة (Fairclough and Wodak, 1997). هذه الحركة الواسعة هي كيان فضفاض نوعًا ما ولا يوجد إجماع حول من ينتمي إليه[27]. وبينما تتكون مقاربة

---

(27) يحدد فركلاف وووداك، في دراسة استعرضا فيها حقل التحليل النقدي للخِطاب، المقاربات التالية على أنها تنتمي إلى الحركة الواسعة للتحليل النقدي للخِطاب: التحليل الفرنسي البنيوي للخِطاب (مثلاً Pecheux, 1982)؛ واللسانيات النقدية (مثلاً Fowler et al., 1979; Fowler, 1991)؛ والسيميائية الاجتماعية (مثلاً Hodge and Kress, 1988; Kress and van Leeuwen, 1996; Kress, Leite-Garcia and van Leeuwen, 1997)؛ والتحليل النقدي للخِطاب (Fairclough, 1989, 1992b, 1995a, 1995b)؛ والتحليل الاجتماعي العرفاني (مثلاً van Dijk, 1991, 1993)؛ والمنهج التاريخي للخِطاب (مثلاً Wodak, 1991; Wodak and Menz, 1990)؛ وتحليل القراءة (مثلًا Maas, 1989) =

فركلاف من مجموعة من الفرضيات الفلسفية، والمناهج النظرية، والمبادئ المنهجية الموجهة وتقنيات محددة للتحليل اللساني، فإن الحركة الواسعة للتحليل النقدي للخِطاب تتكون من عدة مقاربات بينها أوجه تشابه وأوجه اختلاف. وفي ما يلي سنقدم بإيجاز بعض العناصر المفاتيح المشتركة بين كل هذه المقاربات. وفي بقية الفصل سنقدم مقاربة فركلاف بما أنها، في رأينا، تمثل داخل حركة التحليل النقدي للخِطاب نظرية أكثر تطورًا ومنهجًا في البحث في التواصل والثقافة والمجتمع.

خمس سمات مشتركة

يمكن تحديد خمس سمات مشتركة بين المقاربات المختلفة للتحليل النقدي للخِطاب. وهي التي تمكّن من تصنيف المقاربات على أنها تنتمي إلى الحركة نفسها. وفي العرض التالي سنعتمد على الرؤية العامة لفركلاف وووداك (Fairclough and Wodak, 1997: 271ff.).

1. طابع العمليات الاجتماعية والثقافية والأبنية هو في جزء منه لغوي - خِطابي

يُنظر إلى الممارسات الخِطابية - التي من خلالها تُنتج النصوص (تُنشأ) وتُستهلك (تُتقبل وتُتأول) على أنها شكل مهم من أشكال

= ومدرسة دويسبرغ (مثلاً Jäger, 1993, Jäger and Jäger, 1992). ومن الجدير بالذكر أن ثلاثًا فقط من هذه المقاربات - إلى جانب المقاربة الخاصة بفركلاف - وُصفت بأنها تحليل نقدي للخِطاب من طرف أتباعها: الاجتماعية العرفانية، والسيميائية الاجتماعية، والمقاربة التاريخية للخِطاب.

الممارسة الاجتماعية التي تساهم في تكوين العالم الاجتماعي الذي يتضمن الهويات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية. وإنه إلى حد ما من خلال الممارسات الخِطابية في الحياة اليومية (عمليات إنتاج النص واستهلاكه) يعاد إنتاج الاجتماعي والثقافي وتغييره. ويترتب على ذلك أن بعض الظواهر المجتمعية ليست ذات طابع لغوي خِطابي.

إن هدف التحليل النقدي للخِطاب يتمثل في تسليط الضوء على البعد اللغوي الخِطابي للظواهر وعلى عمليات التغيير الاجتماعية والثقافية في الحداثة المتأخرة. وقد غطى البحث في التحليل النقدي للخِطاب مجالات مثل التحليل التنظيمي. (Mumby and Clair, 1997 مثلًا)، والبيداغوجيا (Chouliaraki, 1998)، والاتصال الجماهيري والعنصرية والقومية والهوية (Chouliaraki, 1999; van Dijk, 1991; Wodak et al., 1999)، والاتصال الجماهيري والاقتصاد (Richardson, 1998)، وانتشار ممارسات السوق (Fairclough 1993) والاتصال الجماهيري والديموقراطية والسياسات (Fairclough 1995a, 1995b, 1998, 2000).

ولا يشمل الخِطاب اللغة المكتوبة والشفوية فحسب، ولكن الصور البصرية أيضًا. ومن المقبول عمومًا أن تحليل النصوص المشتملة على صور بصرية يجب أن يعتد بالخصائص المميزة للسيميائية البصرية والعلاقات بين اللغة والصور. ومع ذلك، توجد نزعة في التحليل النقدي للخِطاب (كما هي الحال في تحليل الخِطاب بشكل عام) لتحليل الصور كما لو كانت نصوصًا لغوية. وأحد الاستثناءات من ذلك يتمثل في السيميائية الاجتماعية (كأمثلة لذلك:

Hodge and Kress 1988; Kress and van Leeuwen 1996, 2001) التي هي محاولة لتطوير نظرية ومنهج في تحليل النصوص المتعددة الوسائط، وهي النصوص التي تستعمل أنظمةً سيميائية متعددة مثل اللغة المكتوبة، والصور المرئية و/ أو الصوت.

2. الخِطاب مكوِّنٌ ومكوَّنٌ في آن واحد

بالنسبة إلى المحللين النقديين للخِطاب، يعتبر الخِطاب شكلًا للممارسة الاجتماعية هو في آن واحد مُكوِّنٌ للعالم الاجتماعي ومُكَوَّن من ممارسات اجتماعية أخرى. والخِطاب، باعتباره ممارسة اجتماعية، هو ذو علاقة جدلية مع الأبعاد الاجتماعية الأخرى، ولا يساهم في تشكيل الأبنية الاجتماعية وإعادة تشكيلها فحسب ولكنه يعكسها أيضًا. وعندما يحلل فركلاف كيف تشارك الممارسات الخِطابية في الإعلام في صوغ أشكال جديدة للسياسات، فهو يأخذ بعين الاعتبار أيضًا أن الممارسات الخِطابية تتأثر بالقوى المجتمعية التي ليس لها طابع خِطابي صرف (مثال ذلك بنية النظام السياسي والبنية المؤسسية لوسائل الإعلام). هذا التصور لـ«الخِطاب» يميز هذه المقاربة عن مقاربات أخرى أوْغَل في ما بعد البنيوية، على غرار نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف (انظر الرسم 1.1). وفي التحليل النقدي للخِطاب، فإن اللغة، باعتبارها خِطابًا، هي **في آن واحد** شكل من أشكال الفعل (قارن Austin, 1962) الذي من خلاله يتسنى للناس تغيير العالم، وشكل من أشكال الفعل المتموضع اجتماعيًّا وتاريخيًّا والذي هو في علاقة جدلية مع الأبعاد الأخرى للاجتماعي.

يشير فركلاف (1992b) إلى الأسرة باعتبارها مثالًا لكيفية تأثير الأبنية الاجتماعية في الممارسات الخِطابية. فالعلاقة بين الآباء والأبناء تتكون في جزء منها على نحو خِطابي، كما يقول، ولكن، في الوقت ذاته، إن العائلة مؤسسة لها ممارسات ملموسة، وعلاقات وهويات قائمة سلفًا. هذه الممارسات والعلاقات والهويات تكونت بالأساس على نحو خِطابي، ولكنها ترسبت بعد ذلك في المؤسسات والممارسات غير الخِطابية. وتعمل الآثار التكوينية للخِطاب جنبًا إلى جنب مع غيرها من الممارسات مثل توزيع المهام المنزلية. إضافةً إلى ذلك، تنهض الأبنية الاجتماعية بدور مستقل في تشكيل ووضع ضوابط الممارسات الخِطابية في الأسرة:

> «لا يتولد التكوين الخِطابي للمجتمع من العمل الحر للأفكار في عقول الناس، ولكن من الممارسة الاجتماعية التي تكون لها جذور راسخة في الأبنية الاجتماعية المادية الواقعية وتكون موجهة إليها» (Fairclough, 1992b: 66).

هنا يقترح فركلاف أن الخِطاب إذا كان ينظر إليه على أنه مُكوِّن فحسب، فذلك يناسب الادعاء بأن الواقع الاجتماعي ينبع من عقول الناس فحسب. ولكن، كما رأينا في الفصل الثاني، يوجد خلاف بين المنظّرين حول ما إذا كانت رؤية الخِطاب على أنه مُكوِّن بالكامل ترجع إلى هذا الشكل من المثالية. ويتصدى لاكلاو وموف بقوة، مثلًا، لهذا الاتهام بالمثالية على أساس أن تصور الخِطاب أنه مُكوِّن لا يستلزم أن الموضوعات المادية لا وجود لها ولكن بالأحرى أنها لا تكتسب معنى إلا من خلال الخِطاب.

3. الاستعمال اللغوي لا بد من أن يُحَللَ اختباريًّا داخل سياقه الاجتماعي

يستخدم التحليل النقدي للخِطاب على نحو ملموس، التحليل اللساني النصي للاستعمال اللغوي خلال التفاعل الاجتماعي. وهو ما يميزه عن كل من نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف التي لا تُجري دراسات نظامية اختبارية للاستعمال اللغوي، وعلم نفس الخِطاب الذي يُجري دراسات بلاغية ولكن غير لسانية للاستعمال اللغوي (انظر الرسم 2.1). والمثال الذي نقدمه في القسم النهائي من هذا الفصل يبين كيف يتم إجراء التحليل النصي في التحليل النقدي للخِطاب.

4. الخِطاب يشتغل أيديولوجيًّا

في التحليل النقدي للخِطاب، يوجد ادعاء بأن الممارسات الخِطابية تساهم في إنشاء وإعادة إنتاج علاقات غير متكافئة للسلطة بين المجموعات الاجتماعية، مثال ذلك العلاقات بين الطبقات الاجتماعية، وبين الرجل والمرأة، وبين الأقليات العرقية والأغلبية. ويتم فهم هذه الآثار على أنها آثار أيديولوجية.

وعلى النقيض من المنظرين للخِطاب، بما في ذلك فوكو ولاكلاو وموف، فإن التحليل النقدي للخِطاب لا يختلف تمامًا عن التقليد الماركسي في هذه النقطة. وبعض مقاربات التحليل النقدي للخِطاب تقوم بإسناد ذلك إلى رؤية فوكوية للسلطة على أنها قوة مُنشِئة للذوات والفاعلين، وذلك باعتبارها قوة مُنتِجة بدلًا من أن تكون مملوكة لأفراد، يمارسونها على الآخرين.

(انظر الفصل 1). ولكنهم، في الوقت ذاته، يختلفون عن فوكو في أنهم يستدعون مفهوم الأيديولوجيا في التنظير لإخضاع فئة اجتماعية لفئات اجتماعية أخرى. ويتمثل محور البحوث في التحليل النقدي للخِطاب وفقًا لذلك في كل من الممارسات الخِطابية التي تبني تمثيلات العالم والذوات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية بما في ذلك علاقات السلطة، والدور الذي تنهض به هذه الممارسات الخِطابية في تعزيز مصالح فئات اجتماعية معينة. ويُعرّف فركلاف التحليل النقدي للخِطاب على أنه مقاربة تسعى على نحو نظامي إلى أن تدرس «علاقات السببية والتحديد القائمة بشكل مبهم غالبًا بين (أ) الممارسات الخِطابية والأحداث والنصوص و(ب) أبنية اجتماعية وثقافية أوسع وعلاقات وعمليات [...] كيف تنشأ هذه العلاقات والحوادث والنصوص من علاقات السلطة والصراع على السلطة وتكون مشكّلة بها على نحو أيديولوجي [...] كيف يكون غموض هذه العلاقات بين الخِطاب والمجتمع في ذاته عاملًا لضمان السلطة والهيمنة» (Fairclough, 1993: 135, reprinted in Fairclough, 1995a : 132f.).

إن التحليل النقدي للخِطاب هو «نقدي» بمعنى أنه يهدف إلى الكشف عن دور الممارسات الخِطابية في الحفاظ على العالم الاجتماعي، بما في ذلك تلك العلاقات الاجتماعية التي تنطوي على علاقات غير متكافئة للسلطة. إن هدفه هو المساهمة في التغيير الاجتماعي باتجاه علاقات أكثر عدلًا للسلطة في عمليات التواصل وفي المجتمع عمومًا.

5. البحث النقدي

لا يمكن أن يفهم التحليل النقدي للخِطاب، بذلك، على أنه محايد من الناحية السياسية (كما تفعل العلوم الاجتماعية الموضوعية)، ولكن على أنه مقاربة نقدية ملتزمة من الناحية السياسية بالتغيير الاجتماعي. وباسم التحرر، تقف مقاربات التحليل النقدي للخِطاب إلى جانب الفئات الاجتماعية المضطهدة. ويهدف النقد إلى الكشف عن دور الممارسة الخِطابية في الحفاظ على علاقات غير متكافئة للسلطة، مع الهدف العام المتمثل في تسخير نتائج التحليل النقدي للخِطاب للنضال من أجل تغيير اجتماعي جذري[28]. واهتمام فركلاف ب «النقد التفسيري» و«الوعي النقدي باللغة»، الذي نعود إليه لاحقًا، هو موجه إلى تحقيق هذا الهدف.

الفروق بين المقاربات

في ما عدا تحديد هذه السمات الخمس المشتركة، توجد مع ذلك فروق كبيرة بين مقاربات التحليل النقدي للخِطاب في ما يتعلق بفهمها النظري للخِطاب والأيديولوجيا والمنظور التاريخي، وأيضًا في ما يتعلق بمناهجها في الدراسة الاختبارية للاستعمال اللغوي في

(28) إن طبيعة العمل النقدي ونتائجه اليوم موضوع جدل قوي داخل عدد من الحركات في العلوم الاجتماعية بما في ذلك ما بعد الماركسية، وما بعد البنيوية، والنسوية، وما بعد الحداثة. لمناقشة جيدة للدراسات النقدية الاجتماعية، انظر مثلًا (Calhoun, 1995). ولمناقشة جيدة للدراسات النقدية الثقافية، انظر (Kellner, 1989, 1995). وسوف نقوم بعرض مناقشة البحوث النقدية الاجتماعية في الفصل 6.

التفاعل الاجتماعي وآثاره الأيديولوجية. مثال ذلك، وكما سبق ذكره، أن بعض مقاربات التحليل النقدي للخِطاب لا تشارك فهم فوكو للسلطة بأنها منتجة. ومن بينها مقاربة فان دايك (van Dijk) العرفانية الاجتماعية، التي تختلف عن معظم الأخريات في كونها عرفانية (انظر الفصل 4 للاطلاع على نقد للعرفانية من منظور علم نفس الخِطاب). وسنعود لاحقًا إلى هذه الفروق في نهاية هذا الفصل.

التحليل النقدي للخِطاب لدى فركلاف

بنى فركلاف إطـارًا مفيدًا لتحليل الخِطاب باعتباره ممارسة اجتماعية، نقوم بوصفه تفصيلًا. وكما كان الحال مع لاكلاو وموف، نواجه هنا أيضًا انفجارًا في المفاهيم، بما أن إطار فركلاف يتضمن مجموعة من المفاهيم المختلفة وهي مترابطة ضمن منوال معقد متعدد الأبعاد.

إضافةً إلى أن مدلولات المفاهيم تختلف قليلًا عبر أعمال فركلاف المختلفة، فإن الإطار يخضع للتطوير المستمر. وفي عرضنا لنظرية فركلاف، نعتمد على كتب فركلاف الخِطاب والتغيير الاجتماعي (*Discourse and Social Change*) (1992b)، والتحليل النقدي للخِطاب (*Critical Discourse Analysis*) (1995a) وخِطاب وسائل الإعلام (*Media Discourse*) (1995b) وكذلك على الخِطاب خلال الحداثة المتأخرة (*Discourse in Late Modernity*) الذي أُلف بالاشتراك مع ليلي تشولياراكي (Chouliaraki and Fairclough, 1999) أما تلك الحالات التي تكتسي فيها التغيرات المفاهيمية أهميةً

بالغة لفهم الإطار، فإننا سنلفت الانتباه إليها. ونقدم في هذا القسم الأول إطار فركلاف من خلال تحديد بعض المفاهيم المركزية، ثم نصف كيفية ترابطها بعضها مع بعض. ونـردف ذلـك بواحد من الأمثلة الاختبارية الخاصة بفركلاف يوضح كيفية تطبيق الإطار.

كما ذكر آنفًا، إن فرقًا مهمًّا بين فركلاف (والتحليل النقدي للخِطاب إجمالًا) ونظرية الخِطاب ما بعد البنيوية يتمثل، في البداية، في أن الخِطاب لا يُنظر إليه على أنه مكوِّن فحسب، ولكن على أنه مكوَّن أيضًا. ويتمثل أمر مركزي في مقاربة فركلاف في أن الخِطاب شكل مهم من أشكال الممارسة الاجتماعية يعيد إنتاج المعرفة والهويات والعلاقات الاجتماعية، بما في ذلك علاقات السلطة، ويغيرها في آن واحد. وهو في الوقت ذاته مُشَكَّلٌ أيضًا من خلال ممارسات اجتماعيَّة وأبنية أخرى. من ثم، فإن الخِطاب في علاقة جدلية مع أبعاد اجتماعية أخرى. ويفهم فركلاف **البنية الاجتماعية** على أنها علاقات اجتماعية في المجتمع في كليته وفي مؤسسات محددة على حد سواء، وعلى أنها تتكون من عناصر خِطابية وغير خِطابية (Fairclough, 1992b: 64). ومن الممارسات التي هي أساسًا غير خِطابية، على سبيل المثال، الممارسة المادية التي يتضمنها بناء جسر، في حين أن ممارسات من قبيل الصحافة والعلاقات العامة هي أساسًا خِطابية (1992b: 66ff.).

في الوقت ذاته، ينأى فركلاف بنفسه عن البنيوية ويقترب من موقف يوغلُ في ما بعد البنيوية مؤكدًا أن الممارسة الخِطابية لا تعيد

إنتاج بنية خِطابية موجودة سلفًا، ولكن أيضًا تتحدى البنية باستعمال كلمات دالّة على ما يمكن أن يوجد خارج البنية (1992b: 66)[29].

وهو، مع ذلك، يَحِيدُ بطريقة دالّة عن نظرية الخِطاب ما بعد البنيوية، بالتركيز على بناء منوال نظري وأدوات منهجية للبحث الاختباري في التفاعل الاجتماعي اليومي. وهو، على النقيض من التوجهات ما بعد البنيوية، يؤكد أهمية القيام بالتحليلات النسقية للغة المنطوقة والمكتوبة في وسائل الإعلام والمقابَلات البحثية مثلًا (الرسم 2.1).

إن مقاربة فركلاف لتحليل الخِطاب مقاربة ذات توجه نصي تحاول الجمع بين ثلاث مدارس (Fairclough, 1992b: 72):

- التحليل النصي التفصيلي داخل حقل اللسانيات (بما في ذلك النحو الوظيفي لدى مايكل هاليداي Michael Halliday).
- التحليل الاجتماعي الكلي للممارسات الاجتماعية (بما في ذلك نظرية فوكو التي لا توفر منهجيةً لتحليل نصوص محددة).
- التحليل الاجتماعي الجزئي، وهو مدرسة تأويلية في علم الاجتماع (بما في ذلك المنهج الإثني وتحليل المحادثة)، حيث تعالج الحياة اليومية على أنها نتاج أعمال الناس التي يتبعون فيها مجموعةً من القواعد والإجراءات الشائعة.

يستعمل فركلاف التحليل النصي التفصيلي بغاية التوصل إلى فهم أفضل لكيفية الاشتغال اللساني للعمليات الخِطابية في

---

(29) مع ذلك، فإن فركلاف لم يشر إلى ما بعد البنيوية على نحو صريح هنا.

نصوص محددة، ولكنه ينتقد المقاربات اللسانية لتركيزها الكلي على التحليل النصي ولعملها بفهم تبسيطي وسطحي للعلاقات بين النص والمجتمع. بالنسبة إلى فركلاف، فإن التحليل النصي وحده ليس كافيًا لتحليل الخِطاب، لأنه لا يسلط الضوء على الروابط بين النصوص والعمليات والأبنية المجتمعية والثقافية. والحاجة ماسة إلى منظور متعدد التخصصات يجمع ضمنه المرء بين التحليل النصي والتحليل الاجتماعي. والفائدة الحاصلة من الاعتماد على المدرسة الاجتماعية الكلية هي أنها تجعلنا نعتدُّ بكون الممارسات الاجتماعية تتشكل من خلال الأبنية الاجتماعية وعلاقات السلطة وأن الناس لا يكونون غالبًا على وعي بهذه العمليات. وتتمثل مساهمة المدرسة التأويلية في أنها توفر فهمًا للكيفية التي يساهم بها الناس بفاعلية في بناء عالم محكوم بقواعد خلال ممارساتهم المعتادة (Fairclough, 1992b).

إن فهم الخِطاب على أنه مكوِّن ومكوَّن في آن إذًا، أمر مركزي في نظرية فركلاف، وهو يتصور العلاقة بين الممارسة الخِطابية والأبنية الاجتماعية على أنها معقدة ومتغيرة خلال الزمن، مخالفًا مقاربات التحليل النقدي للخِطاب التي تفترض درجة عالية من الاستقرار.

منوال فركلاف الثلاثي الأبعاد

مفاهيم أساسية

يطبق فركلاف مفهوم **الخِطاب** بثلاث طرائق مختلفة، ففي مدلوله الأكثر تجريدًا، يحيل الخِطاب على **استعمال اللغة**

باعتباره ممارسة اجتماعية. وقد استعملنا المصطلح، سابقًا، عدة مرات على هذا النحو، كما في العبارة «الخِطاب مكوِّن ومكوَّن في آن واحد». ويفهم الخِطاب، ثانيًا على أنه نوع اللغة المستعمل في مجال معين، كما في الخِطاب السياسي أو العلمي. ويستعمل الخِطاب، ثالثًا، على نحو ملموس جدًّا، على أنه اسم لشيء قابل للعدِّ (خِطاب، الخِطاب، الخِطابات، خِطابات) محيلًا إلى طريقة في الكلام تُكسب التجارب معنى من زاوية نظر مخصوصة. في هذا المعنى الأخير، يحيل المفهوم على كل خِطاب يمكن تمييزه عن خِطابات أخرى، كما في الخِطاب النسوي، أو خِطاب الليبرالية الجديدة، أو الخِطاب الماركسي، أو خِطاب المستهلك، أو خِطاب المدافعين عن البيئة كأمثلة (Fairclough, 1993: 138، أعيد طبعه في: Fairclough, 1995a: 135). ويقصر فركلاف مصطلح الخِطاب على الأنظمة السيميائية من قبيل اللغة والصور على النقيض من لاكلاو وموف، اللذين يتعاملان مع كل الممارسات الاجتماعية على أنها خِطاب. وسنعود لاحقًا إلى هذا الجانب من نظرية فركلاف في نهاية هذا الفصل.

ويساهم الخِطاب في بناء:

- الهويات الاجتماعية،
- والعلاقات الاجتماعية،
- وأنظمة المعرفة والدلالة.

بذلك تكون للخِطاب وظائف ثلاث: وظيفة تحديد الهوية، ووظيفة «علاقية» ووظيفة «فكرية». وهنا يعتمد فركلاف على مقاربة هاليداي متعددة الوظائف للغة[30](*).

---

(30) انظر (Halliday, 1994) للاطلاع على عرض للسانيات الوظيفية. وللاطلاع على وصف لكيفية اعتماد فركلاف على مقاربة هاليداي، انظر (Fairclough, 1992b: chap. 6). انظر أيضًا (Fowler et al., 1979; Fowler, 1991) للاطلاع على أمثلة من مقاربات أخرى داخل التحليل النقدي للخِطاب - انظر اللسانيات النقدية - التي تعتمد مثل فركلاف على لسانيات هاليداي الوظيفية وتتضمن نحو هاليداي الوظيفي الذي يستعمل في التحليل النصي. يعتمد فركلاف على اللسانيات النقدية في مناهجه في التحليل النصي (انظر القسم المخصص للمناهج)، في حين يرفض بعض فرضياتها، مثل الميل إلى التسليم بالآثار الأيديولوجية للنصوص.

(*) نشير هنا إلى أن تصنيف الوظائف هذا لا يوافق تمامًا مقاربة هاليداي التي طورها مع رقية حسن، وهما يعتبران أن النظام اللغوي يحتوي على ثلاثة مكونات دلالية وظيفية أساسية: مكون تمثيلي استحضاري (Ideational component) ومكون بيني (Interpersonal component) ومكون نصي (Textual component). والمكون التمثيلي الاستحضاري (ونحن نعتمد هنا لترجمة المصطلح على الأزهر الزناد. انظر: الأزهر الزناد، **النص والخِطاب: مباحث لسانية عرفنية** (مركز النشر الجامعي ودار محمد علي الحامي للنشر، تونس، 2011)، ص 62، 357)، وهو ذلك الجزء من النظام اللغوي الذي يهتم بالتعبير عن المحتوى والذي يتصل بالوظيفة التي تستحضر بها اللغة شيئًا ما. والمكون البيني يتصل بوظائف اللغة الاجتماعية، والمكون النصي هو الذي يتعلق ببناء النص وتنظيمه. انظر: (Michael Halliday, Alexander Kirkwood and Ruqaiya Hasan, *Cohesion in English* (London: Longman, 1976), p. 26). وقد قام هاليداي بتدقيق هذه المفاهيم مع ماتيسن، فاعتبرا أن المكون التمثيلي الاستحضاري يتصل بوظيفة بناء التمثيلات للعالم، والمكون البيني يتعلق بوظيفة التواصل الاجتماعي، والمكون النصي يتعلق بوظيفة بناء النصوص المتسقة. وهذه الوظائف تتعلق بثلاثة أصناف من الأبنية في اللغة: الأبنية المتعدية التي تعبر عن المعاني التمثيلية، =

وفي كل تحليل، يُمثل بعدان من أبعاد الخِطاب نقطتين مهمَّتين محوريتين:

- الحدث التواصلي: وهو مثال للاستعمال اللغوي، فقد يكون مقالًا في جريدة، أو شريطًا سينمائيًّا، أو شريطًا مصورًا، أو مقابَلة أو خِطابًا سياسيًّا (Fairclough 1995b).
- نظام الخِطاب: وهو التشكل لكل **أنماط الخِطاب** المستعملة في مؤسسة اجتماعية أو مجال اجتماعي. وتتكون أنماط الخِطاب من الخِطابات والأجناس (1995b: 66)[31].

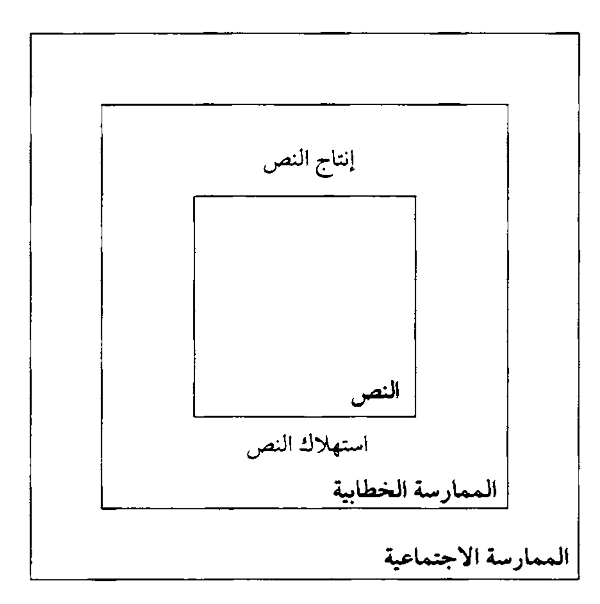
والجنس هو استعمال مخصوص للغة يشارك في جزء من ممارسة اجتماعية معينة ويكوّنها، مثال ذلك جنس المقابَلة، أو الجنس الإخباري، أو الجنس الإشهاري (1995b: 56). وتشمل أمثلة

أي التي تقوم بتمثيل الشيء المتكلم عليه وتستحضره في اللغة، وعادة ما يكون الشيء المستحضر حدثًا ما يرتبط به عدد من المشاركين والظروف، والأبنية المعبرة عن جهة الحكم وتتصل بالمعاني التفاعلية أي بما ينجزه الكلام من أفعال باعتباره تواصلًا لفظيًّا بين متكلم أو كاتب من ناحية وجمهور من ناحية أخرى، والأبنية الموضوعاتية وهي تعبر عن تنظيم الرسالة؛ أي كيف ترتبط الجملة بالخِطاب الذي يكتنفها وبسياق الحال الذي يقع إنتاجها فيه. وهذه المكونات الثلاثة تتحقق في كل لغة من خلال نحو تلك اللغة. انظر: Halliday.

(31) في أعماله المبكرة، يحدد فركلاف أنماطًا أخرى للخِطاب ـ «نمط النشاط» و«الأسلوب» (Fairclough, 1992a: 124ff.). وفي أعماله الأخيرة، يميز أساسًا بين «الخِطاب» و«نمط الخِطاب» و«الجنس» ـ أحيانًا مع مكاسب تحليلية، ولكن أحيانًا على نحو أكثر عشوائية. (انظر Fairclough, 1995b). في هذا العرض، نستعمل مصطلح الخِطاب غالبًا لتغطية الأنماط الثلاثة للخِطاب جميعها.

أنظمة الخِطاب نظام خِطاب وسائل الإعلام أو مصالح الصحة أو مستشفى خاص (1995b: 56; 1998: 145). وداخل نظام للخِطاب، توجد ممارسات خِطابية مخصوصة يقع من خلالها إنتاج النصوص والأقوال واستهلاكها أو تأويلها (Fairclough, 1998: 145).

داخل نظام خِطاب المستشفى، مثلًا، تشمل ممارسات الخِطاب الجارية المحادثات بين الأطباء والمرضى، والخِطاب الفني للطواقم العلمية (مكتوبًا وشفويًّا على حد سواء) ولغة العلاقات العامة الترويجية للموظفين شفوية ومكتوبة. وفي كل ممارسة خِطابية ـأي في إنتاج النصوص والأقوال واستهلاكهاـ تستعمل أنماط الخِطاب (الخِطابات والأجناس) بطرائق مخصوصة.



الرسم 1.3 منوال فركلاف الثلاثي الأبعاد للتحليل النقدي للخطاب (1992b: 73)

كل مثال للاستعمال اللغوي هو حدث تواصلي يتكون من ثلاثة أبعاد:

- هو نص (كلام، أو كتابة، أو صور مرئية، أو مركب منها)،
- وهو ممارسة خِطابية تشمل إنتاج النص واستهلاكه،
- وهو ممارسة اجتماعية.

وقد أعيد إنتاج منوال فركلاف الثلاثي الأبعاد في الرسم (1.3). ويمثل المنوال إطارًا تحليليًّا للبحث الاختباري في التواصل والمجتمع. والأبعاد الثلاثة جميعها لا بد من تغطيتها في تحليل معين للخِطاب خاص بحدث تواصلي. ولا بد من أن يركز التحليل بذلك على (1) السمات اللغوية للنص (النص)، و(2) عمليات متعلقة بإنتاج النص واستهلاكه (الممارسة الخِطابية)، و(3) الممارسة الاجتماعية الأشمل التي ينتمي إليها الحدث التواصلي (الممارسة الاجتماعية).

ومن المهم أن ندرك أن تحليل السمات اللغوية للنص لا بد من أن يشمل حتمًا تحليل الممارسة الخِطابية، والعكس بالعكس (Fairclough, 1992b: 73). ومع ذلك، يمثل النص والممارسة الخِطابية بعدين مختلفين في منوال فركلاف، وتبعًا لذلك، يجب الفصل بينهما في التحليل. ويركز تحليل الممارسة الخِطابية على كيفية اعتماد مؤلفي النصوص على الخِطابات والأجناس الموجودة سلفًا لإنشاء النص، وعلى كيفية استخدام متقبلي النصوص للخِطابات والأجناس المتاحة في استهلاك النصوص وتأويلها. فنشرة

الأخبار المتلفزة مثلًا هي جنس إخباري يذيع خِطابات مختلفة (على سبيل المثال: خِطاب الرفاه أو خِطاب الليبرالية الجديدة) وأجناسًا مختلفة (على سبيل المثال: جنس الأخبار الجادة أو جنس الأخبار الخفيفة). إن ألفة المشاهدين مع نشرات الأخبار المتلفزة باعتبارها جنسًا إخباريًّا تُشكل تأويلهم، وفي وقت لاحق، في النقاشات مع الآخرين حول الموضوعات التي غطتها الأخبار، فإنهم يعتمدون على الخِطابات والأجناس التي استعملت وربما جمعوا بينها وبين خِطابات وأجناس أخرى في أشكال مولدة.

يركز التحليل النصي على السمات الشكلية (مثل المفردات، والنحو، والتركيب، وانسجام الجملة) التي تتحقق بها الخِطابات والأجناس لغويًّا. وتعتمد العلاقة بين النصوص والممارسات الاجتماعية[32] على وساطة الممارسة الخِطابية. وبالتالي فمن خلال الممارسات الخِطابية وحدها -حيث يستعمل الناس اللغة لإنتاج النصوص واستهلاكها- تُشكل النصوص الممارسة الاجتماعية وتتشكل بها. في الوقت ذاته، يؤثر النص (السمات الشكلية اللغوية) في كل من عمليتي الإنتاج والاستهلاك (Fairclough, 1992b: 71ff.; 1993: 136; 1995b: 60). تلك الخِطابات والأجناس التي وقع الجمع بينها لإنتاج النص، والتي يعتمد عليها متقبلوه في التأويل، لها بنية لغوية مخصوصة تشكل كلًّا من إنتاج النص واستهلاكه. وبذلك يشتمل تحليل الحدث التواصلي على:

(32) في Fairclough (1995b)، استبدلت بـ«الممارسة الاجتماعية» «الممارسة الاجتماعية الثقافية».

- تحليل الخِطابات والأجناس التي وقع الجمع بينها في إنتاج النص واستهلاكه (مستوى الممارسة الخِطابية).
- وتحليل البنية اللغوية (مستوى النص).
- واعتبارات تتعلق بما إذا كانت الممارسة الخِطابية تعيد إنتاج نظام الخِطاب القائم أو، بدلًا من ذلك، تعيد هيكَلته، وبماهية التبعات التي تكون لذلك بالنسبة إلى الممارسة الاجتماعية الشاملة (مستوى الممارسة الاجتماعية).

إن تحليل الخِطاب ليس كافيًا في ذاته لتحليل الممارسة الاجتماعية الشاملة، بما أنها ـ أي الممارسة الاجتماعية ـ تشتمل على عناصر خِطابية وغير خِطابية في آن. فالنظرية الاجتماعية والثقافية ضرورية إضافةً إلى تحليل الخِطاب. وسنعود إلى الآثار المترتبة على ذلك في نهاية هذا الفصل. إن الهدف الأساس للتحليل النقدي للخِطاب هو الكشف عن الروابط بين استعمال اللغة والممارسة الاجتماعية. وينصب التركيز على دور الممارسات الخِطابية في الحفاظ على النظام الاجتماعي وفي التغيير الاجتماعي. ويبدأ البحث بتحليل أمثلة محددة للاستعمال اللغوي، أو إذا استعملنا مصطلحات فركلاف، بتحليل الحدث التواصلي في علاقة بنظام الخِطاب. ويعمل كلُّ حدث تواصلي باعتباره شكلًا للممارسة الاجتماعية على إعادة إنتاج نظام الخِطاب أو الاعتراض عليه. وهذا يعني أن الحوادث التواصلية تُشكل الممارسة الاجتماعية الأشمل وتتشكل بها من خلال علاقتها بنظام الخِطاب. ونفصّل القول في ذلك في القسم

التالي. إن الغرض العام للمنوال الثلاثي الأبعاد هو، إذًا، أن يوفر إطارًا تحليليًّا لتحليل الخِطاب. ويتأسس المنوال على المبدأ القاضي بأن النصوص لا يمكن فهمها أو تحليلها وهي معزولة ويروج له، فلا يمكن فهمها إلا في علاقة بشبكة أخرى من النصوص، وفي علاقة بالسياق الاجتماعي. في تشولياراكي وفركلاف (1999)، يستبدل المؤلفان بالمنوال الثلاثي الأبعاد تصوّرًا للنصوص والأقوال على أنها جزء من عملية التمفصل (1999: 21, 37f). وهما يعتمدان، بالنسبة إلى مفهوم التمفصل، إلى حد ما، على فهم لاكلاو وموف للممارسة الاجتماعية باعتبارها ثمرة تمفصل مزدوج لعناصر مختلفة، ولكنهما يختلفان عنهما في ما يتعلق بطبيعة العناصر المتمفصلة: فبينما ينظر لاكلاو وموف إلى الممارسات الاجتماعية على أنها خِطابية بشكل كامل، وهما بالتالي يعبران عن كل عمليات التمفصل بمصطلحات المنطق الخِطابي، فإن تشولياراكي وفركلاف يميزان بين اللحظات غير الخِطابية واللحظات الخِطابية للممارسة الاجتماعية، ويقترحان أن هذه اللحظات تدخل في تكوين أنواع مختلفة من المنطق. وهما يعتمدان في تصور هذه الأنواع المختلفة من المنطق على الواقعية النقدية (مثال ذلك Bhaskar, 1986; Collier, 1994)، وعلى وجه الخصوص، على النظرية التي ترى أن الحياة الاجتماعية تعمل وفق مجموعة من الآليات يكون لكل منها «أثره التوليدي» المميز في الحوادث، ولكن يكون بعضها دائمًا وسيطًا لبعضها الآخر في إنتاج الحدث. (Chouliaraki and Fairclough, 1999: 19). وهما يعتمدان، في تصور هذه الآليات من خلال لحظات الممارسة

الاجتماعية، على تنظير دايفيد هارفي (Harvey, 1996) للحظات على أنها عناصر «تُستوعب» في أخرى، ولكنها لا يمكن أن تختزل فيها (Chouliaraki and Fairclough, 1999: 21).

الذهاب إلى التسوق مثلًا، يتضمن نمطيًّا كلًّا من التواصل اللفظي مع العامل في المتجر والعملية التجارية. الكلام ودفع الثمن هما بالتالي لحظتان وقعت مفصلتُهما معًا في ممارسة التسوق. إذا أردنا أن نحلل التسوق باستعمال مفهوم التمفصل لدى تشولياراكي وفركلاف، فلا بد من تحليل المحادثة مع عامل المتجر على أنها خِطاب يستعمل أدوات لغوية، وسيكون علينا أن نضيف إلى هذا التحليل تحليلًا اقتصاديًّا لمبادلة المال بالسلعة، يعتمد على نظرية اقتصادية. إن الاقتصاد والخِطاب، بحسب تشولياراكي وفركلاف، نوعان مختلفان من الآليات، ولا يمكن تحليلهما باعتماد النظريات والأدوات نفسها. وبهذه الطريقة، وعلى العكس من لاكلاو وموف، يحافظ تشولياراكي وفركلاف على التمييز بين الخِطابي وغير الخِطابي: فالخِطابي هو نوع واحد من الآليات يعمل جنبًا إلى جنب مع آليات أخرى ـاقتصادية ومادية وبيولوجية ونفسية على سبيل المثالـ لتكوين ممارسة اجتماعية. وتمثل الآليات لحظات في كل ممارسة اجتماعية، هي في علاقة جدلية بعضها مع بعض، لكن لكل آلية منطقها الخاص، ولا بد من تحليلها باستعمال مصطلحاته الخاصة وباعتماد أدوات تحليل ملائمة. ووفقًا لتشولياراكي وفركلاف، يمكن أن نستكشف اختباريًّا التشكيلة المخصوصة للحظات في ممارسة اجتماعية معينة والأوزان المناسبة لكل لحظة في إنتاج هذه الممارسة الاجتماعية.

وبالمقارنة مع المنوال الثلاثي الأبعاد، فإن التصور الجديد يمكن أن يوفر مبادئ توجيهية أفضل لتحليل ما سمي بالممارسة الخِطابية والممارسة الاجتماعية في المنوال الثلاثي الأبعاد، بما أن تعيين اللحظات الخِطابية وغير الخِطابية للممارسة الاجتماعية المدروسة يمكن أن يوفر مؤشرات لأنواع النظريات المناسبة لتحليل الأنماط المنطقية المختلفة. ومع ذلك، وفي علاقة مع الآثار المترتبة على البحوث الاختبارية، فإننا لا نعتبر الفهم الجديد مختلفًا جدًّا عن المنوال الثلاثي الأبعاد[33]، وقد اخترنا المنوال الثلاثي الأبعاد لعرض إطار فركلاف الأساس لتحليل الخِطاب على أساس أنه يصور العلاقة بين النص والسياق على نحو بيداغوجي راق. وعلاوة على ذلك، فنحن نرى أن المفهوم الجديد يعاني من الضعف الموجود نفسه في المنوال الثلاثي الأبعاد: فكيفية التعامل مع تفكيك العلاقات الجدلية بين مختلف اللحظات الخِطابية وغير الخِطابية في الممارسة الاجتماعية وتحليلها هو على المقدار ذاته من غموض كيفية التعامل مع استكشاف العلاقات الجدلية بين الممارسات الخِطابية وغير الخِطابية. ونحن نعود إلى هذا المشكل خلال تعليقاتنا النقدية الختامية على المقاربة.

الحوادث التواصلية وأنظمة الخِطاب

يفهم فركلاف العلاقة بين الحدث التواصلي ونظام الخِطاب على أنها علاقة جدلية. فترتيب الخِطاب نظامٌ، ولكنه ليس نظامًا بالمعنى

---

(33) ويبدو أن الفكرة الأساسية للمنوال الثلاثي الأبعاد ستبقى قائمة في الفهم الجديد (راجع Chouliaraki and Fairclough, 1999: 113).

البنيوي، أي أن الحوادث التواصلية لا تعيد إنتاج أنظمة الخِطاب فحسب، ولكن يمكنها تغييرها من خلال الاستعمال الخلاق للغة. مثال ذلك أنه عندما تستعمل موظفة العلاقات العامة في مستشفى خِطابًا مستهلكًا، فهي تعتمد على نظامٍ -ترتيبٍ للخِطاب- ولكنها، وهي تفعل ذلك، تشارك في تكوين النظام، أو عندما يعتمد صحافي أو صحافية على خِطاب يُستعمل على نحو نمطي في الإعلام فهو أو هي ينهض أو تنهض بدور في إعادة إنتاج النظام الإعلامي. إن ترتيب الخِطاب هو جملة كل الأجناس والخِطابات المستعملة داخل مجال اجتماعي معين، فترتيب الخِطاب هو أولًا وقبل كل شيء نظام، بمعنى أنه مشكِّل أمثلة محددة للاستعمال اللغوي ومشَكَّل بها على حد سواء، وهو بالنتيجة بنية وممارسة على حد سواء. إن استعمال الخِطابات والأجناس باعتبارها موارد للتواصل يتحدد بترتيب الخِطاب، لأن ترتيب الخِطاب يُكون الموارد (الخِطابات والأجناس) المتاحة، فهو يرسم الحدود لما يمكن قوله. ولكن، يمكن مستعملي اللغة في الوقت ذاته، تغيير نظام الخِطاب باستعمال الخِطابات والأجناس بطرائق جديدة أو باستدعاء خِطابات وأجناس من أنظمة أخرى للخِطاب. إن أنظمة الخِطاب تكون منفتحة جزئيًا للتغيير عندما يتم تفعيل خِطابات وأجناس من أنظمة أخرى للخِطاب.

والمثل في ذلك بعض الخِطابات والأجناس التي كانت تمثل سمات مميزة لمختلف الممارسات الخِطابية التي أسست نظام الخِطاب في مصلحة الصحة البريطانية. لقد كان خِطاب الرفاه

مهيمنًا، ولكن، منذ بداية الثمانينيات، انخرط في صراع مع خِطابات أخرى، بما في ذلك خِطاب المستهلك الليبرالي الجديد، الذي كان مقترنًا في السابق بشكل كامل بنظام خِطاب السوق. ويستعمل موظفو العلاقات العامة الآن، إلى حد كبير، الخِطابات التي تروّج لمصالح خدمات الرعاية كما لو كانت بضاعة، والتي تعامل المرضى كما لو كانوا مستهلكين بدلًا من كونهم شركاء في الوطن. وهو ما يمكن النظر إليه على أنه انعكاس وقوة دفع للتغيير في الممارسة الاجتماعية الأشمل التي ينظر إليها فركلاف بالاعتماد على مصطلحات «سلعنة الخِطاب»، وهو تطور مجتمعي في فترة الحداثة المتأخرة، تغزو فيه خِطابات السوق الممارسات الخِطابية للمؤسسات العمومية (Fairclough, 1992b, 1993, 1998).

ما هي العلاقة بين نظام الخِطاب وسياقه الاجتماعي؟ في أعماله المبكرة، سعى فركلاف إلى ربط أنظمة الخِطابات بمؤسسات معينة (كما في نظام الخِطاب الجامعي، ونظام الخِطاب الإعلامي... إلخ). (Fairclough, 1995b)، مع تأكيد أن الخِطابات وأنظمة الخِطابات يمكن أن تعمل في الوقت ذاته عابرةً للحدود المؤسسية. في كتابه المتأخر مع تشولياراكي، اقترن مفهوم «نظام الخِطاب» على نحو مثمر مع مفهوم «الحقل» لدى بيار بورديو (Pierre Bourdieu) (Chouliaraki and Fairclough, 1999: 101ff.) **والحقل** بالنسبة إلى بورديو هو، بإيجاز شديد، مجال اجتماعي مستقل نسبيًّا يخضع لمنطق اجتماعي محدد (انظر: Bourdieu and Wacquant, 1966: 94ff.). والفاعلون في حقل محدد، مثل حقل الرياضة أو السياسة

أو الإعلام، يصارعون لبلوغ الهدف نفسه، وهم لذلك مترابطون في ما بينهم من خلال الصراع الذي يتحدد به موقع الفاعل الفرد ضمن الحقل بالمسافة التي تفصله أو تفصلها نسبيًّا عن الهدف. ففي الحقل السياسي مثلًا، يصارع السياسيون المختلفون والأحزاب السياسية للحصول على السلطة السياسية، وهم موزَّعون عبر الحقل من خلال قواهم النسبية. ويتكون المجتمع ـبحسب بورديوـ من مجموعة من هذه الحقول، يحكمها «حقلٌ للسلطة» مسيطر، وهي مترابطة في ما بينها في شبكة معقدة من العلاقات.

يقترح تشولياراكي وفركلاف (1999 :114) النظر إلى نظام الخِطاب على أنه يمثل البعد الخِطابي للحقل. وهما ينتقدان بورديو لعدم إيلائه دور الخِطاب في الصراع داخل الحقول وبينها ما يستحقه من تنظير واهتمام، وهما يقترحان أن يكون تحليل الخِطاب مكملًا ضروريًّا لنظرية بورديو (Chouliaraki and Fairclough, 1999: 104ff.) ولكنهما يقترحان أن بورديو يمكن أن يزود التحليل النقدي للخِطاب بنظرية يمكن أن ترسي نظام الخِطاب ضمن نظام للممارسة الاجتماعية، وهو جمع بين لحظات خِطابية وغير خِطابية. فقد أعيد تصور نظام الخِطاب على أنه تشكيلة محتملة متنازع عليها من الخِطابات داخل حقل اجتماعي معين، وإعادة التصور هذه تجعل المفهوم أكثر وضوحًا باعتباره أداة تحليل. وعلى نحو أعم، فإن استيراد نظرية بورديو إلى التحليل النقدي للخِطاب يفتح الباب لبحوث في تحليل الخِطاب تتناول العلاقات داخل الحقول المختلفة وفي ما بينها.

التناص وتقاطع الخِطابات

يجري **تقاطع الخِطابات** عندما تتمفصل خِطابات وأجناس مختلفة معًا في حدث تواصلي، فخلال تمفصلات جديدة للخِطابات، تتغير الحدود داخل نظام الخِطاب وبين أنظمة الخِطاب المختلفة على حدٍّ سواء. والممارسات الخِطابية الإبداعية التي تأتلف فيها أنماط الخِطاب بطرائق جديدة ومعقدة ـفي «أخلاط من تقاطعات الخِطاب» جديدةـ هي في الوقت ذاته علامة وقوة دافعة لتغيّر الخِطاب ومن خلاله التغير الاجتماعي والثقافي. ومن جهة أخرى، فإن الممارسات الخِطابية التي تُمزَجُ فيها الخِطابات بطرائق مألوفة هي مؤشرات لاستقرار النظام السائد للخِطاب، وهي تعمل لتحقيق ذلك، ومن خلال ذلك [استقرار] النظام الاجتماعي السائد(34). إن إعادة الإنتاج والتغيير الخِطابيين يمكن أن يدرسا إذًا من خلال تحليل العلاقات بين الخِطابات المختلفة داخل نظام للخِطاب وبين أنظمة مختلفة للخِطاب (Fairclough, 1995b: 56).

إن تقاطع الخِطابات هو شكل من أشكال **التناص**، فالتناص يحيل على الظرف الذي تستدعي فيه كل الحوادث التواصلية حوادث سابقة، فلا يستطيع المرء أن يتجنب استعمال كلمات وجمل استعملها آخرون من قبل. ويتمثل شكل بارز الوضوح من أشكال التناص في **التناص الظاهر**، الذي تستدعي فيه النصوص نصوصًا

---

(34) يشير فركلاف (Fairclough, 1992b, 1992c) إلى أن «الإبداعية الخِطابية» التي تدعم تقاطع الخِطابات تجري في ظروف اجتماعية تعزز التغيير؛ وبالتالي فهي ليست مجرد منتَج لأفراد ذوي قدرات إبداعية.

أخرى على نحو صريح، كأن تقوم مثلًا بالاستشهاد بها (Fairclough, 1992b: 117).

ويمكن النظر إلى النص على أنه حلقة في سلسلة تناصية (Fairclough, 1995b: 77ff.): أي سلسلة من النصوص يتضمن كل نص فيها عناصر من نص آخر أو نصوص أخرى. ومن أمثلة ذلك السلسلة التناصية التي تربط تقريرًا علميًّا بنص إعلامي وبنصوص الجمهور وأقوالهم: حيث يُضمّن الصحافي عناصر من التقرير العلمي في إنتاج النص الإعلامي، ويقوم المتقبلون، في عملية الاستهلاك، بتضمين عناصر من النص الإعلامي في بناء نص جديد.

يحيل التناص على تأثير التاريخ في النص وإلى تأثير النص في التاريخ، وصورة ذلك أن النص يعتمد على نصوص سابقة ويساهم بذلك في التطور والتغيير التاريخيين (Kristeva, 1986: 39; مقتبس في Fairclough, 1992b : 102)[35]. وبينما ينظر بعض ما بعد البنيويين (مثلا Fiske, 1987) إلى التناص وتقاطع الخِطابات على أنهما مظهر من المظاهر القصوى لعدم الاستقرار وقابلية التغير في اللغة، فإن فركلاف ينظر إليهما على أنهما علامة للاستقرار وعدم الاستقرار على حد سواء، والاستمرارية والتغير على حد سواء. يُوجد التغيير باعتماد طرائق جديدة في الاستناد إلى الخِطابات القائمة، إلا أن احتمالات التغيير محدودة بعلاقات

---

(35) إلى جانب كريستيفا، يمثل باختين مصدرًا آخر مهمًّا من مصادر الإلهام بالنسبة إلى فركلاف (وبالنسبة إلى آخرين يشتغلون بمفهوم التناص) انظر على سبيل المثال (Bakhtin, 1981, 1986).

السلطة التي تحدد، من بين أشياء أخرى، نفاذ مختلف الفاعلين إلى الخِطابات المختلفة (انظر نقاشنا للهيمنة في القسم التالي في الصفحات 151ـ154).

«إن ما يظهر من عدم محدودية احتمالات الإبداع في الممارسة الخِطابية التي يطرحها مفهوم تقاطع الخِطابات ـ تركيب وإعادة تركيب لا نهاية لهما للأجناس والخِطابات ـ هو في الواقع محدود ومقيد بوضع علاقات الهيمنة وصراع الهيمنة» (Fairclough, 1993: 137).

فالعلاقات الخِطابية هي مواقع للصراع الاجتماعي والنزاع:

«إن أنظمة الخِطاب يمكن أن يُنظر إليها على أنها مجال واحد للهيمنة الثقافية المحتملة، مع مجموعات مسيطرة تصارع لتأكيد هيكَلة مخصوصة داخلها وفي ما بينها وللحفاظ عليها» (Fairclough, 1995b: 56).

كون مجتمع من المجتمعات غير محكوم بخِطاب واحد مسيطر، فذلك لا يعني أن كل الخِطابات متساوية. فمن الواضح، على سبيل المثال، أن بعض الخِطابات يكون له تأثير في وسائل الإعلام أقوى من خِطابات أخرى. فتداول خِطاب جامعي صرف في وسائل الإعلام هو أكثر عسرًا من تداول خِطاب مهجَّن يجمع بين الخِطاب الأكاديمي (من مستوى الخِطاب الجامعي) والخِطاب الشعبي (من مستوى خِطاب الحياة اليومية). ولكي نفهم علاقات السلطة بين مختلف الخِطابات وتبعاتها لا بد لنا الآن من الانتقال إلى مفاهيم الأيديولوجيا والهيمنة لدى فركلاف.

الخِطاب والأيديولوجيا والهيمنة

الأيديولوجيا، بالنسبة إلى فركلاف، هي «معنى في خدمة السلطة» (Fairclough, 1995b: 14). وعلى نحو أدق، هو يفهم الأيديولوجيات على أنها بناءات للمعنى تساهم في إنتاج علاقات السيطرة وإعادة إنتاجها وتحويلها (Fairclough, 1992b: 87، راجع .Chouliaraki and Fairclough, 1999: 26f). ويتم إيجاد الأيديولوجيات في المجتمعات التي تتأسس فيها علاقات السيطرة على الأبنية الاجتماعية مثل الطبقة ونوع الجنس. ووفقًا لتعريف فركلاف، يمكن الخِطابات أن تكون أكثر أو أقل أيديولوجيةً، والخِطابات الأيديولوجية هي تلك التي تساهم في الحفاظ على علاقات السلطة وفي تحويلها. والرأي عندنا أنه توجد مشكلة في تفعيل هذا التعريف. والسؤال كامن في ما إذا كانت توجد خِطابات ليست لها تبعات على علاقات السلطة والسيطرة في المجتمع. إنه من الصعب التمييز بين ما هو أيديولوجيا وما ليس كذلك.

إن فهم فركلاف للأيديولوجيا على أنها مضمنة في الممارسة الخِطابية يتأسس على رؤية جون تومسون (John Thompson) للأيديولوجيا باعتبارها ممارسةً تشتغل خلال عمليات إنتاج المعنى في الحياة اليومية، حيث يتم توجيه المعنى إلى الحفاظ على علاقات السلطة (Thompson, 1990). ويتناقض هذا التوجه مع مفهوم الأيديولوجيا في العديد من المقاربات الماركسية. فلم يكن كثير من الماركسيين مهتمًّا بأبنية أيديولوجيات معينة، أو بكيفية تمفصل الأيديولوجيات في سياقات اجتماعية معينة. وبدلًا

من ذلك فهم تعاملوا مع الأيديولوجيا على أنها نظام مجرد للقيم يعمل كَرابِط اجتماعي، يجمع الناس معًا، وبالتالي يضمن انسجام النظام الاجتماعي[36]. وبالاشتراك مع تومسون وعدد آخر من المنظرين الاجتماعيين والثقافيين الذين صاغوا مقاربات **للممارسة الأيديولوجية**، يعتمد فركلاف على أعمال ألتوسير، وبدرجة أكبر، على غرامشي. وكما ذكر في الفصل الأول، فإن هذين المنظرين كليهما يمثلان صيغتين مهمتين من صيغ وجهات النظر الثقافية الماركسية وكلاهما يعزو إلى إنتاج المعنى في الحياة اليومية دورًا مهمًّا في الحفاظ على النظام الاجتماعي. ويلتزم فركلاف أيضًا بالتوافق ضمن الدراسات النقدية الثقافية على رفض أجزاء من نظرية ألتوسير على أساس أن ألتوسير يعتبر الناس ذواتٍ أيديولوجيةً سلبية، وبالنتيجة يقلل من إمكانات الفعل لديهم. داخل الدراسات الاتصالية والثقافية، يوجد إجماع الآن على أن مدلول النصوص يتم تكوينه جزئيًّا في عمليات التأويل. ويشارك فركلاف هذا الموقف المجمع عليه. وتمتلك النصوص كثيرًا من **احتمالات الدلالة** التي قد يناقض بعضها بعضًا، وهي مفتوحة على تأويلات كثيرة مختلفة.

إن المقاومة ممكنة على الرغم من أن الناس ليسوا بالضرورة مدركين الأبعاد الأيديولوجية لممارساتهم:

«للذوات مواقعها الأيديولوجية، ولكنها أيضًا قادرة على الفعل بشكل مبدع لإقامة روابطها الخاصة بين الممارسات والأيديولوجيات

(36) للاطلاع على نقده هذا المنظور وعرض وجهة نظره الخاصة، انظر (Thompson, 1984, 1990).

المختلفة التي تتعرض لها، ولإعادة بناء ممارسات التموقع وأبنيتها» (Fairclough, 1992b: 91).

كما يرفض فركلاف فهم ألتوسير الأيديولوجيا على أنها كيان جامع. ويعتقد فركلاف أن الناس يمكن تنزيلهم في مواقع ضمن أيديولوجيات مختلفة ومتنافسة، وأن ذلك يمكن أن يؤدي إلى شعور بعدم اليقين، ويكون الأثر المترتب على ذلك إيجاد وعي بالآثار الأيديولوجية (Fairclough, 1992b). وتعتمد هذه الوجهة في النظر على فكرة غرامشي المتمثلة في أن «الحس المشترك» يتضمن عناصر عديدة متنافسة هي نتيجة مفاوضات على الدلالة تشارك فيها كل الفئات الاجتماعية (Gramsci, 1991). إن الهيمنة ليست سيطرة فحسب، ولكنها أيضًا عملية تفاوض ينجم عنها إجماع يتعلق بالدلالة. إن وجود مثل هذه العناصر المتنافسة يحمل بذور المقاومة منذ أن تزود عناصرُ تتحدى الدلالات السائدةَ، الناسَ بموارد للمقاومة. ونتيجة لذلك، فإن الهيمنة لا تكون دائمًا ثابتة، ولكنها متغيرة ومنقوصة، والإجماع هو دائمًا مسألة درجة فحسب، هو «توازن متناقض وغير مستقر» (Fairclough, 1992b: 93).

ووفقًا لفركلاف، يُمَكننا مفهوم الهيمنة من الوسائل التي نحلل بها كيف أن الممارسة الخِطابية هي جزء من ممارسة اجتماعية أشمل تتضمن علاقات السلطة: فيمكن النظر إلى الممارسة الخِطابية على أنها بُعد من أبعاد صراع الهيمنة الذي يساهم في إعادة إنتاج وتحويل نظام الخِطاب الذي هو جزء منه (وبالتالي [هو جزء] من علاقات

السلطة القائمة). ويحصل التغيير الخِطابي عندما تتمفصل العناصر الخِطابية بطرق جديدة.

تصميم البحث وطرائقه

ننتقل الآن إلى تحديد طرائق البحث التي يقترحها فركلاف لتحليل الخِطاب بما هو نص، وممارسة خِطابية وممارسة اجتماعية. وليس من الضروري استعمال كل الطرائق أو استعمالها تمامًا بالكيفية نفسها في مشاريع بحثية محددة. ويعتمد اختيار الأدوات وتطبيقها على المسائل البحثية ونطاق المشروع. بالنسبة إلى معظم مقاربات تحليل الخِطاب (بما في ذلك تلك التي وقع تقديمها في هذا الكتاب) ـ وبالنسبة إلى البحث النوعي عمومًا ـ لا توجد أي إجراءات ثابتة لإنتاج المواد أو للتحليل: فتصميم البحث يجب أن يُحاكَ بما يناسب الخصائص المميزة للمشروع.

في التحليل التالي الذي نطبق فيه إطار فركلاف، نتناول ست مراحل بحثية مختلفة، انطلاقًا من صياغة الإشكال وصولًا إلى استعمال نتائج البحث. ونركز على مرحلة التحليل، ونبنيها وفقًا لمنوال فركلاف الثلاثي الأبعاد (الرسم 1.3). ولا بُد من أن ينظر إلى تخطيط المراحل ونظامها الداخلي على أنه نمط مثالي: فالدراسة من الناحية العملية، قد لا تتبع إطار العمل على نحو خطي، وبدلًا من ذلك، فإن الباحث قد يتحرك جيئة وذهابًا بين المستويات عددًا من المرات قبل أن يجد أنه من المناسب أن يمضي قدمًا.

وفي عرضنا للمراحل والأدوات المنهجية، نعتمد على نحو خاص على الفصل الثامن من [كتاب] **الخِطاب والتغيير الاجتماعي**

لفركلاف (1992b) الذي يعرض قائمةً لكل المراحل، والمفاهيم، وأدوات التحليل التي تم تقديمها سابقًا في الكتاب. وليس بوسعنا تغطية كل الجوانب المختلفة لإطار العمل، لذلك، وقبل القيام بالتحليل النقدي للخِطاب، إنها فكرة جيدة أن نُلقي نظرةً على الفصل الثامن ونصوص أخرى لفركلاف إضافةً إلى عرضنا هذا[37].

ولتوفير شرح للتوجهات المنهجية، اخترنا مقتطفات من تحليل أجراه فركلاف نفسه لإعلانين عن وظائف (1993، أعيد طبعه في 1995a). وقد تم إيراد الإعلانين في المثالين 2.3 و3.3.

1. اختيار إشكالية البحث

كما يشير إليه عنوانه، فإنه يراد للتحليل النقدي للخِطاب أن يقوم بإنتاج بحث نقدي اجتماعي، هو البحث الذي يساهم في القضاء على الظلم وعدم المساواة في المجتمع. ويحدد تشولياراكي وفركلاف الهدف من التحليل النقدي للخِطاب بأنه نقد تفسيري، مقتبسين مفهوم روي باسكار (Roy Bhaskar) (Bhaskar, 1986 ضمن Chouliaraki and Fairclough, 1999: 33; Fairclough, 2001: 235-236). ويتخذ النقد التفسيري نقطة انطلاق له مشكلًا يعمل البحث على المساعدة في حله. وهو مشكل يمكن إما أن يُحدده الأفراد أو المجموعات في المجتمع، وقد يعبر عن حاجة لم تقع تلبيتها، وإما أن يُحدده الباحث الذي قد يرغب في فضح «تمثيل زائف»

(37) انظر كذلك (Fairclough, 2001) للحصول على عرض لمراحل البحث وأدواته استنادًا إلى أحدث صيغة من صيغ الإطار الفركلافي.

(misrepresentation)، ألا وهو عدم التطابق بين الواقع والنظرة التي يمتلكها الناس عن هذا الواقع، والتي تعمل على نحو أيديولوجي. مفهوم «التمثيل الكاذب» يستلزم أن الباحث يملك إمكان الوصول إلى وصف أكثر ملاءمةً للواقع من الناس الذين يقوم بدراستهم، ومن دون هذا الإمكان للوصول لا يكون الباحث قادرًا على تحديد الأوصاف على أنها أوصاف محرفة. ويعترض كثير من البنائيين الاجتماعيين الآخرين، بمن في ذلك نحن، على هذا النوع من تفضيل المعرفة العلمية، ونمضي في مناقشة ذلك تفصيلًا في الفصل السادس.

في ما يتعلق بتحديد المشكل، يتركز التصور الشامل للبحث على تحليل البعد الخِطابي والأبعاد الاجتماعية الأخرى للمشكل والعراقيل التي قد تحول دون حله[38].

2. صياغة أسئلة البحث

يُهيكِلُ إطارُ العمل الثلاثي الأبعاد لدى فركلاف كل المكونات في تصميم البحث، بما في ذلك صوغ أسئلة البحث. والمبدأ الموجه في ذلك هو أن الممارسات الخِطابية هي في علاقة جدلية مع الممارسات الاجتماعية الأخرى: أي أن الخِطاب هو مندمج اجتماعيًا. وتعتمد السمة المميزة للممارسة الخِطابية على الممارسة الاجتماعية التي تشكل جزءًا منها. وهذا هو السبب في أننا ننطلق من الممارسة الاجتماعية عند صوغ أسئلة البحث. وللإحاطة بالممارسة

---

(38) للاطلاع على مخطط خماسي المراحل للنقد التفسيري، انظر (Chouliaraki and Fairclough, 1999: 59ff.).

الاجتماعية وصوغ أسئلة البحث، يكون من الضروري الاعتماد على التخصص، أو التخصصات التي تدرس الممارسة الاجتماعية موضع الاهتمام. والتخصص(ات) المعنية يمكن أن تكون، مثلًا، علم الاجتماع، أو علم النفس الاجتماعي، أو علم السياسة، أو علم التاريخ. وبالاعتماد في الوقت ذاته على تحليل الخِطاب، ينخرط المرء في تحليل متعدد التخصصات للعلاقات بين الممارسة الخِطابية والممارسة الاجتماعية. إن أحد أغراض التحليل الأساسية هو بيان الروابط بين الممارسات الخِطابية والتطورات والأبنية الاجتماعية والثقافية. والفرضية المضمرة هي أن الممارسة الخِطابية تعكس التغيير الاجتماعي والثقافي، وتساهم فيه بفاعلية، في آن واحد.

في عينة التحليل المتعلقة بإعلانات الوظائف، يدرس فركلاف ممارسةً اجتماعية في مؤسسة معينة، هي الجامعة، في ضوء انتشار ثقافة الاستهلاك في المجتمع البريطاني. فانتشار ثقافة الاستهلاك هو إذًا، الممارسة الاجتماعية الأشمل التي توفر السياق لتحليل الخِطاب بالنسبة إلى النصوص الفعلية، أي إعلانات الوظائف. وبشكل أكثر تحديدًا، فإن المثال يبحث في الكيفية التي تساهم بها الخِطابات الترويجية[39] في انتشار ثقافة الاستهلاك في الجامعات، أي في مجال اجتماعي وقع تنظيمه مسبقًا وفقًا لمبادئ أخرى.

---

(39) كما أشرنا، يميز فركلاف بين الخِطابات، وأنماط الخِطاب، وأجناسه. وهو يستعمل في هذا المثال مصطلحي الخِطاب والجنس كليهما. ولكن في عرضنا تحليله، سنسمح لأنفسنا باختزال مصطلحاته وسنستعمل غالبًا مصطلح، «الخِطاب»، لتغطية المفاهيم الثلاثة جميعها.

3. اختيار المادة

يعتمد اختيار مـادة البحث على عدة جوانب: أسئلة البحث، ومعرفة الباحث بالمادة المناسبة داخـل المجال الاجتماعي أو المؤسسة المعنية، وإذا كان يمكن المرء النفاذ إليها وكيـف يكون ذلك.

SCHOOL OF ENGINEERING

With our reputation as one of the UK's leading centres of teaching excellence and research innovation, we're making a lasting impact on the next generation of innovators and business leaders in the field of Engineering – and you can help.

With your ambition, energy and expertise, you will be committed to teaching at both undergraduate and post-graduate level, while enjoying the advantage of our close links with Industry and applied research initiatives to add to both your own reputation and ours.

SENIOR ACADEMIC POST
VEHICLE EMISSION TECHNOLOGY

Up to £31,500 p.a. plus substantial enhancement available by negotiation.

The School of Engineering is renowned for its innovative work in the area of Vehicle Emission Technology and is a leader in the field of Automotive Research. A team leader is now required to join this active team to help build on our success.

This leading post requires an outstanding Engineer who can bring expertise in at least one of the following: Vehicle Pollution, Hybrid Vehicles, Air Quality Systems. You'll also need to be dedicated to progressing research and consultancy whilst lecturing to undergraduate and postgraduate students.

Along with appropriate qualifications, technological expertise and industrial experience, you will need to have energy, enthusiasm and communication skills to motivate your team.

We offer an excellent salary and benefits package, but more importantly the ideal environment and opportunity to really make a contribution to the future of automotive engineering.

You may be awarded the title of Professor if the relevant criteria are met.

For an informal discussion about the post please ring Professor David Tidmarsh, Director of School of Engineering on (0742) 533389.

Application forms and further details are available from the address below. Ref. 40/92.

LECTURERS/SENIOR LECTURERS
PRINCIPAL LECTURERS

£10,849 – £24,855 p.a.

COMPUTER AIDED ENGINEERING

With expertise in one or more of the following: CAD, CAM, FEA, Expert Systems, AMT. Ref. 41/92.

QUALITY SYSTEMS

Applications to both Design and Manufacturing Engineering, offering expertise in one or more of the following areas: TQM, SPC, BS5750, BS7000, Taguchi Methods. A capability to contribute to the teaching of operations management will be an advantage. Ref. 42/92.

MAKE AN IMPACT ON THE NEXT GENERATION

MANUFACTURING TECHNOLOGY

With expertise in one or more of the following: Metal and Polymer Forming, Non-conventional Manufacturing, AMT, Environmental Impact of Manufacturing. Ref. 43/92.

OPERATIONS MANAGEMENT

With expertise in one or more of the following: Expert Systems, Database Systems, Simulation, Manufacturing Planning and Control, CIM, CAPP, MRP. Ref. 44/92.

ENVIRONMENTAL ENGINEERING

(Two Posts)

Post 1. With expertise in one or more of the following: The chemistry of air/water pollution, the impact of geology, hydrology and ecology on environmental issues, impact of transport on the environment. Ref. 45/92.

Post 2. With expertise in Electro-hydraulic Control Systems, Automation, PLCs, Environmental Noise, Noise Control, Acoustics, Vibrations. Ref. 46/92.

MATERIALS ENGINEERING · MATERIALS RESEARCH INSTITUTE

An experienced graduate Materials Scientist or Metallurgist, ideally with an appropriate higher degree, to undertake research and development work in the Metals and Ceramics Research Group. The research work will involve the use of extensive SEM/STEM/XRD and surface analysis facilities applied to a range of metallurgical problems with a particular emphasis on surface engineering. Ref. 47/92.

For all the above posts you will ideally have industry-related experience to add to your degree and a record of achievement in research and/or consultancy activities. You will be committed to teaching excellence at both undergraduate and postgraduate levels and also have the enthusiasm and ability to be part of an active group and to initiate and supervise research, consultancy and short course programmes.

If you feel you have the ideas and expertise to make an impact in a dynamic, forward-looking environment, then please send for an application form and further details to the Personnel Department, Floor 3, 5 Severn Block, Pond Street, Sheffield S1 1WB. Telephone (0742) 533950. Closing date 8th June 1992.

We are actively implementing equality of opportunity policies and seek people who share our commitment. Job share applicants welcome. Women are under represented in this area and applications from this group are particularly welcomed.

The University working in partnership with industry and the professions.

Sheffield City Polytechnic

Promising Futures

المثال 2.3. إعلان من كلية شيفيلد للتقنيات المتعددة.

(مقتبس من Fairclough 1995a: 143)

University of Newcastle upon Tyne

Department of English Literature

LECTURER

Applications are invited for a Lectureship in the Department of English Literature from candidates who have expertise in any Post-Medieval field. The post is available to be filled from 1st October, 1992, or as soon as possible thereafter.

Salary will be at an appropriate point on the Lecturer Grade A scale: £ 12,860 – £ 17, 827 p.a. according to qualifications and experience.

Further particulars may be obtained from the Director of Personnel, Registrar's Office, University of Newcastle upon Tyne, 6 Kensington Terrace, Newcastle upon Tyne NE1 7RU, with whom applications (3 copies), together with the names and addresses of three referees, should be lodged not later than 29th May, 1992.

Please quote ref: 0726/THES.
(18704) B9905

المثال 3.3. إعلان من جامعة نيوكاسل أبون تاين.
(مقتبس من Fairclough 1995a: 144)

إن تحليل فركلاف الذي نقدمه هنا يستعمل مجموعة واسعة من مواد مختلفة، ولكننا نقتصر على إعلاني الوظائف: إعلان من جامعة بريطانية معترف بها، نيوكاسل أبون تاين (المثال 3.3)، وإعلان من كلية التقنيات المتعددة، التي اعتُرف بها حديثًا جامعة، هي كلية شيفيلد للتقنيات المتعددة (المثال 2.3).

4. النسخ

لا يوجد نسخ في مثال فركلاف بما أن مدونته المتعلقة بمادة بحثه لا تتضمن مقابَلات أو شكلًا آخر من أشكال القول. ولكن

إذا استُعمِلَ الكلامُ مادةً للبحث، فهو يحتاج لأن يقع نسخه، أو في الأقل نسخ أجزاء منه. وما يكون مناسبًا لأن يُنسخ يتحدد على أساس أهداف البحث. وليست المسألة مسألة اختيار فحسب، ولكن أيضًا مسألة تأويل. وكما تشير أوكس (Ochs, 1979)، فالنسخ نظرية لا يمكن تجنبها لأن عملية النسخ تتضمن تأويل اللغة المنطوقة (Fairclough, 1992b: 229). وكمثال لذلك، لنتصوّر أن ثلاثة أشخاص يتبادلون الحديث وأن واحدًا منهم تكلم لمدة 80 في المئة من الوقت. فإنه بوسعنا، كما لاحظ فركلاف، أن نقدم ذلك على أنه «محادثة» يتعاقب فيها الجميع على الكلام، أو على أنه «كلام فردي» تتخلله مقاطعات وتدخلات من بقية المتكلمين. فإذا كان هناك تداخل بين المتكلمين، فسيكون على المحلل أن يقرر من يقاطع من، وإذا كان هناك صمت في شريط التسجيل فهو يحتاج لأن يقرر إلى أي متكلم يجب أن يُعزى (1992b: 229f.).

سيكون على محلل الخِطاب أن يختار بين أنظمة التدوين، فلا يوجد نظام يمكن أن يُظهر كل شيء. وهو يحتاج إلى أن يقدر المطلوب بالنظر إلى أسئلة البحث. ومن الواضح أنه إذا كان الهدف هو القيام بتحليل لساني جزئي تفصيلي، فإنه من الضروري استعمال نظام للتدوين أكثر تفصيلًا، كنظام غايل جيفرسون (Gail Jefferson) على سبيل المثال (المستخدم، مثلًا، كنظام قياسي للتدوين في المقدمة إلى تحليل الخِطاب: van Dijk, 1997b). لكن إذا كانت الخطة تتمثل في القيام بتحليل نصي أقل تفصيلًا، فسيكون كافيًا استعمال نظام يُظهر الوقفات وفترات الصمت والتداخل بين المتكلمين، على سبيل المثال الصيغة الأبسط لنظام غايل جيفرسون

التي تستعمل عادة في علم نفس الخِطاب (انظر مثلًا، Potter and Wetherell, 1987; Wetherell and Potter, 1992).

5. التحليل

في منواله الثلاثي الأبعاد، يميز فركلاف بين الممارسة الخِطابية والنص والممارسة الاجتماعية باعتبارها مستويات ثلاثة يمكن الفصل بينها تحليليًا. في هذا القسم، سنذهب إلى ما ينبغي للمحلل أن يبحث عنه في كل من المستويات الثلاثة، مستعملين أمثلة من إعلانات الوظائف. وسنعالج كل المستويات تباعًا لأسباب بيداغوجية، بدلًا من تقديم تحليل جامع للمستويات الثلاثة جميعها كما هو معتاد في تقارير البحث. ولا بد من الإشارة إلى أن فركلاف يحلل إعلان شيفيلد على نحو أكثر عمقًا من إعلان نيوكاسل.

الممارسة الخِطابية

يركز تحليل الممارسة الخِطابية على كيفية إنتاج النص وكيفية استهلاكه. وتوجد طرائق عديدة لمقاربة ذلك. فإذا كانت مادة التطبيق مقالات الصحف مثلًا، يمكن الباحث أن يفحص شروط إنتاج الصحيفة: أي نوع من العمليات يمر به النص قبل أن يُطبع، وما هي التغييرات التي يخضع لها خلال تلك العمليات؟ وربما كان بوسعه أن يرسم سلسلة تناصية من النصوص بحيث يمكن النظر إلى النص «نفسه» في مجموعة من الإصدارات المختلفة. عند تحليل سلسلة تناصية يمكن المرء أن يرى كيف يتم تحويل البنية والمحتوى، ويمكن أن يبدأ بصياغة فرضية حول أنواع شروط الإنتاج التي تخضع لها

الإصـــدارات المختلفة (Fairclough 1995b: 77ff.). في نهاية الاستهلاك يمكن إجراء البحوث حول الجمهور من أجل معرفة الكيفية التي يؤول بها القراء النصوص. ولسوء الحظ، فإن عددًا قليلًا جدًّا من المحللين النقديين للخِطاب يقومون بذلك[40]. في أغلب تحليلاته الخاصة، لا يدرس فركلاف على نحو اجتماعي الطرائق التي تنتج بها النصوص وتفك شفرتها. وهو يشتغل في كثير من الأحيان بالانطلاق من نقطة لغوية في نصوص ملموسة، محددًا الخِطابات التي تعتمد عليها (التقاطع الخِطابي) وكيف تعتمد تناصيًّا على نصوص أخرى.

أنموذج

يتضمن إعـلان شيفيلد درجـةً عالية من تقاطع الخِطابات. وتتمفصل فيه خِطابات ترويجية مختلفة جنبًا إلى جنب مع خِطابات تقليدية لتنشئ مزيجًا معقدًا من تقاطع الخِطابات. ويتمثل أحد الخِطابات الترويجية في خِطاب «الإعلان عن بضاعة»، وهو مثلًا المعبَّر عنه في العنوان «اترك أثرًا في الجيل القادم» وفي تشخيص كل من القارئ والمؤسسة (المخاطبة من خلال «أنت» و«نحن»). وباستعمال التشخيص، يحاكي الإعلان كذلك خِطاب المحادثة.

توجد أيضًا عناصر من خِطاب «الدعاية لشركات الأعمال» تظهر في عبارات مثل «مع ما نمتلكه من سمعة» وفي الشعار. إضافةً إلى

(40) للاطلاع على نقد للتحليل النقدي للخِطاب لعدم إجرائه تحليلات اختبارية للتقبل، انظر (Schrøder, 1998). وكأمثلة للدراسات القليلة حول الجمهور التي تعتمد التحليل النقدي للخِطاب، انظر (Chouliaraki, 1998)، و(Phillips, 2000a, 2000b) و(Richardson, 1998).

ذلك، يعتمد الإعلان على الجنس السردي عندما يتكلم عن تأثير المؤسسة في الجيل القادم («مع ما نمتلكه من سمعة كأحد المراكز الرائدة في المملكة المتحدة للتميّز في التدريس والابتكار في البحث، فإننا نمارس تأثيرًا دائمًا في الجيل الجديد من المبتكرين وأصحاب الأعمال في مجال الهندسة»).

تتمثل عناصر أخرى في هذا المزيج من تقاطع الخِطابات في الخِطاب من النوع الشخصي («مع ما تمتلكونه من طموح وطاقة وخبرة») وخِطاب الإدارة («التميّز في التدريس والابتكار في البحث»، و«الخبرة»، و«المبادرات البحثية»). وفي الوقت ذاته، يعتمد النص على الخِطاب التعليمي التقليدي وعلى عناصر متداولة في الجامعة وفي إعلانات لمؤسسات مماثلة من قبيل «استمارات الطلب والمزيد من التفاصيل متاحة من خلال العنوان التالي».

في المقابل، يمتلك إعلان جامعة نيوكاسل درجة منخفضة من تقاطع الخِطابات. وفي ما يتعلق بالتناص، فإن النص يعتمد على الخِطاب الجامعي التقليدي في كل قول ينبني فيه الخِطاب على نحو تقليدي.

طبقًا لنظرية فركلاف، تُعزى الدرجة العالية من تقاطع الخِطابات إلى التغيير، بينما يشير انخفاض درجة التقاطع بين الخِطابات إلى إعادة إنتاج النظام القائم. في هذه المرحلة من التحليل، نستنتج مبدئيًا أن إعلان شيفيلد هو مظهر من مظاهر تغيير اجتماعي أشمل، بينما يعمل إعلان نيوكاسل على الحفاظ على الخِطاب التقليدي في الجامعات.

النص

من خلال تحليل تفصيلي للخصائص اللغوية لنص من النصوص باستعمال أدوات معينة، يكون من الممكن إلقاء الضوء على الكيفية التي يقع بها تفعيل الخِطابات نصيًّا فتتوصل إلى تأويل محدد وتوفر له السند. ويقترح فركلاف مجموعة من الأدوات لتحليل النص. وأولئك الذين يمتلكون خلفية لسانية سيتعرفون ربما على المجموعة المنتقاة في ما يلي:

- التحكم التفاعلي ـ العلاقة بين المتكلمين، وتتضمن السؤال عمن يضبط برنامج المحادثة (Fairclough, 1992b: 152ff.)،
- الـ «إيثوس» ـ كيف تُبنى الهويات من خلال اللغة وهيئات الجسم (1992b: 166ff.)،
- الاستعارات (1992b: 194ff.)،
- الصياغة (1992b: 190)[41]،
- النحو (1992b: 158ff., 169ff.).

هذه الأمور كلها تقدم فكرة عن الطرق التي تُعالج بها النصوصُ الأحداثَ والعلاقاتِ الاجتماعية فتَبني بالتالي صيغًا معينة للواقع، وهويات وعلاقات اجتماعية.

---

(41) قد يدور صراع الهيمنة على دلالات الكلمات الأساسية. ولتحليل ذلك، لا بد من استدعاء مفهوم «الدوالّ المتغيرة» لدى لاكلاو وموف. انظر أيضًا (Phillips, 1996, 1998) للاطلاع على تحليل الكيفية التي تساهم بها الكلمات المفاتيح والعبارات النمطية في بناء خِطاب التاتشرية وتحويله.

سوف ننظر الآن بانتباه أكثر في اثنين من العناصر النحوية الهامة، **التعدية** و**الجهة**[42]. وعند تحليل التعدية سيكون التركيز على الكيفية التي تكون بها الحوادث والعمليات مترابطة (أو غير مترابطة) مع الفواعل والمفاعيل. وتكمن فائدة ذلك في التحقق من الآثار الأيديولوجية التي يمكن أن تكون لمختلف الصيغ. في الجملة «عُزلت خمسون ممرضة أمس» استعملت صيغة البناء للمجهول، وبالتالي تم حذف الفاعل، فقدمت إقالة الممرضات كما لو أنها نوع من الظواهر الطبيعية ـ شيء حدث من دون فاعل مسؤول عنه (مثل القائمين على إدارة المستشفى)، فبنية الجملة تعفي الفاعل من المسؤولية من خلال تأكيد الأثر وتجاهل الفعل والعملية المسببة له. وتتمثل سمة لغوية أخرى تختزل الفاعلية وتؤكد الأثر في **الوسم الاسمي**[*]، حيث يقوم الاسم مقام العملية («مثال ذلك كانت هناك إقالات عديدة في المستشفى»).

---

(42) لتحليل التعدية وجهة الحكم، يعتمد فركلاف اللسانيات النقدية (انظر مثلًا Fowler, 1991; Fowler et al., 1979). وهو مع ذلك يرفض نزوع اللسانيات النقدية إلى افتراض أن الجماهير سلبية وإلى اعتبار الآثار الأيديولوجية للنصوص أمرًا مفروغًا منه. كذلك يمكن التداولية أن تمثل عمادًا لهذا النوع من التحليل. (انظر مثلًا Leech, 1983; Mey, 1993).

(*) توجد مقترحات لترجمة مصطلح Nominalisation، من قبيل الإسماء والاسمانية والتسمية، لكننا عدلنا عنها لأنها لا توضح المفهوم المقصود للمصطلح باعتباره مبحثًا من المباحث النحوية في اللغات الهندية الأوروبية وهو يتعلق بالأسلوب الذي يقع فيه إبراز قيمة الاسم ويهدف إلى تحصيل مقدار أكبر من المعلومات فيقع نقل الجمل الفعلية أو ما هو بمعناها إلى جمل اسمية.

أما تحليل **جهة الحكم** فيركز على درجة اتحاد المتكلم بقوله أو المتكلمة بقولها أو درجة الاضطلاع بالقول. فالأقوال «الطقس بارد» و«أعتقد أن الطقس بارد» و«ربما كان الطقس باردًا قليلًا» هي طرائق مختلفة للتعبير عن الموقف من الحرارة، أي أنها تمثل جهات عديدة يلتزم المتكلمون من خلالها بأقوالهم بدرجات متفاوتة. والجهة التي يقع اختيارها تترتب عليها تبعات على البناء الخِطابي لكل من العلاقات الاجتماعية ونظامي المعرفة والدلالة.

يتمثل نوع من أنواع جهة الحكم في **الحقيقة**، إذ يضطلع المتكلم كليًّا بالقول. مثال ذلك أن القول «تصلب الشرايين يهاجم الشرايين في الجسم كله تقريبًا»[43]، يقدم ادعاء معرفيًّا مخصوصًّا على أنه حقيقي لا يقبل الجدل بينما يعبر القول «تصلب الشرايين قد يهاجم الشرايين في الجسم كله» عن درجة أقل من الوثوق. وكمثال للجهة التي تبني العلاقات الاجتماعية على نحو مخصوص نذكر **الإذن**، إذ ينزل المتكلم نفسه منزلة يستطيع من خلالها أن يصدر إذنًا للمتقبل لأن يفعل شيئًا: «بعد أسابيع قليلة من حصولك على جهاز تنظيم ضربات القلب، لن يكون عليك إبداء الكثير من الاهتمام به، **تمكنك** ممارسة الرياضة، وممارسة الجنس، والإنجاب، والذهاب إلى

(43) هذا المثال مأخوذ من Længe leve livet: en håndbog om dit hjerte og kredsløb, Hjerteforeningen 1994 [كيف تعيش حياة طويلة: كتيب عن نظام القلب والأوعية الدموية ـ جمعية القلب ـ] الترجمة والتشديد في الشاهد الأخير من عملنا.

العمل»[44]. كذلك يمكن التعبير عن جهة الحكم من خلال النبرة (مثال ذلك، أن النبرة المترددة يمكن أن تعبر عن المسافة من القول) أو التحوط، فالمتكلمون يتحوطون عندما يعدّلون من ادعاء في جملة ما ومن خلال ذلك يُعبرون عن درجة منخفضة من الالتزام به، مثال ذلك استعمال «حسنًا» أو «قليلًا»، كما في «أخطأت المؤسسة الطبية في فهمه ـ حسنًا، ربما أخطؤوا قليلًا».

وتستعمل الخِطابات المختلفة أشكالًا مختلفة للجهة (Fairclough 1992b: 160ff.). مثال ذلك أن وسائل الإعلام تقدم غالبًا التأويلات كما لو كانت حقائق، باستعمال الجهات المطلقة في جزء، واختيار الجهات الموضوعية أكثر من الجهات الذاتية في جزء آخر (كأن تقول مثلًا: «إنه أمر خطير» بدلًا من «نعتقد أنه أمر خطير»). إن استعمال وسائل الإعلام الجهات المطلقة الموضوعية يعكس سلطتها ويُعززها في آن واحد.

أنموذج

من أجل تحليل بناء الهويات والعلاقات الاجتماعية في إعلانات الوظائف، يدرس فركلاف الكيفية التي تبني بها الإعلاناتُ تمثيلاتِ القارئ والمؤسسة نفسها. وباعتباره تعبيرًا عن تقاطع الخِطابات في إعلان شيفيلد، يتضمن النص دلالات تبادلية متضاربة، موافقة

(44) مقتبس كذلك من «Længe leve livet: en håndbog om dit hjerte og kredsløb» [كيف تعيش حياة طويلة: كتيب عن نظام القلب والأوعية الدموية] انظر الهامش 43.

لمختلف الخِطابات المتمفصلة. ولكن الخِطابات الترويجية هي المهيمنة، وبالتالي يهيمن بناؤها للهوية. وقد وقع تمييز المؤسسة، مثلًا، بتسميات هي «التميّز في التدريس والابتكار في البحث»، و«الخبرة»، و«المبادرات البحثية»، فقد وقع تشخيصها، والترويج لهوية معينة بواسطة هذه التسميات. وفي الوقت ذاته، يبني الإعلان بفاعلية الهويةَ المهنية لمقدم الطلب، بحيث تتوافر في المترشح المقبول مجموعة محددة من الخصال الشخصية، مثال ذلك «مع ما تمتلكونه من طموح وطاقة وخبرة، ستضطلعون بالتدريس». على هذا النحو، تثبت المؤسسة سلطتها على نفسها وعلى هوية مقدم الطلب («نحن» و«أنت») على حد سواء، وهذا ينطبق على ما يتعلق بالخصال الشخصية، وكذلك على ظروف العمل وإجراءات تقديم الطلب. لاحظ، في الوقت ذاته، كيف يحاكي تشخيص المؤسسة والقارئ محادثة تساهم في بناء علاقة شخصية وفي ما يبدو علاقة تكافؤ بين الاثنين.

توجد [في الإعلان] جمل تابعة كثيرة تبدأ بالفعل المعبر عن جهة الحكم «سيكون» (على سبيل المثال: «سيكون من الأفضل أن تكون لك خبرة متصلة بالصناعة»)، الذي يعبر عن الاستقبال ويُظهر درجةً مرتفعة من الاضطلاع بالجهة، ولكن لا توجد أي جهات إلزامية صريحة، كما في «**يجب** أن يكون لديك خبرة ذات صلة بالصناعة» مثلًا. إن جملًا من نوع «بالنسبة إلى الوظيفة [...] **فمن الأفضل أن تكون لك خبرة متصلة بالصناعة**» (التشديد من عندنا) تُقلل من أهمية الإلزامات وتفتح المجال

للأبدال. هذه السمة تعزز كذلك علاقة إنسانية تسوي بين المؤسسة وطالب الوظيفة.

في مقابل إعلان كلية شيفيلد للتقنيات المتعددة، فإن صوت المؤسسة في إعلان نيوكاسل غير مشخص، ومحافِظ، ومُباعِد. ويُظهر التحليل أن البنية التقليدية لإعلانات المناصب الجامعية يقع إنتاجها كما يلي: عنوان يحدد المؤسسة، وعنوان رئيس يشير إلى المنصب، ومعلومة عن المنصب، والراتب وإجراءات تقديم الطلبات. وتفرض المؤسسة سلطتها من خلال شروط العمل وإجراءات تقديم الطلبات عبر العديد من الجمل الخبرية التابعة مع درجة عالية من الاضطلاع بالجهة من قبيل «هذا المنصب متاح» و«الراتب سيكون». لكن المؤسسة لا تطلب بسط سلطتها على هوية القراء، ولا يوجد، بذلك، أي سعي إلى بناء هوية مهنية محددَة لمقدم الطلب.

وفي ما يتعلق بالتعدية، فإنه يوجد عنصران في إعلان نيوكاسل يساهمان في تعزيز علاقة غير شخصية بين الجامعة ومقدم الطلب: صيغ الأفعال المبنية للمجهول والوسم الاسمي. في «تُقبل طلبات الترشح لوظيفة أستاذ محاضر» (بدلًا من «ندعوك إلى تقديم طلب لوظيفة أستاذ محاضر») نجد فعلًا مبنيًّا للمجهول من دون فاعل. ولم تذكر المؤسسة على نحو صريح. الوسم الاسمي «طلبات» هو أيضًا يفتقر إلى فاعل، وذلك يعني أن مقدم الطلب المحتمل غائب. اختيار الكلمات هو رسمي وقديم الطراز نوعًا ما، وهو بذلك يساهم في الهوية غير الشخصية المباعدة للمؤسسة وهو نموذج الخِطابات في الجامعات العريقة.

في تحليل البعد النصي، أصبح من الواضح أن النصين يمثلان خِطابين مختلفين، لكل منهما سماته اللغوية الخاصة التي تبني العلاقات الاجتماعية بين المؤسسة ومقدم الطلب بطرائق مختلفة. وإعلان شيفيلد يبني بفاعلية هويتين خاصتين بكل من المؤسسة ومقدم الطلب، وفي الوقت ذاته، يستلزم أن الجانبين يمتلكان علاقات متساوية وشخصية يستطيعان من خلالها تبادل الحديث في عدة أمور. وهو يعرض، في المقابل، بشكل جاف، الشروط التي يجب أن تتوافر في مقدم الطلب لكي يُقبل طلبه، وهو -من ناحية أخرى- لا يتدخل في الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها هوية مقدم الطلب.

الممارسة الاجتماعية

الآن، وبعد أن حللنا النص باعتباره نصًّا وباعتباره ممارسة خِطابية، سيتحول تركيزنا إلى الممارسة الاجتماعية الأوسع التي تمثل هذه الأبعاد جزءًا منها. ويوجد بعدان لهذا الوضع في السياق. أولًا، إن العلاقة بين الممارسة الخِطابية ونظام الخِطاب المتصل بها تحتاج إلى أن تُدرس (Fairclough, 1992b: 237). فإلى أي صنف من أصناف شبكة الخِطابات تنتمي الممارسة الخِطابية؟ وكيف يتم توزيع الخِطابات وتنظيمها عبر النصوص؟ ثانيًا، إن الهدف يتمثل في رسم خريطة العلاقات والأبنية الثقافية والاجتماعية، غير الخِطابية جزئيًّا، التي تشكل السياق الأوسع للممارسة الخِطابية، **الرحم الاجتماعي للخِطاب** بعبارة فركلاف (Fairclough, 1992b: 237). مثلًا، لأي نوع من الظروف المؤسسية والاجتماعية تخضع الممارسة

الخِطابية. مثل هذه الأسئلة لا تمكن الإجابة عنها بالاعتماد على تحليل الخِطاب، كما يُعرفه فركلاف، فمن الضروري الاعتماد على نظريات أخرى ـمثل النظرية الاجتماعية أو الثقافيةـ التي تسلط الضوء على الممارسة الاجتماعية موضوع البحث.

إن القيام بالتحليل النقدي للخِطاب ينطوي، إذًا، دائمًا على الدمج العابر للاختصاصات بين نظريات مختلفة داخل إطار بحثي متعدد المنظورات، فالنظرية والتحليل اللسانيان لا يكفيان أبدًا لتفسير الأبعاد غير الخِطابية للظاهرة موضوع البحث. ويوجز تشولياراكي وفركلاف (1999) الطرائق التي يكون التحليل الاجتماعي وتحليل الخِطاب فيها مخصبين أحدهما للآخر على نحو مثمر، ويقدمان مؤشرات على صيغ النظريات التي وضعت لتحليل غير الخِطاب التي يمكن أن تكون ملائمةً لأن يقع استقدامها إلى إطار تحليل الخِطاب. إن مختلف نظريات تحليل الخِطاب وغير الخِطاب التي يستعملها المرء لتنفيذ مشروع معين تحتاج إلى أن تقع ترجمتها إلى إطار نظري وتحليلي مندمج، حيث تقع ملاءمة بعضها لبعضها الآخر وللهدف من مشروع البحث (Chouliaraki and Fairclough, 1999: 112ff.). في الفصل الخامس سنناقش على نحو أكثر تفصيلًا المشاكل والمكاسب المحتملة للتحليل المتعدد المنظورات للخِطاب.

إنه من خلال تحليل العلاقات بين الممارسة الخِطابية والممارسة الاجتماعية الأوسع تتوصل الدراسة إلى نتائجها النهائية. وهنا تطرح الأسئلة المتصلة بالتغيير والتبعات الأيديولوجية. هل تعيد

الممارسة الخِطابية إنتاج نظام الخِطاب وتساهم بالتالي في الحفاظ على الوضع الراهن للممارسة الاجتماعية؟ أم هل إن نظام الخِطاب، وقد وقع تغييره، يساهم بذلك في التغيير الاجتماعي؟ ما هي التبعات الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية للممارسة الخِطابية؟ هل تحجب الممارسة الخِطابية علاقات السلطة غير المتكافئة في المجتمع وتعززها، أم أنها تتحدى مواقف السلطة من خلال تمثيل الواقع والعلاقات الاجتماعية بطريقة جديدة؟ من خلال صوغ هذه النتائج يُجعل المشروع البحثي مشروعًا سياسيًّا ونقديًّا. وسنعود إلى هذا البعد في القسم المعنون «النتائج».

أنموذج

إن المزيج المتكون من تقاطع الخِطابات الجامعية الترويجية والتقليدية الذي حددناه في إعلان شيفيلد يمكن أن يُفهم على أنه نتاج تذبذب الحدود بين نظامين للخِطاب ـ نظامي خِطاب التعليم العالي وقطاع الأعمال. لقد مُزجت الخِطابات الجامعية التقليدية مع خِطابات عالم الأعمال الترويجية جميعًا. إن انتشار الخِطابات الترويجية عبر أنظمة الخِطاب هو قوة دافعة للتنمية الشاملة للمجتمع، وهي التي وسمها فركلاف بـ «سلعنة الخِطاب».

إذا تم تحليل التفاعل بين إعلان شيفيلد والممارسات الاجتماعية الأخرى في المملكة المتحدة، فإنه يمكن فهم استعماله للخِطاب الترويجي في ضوء هيمنة المشروع التاتشري، حيث انتشر الخِطاب الليبرالي الجديد الاستهلاكي (جنبًا إلى جنب مع الخِطاب التقليدي المحافظ

والخِطاب الشعبوي) عبر المجالين الاجتماعي والسياسي، مساهمًا على هذا النحو في التغيير الاجتماعي والثقافي في المملكة المتحدة.

يعتمد فركلاف نظريات ترجع إلى فترة الحداثة المتأخرة لكي يلقي الضوء على العمليات الاجتماعية الأوسع، التي تشمل أيضًا القوى غير الخِطابية. فهو يستعمل، على سبيل المثال، نظرية أنتوني غيدنز (Anthony Giddens) عن المجتمع ما بعد التقليدي، التي تدعي أن العلاقات الاجتماعية بين الناس والهويات لم تعد تتأسس على مواقع اجتماعية ثابتة، ولكن يتم إنشاؤها بدلًا من ذلك من خلال المفاوضات في التفاعل اليومي (Giddens, 1991). في ضوء هذه النظرية، يمكن أن يُفهم إعلان شيفيلد، على أنه انعكاس لعمليات التغيير باتجاه مجتمع ما بعد تقليدي، وقوة دافعة لها، في حين يغدو إعلان نيوكاسل أنموذجًا لاستمرارية إعادة إنتاج خِطابات الجامعات التقليدية. يطبق فركلاف كذلك نظريات ثقافة الاستهلاك (مثلا Featherstone, 1991; Wernick, 1991) لكي يُحصِّل فهمًا أفضل لدور توسع الخِطاب الترويجي في انتشار ثقافة الاستهلاك وإعادة هيكلة الاقتصاد بالانتقال من التركيز على الإنتاج إلى التركيز على الاستهلاك.

عند وضعهما في سياق اجتماعي أوسع، يشير الإعلانان مجتمعين إلى وجود صراع جارٍ حول الكيفية التي يجب أن تَعمل بها الجامعات والتي يتم فهمُها بها في بريطانيا في فترة الحداثة المتأخرة. فمن جهة توجد القوى التي تضغط من أجل إعادة تعريف الجامعات

بحيث تُصبح، إلى حد كبير، مؤسسات تُشترى فيها المنتجات وتُباع ويُتفاوض حولها. لذلك، فإن جامعة جديدة، مثل كلية شيفيلد للتقنيات المتعددة، تعد ممثلة لهذا الجانب من الصراع يمكن أن تُفهم جزئيًّا في ضوء الصلات التاريخية القوية بين مؤسسات التقنيات المتعددة وقطاع الأعمال، حيث كانت هذه المؤسسات موجهة إلى التأهيل المهني على نحو أكبر مما هو موجود في الجامعات التقليدية. ومن الجهة الأخرى توجد جامعة قديمة مثل نيوكاسل أبون تاين تحافظ على الحدود بين الجامعة وقطاع الشركات، وهي بالنتيجة تعيد إنتاج تعريف مغرق في التقليدية لماهية الجامعات ولما ينبغي أن تكون عليه.

6. النتائج

وفقًا لفركلاف، يجب على محللي الخِطاب أن ينظروا في بعض المسائل الأخلاقية المتعلقة بالاستعمال العام لنتائج أبحاثهم. فالباحث يحتاج إلى الاعتراف بأن هناك خطرًا يتمثل في أن النتائج قد تستخدم موردًا في الهندسة الاجتماعية. ويرى فركلاف في هذا النوع من الاستعمال للنتائج مظهرًا من مظاهر «الاستعمال التقني للخِطاب» (1992b: 221f.) حيث يتم توظيف البحث في الخِطاب لتغيير الممارسات الخِطابية، وكذلك لتدريب الناس على استعمال أشكال جديدة من الممارسة الخِطابية، مثل تدريب مديري الأعمال.

كما ذكرنا آنفًا، فإن الهدف من التحليل النقدي للخِطاب باعتباره نقدًا تفسيريًّا يتمثل في تعزيز خِطابات أكثر عدالة وليبرالية، ومن

خلال ذلك المزيد من الديموقراطية. وإحدى خُطى هذا الاتجاه تتمثل في جعل الناس واعين إلى أن الخِطاب يعمل باعتباره شكلًا من أشكال الممارسة الاجتماعية يعكس علاقات السلطة غير المتكافئة ويشارك في تعزيزها. ويمكن الباحث أن يطبق تقنية لهذه الغاية يسمها فركلاف **بالوعي اللغوي النقدي**[45]. ولا بد للوعي اللغوي النقدي من أن يُمكن الناس من رؤية ثاقبة للممارسة الخِطابية التي يشاركون فيها عندما يستعملون اللغة ويستهلكون النصوص، وكذلك للأبنية الاجتماعية ولعلاقات السلطة التي تتشكل بها الممارسة الخِطابية والتي تساهم في إنشائها وتغييرها. فمن خلال التدرب على الوعي اللغوي النقدي، يمكن الناس أن يصبحوا أكثر وعيًا بالقيود المفروضة على ممارساتهم وبإمكانات المقاومة والتغيير (Fairclough, 1992b: 239).

إذا كان الباحث يسعى إلى تعزيز هذا النوع من التطور، فمن المهم أن ينقل النتائج بطريقة تجعلها متاحةً للناس الذين تركز عليهم البحث. فإذا أظهر المشروع أن مجموعة معينة من الناس تسيطر على عمليات التواصل، فلا بد للمجموعات الأخرى من أن تتمكن من

---

(45) للحصول على إيضاحات حول كيفية استعمال الوعي اللغوي النقدي لأغـراض تربوية. انظر (Fairclough, 1992a, 1995a: chaps. 9 and 10). وللحصول على لمحة موجزة عن الغرض من الوعي اللغوي النقدي في تدريس الإعـلام، انظر (Fairclough, 1995b: chap. 10) حول «التربية» الإعلامية النقدية («critical media «literacy). انظر (Kellner, 1995) للحصول على مناقشة للبيداغوجيا الإعلامية النقدية من منظور الدراسات الثقافية.

استعمال نتائج البحث لتطوير أشكال للتواصل تتضمن توزيعًا أكثر عدلًا للسلطة[46].

بعض التعليقات النقدية

في الختام، سنقدم بعض التعليقات النقدية للتحليل النقدي للخِطاب، موجهة أساسًا إلى مقاربة فركلاف ولكنها تتعلق أيضًا بالتحليل النقدي للخِطاب بشكل عام.

من بين المقاربات المختلفة للتحليل النقدي للخِطاب، قام فركلاف، في نظرنا، ببناء الإطار الأكثر تطورًا لتحليل العلاقة بين الاستعمال اللغوي والممارسات المجتمعية بشكل عام. والمشكل الرئيس في مقاربته هو أن آثار التمييز النظري بين الخِطابي وغير الخِطابي في البحوث الاختبارية لا تزال غير واضحة، فكيف للمرء أن يثبت اختباريًّا أن شيئًا ما هو في علاقة جدلية مع شيء آخر؟ أين يمكن المرء أن يحدد الخط الفاصل بين اثنين أو أكثر من الأشياء التي هي في تفاعل جدلي؟ وكيف يمكن المرء أن يبين على نحو دقيق أين وكيف تؤثر اللحظات غير الخِطابية في اللحظة الخِطابية وتُغيرها، والعكس بالعكس؟ في دراسات محددة، يتجلى المشكل في تقديم الممارسات الاجتماعية الأوسع على أنها خلفية للممارسات

---

(46) يتوجه كتاب فركلاف عن لغة حزب العمال الجديد (2000) إلى جمهور خارج الأوساط الجامعية، وكذلك داخلها، وبذلك يمكن أن يُنظر إليه على أنه محاولة لنشر الوعي النقدي بعمل اللغة والبلاغة المعاصرتين في الحقل السياسي.

الخِطابية. مثال ذلك أن تحليل إعلانات الوظائف في كلية [التقنيات المتعددة] الواردة في هذا الفصل يمكن نقده على أساس أنه يُعين مجتمعًا استهلاكيًا ما بعد تقليدي على أنه واقع اجتماعي موضوعي تعكسه ممارسات خِطابية مختلفة إن كثيرًا أو قليلًا. ونتيجة لذلك، فإن مظهر كلية شيفيلد للتقنيات المتعددة كونه ممارسةً خِطابيةً ترويجيةً هو مواكب للعصر، بينما يقدم إعلان نيوكاسل شيئًا عتيقًا هو في طريقه إلى الانقراض. إن تحليل إعلانات الوظائف في ذاته لا يولد أي معرفة جديدة أو فرضيات جديدة حول الأبنية المجتمعية الأوسع. وهذا التقديم العام يترك مجالًا ضيقًا لاحتمال أن يكون الصراع لم ينته وأن الممارسات الخِطابية لا تزال تعمل لتغيير النظام الاجتماعي. وهذا على الرغم من حقيقة تأكيد فركلاف أن الخِطابات تُشكل العالَم الاجتماعي. ويتمثل مصدر من مصادر المشكل على الأرجح في أن تحليله اقتصر على النصوص المفردة. فمن الأيسر أن تُظهر الكيفية التي تشارك بها الممارسات الاجتماعية في تكوين العالم الاجتماعي وتغييره وأنت تحلل إعادة إنتاج الخِطابات وتحويلها عبر مجموعة من النصوص (راجع Chouliaraki and Fairclough, 1999: 51).

وتتمثل طريقة من طرائق حل الإشكال النظري المتعلق بالتمييز بين الخِطابي وغير الخِطابي في معالجته على أنه تمييز تحليلي أكثر من كونه اختباريًا. وكما يرى لاكلاو وموف، فإنه من الصعب أن نُعيّن خطًا فاصلًا دقيقًا بين الخِطابي وغير الخِطابي. فإذا انطلقنا من الاقتصاد أنموذجًا: هل ينبغي أن يُنظر إلى الاقتصاد على أنه نظام غير خِطابي خاضع لمنطقه الخاص، مختلف عن منطق صناعة المعنى،

أم ينبغي أن يقع تَصورُه بدلًا من ذلك على أنه عددٌ لا حصر له من الخيارات المحددَة التي يعتمدُها الناس على أساس إسناد المعنى وتُؤسس مجتمعةً «الاقتصادَ»؟ لا بد للاقتصاد في الفهم الثاني، من أن يُحلَّل على أنه ممارسة خِطابية، في حين يُؤدّي الفهم الأول إلى نوع مختلف من تحليل الاقتصاد على أنه نظام غير خِطابي. فتتمثل بذلك واحدة من المشاكل في الموضع الذي يمكن فيه التمييز بين الخِطابي وغير الخِطابي. وتتمثل مشكلة أخرى، في الكيفية التي نستطيع بها، باعتبارنا باحثين، أن نأمل أبدًا في تحليل ما هو (في الأقل جزئيًّا) خارج الخِطاب. وتقترح ليلي تشولياراكي (Chouliaraki, 2002) أننا وإن كنّا لا نستطيع أن نعرف شيئًا عن الواقع الاجتماعي إلا من خلال التمثيل، فإنه لا يزال بوسعنا أن نحلله **كما لو** أن الواقع الاجتماعي أكثر من صناعة المعنى. وهذا يعني أن ما يشير إليه الباحث باعتباره منطقًا غير خِطابي، والموضع الذي يعينه للحدود بين الخِطابي وغير الخِطابي، هو نتيجة خيار نظري وتحليلي أكثر من أي شيء آخر. وبهذه الطريقة، يتسنى للتحليل النقدي للخِطاب أن يعتمد على عدد من النظريات الاجتماعية لرسم خريطة أجزاء أخرى من المجال قيد الدراسة أكثر من تلك التي يغطيها تحليل معين للخِطاب، من دون وضع حدٍّ جوهري بين الخِطابي وغير الخِطابي[47].

---

(47) نقدم، في الفصل الخامس، أنموذجًا للبحث المؤسس جزئيًّا على التحليل النقدي للخِطاب حيث يتم اعتماد تمييز تحليلي بدلًا من التمييز الأنطولوجي بين الخِطابي وغير الخِطابي، وتُستدعى نظريات اجتماعية مختلفة لإلقاء الضوء على الممارسة الاجتماعية الأوسع نطاقًا.

يتمثل موطن الضعف الذي يتقاسمه فركلاف مع أنـواع أخرى من التحليل النقدي للخِطاب في القصور النظري في فهم عمليات تكوين المجموعة، والذات والفاعلية، بما في ذلك المسائل المتعلقة بالتذويت (subjectification) والذاتية (subjectivity) ومقدار تحكم الناس باستعمالهم للغة. وبالنظر إلى إلحاح فركلاف على أن الخِطابات تشارك في بناء الهويات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية (بالإضافة إلى المعرفة وأنظمة الدلالة)، فإنه لا يمكن القول إنه أهمل هذه الأبعاد النفسية الاجتماعية تماماً، ولكنها تمثل العنصر الأضعف في نظريته[48]. ويرافق هذا النقص من جانب فركلاف والأشكال الأخرى للتحليل النقدي للخِطاب افتقار مشابه للبحوث الاختبارية حول استهلاك النصوص (بغض النظر عن رؤيتهم الناس فاعلين في عمليات التأويل وأن النصوص متعددة الـدلالات). ففي الجزء الأكبر منها، تشتمل دراساتهم على تحليلات نصية، على الرغم من إلحاح فركلاف على أن التحليل النصي لا بد من أن يقترن بتحليل الممارسات المتعلقة بإنتاج النصوص واستهلاكها (Fairclough, 1995b: 33).

على النقيض من إهمال التحليل النقدي للخِطاب للأبعاد الاجتماعية والنفسية، تُوفر نظرية لاكلاو وموف للخِطاب رؤية للبناء الخِطابي للمجموعات. وقد طور علم نفس الخِطاب نظريةً متطورة

(48) للحصول على وصف لفهم دور الخِطاب في بناء الهويات والعلاقات الاجتماعية لدى فركلاف، انظر (Fairclough, 1992a: chap. 5). وانظر كذلك (Chouliaraki and Fairclough, 1999: chap. 6) لمحاولة التوصل إلى فهم أعمق للذات عن طريق استخدام مفهومي العادات المكتسبة والصوت.

حول الفرد والعالم الاجتماعي وأنجز دراسات اختبارية حول استعمال الناس للغة باعتباره ممارسة خِطابية حيوية (انظر الفصل الرابع حول علم نفس الخِطاب والفصل الخامس حول بعض الأفكار المتعلقة بكيفية بناء إطار لتحليل ملموس للخِطاب يجمع بين عناصر من نظرية الخِطاب، وعلم نفس الخِطاب، والتحليل النقدي للخِطاب).

في البداية وصفنا التحليل النقدي للخِطاب كما لو كان مدرسةً واحدة، ولكن من المهم، طبعًا، أن نكون على بينةٍ من الفروق بين المقاربات المختلفة داخل التحليل النقدي للخِطاب، إذا كان المرء يريد، مثلًا، أن يعتمد على أكثر من مقاربة منها. يتمثل فرق مهمٌّ بين فركلاف وبقية مقاربات التحليل النقدي للخِطاب في فهم للخِطاب وللاجتماعي أكثر توغلًا في ما بعد البنيوية. فتصور الخِطاب على أنه مكون جزئي يدعم اهتمامه الاختباري بالدور الحيوي للخِطاب في التغيير الاجتماعي والثقافي. في مقابل هذا، تميل بقية المقاربات إلى رؤية الخِطاب انعكاسًا لبنية كامنة وإلى التركيز أيضًا بطريقة اختبارية على دور الخِطاب في **إعادة الإنتاج الاجتماعي**.

وقع توضيح عمقِ الاختلافات داخل التحليل النقدي للخِطاب بحقيقة أن مقاربة تان فان دايك لتحليل الخِطاب تُفهمُ أيضًا على أنها جزء من هذه المدرسة. وعلى النقيض من معظم المقاربات الأخرى، تَفهمُ مقاربةُ فان دايك العرفانيةُ الاجتماعيةُ (كأمثلة لذلك 1991، 1993، 1997a) **الأبنيةَ العرفانيةَ** على أنها وسائط بين الممارسات الاجتماعية والخِطابية (انظر نقد العرفانية في الفصل التالي). وعلاوة على ذلك،

فإن فان دايك لا يفهم السلطة على أنها منتِجة بالمعنى الفوكوي، ولكن على أنها متعسفة. فالسلطة هي دائمًا قمعية، إذ يستعملها بعض جماعات المصالح وتُفرض على ذوات سلبية. هذا التصور للسلطة يقف في مقابل كل من الفهمين ما بعد البنيوي للسلطة على أنها منتِجة بالمقدار ذاته الذي هي به قمعية (المؤسس على رؤية فوكو)، ومفهوم الهيمنة لدى غرامشي الذي يعتمد عليه فركلاف (ويُنظر فيه إلى السلطة على أنها «محل تفاوض»، بالمعنى الذي يتيح للناس أن يعملوا باعتبارهم فاعلين مع احتمالات المقاومة). ونتيجة لفهمه للسلطة، يوجد لدى فان دايك ميل إلى تجاهل احتمالات المقاومة لدى الناس. وعلى الرغم من أنه يتبع الإجماع القائم اليوم حول المؤولين الفاعلين والنصوص المتعدّدة الـدلالات فهو يقرر أن الآثـار الأيديولوجية للنصوص أمر مسلم به (مثال ذلك، التسليم بأن الناس يقبلون الرسائل العنصرية).

وأغلب مقاربات التحليل النقدي للخِطاب مع ذلك تشترك في سمات مهمة، فمقاربة فركلاف والمقاربة البنيوية الفرنسية في تحليل الخِطاب والسيميائيات الاجتماعية وتحليل القراءة ومدرسة ديسبورغ كلها تعتمد على نظرية فوكو للخِطاب (كما هو شأن لاكلاو وموف أيضًا). فهي تنظر إلى الخِطاب على أنه جزئيًّا مكون من مكونات المعرفة والذوات والعلاقات الاجتماعية. وهي تسعى، في الوقت ذاته، إلى القيام بتحليل للخِطاب ذي وجهة نصية، وهذا يعني أنها، تحاول نسقيًّا تحليل الاستعمال اللغوي باعتباره ممارسة اجتماعية - حالات فعلية من الاستعمال اللغوي - هي في علاقة بالممارسة الاجتماعية الأوسع التي تُشكلُ الممارسةُ الخِطابيةُ جزءًا منها. وهي

هنا تختلف عن تحليل الخِطاب لدى فوكو ولدى لاكلاو وموف الذي هو أكثر تجريدًا. وهذا سبب من أهم الأسباب التي جعلت المقاربات المتأخرة لا تنضوي تحت مظلة التحليل النقدي للخِطاب.

بيد أن علم نفس الخِطاب، وهو موضوع الفصل التالي، يشمل أيضًا تحليلًا وثيق الصلة بالنصوص، وفيه كثير من القواسم المشتركة مع التحليل النقدي للخِطاب، ولكن من دون أن يُعتبر كذلك. وإذا مررنا بوصف فركلاف وووداك للسمات المميزة للتحليل النقدي للخِطاب (1997)، فمن الواضح أن علم نفس الخِطاب يمتلك أيضًا المؤهلات اللازمة لعضوية النادي، على الرغم من أن علم نفس الخِطاب يمارس تحليلًا، هو بلاغي أكثر من كونه لغويًا[49]. وأن لا يُعْتبَرَ علماءُ نفس الخِطاب أعضاء في النادي فذلك أمر قد تكون له علاقة بالولاء للتخصص. فللتحليل النقدي للخِطاب جذور في اللسانيات، في حين تفرع علم نفس الخِطاب عن علم النفس الاجتماعي. وكما وقع اقتراحه في الفصل الأول، يمكن أن نفهم تحليل الخِطاب ذاته على أنه نظام خِطاب تُمثلُ المقارباتُ المختلفة فيه خِطاباتٍ مختلفةً حول اللغة والخِطاب والمجتمع، وتكون فيه بعض الخِطابات أقوى من خِطابات أخرى. لقد أصبحت الحدود بين الاختصاصات أكثر مرونة، ولكنها لم تتلاشَ، وهي تنهض بدور في ما يتعلق بما يمكن أن تمتلكه مقاربة ما من قوة وتأثير.

---

(49) يلاحظ فركلاف وووداك أن مقاربة أخرى غير لغوية، هي الدراسات النقدية النسوية، تنتمي إلى التحليل النقدي للخِطاب، ولكن المجال لا يسمح بتغطيتها (1997: 281).

4- علم نفس الخِطاب

تقليديًّا، كان مجال علم النفس الاجتماعي تحت هيمنة النموذج العرفاني الذي يفسر الظواهر النفسية الاجتماعية من خلال **العمليات العرفانية**، التفكير والإدراك والاستدلال. وباستعمال الطرائق التجريبية في الغالب، كان البحث يهدف إلى تحديد العمليات العرفانية الكونية كونها أسبابًا للفعل الاجتماعي، لذا كان الاهتمام منصبًّا على العرفان الاجتماعي الذي فُهم على أنه المعالجة الذهنية للمعلومة حول العالم الاجتماعي. في هذا الفصل نتعامل مع الصِيَغ البنائية الاجتماعية لتحليل الخِطاب التي وقع تطويرها في مجال علم النفس الاجتماعي باعتبارها نقدًا للمدرسة العرفانية وتحديًا لها. (انظر كمثال: Edwards, 1996; Edwards and Potter, 1992; Gergen, 1985, 1994a, 1994b; Potter and Wetherell, 1987). لقد أصبح تحليل الخِطاب مقاربة من أكثر المقاربات الاجتماعية البنائية أهمية داخل علم النفس الاجتماعي (في ما يلي، نستعمل مصطلح **علم نفس الخِطاب** كمظلة لهذه المقاربة). في المقاربات العرفانية للغة، يُنظر إلى اللغة مكتوبةً ومنطوقةً على أنها انعكاس لعالم خارجي أو نتاج لتمثلات ذهنية كامنة لهذا العالم (Edwards and Potter, 1992: 2). وعلى النقيض من العرفانية، يعالج علم نفس الخِطاب

اللغة المكتوبة والمنطوقة باعتبارها بناءات للعالم موجهة إلى الفعل الاجتماعي[50].

تشترك كل المقاربات البنائية الاجتماعية في الفرضيات البنيوية وما بعد البنيوية، المشار إليها في الفصل الأول، وهي أن اللغة شكل حركي للممارسة الاجتماعية يقوم بتشكيل العالم الاجتماعي، بما في ذلك الهويات والعلاقات الاجتماعية وأفهام العالم. هذه الفرضية تستلزم النظر إلى العمليات الذهنية والتصنيفات على أنها تتكون من خلال النشاطات الاجتماعية الخِطابية بدلًا من كونها «باطنية» كما هو الحال في علم النفس العرفاني والتحليل النفسي (Edwards, 1996; Edwards and Potter, 1992). هنا، يعتمد علم نفس الخِطاب جزئيًّا على فلسفة لودفيغ فتغنشتاين (Ludwig Wittgenstein) المتأخرة حيث تم التأكيد أن المزاعم المتعلقة بالحالات النفسية لا بد من أن تُعالج باعتبارها **أنشطة اجتماعية** بدلًا من كونها تجليات لـ «ماهيات» أكثر عمقًا كامنة وراء الكلمات (Wittgenstein, 1953، انظر مثلًا، Edwards, 1996; Potter, 2001)[51]. إن الأقوال موجهة إلى العمل في سياقات اجتماعية محددة، ومعانيها

---

(50) تشمل الدراسات المركزية في علم نفس الخِطاب ما يلي: (Billig, 1992)، و(Edwards and Potter, 1992)، و(Potter and Wetherell, 1987)، و(Shotter and Gergen, 1989)، و(Wetherell and Potter, 1992)، و(Widdicombe and Wooffitt, 1995).

(51) كمثال لهذا الاستعمال لفلسفة فتغنشتاين، انظر (Edwards and Potter, 1992)، و(Shotter, 1993)، و(Billig, 1997).

بالتالي تعتمد على الاستعمال المخصوص الذي وضعت له. من ثم، فإن الاستعمال اللغوي محدود بالسياق أو بالمناسبة. فهو استعمال للغة بهذا المعنى الـذي يحدده علماء نفس الخِطاب لما هو خِطاب.

في تحليله للخِطاب على نحو اختباري باعتباره استعمالًا للغة في مقام محدد، يختلف علم نفس الخِطاب عن كل من المقاربات التي تركز على الأبنية المجردة للغة داخل علم النفس العرفاني (بما في ذلك مقاربة تشومسكي Chomsky) وعن نظريات الخِطاب البنيوية وما بعد البنيوية (بما في ذلك نظريات فوكو ولاكلاو وموف للخِطاب)، التي لا تركز على أمثلة محددة للتفاعل الاجتماعي.

في هذا الفصل سنقوم بوصف العناصر الأساسية لعلم نفس الخِطاب بما هو نظرية ومنهج للبحث في الاتـصـالات والثقافة والمجتمع. وسنصف أولًا جـذوره [الكامنة] في الاعتراض على علم النفس الاجتماعي العرفاني. ولن نقدم وصفًا مفصلًا لعلم النفس الاجتماعي العرفاني، بـل، بـالأحـرى، لمحة موجزة عن الجوانب الرئيسة للمقاربة وللنقد الذي توجه به علم نفس الخِطاب إلى تلك الجوانب. والغرض من ذلك هو تقديم فكرة تمهيدية عن علم نفس الخِطاب من خلال تتبع أصوله [الكامنة] في اعتراض نموذجي على العرفانية. والجوانب التي انتخبناها من علم النفس الاجتماعي العرفاني هي تصوره للذات وللعمليات الذهنية مع مجالين من مجالات البحث الأساسية فيه: البحث في الصراعات

بين المواقف وبين المجموعات. لقد انتخبنا هذه النقاط المحورية لأنها مركزية في علم النفس الاجتماعي ووثيقة الصلة بالبحث الاجتماعي عمومًا. ونعرض ثانيًا فرضيات البنائية الاجتماعية التي يستند إليها علم نفس الخِطاب، ونقدم الخطوط العريضة لثلاثة مسارات مختلفة من علم نفس الخِطاب ونقارن بينها. إثر ذلك، نتوسع في الرؤية إلى الذات والهوية داخل علم نفس الخِطاب، وموقفه من الانعكاسية في علاقتها بعملية البحث وإنتاج المعرفة. وأخيـرًا، نعرض الخطوط العريضة لمناهج البحث الاختباري ونقدم بعض الأمثلة للتطبيق الاختباري لمقاربتين من مقاربات علم نفس الخِطاب.

إننا نعتمد اعتمادًا كبيرًا على عمل جوناثان بوتر (Jonathan Potter) ومارغريت ويذيريل (Margaret Wetherell) في ما يتعلق بالنظرية والمنهج والبحث الاختباري، بما أن عملهما نهض بدور مركزي في تطوير علم نفس الخِطاب وبما أنه يوفر بعض الأدوات البحثية المجدية. وقد كان لكتاب بوتر وويذيريل **الخِطاب وعلم النفس الاجتماعي** (*Discourse and Social Psychology*) (1987) على وجه الخصوص، دور مركزي في ظهور علم نفس الخِطاب باعتباره اعتراضًا على علم النفس العرفاني، ويقدم كتابُهما **ترسيم لغة العنصرية** (*Mapping the Language of Racism*) (Wetherell and Potter, 1992) عرضًا لإحدى أشمل الدراسات في علم نفس الخِطاب. وفي وصفنا لعلم نفس الخِطاب سنحيل مرارًا وتكرارًا على هذه الدراسة. وموضوع الدراسة هو خِطابات **الباكيها** (Pākehā)

(النيوزيلانديون البيض) عن ثقافة الماوري (Māori)(*) والتبعات الاجتماعية لهذه البناءات الخِطابية.

علم نفس الخِطاب بما هو اعتراض على علم النفس العرفاني

الذات والعمليات الذهنية

ينتسب علم النفس العرفاني إلى التصور الحديث للفرد باعتباره فاعلًا مستقلًّا محددًا بمجموعة من الخصائص الأصيلة. ويُنظر إلى الفرد والمجتمع على أنهما كيانان منفصلان، وهو ما يستلزم وجود ازدواجية بين الفرد والمجتمع. ويُعامل العالَم الاجتماعي على أنه معلومة للمعالجة، ويُفهم الناس على أنهم مُعالِجات معزولة للمعلومات، ترصدُ العالم من طريق العمليات العرفانية، وتُراكم بذلك الأبنيةَ المعرفية والتجربة التي تحكم تصورهم للعالم. وتتمثل فرضية أساسٌ في علم النفس العرفاني في أن الفرد يتعامل مع كم هائل من المعلومات عن العالم من خلال استعمال العمليات العرفانية التي تقوم بتصنيف العالم بطرائق محددة. والافتراض الذي تقوم عليه هذه الفرضية هو أن العالم يشتمل على مقدار كبير من المعلومات، حتى إنّ الفرد يعجز عن تكوين الدلالة خارج دائرة الفوضى إلا باستعمال التصنيفات. ويُنظر إلى التصنيفات على أنها أبنية ذهنية تتحكم في أعمالنا (Condor and Antaki, 1997). ويستند هذا المنظور إلى

(*) الباكيها هم النيوزيلانديون من أصل أوروبي. ويستخدم الماوري، وهم السكان الأصليون لنيوزيلاندا، كلمة الباكيها للإشارة إلى النيوزيلانديين غير الأصليين وأغلبهم من أصل بريطاني وإرلندي.

الإدراكية، وهي الفكرة التي تتمثل في أن التصنيف يتأسس على الخبرة الاختبارية المباشرة[52]. نحن نلاحظ العالم على نحو مباشر، وعلى أساس إدراكنا، نقيم أبنية ذهنيةً أو تمثلات ثمّ نستعملها في تصنيف المعلومات حول العالم. ويتمثل زوج من التمثيلات الذهنية التي حددتها البحوث العرفانية في **الخطاطات**، ومنها **المدونات**. وتحتوي المدونات على رسوم تخطيطية لوضعيات معتادة وللسلوك المطابق المناسب لها (Condor and Antaki, 1997: 326). مثال ذلك، أن الطلبة يمتلكون مدونةً حول ما يحدث خلال ندوة: أنت تأتي، وتجلس، وتستمع، وربما تلقي سؤالًا، وتتظاهر بعدم النعاس. فهذه المدونة، تزود الطالب بخطوط موجهة للعمل.

تمثل «نظريات الاتساق» منظورًا للعمليات العرفانية كان مؤثرًا للغاية حتى بداية الثمانينيات من القرن العشرين، وعليه شن علم نفس الخِطاب نقده. وتتأسس هذه النظريات على افتراض أن الناس يسعون إلى الاتساق في تفكيرهم. وهي تشمل «نظرية التنافر العرفاني» التي صاغها لويس فيستنغر (Festinger, 1957). استنتج فيستنغر، على أساس عدد من التجارب، أنه إذا عاش شخص ما تجربة التنافر ـ أي عدم الاتساق بين واحد أو اثنين من مدركاته العرفانية ـ فإنه يدخل في وضع غير مريح من التوتر النفسي ويصبح متحفزًا للتقليل من التوتر من خلال تغيير مدركاته العرفانية، بحيث يعود إليها اتساقها. مثال ذلك، أنه إذا كان الأجر الذي يتلقاه شخص ما مقابل عمله غير كاف، فإنه يمكن تبرير ذلك

---

(52) للاطلاع على وصف واضح للإدراكية، انظر (Edwards and Potter, 1992: chap. 1).

في ما بعد بأنه تجربة ثرية جدًّا. وذلك من شأنه أن يقلل التنافر. ووفقًا لهذا المنظور، فإن الاختلافات بين المواقف والأعمال لا ينظر إليها على أنها شيء عادي أو طبيعي، ولكن على أنها أوضاع غير مريحة نفسيًّا. وفي علاقة بالاتصالات المخطط لها، مثلًا، فإن نظرية التنافر العرفاني تفترض أنه إذا كان أفراد الجمهور أو القراء يشعرون أن الرأي الذي وقع إبلاغه لا يتماشى مع آرائهم، فإن الباثّ (sender) سيجد صعوبة في جعله يحظى بالقبول (Cheesman and Mortensen, 1991: 91).

وفقًا للبنائيين الاجتماعيين، فإن منظري الاتساق العرفاني، بالاشتراك مع عرفانيين آخرين، يقللون من شأن الأصل الاجتماعي للحالات النفسية، مؤسسين تفسيراتهم على فرضيات حول العمليات الكونية. ويلاحظ مايكل بيليغ (Billig, 1982 : 141)، مثلًا، أن هؤلاء المنظرين يعتبرون كونية العمليات أمرًا مسلمًا به بدل البرهنة عليه من خلال دراسات المثاقفة. ويُعتقد في علم نفس الخِطاب أن طرائقنا في فهم العالم وتصنيفه ليست كونية، ولكنها محددة تاريخيًّا واجتماعيًّا وهي تبعًا لذلك عَرَضية. علاوة على ذلك، يلفت علم نفس الخِطاب الانتباه إلى الدراسات التي تشكك في نتائج [نظرية] «الاتساق العرفاني». وتبين هذه الدراسات أن التغيرات في كلام الناس، حيث يناقض الناس أنفسهم، متواترة جدًّا وأن المحاولات لجعل آرائهم تنسجم (أي القضاء على التغير) هي نسبيًّا نادرة (Potter and Wetherell, 1987: 38). وإذا ما كان شيء ما يفهم على أنه متسق أو غير متسق، فذلك يعتمد على الوضع الاجتماعي وعلى الفرد. إن الاتساق وعدم الاتساق هما في ذاتهما ظرفان متغيران، ويتمثل

واحد من الأبعاد التي تلقى اهتمامًا خاصًّا في علم نفس الخِطاب في كيفية استعمال الاتساق وعدم الاتساق كاستراتيجيات بلاغية خلال الاستعمال اللغوي في مقام محدد (Potter and Wetherell, 1987: 38). وعلى افتراض أنها كونية، فإن العمليات العرفانية الفردية التي يقوم عليها العمل الفردي والجماعي هي جزء لا يتجزأ من الرؤية العرفانية للفرد باعتباره فاعلًا معزولًا مستقلًّا. والفرق بين هذه الرؤية والتصور البنائي الاجتماعي للذات هو، كما سنراه لاحقًا، حاسم بالنسبة إلى الفروق بين هذين التقليدين البحثيين.

البحث الموقفي

استنادًا إلى العرفانية، ينظر البحث الموقفي إلى المواقف على أنها متحكمة في أعمال الناس من خلال إنتاج التقويمات الذهنية المستمرة للعالم. ويتمثل هدف أساس للبحث في تعزيز كفاءة عمليات الاتصال المخطط له، مثل الحملات الإعلامية التي تستهدف تغيير المواقف والسلوك. وما يعرقل تحقيق هذا الهدف هو «مشكل الموقف/ السلوك»، أي أن موقفًا معينًا لا يؤدي بالضرورة إلى سلوك يتماشى مع هذا الموقف. وفي البحث الموقفي، أنجزت دراسات عديدة تبين أنه توجد درجة منخفضة من التوافق بين المواقف التي يعبر عنها الناس وبين أفعالهم[53].

(53) للاطلاع على رؤية شاملة نقدية لهذا المجال البحثي، انظر (Potter, 1996a). ضمن التخطيط الاتصالي، تُستعمل بحوث الرأي في دراسات «المعرفة، المواقف، الممارسات» أو دراسات «المعرفة، المواقف، السلوك».

في البحث الموقفي تمثل نظرية «العمل المخطط له» (Azjen, 1988; Fishbein and Azjen, 1975) محاولة لتحسين كفاءة قياس المواقف في توقع الأفعال. ويُنظر إلى نوايا التصرف بطرائق معينة (شـراء الأغذية البيولوجية مثلًا) على أنها نتيجة لعوامل ثلاثة: مواقف الناس تجاه موضوع الفعل (الغذاء البيولوجي مثلًا)، وانطباعهم عمّا يفكر فيه أشخاص آخرون مهمون بالنسبة إليهم عن الفعل، مثل الأصدقاء والعائلة (البعد المعياري)، وتحكمهم في الفعل (إذا ما كانوا قادرين على تحمل كلفة الأغذية البيولوجية أم لا، وإذا كانت المحلات التجارية المحلية تتزود به أم لا، على سبيل المثال). فالمنوال يتوقع الأفعال أكثر بكثير من النماذج السابقة، لكن حقيقة أن على المرء أن يأخذ مجموعة واسعة من العوامل المعقدة والظرفية والمعيارية بعين الاعتبار يقلل من قابلية مفهوم الموقف للاستعمال[54].

يعاني البحث الموقفي، في منظور علم نفس الخِطاب، من عدد من المشاكل العامة. مثال ذلك، أن الباحثين في المواقف يعاملون كل موقف على أنه كيان معزول لا على أنه جزء من نظام أوسع للدلالة، ولم يقع صوغ أي نظرية تفسر الطرائق التي تترابط بها المواقف المختلفة للفرد في ما بينها. وفي نقد على المنوال نفسه، يصور بوتر هذا المشكل على نحو جيد من طريق التشبيه الآتي: البحث الموقفي يُعامل المواقف على أنها كيانات منتشرة في الدماغ مثل الزبيب في كعكة الفاكهة (1996a: 135). ويتصل بذلك مشكل أشار

(54) للاطلاع على عرض مفصل لهذه المشاكل، انظر (Potter, 1996a).

إليه بوتر يتمثل في أن البحث الموقفي يُهمل كيفية بناء المواقف من خلال التفاعل الاجتماعي بين الناس في حياتهم اليومية. وربما كانت النقطة الأكثر أهمية هي صعوبة التوفيق بين الاختلافات التي تتميز بها أحاديث الناس وفكرة أن المواقف لا تعكس إلا العمليات العرفانية الكامنة والأبنية المستقرة (Billig, 1991; Edwards and Potter, 1992). والبنائيون الاجتماعيون ينتقدون الفرضية الأساس للبحث الموقفي، وهي أن المواقف ينبغي أن يُبحث عنها في الأبنية العرفانية الفردية. وهم يعتقدون في المقابل، أن تكوين الموقف يكون من خلال النشاطات الاجتماعية[55].

الصراعات بين المجموعات

تسعى المقاربات العرفانية للتصورات النمطية والصراعات بين المجموعات إلى فهم العمليات النفسية الاجتماعية النمطية التي تُوجِد الصراعات بين المجموعات. وتتمثل واحدة من الأفكار المركزية في أن الناس عندما يصبحون أعضاء في مجموعة ما، يبدأون في التماهي مع تلك المجموعة والنظر إلى الواقع الاجتماعي من منظورها. ويصل بهم الأمر إلى النظر إلى أفراد مجموعتهم الخاصة على أنهم أفضل من أعضاء المجموعات الأخرى. فالعنصرية والتعصب العرقي يفهمان إذًا على أنهما نتيجتان للانتماء إلى المجموعة. هذا المنظور يستلزم، نتيجةً للعمليات الذهنية الكونية، أن كل الناس

---

(55) انظر، مثلًا، (Middleton and Edwards, 1990) حول كيفية فهم «التذكر» ودراسته على أنه نشاط اجتماعي.

يشتغلون على نحو مماثل إن كثيرًا أو قليلًا. وهو يحتوي أيضًا على عنصر من الإدراكية بما أنه يفترض أن التغيير في التصورات النمطية يحصل فحسب عند تقبل معلومة جديدة تناقض التصورات النمطية. وهذا يستلزم أنه إذا كان ضحايا التصورات النمطية سيتصرفون بشكل مختلف، فإن الناس سيعاملون المعلومات الجديدة بطريقة غير نمطية. وتبعًا لذلك، فإن ضحايا التصورات النمطية يُعتبرون أسبابًا للأحكام المسبقة، وأن أحكام الناس المسبقة تُعامل على أنها آثار حتمية لاستراتيجيات معالجة المعلومات (Wetherell, 1996a).

داخل علم نفس الخِطاب، يُنظرُ إلى نظرية الهوية الاجتماعية باعتبارها أكثر المقاربات العرفانية إثمارًا[56]. وتختلف نظرية الهوية الاجتماعية عن المقاربات العرفانية الأخرى في تأكيدها أن الصراع بين المجموعات له جذور في سياقات اجتماعية وتاريخية مخصوصة. وهي مع ذلك، تحتفظ ببعد عرفاني في نظرتها إلى التصنيف على أنه عملية نفسية. والهدف من ذلك هو تحديد ما يحدث لهوية الناس وتقويماتهم وتصوراتهم ودوافعهم عندما يتفاعلون داخل المجموعات. والنقطة الأساس هي أن العمليات العرفانية لدى الناس تتغير منذ أن يؤدي تصنيف الذات على أنها عضو من مجموعة ما إلى التعبير عن الهوية الاجتماعية بدلًا من الهوية الشخصية، وعند التعبير عن الهوية الاجتماعية، تنتشر التصورات النمطية. ويصبح مدلول الذات عند

---

(56) يتضمن (Tajfel, 1981) عدة نصوص مفاتيح حول نظرية الهوية الاجتماعية. وانظر كذلك (Abrams and Hogg, 1990) من أجل نظرة شاملة، و(Wetherell, 1996b) من أجل نظرة نقدية.

المرء مؤسسًا على الأفكار المشتركة الراجعة إلى المجموعة (الأفكار حول ما يعنيه أن يكون المرء طالبًا، أو مسيحيًّا، أو أوروبيًّا مثلًا). ووفقًا لنظرية الهوية الاجتماعية، فإن تقدير الناس ذواتهم يمتزج بالمجموعة. ومن أجل أن يشعر الفرد بالرضا عن النفس، سيكون عليه أن يشعر بالرضا عن المجموعة. والنتيجة هي أن الناس يفضلون مجموعتهم الخاصة («التحيز لمن هو داخل المجموعة») ويمارسون التمييز ضد المجموعات الأخرى («التمييز ضد من هو خارج المجموعة»). وعلى هذا النحو تنشأ الصراعات بين المجموعات.

ووجّه علماء نفس الخِطاب إلى نظرية الهوية الاجتماعية بعضًا من الانتقادات ذاتها كتلك التي وجهوها إلى المقاربات العرفانية الأخرى. وناقشوا الافتراض المتمثل في وجود عملية نفسية كونيَّة هي المتسببة في الصراع بين المجموعات. وكما هو الحال في نظريات الاتساق العرفاني، فإن نظرية الهوية الاجتماعية لا تستقي أدلتها من البحوث حول المثاقفة. وعلى العكس من ذلك، فإن الدراسات حول المثاقفة تشير إلى أن الأطفال ذوي الخلفيات الثقافية الأخرى لا يمارسون التمييز بين المجموعات بالطريقة ذاتها التي يمارسها الأطفال البريطانيون والأميركيون الشماليون على سبيل المثال (Wetherell, 1982, 1996). وتتماشى نتائج هذه الدراسات مع الافتراض البنائي الاجتماعي بأن عمليات التماهي والتصنيف التي تقوم عليها الهوية الاجتماعية هي متعينة تاريخيًّا واجتماعيًّا. وتبين النتائج أن التمييز الذي يمارسه أفراد مجموعة على مجموعات أخرى لا يرجع إلى ترابط نفسي تلقائي بين التماهي مع المجموعة والتنافس

بين المجموعات، ولكن إلى تأويل العلاقات داخل المجموعة على أساس أطر ثقافية للفهم، إن عملية التأويل الراجعة إلى الثقافة هي ما يحدد إذا كان التماهي مع المجموعة يؤدي إلى «التحيز إلى من هو داخل المجموعة» و«التمييز ضد من هو خارج المجموعة» أو أن له نتائج أخرى كليًّا.

موقف علم نفس الخِطاب: خلاصة

على النقيض من العرفانية، تدافع البنائية الاجتماعية ـ بما في ذلك علم نفس الخِطاب ـ عن **البناء الاجتماعي** للمواقف، والمجموعات الاجتماعية والهويات. وترفض البنائية الاجتماعية سعي العرفانية إلى شرح المواقف والسلوك بالاعتماد على الحالات الذهنية أو العمليات الذهنية الكامنة. وبدلًا من فهم العمليات النفسية ـبما في ذلك عمليات التصنيف الاجتماعيـ على أنها نشاطات ذهنية خاصة تنتجها المعالجة الفردية للمعلومات، فإن البنائيين الاجتماعيين يفهمونها نشاطات اجتماعية. وعلاوة على ذلك، فهم لا ينظرون إلى المواقف على أنها استعدادات ذهنية ثابتة («يمتلكها» الفرد)، ولكن على أنها منتجات للتفاعل الاجتماعي.

وفقًا لعلم نفس الخِطاب، فإن اللغة لا تقوم بمجرد التعبير عن التجارب، بالأحرى، فإن اللغة أيضًا تشكل التجارب والواقع النفسي الذاتي (Potter and Wetherell, 1987; Shotter, 1993; Wetherell, 1995). وفي الفصل التالي نناقش بعمق المنظور البنائي الاجتماعي لعلم نفس الخِطاب وفهمه الذات والهوية.

البنائية الاجتماعية وعلم نفس الخِطاب

كما أشرنا في الفصل الأول، يقترح البنائيون الاجتماعيون أن الطرائق التي نعتمدها في الفهم والتصنيف في الحياة اليومية ليست انعكاسات شفافة لعالم «هناك»، ولكنها نتاج أفهام تاريخية وثقافية مخصوصة للعالم وهي بالتالي عَرَضية. هذه الأفهام للعالم يقع إنشاؤها والاحتفاظ بها خلال التفاعل الاجتماعي بين الناس في حياتهم اليومية. ووجهة النظر هذه مؤسسة على نزعة مضادة للماهوية: فكون العالم الاجتماعي مبنيًّا على نحو اجتماعي يستلزم أن طبيعته غير محددة سلفًا أو معطاة مسبقًا، وأن الناس لا يمتلكون «ماهيات» باطنية، أي مجموعة من السمات الحقيقية الأصلية الثابتة[57].

ووفقًا لعلم نفس الخِطاب، لا تقوم الخِطابات بوصف عالم خارجي «هناك» على غرار ما تقوم به الخطاطات والصور النمطية وفقًا للمقاربات العرفانية. وبدلًا من ذلك، **تنشئ الخِطابات** عالمًا يبدو واقعيًّا أو حقيقيًّا بالنسبة إلى المتكلم. وكما أشرنا في الفصل الأول، فهذه الوجهة في النظر هي ما بعد بنيوية. فاللغةُ لا يُنظر إليها على أنها قناة تقوم على نحو شفاف بإبلاغ واقع نفسي موجود سلفًا هو أساس التجربة، وبدلًا من ذلك **تتشكل** الحقائق النفسية الذاتية من خلال **الخِطاب**، الذي يُعَرفُ بأنه **استعمال مقامي للغة أو استعمال للغة في النصوص والأقوال اليومية** (Shotter, 1993;

(57) للحصول على مقارنة بين المنظورين الماهوي والمضاد للماهوية حول الهوية، انظر (Woodward, 1997: 11f.).

Wetherell and Potter, 1992). والادعاءات حول الحالات النفسية لا بد من أن تُعامل باعتبارها أنشطة اجتماعية خِطابية بدلًا من اعتبارها تعبيرات عن «ماهيات» أكثر عمقًا وراء الكلمات (Wittgenstein, 1953). فنحن نُكسبُ التجارب معنى بفضل الكلمات المتاحة، والمعاني الناتجة تساهم في إنتاج التجربة بدلًا من كونها مجرد وصف للتجربة أو وقائع «تالية للحدث». وكما يزعم بوتر وسترينغر وويذيريل يمكن القول إن الخِطاب «يبني» واقعنا المعيش (Potter et al., 1984).

إن فكرة كون واقعنا المعيش يتشكل خِطابيًّا لا تعني أن علم نفس الخِطاب يعتبر أن الظواهر الاجتماعية ليس لها أبعاد مادية، أو أنه لا يوجد واقع مادي خارج الخِطاب. وتمشّيًا مع لاكلاو وموف، تتمثل هذه النقطة في أن الظواهر تكتسب المعنى من خلال الخِطابات فحسب، وأن إكساء الظواهر بالمعنى يساهم في إنشاء الموضوعات والذوات. ويؤكد ويذيريل وبوتر هذه النقطة في دراستهما الممارسة الخِطابية في نيوزيلاندا:

> «إن نيوزيلاندا لن تكون أقل واقعية لتشكلها على نحو خِطابي، فأنت ستموت إذا اصطدمت طائرتك بتلة، سواء أكنت تعتقد أن التلة هي نتاج انفجار بركاني أم هي شكل متجمد لحوت أسطوري. مع ذلك، فالواقع المادي لا يقل خِطابية، لكونك قادرًا على الوصول إلى مسار الطائرات. كيف تُفهم هذه الميتات [...] وما سببُها فذلك يتشكل من خلال أنظمة الخِطاب لدينا» (Wetherell and Potter, 1992: 65).

على النقيض من لاكلاو وموف، يؤكد أغلب علماء نفس الخِطاب أن للأحداث والعلاقات والأبنية الاجتماعية شروطَ وجود تقع خارج نطاق الخِطاب. وهناك من يُحاجُّ، مثلًا، بأن القومية لا تتشكل من خلال الخِطابات فحسب، ولكن أيضًا من خلال عنف الدولة والقوة المادية، في حين يتم بناؤها في الوقت ذاته باعتبارها شيئًا دالًّا داخل الخِطاب (Wetherell and Potter, 1992)، فعلم نفس الخِطاب يضع بعض الممارسات الاجتماعية خارج الخِطاب، على الرغم من أنه لا يميز بالحدة ذاتها بين الممارسات الخِطابية والممارسات غير الخِطابية كما يفعل التحليل النقدي للخِطاب.

ويختلف علم نفس الخِطاب أيضًا عن نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف في أنه يرفض وجود نزوع داخل التيار ما بعد البنيوي إلى تحليل الخِطابات كما لو كانت ظواهر مجردة، وليست ممارسات اجتماعية لها مقام و«مناسبة»:

> «إن دراسة الخِطاب يمكن [...] أن تصبح شيئًا شبيهًا جدًّا بجيولوجيا الصفائح التكتونية، مزيجًا من الصفائح/ الخِطابات تُفهم على أنها متطاحنة في ما بينها تطاحنًا عنيفًا، مسببة زلازل وبراكين، أو منزلقة أحيانًا بصمت الواحدة تحت الأخرى. فتصبح الخِطابات منظورًا إليها على أنها فواعل سببية قوية في حد ذاتها، مع انصباب عمليات الاهتمام على عمل خِطاب (مجرد) في خِطاب آخر (مجرد)، أو على أنها قضايا أو «إثباتات» في هذا الخِطاب الذي يعمل بسلاسة وتلقائية لإنتاج الموضوعات والذوات»[58] (Wetherell and Potter, 1992: 90).

---

(58) انظر كذلك (Potter, 1996b: 87).

ويعتمد علم نفس الخِطاب على الفهم ما بعد البنيوي للذات باعتبارها ذاتًا خِطابية، ولكن في صيغة معدلةٍ فحسب، بما أنه يدعم كذلك الموقف التفاعلي القاضي بأن الناس يستعملون الخِطابات بفعالية على أنها موارد، وهو يؤكد بالنتيجة أن الناس هم منتجون للخِطابات بالمقدار ذاته الذي يكونون به نتاجًا لها.

اتجاهات مختلفة في علم نفس الخِطاب

على الرغم من أن علماء نفس الخِطاب ينأون بأنفسهم في المجمل عن المفهوم المجرد للغاية للخِطاب في مقاربة لاكلاو وموف مثلًا، لمصلحة موقف أكثر تفاعليّةً، فإن علماء نفس الخِطاب يختلفون في كيفية الموازنة بين الانتشار الأوسع لأنماط المعنى في المجتمع من جهة، وإنتاج المعنى الـذي يجري في سياقات معينة من جهة أخرى. وسوف نميز بين ثلاثة اتجاهات مختلفة في علم نفس الخِطاب، وفي هذا القسم سنحدد خطوطها العريضة باعتبارها مقاربات مميزة للبحوث النظرية والاختبارية كلها داخل حقل علم نفس الخِطاب. بإيجاز، يمكن وصف الاتجاهات الثلاثة كما يلي:

- منظور ما بعد بنيوي يقوم على نظرية فوكو في الخِطاب، والسلطة، والذات.
- منظور تفاعلي يقوم على تحليل المحادثة والمنهج الإثني.
- منظور تأليفي يؤلف بين المنظورين الأولين.

ويمكن توضيح الفروق بين الاتجاهات الثلاثة من خلال المسترسل الذي رسمناه في الفصل الأول (الرسم 2.1). فمن الجهة اليمنى توجد المقاربات التي يعاين فيها الباحث خِطابات مجردة من دون نظر تفصيلي إلى استعمالها عبر سياقات اجتماعية مختلفة. ومن الجهة اليسرى توجد المقاربات التي يدرس فيها الباحث على نحو مفصل الاستعمال اللغوي على أنه نشاطات تجرى خلال التفاعل الاجتماعي من دون تحليل نسقي للروابط بين التفاصيل والعمليات والأبنية الاجتماعية والثقافية الأوسع نطاقًا. ينتمي المنظور الأول إلى الجهة اليمنى والمنظور الثاني إلى الجهة اليسرى، والثالث إلى الموقف الأوسط.

والتركيز في المنظور الأول، الأقرب إلى التصور الأكثر تجريدًا للخِطاب، منصبٌّ إذًا، على الكيفية التي يقع فيها إنشاء أفهام الناس للعالم والهويات وتغييرها في خِطابات محددة، وعلى التبعات الاجتماعية لهذه المنشآت الخِطابية[59]. ويركز المنظور الثاني على تحليل توجهات عمل النص والكلام خلال التفاعل الاجتماعي. وبالاعتماد على تحليل المحادثة والمنهج الإثني، يكون التركيز على الكيفية التي يقع بها إنتاج التنظيم الاجتماعي من خلال الكلام والتفاعل. ويحلل الباحث محادثات الناس على أنها مظاهر من عالم يبنيه المشاركون في المحادثة أنفسهم. ويتمثل هدف الباحث في الاحتفاظ بمنظوره النظري الخاص عن هذا العالم خارج التحليل، ويعد تطبيق أطر الفهم والتفسير

(59) انظر على سبيل المثال: (Hollway, 1984, 1989) و(Parker, 1992).

غير المعدودة من الموضوعات عند المخبرين أنفسهم اعتداءً على المادة الاختبارية[60].

في المنظور الثالث، يقترن المَشغل ما بعد البنيوي الموصول بالكيفية التي تُشكل بها خِطاباتٌ محددة الذوات والموضوعات بمَشغل [آخر] تفاعلي ذي صلة بالطرائق التي يقع فيها توجيه خِطاب الناس إلى الفعل الاجتماعي في سياقات تفاعل محددة[61]. وينصب اهتمام مماثل على ما يفعله الناس بنصوصهم وأقوالهم وعلى موارد الخِطاب التي يستقدمونها في تلك الممارسات. وغالبًا ما يستعمل مفهوم **المخزون التأويلي** بدلًا من الخِطاب لإبراز أن الخِطابات يقع الاعتماد عليها في التفاعل الاجتماعي باعتبارها موارد مرنة. وينأى أنصار هذا المنظور التأليفي بأنفسهم عن التحليل ما بعد البنيوي للخِطاب وتحليل المحادثة في صيغتيهما الخالصتين كلتيهما، فهم ينتقدون من جهة التحليلَ ما بعد البنيوي للخِطاب في تشييئه الخِطابات ـأي التعامل معها كأشياء موجودة في العالم هناكـ،

(60) انظر على سبيل المثال، (Antaki, 1994) و(Antaki and Widdicombe, 1998)، و(Widdicombe and Wooffitt, 1995). وللاطلاع على مدخل موجز للمنهج الإثني ولتحليل المحادثة انظر على التوالي (Watson, 1997) و(Heritage, 1997, 2000). وللاطلاع على رؤية شاملة للمنهج الإثني انظر (Heritage, 1984) وللاطلاع على عروض لتحليل المحادثة انظر على سبيل المثال، (Atkinson and Heritage, 1984)، و(Sacks, 1992)، و(Ten Have, 1999)، و(Wooffatt, 2001).

(61) مثال ذلك (Potter and Wetherell, 1987)، و(Wetherell and Potter, 1992)، و(Phillips, 2000a, 2000b)، و(Potter and Reicher, 1987).

ولإهماله استعمال الناس المقامي للغة (على سبيل المثال، Wetherell, 1998).

في تحليلات الخِطاب ما بعد البنيوية لمجال مخصوص (مثل مجالات الجنسانية، أو السياسة، أو الإعلام) يُنظر إلى الخِطابات، كما يبدو، على أنها أبنية متراصة يخضع لها الناس ويُصرف مقدار غير كافٍ من الاهتمام إلى الطرائق التي تُشكلُ بها أَقوال الناس وتُغيرُ في سياقات التفاعل المخصوصة التي تتنزّل ضمنها الأقوال وتتوجه إليها.[62] وهم يرون من جهة أخرى أن تحليل المحادثة، كما يُمارس في كل من حقلي تحليل المحادثة ذاته وفي المنظور التفاعلي المحض في علم نفس الخِطاب[63]، يُغفل التبعات الاجتماعية والأيديولوجية الواسعة النطاق للاستعمال اللغوي (مثال ذلك Billig, 1999a, 1999b;[64] Wetherell, 1998). وهذه التبعات، كما يقترح أتباع

---

(62) للاطلاع على نقد للتحليل ما بعد البنيوي للخِطاب بالانطلاق من موقف تحليل المحادثة، انظر (Schegloff, 1997).

(63) لاحظ أن هذا النقد موجه إلى حقل تحليل المحادثة بدلًا من استعماله في المنظور التفاعلي المحض داخل علم نفس الخِطاب. ونحن نرى أن النقد ينطبق أيضًا على المنظور التفاعلي داخل علم نفس الخِطاب. انظر، على سبيل المثال، نقاشنا (Widdicombe and Wooffitt, 1995) لاحقًا في هذا الفصل.

(64) نصوص بيليغ (Billig, 1999a, 1999b) تشكل جزءًا من حوار نقدي مع محلل المحادثة إمانويل شيغلوف (Emanuel Schegloff). ويقدم (Billig, 1999a) تعليقًا نقديًا على نقد شيغلوف للتحليل ما بعد البنيوي للخِطاب (Schegloff, 1997). انظر (Schegloff, 1999a, 1999b) للاطلاع على تعقيبه على بيليغ.

المنظور التأليفي، من أمثال ويذيريل (Wetherell, 1998) وبيليغ (Billig, 1999b)، يمكن ـويجبـ أن تُستقصى من خلال تطبيق النظرية الاجتماعية، إضافةً إلى تحليل المحادثة أو تحليل الخِطاب.

استبعد محللو المحادثة هذا الخيار، على أساس أن الموضوع الحقيقي للتحليل هو تكوين المشاركين أنفسهم للمعنى من خلال الكلام عند التفاعل وليس تأويلات المحللين هذا الكلام من خلال التنميط الاجتماعي الأوسع للكلام. لكن هذا الادعاء المتعلق بإنتاج تحليل لأفهام المشاركين أنفسهم نقية من «تلوث» الافتراضات التحليلية هو تعبير عن سذاجة إبستيمولوجية فضلًا عن كونه غير مرغوب فيه من منظور البحوث النقدية، بحسب بيليغ (Billig, 1999b)، الذي يشير إلى أن كل تحليل للعالم يتأسس على افتراضات معينة، وبالنتيجة فإنه يتعذر علينا أن نفهم أقوال الناس تمامًا بعباراتهم الخاصة بهم على نحو مجرد. وإضافةً إلى ذلك، ينبغي للمرء أن يعتمد على نظرية نسقية حول الاجتماعي (وكذلك الافتراضات الضمنية) من أجل إجراء بحوث نقدية عن دور الكلام اليومي في علاقته بمسائل الممارسة الاجتماعية والسلطة الأوسع نطاقًا، وهو نوع البحوث التي يسعى إليها المنظور التأليفي (Billig, 1999b; Wetherell, 1998)[65].

على الرغم من أننا سنحيل إلى الاتجاهين الأولين في حالات الخلاف بين اتجاهات علم نفس الخِطاب الثلاثة، فإننا سنركز في

---

(65) انظر الفصل السادس لمناقشة أوسع لمختلف المواقف البنائية الاجتماعية في ما يتعلق بالبحوث النقدية.

معظم هذا الفصل أساسًا على المنظور الثالث، مهتمين على نحو خاص بعمل بوتر ويذيريل، بما أن مقاربتهما كانت مركزية في تطوير علم نفس الخِطاب إجمالًا، وهي توفر أدوات للبحث في التواصل والثقافة واللغة واضحة الجدوى ومستعملة على نطاق واسع. في ما يلي، سنوجز رؤيتهما للخِطابات باعتبارها «مخزونات تأويلية». ونحو نهاية الفصل، نقدم مثالين: مثالًا مقتبسًا من تحليل ويذيريل وبوتر الاختباري لخِطاب **الباكيها** (Pākehā) (النيوزيلانديين البيض) عن ثقافة الماوري (Māori) (1992)، ومثالًا من عمل اختباري ينتمي إلى المنظور الذي يعتمد اعتمادًا كبيرًا على تحليل المحادثة والمنهج الإثني.

المخزونات التأويلية

إن النظر إلى الخِطابات على أنها «مخزونات تأويلية» تستعمل مواردَ مرنةً في التفاعل الاجتماعي هو أمر مركزي في منوال بوتر ويذيريل. والغرض من ذلك هو تحصيل فهم أفضل للأسئلة المتعلقة بالتواصل والفعل الاجتماعي وبناء الذات، والآخر والعالم. ويحلل بوتر ويذيريل كيف يُبنى الخِطاب في علاقته بالفعل الاجتماعي، وكيف يبني الناس أفهامهم للعالم خلال التفاعل الاجتماعي، وكيف تعمل هذه الأفهام أيديولوجيًّا لتدعم أشكال الانتظام الاجتماعي المؤسسةَ على علاقات للسلطة غير متكافئة.

ويُعرف بوتر ويذيريل الخِطاب بطرائق متعددة: على أنه كل أنواع التفاعل اللفظي والنصوص المكتوبة (Potter and Wetherell,

(7 :1987)، وعلى أنه المعاني، والمحادثات، والقصص، والتفسيرات، والأوصاف، والنوادر (Wetherell and Potter, 1992: 3). وهما يستعملان في دراستهما الاختبارية لخِطاب الباكيها في نيوزيلاندا عبارة «المخزون التأويلي» بدلًا من الخِطاب، لتأكيد أن استعمال اللغة في الحياة اليومية مرن وحيوي. ويتكون المخزون التأويلي من «عدد محدود من الكلمات تستعمل بطريقة أسلوبية ونحوية مخصوصة» (Wetherell and Potter, 1988: 172)، أو كما كتبا لاحقًا:

> «نعني بالمخزون التأويلي مجموعات متشابكة من الكلمات والأوصاف ووجوه الخِطاب قابلة للإدراك على نطاق واسع ملتئمة غالبًا حول استعارات أو صور حية» (Wetherell and Potter, 1992: 90).

يوفر كل مخزون موارد يمكن الناس استعمالها في بناء صيغ للواقع. وبينما يلح ويذيريل وبوتر على أن مصطلح «الخِطاب» يمكن أن يستعمل لوصف العملية نفسها ـ وهو ما قاما به بنفسيهما مرارًا وتكرارًا في تحليلهما، فإنهما يفضلان استعمال مفهوم «المخزون التأويلي»، وذلك بغية النأي بنفسيهما عن النظر إلى الخِطابات على أنها ظواهر مجردة مُشَيّأَة على ما أشرنا إليه في الصفحات 199 ـ 202، و بدلًا من ذلك لتأكيد أن الخِطابات يستعملها الناس بفاعلية باعتبارها موارد مرنة لإنجاز أشكال من الفعل الاجتماعي في النصوص والكلام. والمخزونات التأويلية، باعتبارها موارد مرنة، هي في الآن ذاته، كيانات قابلة للمعاينة تمثل طرائق مختلفة لإضفاء المعنى على العالم وأشكالًا طيعة تخضع لتحويلات عند استعمالها بلاغيًّا:

«تتمثل إحدى مزايا اعتبار البناءات، مثل الثقافة باعتبارها تراثًا، مخزوناتٍ تأويلية في أن ذلك يقترح أنه يوجد تصميم متاح للحركات التأويلية - لِنَقُل، مثل حركات الراقص على الجليد - يمكن أن ننتخب منه حركات مخصوصة على نحو تكون به مناسبتها أكثر فعالية داخل السياق. وهذا يؤكد كلًّا من مرونة الاستعمال المعتاد للغة والطريقة التي تنتظم بها الموارد التأويلية معًا على أنحاء متطورة. وهو يبين كيف تتهاوى الصورة البنائية في الدراسات التي تركز على استعمال الخِطاب خلال الممارسة» (Wetherell and Potter, 1992: 92).

إن الهدف من التحليل ليس تصنيف الناس (مثلًا، إلى قوميين، أو عنصريين، أو مستهلكين «خُضْر»(*)) ولكن التعرف إلى الممارسات الخِطابية التي تُبنى بها الأصناف. ولا يُتوقع من الناس أن يكونوا متناسقين، ولكن يُتوقع منهم، بدلًا من ذلك، أن تختلف نصوصهم وأقوالهم بما أنهم يعتمدون على خِطابات مختلفة في سياقات مختلفة. وبذلك يركز التحليل اهتمامه أيضًا على محتوى الخِطاب خلال التفاعل الاجتماعي باعتباره شيئًا مهمًّا في ذاته، وليس مجرد انعكاس لعمليات نفسية كامنة. هذا المنظور، كما لاحظناه سابقًا، يجمع بين التركيز ما بعد البنيوي على الطرائق التي تُشكِّلُ بها خِطاباتٌ مخصوصةٌ (تُدرك باعتبارها «مخزونات تأويلية») الذواتِ والأشياءَ، والتركيز التفاعلي على الطرائق التي يقع فيها توجيه خِطابات الناس إلى الفعل الاجتماعي في سياقات محددة.

(*) نوع من المستهلكين يضع اهتمامه بقضايا البيئة نصب عينيه، فلا يقدم على استهلاك المواد المضرة بالبيئة.

بانطلاقهما من مقاربة فوكو الجينيالوجية، لا يهتم ويذيريل وبوتر بمعرفة إذا ما كان المخزون التأويلي انعكاسًا صادقًا أو كاذبًا للعالم، ولكن بتحليل الممارسات التي تُبنى من خلالها المخزونات على نحو تبدو به صادقة أو كاذبة. وهما يحللان كيف يقع إنشاء أوصاف الناس لأنفسهم ولتجاربهم وللحوادث على أنها صلبة وحقيقية وثابتة (1992: 95)، وكيف تُقدم الأوصاف المنافسة على أنها كاذبة أو متحيزة (Potter, 1996b). ولكن في مقابل فوكو، وبالاشتراك مع التحليل النقدي للخِطاب، هما يهتمان بالآثار الأيديولوجية للأوصاف التي يقوم بها الناس، ويُعرفان **الأيديولوجيا** بأنها خِطابات تُصنف العالم بطرائق تضفي الشرعية على الأنماط الاجتماعية وتحفظها. وهما يرفضان فهم الأيديولوجيا على أنها «وعي زائف» وفهم السلطة على أنها ملك لأفراد معينين أو مجموعات معينة. وهما يفهمان الأيديولوجيا، مثلما يفهمان التحليل النقدي للخِطاب، على أنها ممارسة، وأن سلطتها موزعة ومنظمة خِطابيًّا. ويمكن الحكم على المحتوى الأيديولوجي للخِطاب من خلال آثاره. والهدف من ذلك هو أن نثبت أن أثر بعض الخِطابات هو تعزيز مصالح المجموعة على حساب مجموعة أخرى.

العقول والذوات والهويات

إن علم نفس الخِطاب، كما سبقت الإشارة، يقوم على الفرضية الاجتماعية البنائية المتمثلة في أن الذات الفردية ليست كيانًا معزولًا ومستقلًّا، ولكنها بدلًا من ذلك في تفاعل مستمر وحيوي مع العالم

الاجتماعي[66]، فالعقول والذوات والهويات تتشكل وتُناقَش ويعاد تشكيلها في التفاعل الاجتماعي[67]. وبالاعتماد جزئيًّا على أعمال باختين (Bakhtin) وميد (Mead) وفيغوتسكي (Vygotsky)، ينظر علماء نفس الخِطاب إلى العقول والذوات على أنها تُبنى من خلال استبطان الحوارات الاجتماعية. ووفقًا لبلاغة مايكل بيليغ النفسية، على سبيل المثال، فإن كل رأي هو موقف داخل حجة بدلًا من كونه تقويمًا معزولًا فرديًّا (مثال ذلك، Billig, 1991, 1996). وهذا يستند إلى منوال بلاغي للعقل اسْتُلْهِمَ على وجه الخصوص من ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtin)، فباختين [هو من] يقترح أن التفكير حوار باطني ناجم عن استبطان النقاش العام (Bakhtin, 1981). والحوارات الاجتماعية التي تشكل أساسًا للذات تتكون من سرديات ثقافية وخِطابات تضع الأفراد في أصناف اجتماعية، من قبيل نوع الجنس (انظر مثلًا، Gergen, 1994a). ينمي الأطفال شعورهم بالذات من خلال استبطان مواقعهم ضمن فئات داخل السرديات والخِطابات المختلفة. إذ من خلال الاستماع إلى أوصاف العالم، يتعلم الأطفال الصيغ المناسبة للكلام على ذواتهم والآخرين، بما في ذلك الكلام على الأفكار والعواطف. ومن

---

(66) للاطلاع على لمحة شاملة لمقاربات البنائية الاجتماعية للذات، انظر (Wetherell and Maybin, 1996). وقد وقع تقديم المقاربات المركزية في Gergen (على سبيل المثال: 1991, 1994a, 1994b)، وHarré (على سبيل المثال: 1983)، و(Harré and Gillett, 1994).

(67) (Brundson, 1991) و(Walkerdine, 1990, 1993) بَحَثا مثلًا في البناء الاجتماعي لنوع الجنس.

خلال القصص الذي يروونه لأنفسهم يقوم الأطفال بتمثيل واختبار ومناقشة جوانب من الذات (Wetherell and Maybin, 1996). وبعيدًا من أن تتشكل مرة واحدة وإلى الأبد خلال الطفولة، تكون الذات الفردية في عملية بناء مستمرة طوال حياة الفرد من خلال المشاركة في الممارسات السردية والخِطابية في التفاعل الاجتماعي. بهذا الفهم للذات، يقع تلطيف التمييز بين عالم خارجي موجود خارج الفرد وعالم نفسي باطني، فالذات تُفهم على أنها علاقية أو «موزعة»:

«يُنظر إلى الشخصية والوعي والعقل على أنها اجتماعية تمامًا. ونتيجةً لذلك، لن يكون هناك معنى للتساؤل عما يتحدد من «الداخل» وعما يتحدد «من الخارج». [...] فالذات في هذه المقاربة، ليست شيئًا يقع وصفه مرة واحدة وللأبد، ولكن يُنظر إليها على أنها تاريخ من العلاقات متغيرٌ وسائلٌ باستمرار (Gergen, 1991, 1994). لقد أجاد جيروم برونر (Jerome Bruner) التقاط هذه الفكرة عندما اعتبر أنه ينبغي النظر إلى الذات على أنها **موزعة** وليست متمركزة مثل كرة السنوكر، ولكن منتشرة باستمرار ومتغيرة ومتجمعة ومستأنفة للتجمع عبر حقل علاقي واجتماعي» (Wetherell and Maybin, 1996: 222، التشديد في النص الأصلي).

كما ذُكر سابقًا، يرفض علم نفس الخِطاب الفكرة الحداثية، وهي أن الذات الفردية تتكون من هوية واحدة ثابتة، وبدلًا من ذلك هو يتصور الذات على أنها تتكون من هويات متعددة يُشكلها

الخِطاب[68]. ومن المهم أن نشير، مع ذلك، إلى أنه بينما يشارك علماء نفس الخِطاب النظرة المتمثلة في أن الهويات تتشكل من خلال الطرائق التي يموقع بها الناس أنفسهم في النصوص والأقوال في الحياة اليومية، فإنهم يختلفون في فهمهم المخصوص للبناء الخِطابي للهوية. وتجد الاختلافات أسسها في الاتجاهات الثلاثة الأساسية في علم نفس الخِطاب، التي وصفناها سابقًا في الصفحات من 199 إلى 204.

في المنظور التفاعلي، يقع التنظير للهويات ودراستها اختباريًّا باعتبارها موارد يستدعيها الناس لإنجاز مشاريع الكلام (مثال ذلك Antaki and Widdicombe, 1998). وينصبّ التركيز على الطرائق التي تُستعمل بها هويات معينة في الكلام في سياق محدد لإنجاز أفعال اجتماعية، مثل إضفاء الشرعية على موقف معين. وعلى النقيض من هذا المنظور، يُحدد الاتجاهان الآخران لتحليل نفس الخِطاب -أي المنظور ما بعد البنيوي الصارم والمنظور الذي يجمع بين المنظورين التفاعلي وما بعد البنيوي- ويُحللان الطرائقَ المخصوصةَ للكلام التي تُدمَج فيها الهوياتُ باعتبارها خِطاباتٍ تُعيّن بنية الكلام وحدوده في سياقات التفاعل. وينظر منظور فوكو ما بعد البنيوي إلى الهويات باعتبارها منتجات لمواقف الذات داخل الخِطابات (مثال ذلك، Hollway, 1989; Parker, 1992). ويصف واحد من أتباع هذا المنظور داخل علم الاجتماع، هو ستيوارت هول

(68) كما ذكرنا في الفصل الثاني، ينخرط لاكلاو وموف أيضًا في هذه النظرة للهوية، التي يمكن وصفها بأنها ما بعد بنيوية.

(Stuart Hall) الذي يستند إليه كثير من علماء نفس الخِطاب، هذا التصورَ المفهوم للهوية على النحو الآتي:

«أستعمل «الهوية» للإحالة على نقطة اللقاء [...] بين الخِطابات والممارسات التي تسعى إلى «استنطاقنا»، والتحدث إلينا أو دعوتنا إلى موضع باعتبارنا الذوات الاجتماعية لخِطابات مُعَينَة من جهة، والعمليات التي تنتج الذاتيات التي تَبنينا على أننا ذوات يمكن «قولها» من جهة أخرى، فالهويات بالنتيجة هي نقاط الارتباط الوقتي مع مواقف الذات التي تبنيها الممارسات الخِطابية لنا» .(Hall, 1996: 5f)

الاتجاه الثالث الذي يتبنى ما بعد البنيوية ولكن يجمع بينها وبين التفاعلية، يعامل الهوية على أنها في آن واحد نتيجة خِطابات محددة ومورد لإنجاز الأفعال الاجتماعية في الكلام خلال التفاعل. مع هذا الاتجاه، وقع تطوير مفهوم المَوْقَعَة من جهة منظرين مثل دايفيز (Davies) وهاري (Harré) ولانجنهوف (Langenhove) (مثال ذلك، .(Davies and Harré, 1990; Harré and van Langenhove, 1999 ويُنظر إلى الموقعة على أنها جزء لا يتجزأ من العمليات التي يبني بها الناس تقديرات لأنفسهم خلال التفاعل مع الآخرين. هذه العمليات تفهم على أنها عمليات تفاوض بما أن الناس يتخذون بفعالية مواقف داخل خِطابات مختلفة وأحيانًا متنافسة. ويُعاملُ الناس باعتبارهم منتوجات لخِطابات محددة ومنتجين لأقوال في سياقات محددة على حد سواء، وهم على هذا النحو، ذوات في الخِطاب وفواعل في إعادة الإنتاج والتغيير الاجتماعي والثقافي على حد سواء. وهم مقيدون

بالكلمات المتوافرة كموارد للكلام ولكنهم يستعملونها موارد لينةً في الجدل، وبالجمع بينها بطرائق جديدة، تمكنهم المساهمة في التغيير.

يؤكد كلا المنظورين، ما بعد البنيوي والذي يجمع بين ما بعد البنيوية والتفاعلية، أن الهويات أصبحت، إضافةً إلى ذلك، مجزأة وغير مستقرة خلال الحداثة المتأخرة، بما أنها بنيت عبر عدد من الخِطابات المتناقضة والمتنازعة في الغالب (Hall, 1996: 6)[69]. في حين عملت أبعاد من قبيل القومية والطبقة والجنس والعائلة عمل فئات مركزية في ما مضى، مشكلة كل الهويات الأخرى، فإنه توجد الآن مجموعة واسعة من المراكز التي تنتج هويات متناقضة. إن هوية من يُعتبر مسيحيًا مثلًا، يمكن أن تتحدى هوية من يُعتبر نسويًا أو عاملًا، أو يمكن هوية شخص ما باعتباره مستهلكًا أن تتعارض مع هوية صاحب الوعي البيئي، فالشخص باعتباره مستهلكًا يمكن أن يتخذ، في خِطاب استهلاكي، موقف ذاتٍ تدعو إلى حرية الفرد في الاختيار وإلى مبدأ التناسب بين النوعية والسعر، ولكن موقف الذات هذا لا بد أن يكون في صراع مع خِطاب مناصر للبيئة ينظر إلى التسوق على أنه وسيلة للحفاظ على المصلحة العامة والبيئة. إن هوية «المستهلك الأخضر» يمكن أن تنبثق من تموقع الفرد داخل خِطاب مهجن تتمفصل فيه خِطابات داعمة للاستهلاك وخِطابات داعمة للبيئة جميعًا. وهو ما يمكن أن يفهم على أنه جزء من «سياسات للهوية» حيث تستبدل بعلاقات تقليدية مستقرة مؤسسة مثلًا على

(69) ينظر إلى الذات، أساسًا، على أنها غير مستقرة أنطولوجيا ومجزأة، ولكن هذه السمات تكثفت في فترة الحداثة المتأخرة.

الطبقة والعائلة والقومية، هويات جديدة غير مستقرة أُنشئت جزئيًا من خلال الاستهلاك[70]. وتعمل السلطة على نحو خِطابي من خلال موقعة الفرد لنفسه وللآخرين داخل فئات خِطابية معينة ـ ضمن فئة أفراد الغرب «المتحضر» أو العالم الإسلامي «البربريّ» مثلًا، داخل خِطاب من خِطابات الاستشراق.

يمكن المقاربة ما بعد البنيوية أن تسلط الضوء على هذه الأنماط الخِطابية، مع التركيز على العلاقات بين الخِطابات المختلفة ومواقف الذات وعلاقات السلطة التي تبنيها، بينما يمكن المقاربة التي تجمع بين ما بعد البنيوية والتفاعلية أن تقدم فكرة عن الطرائق التي يُموقع بها الناس أنفسهم والآخرين، من خلال استعمال الخِطابات المتاحة كموارد مرنة في الكلام، بطرائق تدعم كل أقوال الآخرين، منشئة إجماعًا على المعنى، أو تعارض كل أقوال الآخرين، مؤدية إلى جدل حول المعنى. ولإيضاح هذا النوع من التحليل، سنقوم بإيجاز بعض العناصر من تحليل ويذيريل وبوتر لكلام الباكيها لاحقًا في هذا الفصل ونعرض كذلك تحليلًا مقتبسًا من دراسة لخِطاب بيئي (Phillips, 2000a, 2000b) في الفصل الخامس.

إن الرؤية السائدة في الاتجاهات الثلاثة لعلم نفس الخِطاب جميعها، هي أن الهويات تبنى على أساس مورد خِطابي متنوع ومتحول، وهي لذلك علاقية وغير مكتملة وغير مستقرة، ولكنها ليست منفتحة بصفة كاملة. بعبارات هول، نحن نُكون «معنى لذاتنا»

---

(70) للاطلاع على عرض شامل جيد للبحوث حول سياسات الهوية، انظر (Woodward, 1997)، خصوصاً الفصلين 1 و6.

من خلال اختيار صيغة لذاتنا خارج كل الصيغ الممكنة «للأنا». وهذا حاجز(*) وهو، مع ذلك، مؤقت فحسب:

«ولكن ألا يتطلب أيضًا قبول الوضع التخييلي أو السردي للهوية في علاقتها بالعالم مقابله بالضرورة، لحظة الحاجز التعسفي؟ إن الخِطاب في مجال الاحتمال لا نهاية له: أي أن صيرورة المعنى لا نهاية لها، ولكن لتقول أي شيء مخصوص، يجب عليك أن تتوقف عن الكلام. طبعًا، فكل وقف تام هو مؤقت. إذًا، فما هو هذا «الإنهاء»؟ [...] إنه نوع من القمار، نوع من الرهان: تقول فيه: «أحتاج إلى قول شيء، شيء... الآن بالتحديد». وليس الأمر أبديًّا، وليس صادقًا على نحو كامل وكوني [...]. ولكن الآن فحسب، هذا ما أعنيه، هذا الذي هو أنا. عند نقطة معينة، في خِطاب معين، نطلق على هذه الحواجز غير الكلية: «الذات» و«المجتمع» و«السياسات»... إلخ نقطةَ النهاية. حسنًا، هناك حقيقةً (كما يقولون) لا توجد نقطة نهاية من هذا النوع» (Hall, 1993: 136-137).

إن إنتاج المعنى، وبالتالي بناء الهوية، مقيدان بمجموعة من موارد الخِطاب هي المتاحة للأفراد من خلال مواقعهم وأوضاعهم الاجتماعية والثقافية. فمن الأيسر بالنسبة إلى بعض الأفراد أن يتقمصوا، وأن تُعزى إليهم، بعض الهويات من قبيل هوية الغربي «المتحضر» داخل خِطاب استشراقي أو هوية «الخبير» داخل خِطاب علمي. علاوة على ذلك، فإن الطبيعة المتغيرة والعَرَضية للهوية لا تعني أن الناس يستأنفون من جديد هويات جديدة في كل مرة يتكلمون فيها. إن الهوية المعبر عنها

(*) انظر مفهوم الحاجز في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

في وقت معين يمكن أن تفهم على أنها ترسب لممارسات خِطابية سابقة (Wetherell and Potter, 1992: 78). ويتمثل عامل مسؤول عن الاستمرارية في أن الفرد مطالب بأن يقدم نفسه بطريقة مقبولة قابلة للتعرُّف بالنسبة إلى ذاته وبالنسبة إلى الناس الذين يتفاعل معهم.

ينفتح واقع أن الناس ينشئون هوياتهم من خلال «حواجز» وقتية على إمكان إنشاء هويات جماعية، **جماعات متخيلة** (Anderson, 1983)، مؤسسة على فكرة الهوية المشتركة، كهوية امرأة، أو كهوية دانماركي مثلًا. وفي الوقت ذاته، إن هذه الجماعات لا يمكن أن تُعتبر مسلمة بما أن الحاجز الذي ينشئ التماهي مع المجموعة، ويبنيها تبعًا لذلك، هو وقتي فحسب. وبما أن الذاتية مجزأة، فإن الناس لا يشعرون بالضرورة أنهم يتقاسمون المشاغل مع المجموعة نفسها أو أنهم منتمون إليها بشكل دائم. في نقطة واحدة، يمكن الناس أن يكتسبوا انتماءً مبررًا من الناحية السياسية إلى مجموعة، بينما يمكن أن يقيموا في وقت لاحق علاقة عدائية مع بعض أعضاء المجموعة. مثال ذلك أنه يمكن مهندسة كينية أنثى تعيش في إنكلترا، وفي وضعيات مختلفة، أن تُموقع نفسها على التوالي على أنها عضو في الطبقة المسيطرة، وعضو في المجموعة الخاضعة، و«امرأة»، وعضو في الأقلية المضطهدة للبريطانيين من غير السكان الأصليين. والحاجز يستلزم من الشخص أن يثبت على هوية واحدة، فيجب عليك أن تتوقف عن الكلام، كما يقول هول. ولكن من حيث المبدأ، إن الهوية هي دائمًا منفتحة على التغيير، وتبعًا لذلك، يمكن المجموعة أن تتحلل ويمكن مجموعات جديدة أن تُنشأ.

إن تصور العقول والذوات والهويات على أنها منتوجات للتفاعل الاجتماعي المشترك بين كل من الاتجاهات الثلاثة لعلم نفس الخِطاب، يُؤدي إلى تحليل التنظيم **البلاغي** للنص والكلام ـ وهكذا يتم توجيه النص والكلام إلى الفعل الاجتماعي ـ بدلًا من التنظيم اللغوي للنص والكلام، كما هو الحال في التحليل النقدي للخِطاب. وينصب الاهتمام على الكيفية التي يستعمل بها الناس الخِطابات بفاعلية مواردَ للكلام خلال التفاعل. ويُنظر إلى الأقوال على أنها مقيدة بالسياق أو «بالمناسبة»، وأن معانيها خاضعة لسياقها البلاغي، كأن تُستعمل في حجة لتبرير فعل ما. وثمة نقطة وقع تأكيدُها على نحو خاص في اتجاهات علم نفس الخِطاب المنتمية إلى المنظور التفاعلي (إما منفردة وإما بالاشتراك مع ما بعد البنيوية) في أن الناس يعامل بعضهم بعضًا خلال التفاعل الاجتماعي على أنهم فواعل تمكن الاستفادة من أفعالهم، وبالتالي يكون لهم مكسب منها (Potter, 1996b). وبذلك ينطوي الاستعمال اليومي للغة على **معضلات المصلحة**(*) المتمثلة في أن الناس يكافحون لإنشاء رواياتهم باعتبارها تمثيلات واقعية ومستقرة للعالم

(*) مفهوم معضلة المصلحة اقترحه جوناثان بوتر (Jonathan Potter) بالاشتراك مع ديريك إدواردز (Derek Edwards)، والمعضلة عندهما تتمثل في أن أي شيء يقوله أو يفعله الفرد أو المجموعة لا بد من أن يعتبر نتاجًا للمصلحة، فاللوم مثلًا يمكن أن يعتبر نتاجًا للحقد، والهدية يمكن أن تعتبر نتاجًا للرغبة في التأثير (Potter, 1996b: 110)، وانظر كذلك:

D. Edwards, and I. Potter, *Discursive Psychology* (London: Sage, 1992), p. 158.

ولتفكيك الروايات الأخرى باعتبارها منتوجًا للمصالح الشخصية أو الجماعية[71].

وهنا، يعتمد علم نفس الخِطاب على المنهج الإثني وتحليل المحادثة في جانب، وعلى البلاغة في جانب آخر. فبينما يسلط المنهجُ الإثني وتحليلُ المحادثة الضوءَ على القواعد التي يتبعها الناس والتقنيات التي يطبقونها لإنجاز معاملات الكلام، تقدم البلاغة نظرة ثاقبة عن الكيفية التي أعدت بها بناءات الناس للعالم لكي تواجهَ التحديات المحتملة أو الفعلية ولتقوضَ الصيغ البديلة[72].

الاستثمار النفسي

إن تحليل الخِطاب يخبرنا، إذًا، أن الناس يشكلون الهويات من خلال تموقعهم داخل الخِطابات التي يعتمدون عليها في نصوصهم وأقوالهم المعتادة، ولكن تحليل الخِطاب لا يفسر لماذا يقوم الناس بموقعة ذواتهم في خِطابات، أو يستثمرون فيها. ما هو السبب في أن الناس يتماهون مع بعض الخِطابات من دون أخرى؟ كما رأينا في الفصل الثاني، أن لاكلاو وموف يستدعيان نظرية لاكان التحليلية النفسية لتوفير تفسير للآليات النفسية المسؤولة عن استثمارات

---

(71) انظر (Potter, 1996b) للحصول على وصف عميق لهذه العمليات.

(72) على الرغم من أن كل اتجاهات علم نفس الخِطاب تركز على فعل توجيه الكلام، فإنه توجد، كما أشرنا سابقًا، فروق تتعلق بالدرجة والطريقة التي يُستعمل بها المنهج الإثني وتحليل المحادثة باعتبارهما منهجين، أما المقاربة ما بعد البنيوية فهي أقل استعمالًا لهذه المناهج. ونعرض هذه الفروق لاحقًا في هذا الفصل.

الناس في الخِطابات. ولقد سعى عدد من علماء نفس الخِطاب إلى فهم الصيغ المختلفة للتحليل النفسي في محاولة لتسليط الضوء على مسألة الاستثمار النفسي. في هذا القسم نقوّم، على التوالي، محاولات هولواي وبيليغ في الجمع بين تحليل الخِطاب والتحليل النفسي.

تعمل ويندي هولواي (Hollway, 1984, 1989, 1995) من أجل تسليط الضوء على مسائل الجنسانية والجنسانية الغيرية. مُعتَمِدَةً توليفة من نظرية الخِطاب لدى فوكو ونظرية العلاقات مع الموضوع ونظرية لاكان[73] وتهدف من الاعتماد على هذا المزيج من النظريات إلى التنظير لنوع الجنس والسلطة والذاتية والخِطاب من دون التعامل مع الذاتية على أنها «مجموعة مواقع في الخِطاب» فحسب. (1995: 91). نظرية العلاقات مع الموضوع تقترح أن الذاتية تتشكل من خلال التجارب في «المرحلة ما قبل الأوديبية» التي ينتقل فيها الطفل من الاتحاد مع أمه إلى الانفصال عنها، ففي البداية لا يمتلك الطفل فهمًا للذات مستقلًّا عن الأم، معرفته بذاته «غير متمايزة». إنه من خلال التفاعل الاجتماعي يصبح الطفل «متمايزًا» عن أمه، وعندما يبلغ الشهر السادس تقريبًا، يبدأ في النظر إلى نفسه وأمه على أنهما فردان منفصلان. ويَعتبرُ منظرو علاقات الموضوع أن عملية التمايز هذه أساسية لنمو معرفة الفرد بذاته ولثقته بنفسه وشعوره بالأمان الأنطولوجي (Wetherell, 1995). وتفترض النظرية أن الأولاد لديهم مشكلة خاصة لأنهم يحتاجون إلى رفض

---

(73) انظر كذلك (Henriques et al., 1984) و(Butler, 1990) للمزيد من الأمثلة على التطبيق المشترك لنظرية فوكو للخِطاب والنظرية النفسية الحركية.

الأم أكثر من البنات بما أن إنشاءهم هوية جنسية يستلزم اطِّراحَ البعد الأنثوي. وتحتج هولواي (1984) لذلك، مثلًا، بأن الرجل يقاوم رغبته في العلاقة الحميمة مع الآخر لأن العلاقة الحميمة تجعلهما ضعيفين جدًّا، ولصد الحميمية يُسقط الرجال رغبتهم المتبادلة في إثبات الذات على المرأة. ووفقًا لهولواي، فإن هذا يوفر تفسيرًا للسبب الذي يجعل الرجل يستثمر في الخِطابات التي تبني المرأة على أنها ضعيفةٌ وعاطفية والرجلَ على أنه قوي وعقلاني. وتُوفر نظرية لاكان، التي تمثل فهمًا بنائيًّا للعلاقة بين الأم والطفل وما ينجم عنها من إنتاج للذات، جسرًا بين المنظور الخِطابي ونظرية العلاقات مع الموضوع. ويدعي لاكان، كما هو مبين في الفصل الثاني، أن الطفل يمر أولًا بمرحلة خيالية يكتسب فيها شعورًا بالاكتمال من خلال علاقته بأمه. وبذلك، عندما يصبح ذاتًا لغوية، فإنه يفقد هذا الشعور بالاكتمال، ولكنه يسعى باستمرار للعودة إلى حالة الكمال، وهذه الرغبة في الكمال هي التي تدعم استثمار الفرد في خِطابات مختلفة.

ويقترح جانب آخر من نظرية علاقات الموضوع، أن بعض القوى النفسية تُوجِد رغبةً كونيةً في الأمن (Hollway and Jefferson, 1997). ومن أجل تلبية هذه الرغبة يستثمر الناس في بعض الخِطابات. مثال ذلك أنه يمكن الناس أن يعتمدوا على خِطاب معين حول انتشار الجريمة من أجل مواجهة تزايد المخاطر في فترة الحداثة المتأخرة، فهم يختارون هذا الخِطاب بدلًا من خِطابات أخرى، لأنه يزودهم ـعلى النقيض من خِطابات من قبيل تلك التي تتناول الكوارث البيئية

العالمية- بمخاطر واضحة المصدر (مجرم)، ويقترح مسارًا للفعل يمكنهم الانخراط فيه بأنفسهم (من قبيل شراء جهاز إنذار بالسرقة).

للوهلة الأولى، تبدو نظرية علاقات الموضوع في صراع مع تحليل الخِطاب، لأنها تشير إلى العمليات الذهنية الباطنية الكونية باعتبارها السبب في الاستثمارات المخصوصة. لكن هولواي وجيفرسون تحاولان التوفيق بين المقاربات زاعمتين أنه إذا كانت الرغبة في السلامة والاكتمال تنبع من قوى نفسية عميقة الجذور وقلق كوني، فإنها تتجلى بطرائق عديدة على أنها دالةّ على المعاني المختلفة المسندة إلى التجربة من جهة أناس مختلفين وفي مراحل تاريخية وسياقات اجتماعية مختلفة. لكن على الرغم من أن هولواي وجيفرسون تعتمدان على نظرية لاكان لكي تأخذا بعين الاعتبار أن التجارب تُبنى في المعاني داخل الخِطابات، فإن استعمالهما لنظرية علاقات الموضوع يؤدي إلى إسناد أهمية كبيرة جدًّا إلى القوى النفسية الفردية اللاواعية وللتجارب المباشرة المبكرة جدًّا. وبتأكيد آثار التجارب المباشرة التي وقعت في الماضي البعيد، تتضارب نظرية علاقات الموضوع مع فرضية تحليل الخِطاب المتمثلة في أن المقولات النفسية منفتحة على التغيير من خلال مشاركة الفرد في الممارسات الخِطابية، وأن التجارب تتشكل من خلال الخِطاب. ونحن نعتقد أنه إذا كان الهدف هو الجمع بين المقاربات، فإن نظرية علاقات الموضوع تحتاج إذًا إلى أن «تُترجم» إلى مصطلحات تحليل الخِطاب إلى حد أكبر مما هو عليه الحال هنا (انظر الفصل القادم للاطلاع على مناقشة عامة لمسألة «الترجمة»).

في محاولة أخرى للجمع بين نظرية التحليل النفسي وعلم نفس الخِطاب، أنجز مايكل بيليغ أعمالًا أكثر في «الترجمة» (Billig, 1997). وقد اختار بيليغ النظرية الفرويدية بدلًا من النظرية اللاكانية، بما أنه يعتبر الأخيرة مؤسسة على فهم للغة باعتبارها منفصلة عن الاستعمال اليومي للغة. ووفقًا لبيليغ، يمكن الربط بين التحليل النفسي وتحليل الخِطاب من خلال مفهوم «اللاوعي الحواري». ويتكون اللاوعي الحواري من تعبيرات وقع كبتها في سياقات اجتماعية معينة. وبينما نظر فرويد إلى الأنشطة الاجتماعية بما في ذلك استعمال اللغة باعتبارها تجليات للدوافع الباطنية للاوعي، فإن بيليغ يفهم اللاوعي على أنه نتاج للحوار مع العالَم الاجتماعي وداخلَه. والفكرة هي أنه من خلال الحوار يكبت الناس أشياء ويكتسبون، في مستوى أكثر عمومًا، القدرة على الكبت. ويمكن التحقيق في دور اللغة في عمليات الكبت من خلال تحليل الخِطاب. إن بعض طرائق الكلام تجعل بعض المواضيع ممكنة وتجعل بعضها الآخر محرمًا، بحيث لا تكتفي الأقوال بالتعبير عن أشياء فحسب، ولكنها تشارك في الكبت. والمحرمات المتعلقة ببعض الموضوعات تؤدي بالمتكلم إلى الاختيار بين الخِطابات المختلفة المتاحة والاستثمار في خِطاب واحد بعينه. وهكذا، بتعزيز بعض الأفهام للعالم واستبعاد أخرى، تكون للكبت تبعات أيديولوجية.

يقدم بيليغ مثالًا من دراسته عن أحاديث العائلات الإنكليزية حول العائلة الملكية البريطانية (1992)، ويناقش المخبرون ما إذا

كان ينبغي السماح لولي العهد البريطاني بالزواج من امرأة غير بيضاء. يقول المخبرون إنهم في ذواتهم ليسوا بالعنصريين وإنهم شخصيًّا ليس لهم أي شيء ضد هذا الزواج وإنهم لا يفترضون أنه سيمثل مشكلة للعائلة المالكة بأي حال، ولكن على الرغم من هذا، فهم لا يعتقدون أن وريث العرش سيكون قادرًا على اختيار امرأة غير بيضاء بما أن «الرأي العام» عنصري، ولذلك لن يغفر ذلك أبدًا. ووفقًا لبيليغ، فإن ما يحدث هنا هو أن المتكلمين يقومون بإسقاط عنصريتهم الخاصة المكبوتة على الآخرين، من خلال نسبة رفضهم الخاص مثل هذا الزواج، إلى الرأي العام.

تزودنا نظرية بيليغ عن اللاوعي الحواري بمنهج «لقراءة ما بين السطور» وتحديد المسكوت عنه. ولكن ليس كل صمت كبتًا. إن نقطة الانطلاق في تحليل الخِطاب هي أن كل الأقوال عَرَضية تاريخيًّا واجتماعيًّا دائمًا، وأنه إذا كان شيء ما لم يُقل، فقد يكون لأنه لن يكون له معنى في السياق الاجتماعي والتاريخي موضوع النظر. ولما كان الناس لا يتكلمون على الهوية القومية في مجتمعات ما قبل الحداثة مثلًا، فذلك لأن الخِطاب القومي لم يكن متوافرًا. وفي نظرنا، فإن مشكلة من المشاكل مع نظرية بيليغ تتمثل في أنه لم يربط بين مصطلح الكبت وتحليل مجموعة الخِطابات المتاحة في وضعية اجتماعية وتاريخية محددة معطاة. في الفصل الخامس نقترح استعمال مصطلح «نظام الخِطاب» بغاية رسم خريطة للخِطابات المتاحة، ولمن تكون، في مجالات اجتماعية محددة. وعند تحصيل

رؤية شاملة لنظام الخِطاب، يمكن المرء أن يمضي في تحليل الوسائل البلاغية التي تقع بها إقامة محرمات الأقوال ومكبوتاتها في حقل العبارات الممكنة.

مع ذلك، لا بد من الحذر عند الجمع بين التحليل النفسي وتحليل الخِطاب، بما أن المقاربتين تستندان إلى فرضيات مختلفة. فلا بد من التفكير في العلاقات بين المقاربتين على أساس فهم انعكاسي لفرضياتهما النظرية المتقابلة ونمط المعرفة (العَرَضية والمحدودة) التي تنتج داخل كل من المقاربتين.

الانعكاسية

ينظر، عدد من البنائيين الاجتماعيين، بما في ذلك علماء نفس الخِطاب، إلى دراساتهم الخاصة على أنها بناءات اجتماعية لا توفر التمثيلَ الوحيد الممكن للعالم، ولكن صيغةً واحدة بالأحرى فقط هي جزء من الصراع الخِطابي داخل مجال البحث موضوع النظر. المعرفة العلمية يُنظر إليها على أنها **منتجة**. وكما هو الشأن مع كل الخِطابات الأخرى، يُنتج الخِطاب العلمي المعرفةَ والعلاقاتِ الاجتماعيةَ والهوياتِ. هذا الفهم لإنتاج المعرفة يقف على النقيض من النظرة الموضوعية للعلم التي يمكن العثور عليها في الوضعية (positivism)، حيث ينظر إلى المعرفة على أنها انعكاس للواقع. ونتيجة لفهمهم المميز للمعرفة، يلح البنائيون الاجتماعيون غالبًا على **الانعكاسية**، وهو ما يعني أنهم يحاولون تطبيق نظرياتهم على ممارستهم البحثية الخاصة (Burr, 1995: 180).

وتتصل مسألة مهمة، أثارها الجدل حول الانعكاسية، بنسبية تحليل الخِطاب. ويعترض علم نفس الخِطاب على علم النفس العرفاني من خلال كشفه أن دعوى الحقيقة الكونية لديه تمثل بكل بساطة صيغة واحدة ممكنة للعالم. ولكن كيف للباحثين أن يعرفوا أن صيغهم أفضل من الصيغ الأخرى؟ وكيف لهم أن يوفروا الدعم لهذه الدعاوى؟ سيواجه المرء مشكلة إن هو رغب في الدفاع عن وجهة نظر وتفضيلها على الأخريات (Parker and Burman, 1993). فعلى سبيل المثال، كيف يمكن تقديم الدعم الجامعي لموقف سياسي واحد بعينه (مثل، الموقف الداعي إلى المساواة أو مناهضة العنصرية أو النسوية)؟

وفقًا لويذيريل وبوتر (Wetherell and Potter, 1992) وإدواردز وآخرين (Edwards et al., 1995)، فإن النسبية لا تقلل من القيمة الجامعية أو من الدلالة السياسية للبحث. وفي ما يتعلق بالمعايير الجامعية، فإن دعاوى الباحثين يمكن دعمها من خلال تقويم صلاحية البحث. وعلى الرغم من أن تحليل الخِطاب لا يتقبل مطالب الموضوعية العلمية المتعلقة بالموثوقية والصلاحية، فإن ذلك لا يعني أن كل مطالب الصلاحية مرفوضة (نعود إلى هذا في ص 240). وبالنسبة إلى الدلالة السياسية، فإن الباحث بوسعه أن يحكم على بحوثه الخاصة وعلى بحوث الآخرين من حيث الدور الذي ينهض به البحث في استمرارية علاقات السلطة في المجتمع أو إيقافها، وذلك في علاقة بالآثار الأيديولوجية للبحث. مثال ذلك، أن ويذيريل وبوتر يحتجان بأن دراستهما للعنصرية والخِطاب في نيوزيلاندا تحدّت

علاقات السلطة من خلال الكشف عن دور الخِطاب في الحفاظ على التمييز ضد الماوريين. وهذا يتناقض مع المقاربات العرفانية للعنصرية، مثل البحث في الصور النمطية التي تحافظ على علاقات السلطة القائمة بادعاء أن الصور النمطية لا يمكن تجنبها. لكن القبول بالنسبية وقع الاعتراض عليه داخل علم نفس الخِطاب من طرف منظرين مثل باركر (Parker, 1992) وويليغ (Willig, 1999b). ويتمثل موقفهم في أن نسبية البنائية الاجتماعية تؤدي إلى التسوية بين كل الأقوال في العالم باعتبارها «متساوية في الجودة»، وذلك يجعل البحث النقدي مستحيلًا. ولذلك، فهم يدعون إلى الجمع بين البنائية الاجتماعية وأنطولوجيا الواقعية النقدية.

يشتمل بعدٌ آخر من أبعاد الجدل حول الانعكاسية على اعتبارات متصلة بعلاقات السلطة بين الباحث والمخبرين. ويُنتقد البحث التقليدي لأنه ميزَ المعرفة الخاصة به بطريقة غير شرعية باعتبارها المعرفة الموضوعية الوحيدة بالعالم. وللتغلب على هذا الأمر، يمكن الباحثة أن تضع نفسها وروایاتها الخاصة في المستوى نفسه مع المستجوَبين ورواياتهم (Burr, 1995). تعليقات المستجوَبين على استعمال الباحثة رواياتهم وعلى تأويلاتها يمكن أن تُضمنَ في الدراسة. ومن الواضح أن هذا لا يضمن القضاء على التفاوت في علاقات السلطة بين الباحث والمستجوَبين.

ولا يزال بوسع الباحثة أن تفرض مزيدًا من التركيز على تأويلاتها الخاصة. ونتيجةً لذلك، يمكن الانعكاسية أن تقدم انطباعًا خاطئًا

عن الدمقرطة وتحجب علاقات السلطة (Burr, 1995). ومع ذلك، يمكن الاحتجاج بأن الباحثة لا بد لها من تفضيل قراءتها الخاصة، بما أنها تنتج شكلًا آخر ـذا قيمةـ من المعرفة من خلال استعمال نظريات ومناهج مخصوصة. وبغض النظر عن الموقف الذي يتخذه المرء في ما يتعلق بذلك، فإن الاعتبارات المؤسسة على الانعكاس تجبر الباحثة على أن تأخذ بعين الاعتبار دورها الخاص باعتبارها باحثة وأن تبرر الخيارات المعتمدة في البحث. في الفصل السادس نعود إلى مناقشة دور الباحث ومسائل النسبية وإنتاج المعرفة.

خلاصة

يمكن تلخيص النقاط المفاتيح المشتركة بين كل اتجاهات علم نفس الخِطاب، بشكل مبسط، على النحو الآتي:

- الخِطاب ـالذي وقع تعريفه بأنه استعمال للغة في النصوص والأقوال المعتادةـ هو شكل متحرك للممارسة الاجتماعية يبني العالم الاجتماعي والذوات الفردية والهوية. فالذات تُبنى من خلال استبطان الحوارات الاجتماعية. والناس يمتلكون هويات مرنة متعددة تُبنى بالاعتماد على خِطابات مختلفة. والسلطة تعمل من خلال تموقع الأفراد ضمن مقولات خِطابية محددة. ولا يقدم الخِطاب تعبيرًا عن الحالات النفسية المتشكلة مسبقًا، وبدلًا من ذلك فإن الحقائق النفسية الذاتية تتشكل في الخِطاب. ولا بد من معالجة المزاعم الفردية حول الحالات النفسية باعتبارها أنشطة خِطابية اجتماعية بدلًا من كونها تعبيرات عن «ماهيات» أعمق وراء الكلمات.

- إن النظر إلـى الـخِطـاب، لا على أنـه نظام مجرد (نـزعـة في نظريات الخِطاب البنيوية ومـا بعد البنيوية) ولكن على أنه استعمال «مقامي» للغة في السياقات التي يجري فيها، هو [النظر] الأجدى.

- يستعمل الناس الخِطاب على نحو بلاغي لغاية إنجاز أشكال من الفعل الاجتماعي في سياقات تفاعل معينة. فاستعمال اللغة، بهذا المعنى، يرتبط «بالمناسبة». التحليل، إذًا، ليس مركزًا على التنظيم اللغوي للنص والكلام كما في التحليل النقدي للخِطاب، ولكن على التنظيم البلاغي للنص والكلام. وتطرح الأسئلة التالية، ماذا يصنع الناس بنصوصهم وكلامهم؟ كيف يقع إنشاء الأوصاف باعتبارها تمثيلات صلبة وواقعية وثابتة للعالم؟ كيف صُممت بناءات الناس للعالم بحيث تظهر وقائعَ ثابتة وكيف يقوضون الصيغ البديلة («معضلات المصلحة»)؟

- إن اللغة تُشكل اللاوعي بالمقدار نفسه الذي تشكل به الوعي. ويمكن الجمع بين نظرية التحليل النفسي وتحليل الخِطاب من أجل تفسير الآليات النفسية التي يقوم عليها «المسكوت عنه» والاستثمار الانتقائي للناس في خِطابات معينة من بين مجموع الخِطابات المتاحة.

- إن فهم الطبيعة العَرَضية للمعرفة البحثية يـؤدي إلـى نظر انعكاسي إلى القضايا المتصلة بالنسبية وإلى دور الباحث في إنتاج المعرفة.

تصميم البحث والمناهج

ما هي النتائج المترتبة على هذه الاعتبارات النظرية والمنهجية للبحث الاختباري في الآراء التي عبر عنها الناس، مثلًا، في المقابَلات البحثية، والنصوص الإعلامية والدراسات حول الجمهور والخطب السياسية؟ قبل عرض أمثلة من التحليلات الاختبارية، سنقوم بعرض طرائق البحث المشتركة بين المقاربات داخل علم نفس الخِطاب، مُتبعين تخطيطًا لعملية البحث من عشر خطوات. هذه الخطوات العشر قام بتحديدها كل من بوتر وويذيريل (Potter and Wetherell, 1987: 160-175)، ونحن نعتمد هنا على عرضهما إياها. ومن المهم أن نشير إلى أن علم نفس الخِطاب يستخدم عددًا من الطرائق من قبيل تلك المعتمدة في المقاربات الكيفية الأخرى، وسنلفت الانتباه إلى هذه التقاطعات المهمة.

1. أسئلة البحث

كما هي الحال في مقاربات كيفية أخرى، تتجه أسئلة البحث في علم نفس الخِطاب إلى تحليلات إنتاج المعنى. ولكن علم نفس الخِطاب يختلف عن بقية المقاربات الكيفية في كونه يهتم بالكيفية التي يتم بها إنتاج المعنى داخل الخِطابات أو المخزونات التي يعتمد عليها الناس باعتبارها موارد للكلام على جوانب من العالم. وبذلك، فإن الأسئلة المطروحة تُسلم إلى دراسة الكيفية التي ينشئ بها الناس بناءات للعالم والجماعات والهويات، من خلال

الممارسات الخِطابية. وإذا كان المحور العام للدراسة، على سبيل المثال، هو ما إذا كانت وسائل الإعلام الجديدة تجعل أشكالًا جديدة من العلاقات الاجتماعية ممكنة، فإن تركيز البحث يمكن أن يكون على بناءات الناس الخِطابية لوسائل الإعلام الجديدة واستعمالهم هذه الوسائل.

2. اختيار العينة

يستغرق تحليل الخِطاب وقتًا طويلًا. إضافةً إلى الوقت الذي يُنفق في التحليل النسقي، فلا بد من إنفاق الكثير من الوقت في قراءة النصوص وإعادة قراءتها. وفي ما يتعلق بحجم العينة، فغالبًا ما يكون استعمال عينة من بضعة نصوص كافيًا (أقل من عشر مقابَلات مثلًا) (Potter and Wetherell, 1987: 161). وأسباب ذلك هي أن محور الاهتمام هو استعمال اللغة بدلًا من الفرد، وأن أنماط الخِطاب يمكن أن يقع إنشاؤها والحفاظ عليها من قلَّةٍ من الناس فحسب (Potter and Wetherell, 1987: 161). وأحيانًا يمكن أن يؤدي مزيد من المقابَلات إلى عمل من دون أن يُثريَ التحليلَ، فالحجم المطلوب للعينة يعتمد على أسئلة البحث (Potter and Wetherell, 1987: 161). وقد ركز العديد من التحاليل (على سبيل المثال: Woolgar, 1980) على نص واحد فرد وعلى دلالاته في مجال اجتماعي معين. واعتمدت تحليلات أخرى عينات أوسع، لأن الباحثين أرادوا النفاذ إلى ممارسات خِطابية مختلفة ومتنوعة، ولأنهم كانوا مهتمين بكشف إذا ما كان خِطاب ما هو المهيمن داخل حقل ما. ولا يوجد بالأساس

حد طبيعي صحيح، والمهمُّ أن يصف الباحثون بوضوح العينة التي اختاروها وأن يبرروا اختيارهم على أساس أسئلة البحث ومنهجه (Potter and Wetherell, 1987: 162).

3. إنتاج مادة حادثة بشكل طبيعي

غالبًا ما يعتمد علماء نفس الخِطاب مادة «حادثة بشكل طبيعي» بدلًا من مادة ينشئها الباحث خلال الاتصال بالمشاركين (في مقابلات بحثية، مثلًا) أو بالجمع بينهما (Potter and Wetherell, 1987: 162، وانظر أيضًا Potter, 1997). وتشمل نماذج المواد الحادثة بشكل طبيعي تدوينات المحادثات اليومية، والنصوص العلمية والنصوص الإعلامية. وتتمثل مزايا ذلك في أن الباحثين لا يؤثّرون في المواد، وفي أن نوع المواد المجمعة ينفتح على تحليل الاختلافات عبر السياقات الاجتماعية. مثال ذلك، أن فردًا واحدًا يمكن أن يقدم صيغةً واحدةً للعالم في مقابلة، وصيغة أخرى في محادثة مع أصدقاء أو في شيء يكتبه (Potter and Wetherell, 1987: 162). ويتمثل مشكل عملي في أن المحادثات الطبيعية يستغرق تدوينها غالبًا وقتًا طويلًا. ولأسباب أخلاقية، يجب على الباحث أن يحصل على إذن لمتابعة المحادثة واستعمالها (Potter and Wetherell, 1987: 163; Potter 1997).

وتتمثل إحدى الإمكانات في دراسة سلاسل تناصية (انظر الفصل الثالث) حيث تُجمع أنماط مختلفة من النصوص: على سبيل المثال،

تقرير عن تلوث المياه من وزارة البيئة، وبيان صحافي حول التقرير، وتغطية إخبارية للتقرير وكذلك مقابلات مع قراء صحف ومشاهدي قنوات تلفزية حول نشرات الأخبار والمقالات الصحافية. ويمكن أن تقدم رسوم بيانية، بعد ذلك، حول إنتاج الخِطاب وتحويله عبر هذه المجالات[74].

4. إنتاج المواد في أثناء المقابلات

في هذا القسم نقارن علم نفس الخِطاب بالمنهج الاستقصائي أولًا ثم بمقاربات كيفية أخرى.

علم نفس الخِطاب في مقابل المنهجية الاستقصائية

في علم نفس الخِطاب تعتبر المقابلات شبه المهيكَلة أو غير المهيكَلة هي الطرائق المهيمنة في إنتاج المواد باعتبارها مقابِلة للاستبيانات أو المقابلات المهيكَلة[75]. ويمكن المشاركين من باب الاحتمال أن يؤثروا في جدول الأعمال وأن ينتجوا أوصافًا

(74) انظر (Phillips, 1993, 1996, 1998) للاطلاع على نموذج لتحليل إنتاج الخِطاب والتحول عبر الخطب السياسية، على التوالي، في مؤتمر حزب المحافظين البريطاني، والتغطية الإخبارية للخطب والمقابلات مع أعضاء من المستوى القاعدي للحزبين كليهما.

(75) المقابلات مع المجموعات بما في ذلك مجموعات التركيز بشكل خاص، ملائمة لتحليل الخِطاب، لأن العمليات الجماعية تنهض بدور محوري في حركية التفاعل الاجتماعي. للاطلاع على نظرة شاملة لجماعات التركيز باعتبارها طريقة في البحث، انظر (Lunt and Livingstone, 1996).

أطول، ويمكن الباحث أن يحلل أنماط الخِطاب التي يتم إنشاؤها عندما يستعمل المشاركون موارد خِطابية محددة في حجاجهم. في المقابلات غير المهيكَلة يتحكم المُستجوَب في اتجاه المقابلة، بينما يعمل الباحث في المقابلات شبه المهيكَلة على التأكد من تغطية كل الموضوعات على جدول المقابلة، وإن لم يكن بالضرورة بالترتيب ذاته أو بالصياغات عينها.

لا تناسب استبيانات المنهج الاستقصائي تحليل الخِطاب، إذ إنها تحتوي على أسئلة معزولة وجمل لا بد للمُستجوَب من أن يحدد موقفه منها. وهذا يجعل النفاذ إلى الخِطابات التي يعتمد عليها المُستجوَبون في أجوبتهم صعبًا. وتبعًا لذلك، يصبح من الصعب جدًّا القيام بتحليل لممارسات الناس الخِطابية بما في ذلك العلاقات بين الخِطابات المختلفة. أضف إلى ذلك، أن الأسئلة تقع صياغتها داخل خِطاب معين، وهو ما يمكن أن يؤثر في الأجوبة (O'Shea, 1984; Phillips, 1998). ويقدم آلان أوشي (O'Shea, 1984: 35) أنموذجًا لسؤال من استبيان: «من سيكون الشخص المناسب لحماية دافع الضرائب البريطاني؟»، فمصطلح «دافع الضرائب البريطاني» -بدلًا من مصطلح «مواطن بريطاني»- يبني موقفًا للذات بالنسبة إلى الفرد الذي ينتمي إلى خِطاب التاتشرية. وهذا يؤثر في الأجوبة. ويخلص أوشي إلى أن استطلاعات الرأي لا تُمكّن الباحث من التحقيق في الأسئلة حول العلاقات بين الخِطابات المختلفة، وفي هذه الحالة، مثلًا، السؤال حول إن كان خِطاب التاتشرية يسيطر على الصراع الخِطابي من أجل الهيمنة.

تتمثل مشكلة أخرى في أن الاستبيانات تفترض أن مواقف الناس هي أحكام عقلية ثابتة. وكما ذُكر آنفًا، فهذه النظرة تجاه المواقف وقع الاعتراض عليها بالاختلاف الذي وقع الكشف عنه في إجابات الناس في المقابلات والاستبيانات ضمن استطلاعات الرأي. وقد أشارت دراسات عديدة إلى أن التغييرات الطفيفة في صياغة الأسئلة تؤدي إلى اختلافات كبيرة في الأجوبة (Potter and Wetherell, 1987: 40). ويلاحظ بوتر وويذيريل كيف أن تناقضات الأجوبة الذاتية يُنظر إليها في البحث الاستقصائي غالبًا على أنها تمثل تهديدات لمصداقية الدراسة بدلًا من أن تكون علامات على الاختلاف في استعمال اللغة. في مقابل هذا، تعتبر الاختلافاتُ وتناقضاتُ الأجوبة الذاتيةُ بدهيةً في علم نفس الخِطاب وينظر إلى هذه الاختلافات على أنها علامات لاستعمال خِطابات متنوعة.

إن البحث الاستقصائي، إذا قوَّمناه معتمدين على فرضيات علم نفس الخِطاب، لا يعد مناسبًا لدراسة أنظمة الدلالة والهويات بما أن استطلاعات الرأي تُعامِلُ الآراءَ الفرديةَ كما لو أنها كيانات عرفانية معزولة ومستقرة وثابتة، تشبه «الزبيب في كعكة الفاكهة» (Potter, 1996a: 135). وعلى النقيض من البحث الاستقصائي، ينصب التركيز في علم نفس الخِطاب على الممارسات (الخِطابية) الحركية التي يتم من خلالها إنشاء التمثيلات وتغييرها في السياقات الاجتماعية المختلفة:

«إن تركيب [الموضوعات المترابطة على نحو غير منسجم] يحتاج إلى أن يُدرس كما يظهر في الخِطاب بدلًا من تجميعها من الإجابات

عن الاستبيانات التي تشبه عند المقارنة سلاسل من الصور الثابتة» (Wetherell, Stiven and Potter, 1987: 60).

إن علم نفس الخِطاب، وهو يبحث في الكيفية التي تستعمل بها الخِطابات المشتملة على مفردات معينة في التفاعل الاجتماعي، يبتعد بشدة من منهج «تحليل المحتوى»، الـذي يحدد بعض الكلمات، ويـقـوم بترميزها بالاعتماد على مـقـولات مختلفة ويحصيها[76]. ويلاحظ ويذيريل وبوتر أن حقيقة استعمال الناس كلمة «قومية» ثلاث مرات لا تخبرنا شيئًا بالضرورة عن عنصرية الشعب (1992: 93). وهما يؤكدان أن المناهج الكمية لا ينبغي استبعادها لأسباب نظرية، إلا أن الطرائق التي استعملت بها حتى الآن لا تتماشى مع منظور تحليل الخِطاب.

علم نفس الخِطاب في مقابل مناهج كيفية أخرى

يستعمل علم نفس الخِطاب كثيرًا من المناهج نفسها المستعملة في منهجيات كيفية أخـرى. وكما هو الشأن مع المناهج الكيفية الأخـرى، يرفض علم نفس الخِطاب الإبستيمولوجيا الوضعية التي يقوم عليها كثير من البحوث في استطلاع الـرأي وبعض المدارس الاجتماعية[77].

---

(76) لـلاطـلاع على نماذج من نصوص في تحليل المحتوى، انظر (Berelson, 1971)، و(Berger, 1991)، و(Fiske, 1982)، و(Holsti, 1969)، و(Krippendorff, 1980)، و(Rosengren, 1981).

(77) يقدم (Mishler, 1986) نقدًا جيدًا لمقاربة المقابلات التي تستلهم المدرسة الوضعية.

من المهم، في الإبستيمولوجيا الوضعية، أن تُثمر المقابلات أجوبة واضحة ومتسقة تُمكن الباحث من استخلاص استنتاجات حول الآراء الكامنة أو الأفعال السابقة (مثل الممارسات الاستهلاكية). وتكون المقابلات المؤسسة على إبستيمولوجيا وضعية مهيكَلة غالبًا. فتطرح أسئلة نموذجية من دون عدول عن الترتيب والصياغات المُعدّة سلفًا. والباحثون ضمن هذا التقليد يعملون على الحد من الآثار المترتبة على التفاعل الاجتماعي بين المُستجوِب والمُستجوَب. فهم يحرصون، على سبيل المثال، على أن يلتزم المُستجوِب بالأسئلة. فإذا انحرف المستجوِب عن صياغات جدول المقابلة، فذلك يهدد مصداقية الدراسة. ويتم تقويم الصياغات على أساس ما إذا كانت الأسئلة ستنتج النوع المطلوب من المعلومة. والتهديدات التي تستهدف تجميع المعلومات المطلوبة تشمل الصياغات الملتبسة والأسئلة «الموجهة» والأسئلة المزدوجة (حيث يُطرح سؤالان في وقت واحد). إذا لم يتم طرح الأسئلة بشكل صحيح، فإن احتمال أن يفهم المستجوَب القصد منها يكون ضعيفًا، وبالنتيجة سيجيب عنها بشكل «غير صحيح». والإجابات غير الصحيحة تقوض صحة البحث بما أن الأسئلة لا تقيس ما وضعت لقياسه.

في المناهج الكيفية التي تستبعد الإبستيمولوجيا الوضعية، يُنظر إلى المقابلة على أنها شكل للتفاعل يساهم كل من الباحث والمستجوَب في تشكيله. ويكون المستجوِب أكثر نشاطًا ويتدخل

على نحو أكبر مما هو عليه الحال في المقابلات المنظَّمة. ووفقًا لذلك يُنظر، في التحليل، إلى كل من المستجوِب والمستجوَب (ين) باعتبارهم متساوين[78]. وينظر إلى المقابلات على أنها طريقة للبحث في المعاني التي ينشئها كل المشاركين خلال التفاعل الاجتماعي[79]. وهنا، تكون اللغة على حد سواء أداةً للتحليل وموضوعًا له (Jensen and Jankowski, 1991: 320).

على الرغم من أن المناهج الكيفية تعامل المقابلة باعتبارها شكلًا من أشكال التفاعل الاجتماعي يتم إنشاؤه من طرفين، فإنه لا يزال هناك من الباحثين من يعتبر أن الأسئلةَ «الموجهة» تمثل مشكلةً[80]، لكن كثيرًا من البحوث الكيفية - بما في ذلك جميع

---

(78) للاطلاع على المزيد حول المقابلات في البحوث الكيفية، انظر (Kvale, 1996)، و(Mishler, 1986).

(79) انظر (Condor, 1997: 116-117) مع ذلك، للاطلاع على نقد لكيفية إدارة المقابلة شبه المنظّمة في علم نفس الخِطاب على أساس أن الباحثين لا ينخرطون في حوار لتبادل المعرفة مع المخبرين ولكن، بالأحرى، يطرحون أسئلة يجيب عنها المخبرون بدقة. إضافةً إلى ذلك ترى Condor أن تحليل تلك الأجوبة ينزع إلى عزلها عن الأسئلة، وبالتالي قطعها عن السياق الحواري الذي أُنتجت فيه.

(80) انظر مثلًا، (Fielding, 1993: 141)، و(Smith, 1995: 13). ويقترح (Kvale, 1996) أن هذه النظرة إلى الأسئلة الموجهة تتأسس على فرضية اختبارية ساذجة وهي أن الباحثة يمكنها أن تلاحظ بحياد عالمًا خارجيًّا (إن هي طرحت أسئلة محايدة). وهو يدعي بطريقة مستفزة أن الأسئلة الموجهة ليست مستعملة ربما بما فيه الكفاية في المقابلات في البحوث الكيفية.

أشكال تحليل الخِطاب ـ لا تنظر إلى الأسئلة «الموجهة» كونها مشكلة، ولكنها بدلًا من ذلك لازمة للمقابلة بما هي تفاعل. ومع ذلك، فمن الأهمية بمكان أن يأخذ الباحث بعين الاعتبار الكيفية التي صيغت بها الأسئلة عند تحليل المقابلة. إضافةً إلى ذلك فمن الضروري، في التخطيط للمقابلة، أن يَعتبر الجوانب المتعلقة بالمحتوى (البعد الموضوعي) والجوانب المتعلقة بالتفاعل (البعد الحركي) على حد سواء (Kvale, 1996). ووفقًا لستاينر كفايل (1996)، لا بد لسؤال مقابلة جيد من أن يُساهم من حيث الموضوع في خلق المعرفة، ومن حيث الحركية في خلق تفاعل جيد. على الباحث أن يُفكر في أسئلة جيدة مفتوحة، وفي أسئلة للمتابعة، وفي أسئلة للبناء[81].

إن أكبر اختلاف بين علم نفس الخِطاب وكثير من المنظورات الكيفية الأخرى هو أن علم نفس الخِطاب يمتلك نظرةً مختلفة إلى العلاقات بين اللغة والدلالة وحالات الناس النفسية. ووفقًا لعلم نفس الخِطاب، فإن الدلالة مدمجة في اللغة، ولذلك فمن الضروري أن تُدرس اللغة من أجل تحليل الدلالات. وتنظر مقاربات أخرى مثل علم النفس الظواهري إلى لغة المستجوَبين باعتبارها انعكاسًا لحقيقة نفسية أعمق[82].

---

(81) للاطلاع على دراسة وأمثلة أكثر تفصيلًا، انظر (Kvale, 1996: chap. 7).

(82) للاطلاع على المزيد حول المنظور الظواهري، انظر (Kvale, 1996: esp. chaps. 3, 11 and 12)، و(Smith, 1995)، و(Taylor and Bogdan, 1984).

5. التدوين

تنطبق على الدراسات التي تعتمدُ علمَ نفس الخِطاب الاعتبارات ذاتها المتعلقة بالتدوين التي تنطبق على التحليل النقدي للخِطاب، الواردة في الفصل الثالث. وما سنعمل على تأكيده على نحو خاص هنا هو الآثار المترتبة على التعامل مع المقابلة في علم نفس الخِطاب باعتبارها تفاعلًا اجتماعيًّا. فمن المهم اختيار نظام للتدوين يُمكّن الباحث من تحليل المقابلة بما هي تفاعل اجتماعي. ويستعمل بوتر وويذيريل (على سبيل المثال: Potter and Wetherell, 1987; Wetherell and Potter, 1992) صيغةً أبسط من النظام (نظام جيفرسون) الذي كثيرًا ما يستعمل في التحليل النقدي للخِطاب. إذا كانت مقابلة ينظر إليها على أنها تفاعل اجتماعي، فلا بد لكل من الأسئلة والأجوبة أن يقع تدوينها وتحليلها. والتدوين الجيِّد، كما يعلن ويذيريل وبوتر، يمكن أن يُظهر كيف أن إجابة المستجوَب، هي في جزء منها، نتيجة لتقويم المُستجوِب للمُستجوَب (Wetherell and Potter, 1992).

6. الترميز

كيف سيعالج الباحث، إذًا، الكم الهائل من المواد التي تم إنتاجها خلال المقابلات مثلًا؟ كما هو الحال في مناهج كيفية أخرى للتحليل، فإنه لا يوجد إجراء أو وَصْفةٌ محددان على غرار ما هو موجود في العلوم الطبيعية أو في المقاربات الاجتماعية العلمية التي تحتذي العلوم الطبيعية. ولكن، بالنسبة إلى علم نفس الخِطاب، كما

هو الشأن بالنسبة إلى المناهج الكيفية الأخرى، فإن الترميز يكونُ عادة الخطوةَ الأولى[83].

يتمثل اتجاه البداية في قراءة التدوينات وإعادة قراءتها من أجل **تحديد الموضوعات**. وهو شكل من أشكال الترميز تُدرج فيه شذرات من النص ضمن أصناف. وليس الغرض هو تحديد الموضوعات المستمدة من الإطار النظري فحسب، ولكن أيضًا أن نكون منفتحين على مواضيع جديدة يمكن الكشف عنها خلال المقابلات أو خلال قراءتها. ويمكن نسخ مقتطفات من المقابلة على ملفات الموضوعات المختلفة وعندما يتطور فهم موضوع ما، فمن الممكن العودة إلى المواد والبحث عن المزيد من الأمثلة. خلال العملية يقع استبعاد بعض الموضوعات وإنشاء أخرى جديدة (Potter and Wetherell, 1987: 167).

وتتمثل تقنية مهمة، يمكن أن تستعمل لكي تجعل التحليل يتقدم، في البحث عن **نقاط التأزم**: أي العلامات التي تشير إلى أن

(83) من المهم التمييز بين هذا الشكل من الترميز وشكل الترميز المعمول به في البحوث (الكمية والكيفية على حدٍّ سواء) القائم على إبستيمولوجيا وضعية. ومن المهم في البحوث الوضعية أن يكون الترميز موحدًا قدر الإمكان. فالاختلافات الكبيرة بين طرائق المرمزين المختلفين في الترميز تطعن في الموثوقية. لقد تم إنجاز «اختبارت الموثوقية المشتركة بين المرمزين» للتحقق إن كانت ترميزات مختلف المرمزين يشبه بعضها بعضًا بالمقدار الكافي. وتُنتقد هذه الاختبارت في تحليل الخِطاب لعدم الاعتراف بأن عملية الترميز ليست مسألة استعمال مجموعة من المقولات المبنية سلفًا فحسب، بل إن المرمز أيضًا يعتمد على انطباعاته الخاصة عن المقابلة باعتبارها تفاعلًا اجتماعيًا من أجل فهم المقابلة.

شيئًا ما جرى على نحو خاطئ خلال التفاعل. هذه العلامات يمكن أن تعكس الصراعات بين الخِطابات المختلفة. ويمكن أن تتمثل علامة من العلامات في سعي واحد من المشاركين للاحتفاظ بوضعية من خلال تكرار جملة مثلًا، أو «تلعثم»، بحيث يتردد المشارك أو يكرر أقوالًا، أو صمت، أو تغيير مفاجئ في الأسلوب (Fairclough, 1992a). وتتمثل تقنية أخرى في النظر إلى **الضمائر**، فالالتفات في الضمائر (من «أنا» إلى «نحن» مثلًا) يمكن أن يشير إلى انتقال من وضع ذات داخل خِطاب ما إلى وضع ذات داخل خِطاب آخر.

7. التحليل

تمتلك الأنماط المختلفة من علم نفس الخِطاب طرائق مختلفة في مقاربة تحليل الخِطاب. ويعتمد اختيار تقنيات التحليل على الإطار النظري والمنهج. ونقدم في ما يلي ضمن هذا الفصل لمحة موجزة عن نموذجين للتحليل في علم نفس الخِطاب.

8. تحديد الصلاحية

يتمثل النقد الشائع للبحوث الكيفية من منظور البحوث الكمية في أن البحوث الكيفية أقل صرامة، وبالتالي أقل صلاحية. وهذا ليس صحيحًا بالضرورة. وليس من المؤكد، بالطبع، أن المعايير المستعملة في التحقق من صلاحية البحوث الكيفية يمكن أن تحدد دائمًا ما إذا كان البحث صالحًا. ولكن هذا ينطبق أيضًا على تقنيات التحقق من الصلاحية في العلوم الطبيعية (Potter and Wetherell, 1987).

وتتمثل إحدى الطرائق التي يمكن بها تحديد صلاحية تحليل الخِطاب في التركيز على **الانسجام**. إذ يُفترض بمزاعم التحليل أن تشكل خِطابًا منسجمًا، فحضور جوانب من التحليل لا تتماشى مع تقديرات تحليل الخِطاب يُقلل من احتمالات أن يقبل القراء بالتحليل (Potter and Wetherell, 1987: 170). وتتمثل طريقة أخرى لتحديد الصلاحية في تقويم **إثمار** التحليل (Potter and Wetherell, 1987: 171-172). وهذه الطريقة وقع تطبيقها تقليديًّا في النماذج العلمية. وفي تقويم إثمار التحليل، يتم التركيز على القدرة التفسيرية للإطار التحليلي **بما** في ذلك قدرته على توفير تفسيرات جديدة (171 :1987)[84].

9. تقرير البحث

ليس التقرير عرضًا لنتائج البحث فحسب، ولكنه أيضًا جزء من التحقق من الصلاحية (Potter and Wetherell, 1987: 172). على الباحث أن يعرض التحليل والنتائج بشكل يُمكّن القارئ من الحكم على تأويلات الباحث (Potter and Wetherell, 1987: 172). وهنا، تكون **الشفافية** أمرًا بالغ الأهمية. وينبغي أن يحتوي التقرير نماذجَ ممثلةً من المادة الاختبارية مع تفسيرات مفصلة للتأويل الذي يربط المزاعم التحليلية بمقتطفات نصية محددة. هذه هي

---

(84) انظر (Potter and Wetherell, 1987: 170f.) للاطلاع على المزيد من طرائق تقويم صلاحية التحليل، وانظر كذلك الفصل الخامس من هذا الكتاب من أجل نقاش موجز للصلاحية.

الطريقة التي يتم بها توثيق الخطوات التحليلية انطلاقًا من البيانات الخِطابية إلى استنتاجات الباحث. ولا بد من أن يُمنح القراء إمكان تقويم كل خطوة من العملية وتكوين انطباعهم الخاص بهم. ويتكون جزء كبير من التقرير من مقتطفات من التدوينات وتأويلات مفصلة تحدد الأنماط داخل المادة. وعندما يقوم الباحثون بتأويلاتهم الخاصة، فإن المشاكل تغدو واضحة في الغالب. وقد يتقوض نمط الخِطاب الذي كانوا يظنونه واضحًا، ويصبح من الضروري العودة إلى الترميز، أو في الواقع إلى التدوينات (Potter and Wetherell, 1987: 173-174).

10. تطبيق نتائج البحث

يمثل إبلاغ وجهات نظر تحليل الخِطاب إلى الناس خارج حقل البحث تحديًا مهمًّا. ويحتاج الباحث إلى أن يختار إن كانت المجموعة المستهدفة من نتائج البحث ينبغي أن تكون المجتمع العلمي، و/ أو الناس المعنيين بالبحث (الناس الذين وقع استجوابهم مثلًا)، و/ أو المجموعة التي ينتمي إليها هؤلاء الناس (ثقافة فرعية خاصة مثلًا)، و/ أو عامة الناس. ويتمثل أحد الاحتمالات في اختيار وسائل الإعلام كواسطة. ويتمثل احتمال آخر في إنشاء حوار مع الناس الذين تعلقت بهم الدراسة (Potter and Wetherell, 1987: 175) (انظر مناقشة البحوث الحوارية في الفصل السادس). وهنا يمكن تطبيق مفهوم «الوعي النقدي باللغة» الذي ساهم فركلاف في تطويره (انظر الفصل الثالث).

نماذج

في الأقسام التالية نعرض نماذج من الاستعمالات الاختبارية لمقاربتين اثنتين لتحليل الخِطاب من أجل تقديم فكرة عن تبعات السمات المميزة لكل مقاربة على نوع تحليل الخِطاب المعتمد. وبالقيام بذلك، نأمل أن نوفر بعض الأفكار عن كيفية تطبيق النظرية والمنهج في مشاريع بحثية أخرى. النموذج الأول مقتبس من دراسة ويذيريل وبوتر (Wetherell and Potter, 1992) عن الخِطاب في نيوزيلاندا. وقد جمعا في الدراسة بين التركيز ما بعد البنيوي على الكيفية التي تَبني بها خِطاباتٌ خاصةٌ الأشياءَ والذواتَ بطرائق مخصوصة وتركيز المنهج الإثني على الكيفية التي تعمل بها أقوال الناس خلال التفاعلات باعتبارها أفعالًا اجتماعية[85]. أما الأنموذج الثاني فهو مقتبس من تحليل خِطاب البناء الاجتماعي للهويات الثقافية لدى سو ويديكومب وروب ووفيت (Sue Widdicombe and Rob Wooffitt, 1995). وكما أشرنا سابقًا، فهما يعتمدان إلى حد كبير على المنهج الإثني وعلى تحليل المحادثة كما يفعل ويذيريل وبوتر. ونتيجة لذلك، فإن تحليلهما يركز على أقوال الناس ولا يشمل أنماطًا اجتماعية وخِطابية أوسع أو منظورات سياسية حول الآثار الأيديولوجية للخِطابات. وتركز الدراسة على الكيفية التي يكون بها تلفظ الناس بهوياتهم موجهًا إلى سياق التفاعل.

(85) في الجزء الذي نحيل عليه من دراستهما، يستعمل بوتر وويذيريل أساسًا الاستراتيجيات ما بعد البنيوية في التحليل.

ويذيريل وبوتر: «الثقافة» بما هي بناء خِطابي

تتناول دراسة ويذيريل وبوتر استعمال **الباكيها** (النيوزيلانديين البيض) لخِطابات معينة أو لمخزونات تأويلية تم فيها بناء «الثقافة» و«العنصر» و«القومية» على أنحاء مخصوصة. ويَفهم بوتر وويذيريل التصنيف -كيف يصنف الناس أنفسُهم ذواتِهم بالنسبة إلى مجموعة ما وكيف يصنفون الآخرين- باعتباره ممارسة خِطابية. إن أهداف التحليل نقدية بمعنى أن هدف المؤلفين يكمن في إظهار الدلالة الاجتماعية والآثار الاجتماعية لمخزونات تأويلية معينة. ويتمثل استنتاجهم في أن خِطابات «المساواة» والليبرالية» الظاهرة تساهم في تعزيز العنصرية والتمييز. فهما يبينان مثلًا أن طرائق معينة لفهم الثقافة -أي بناءات خِطابية معينة للثقافة- تساهم في إضفاء الشرعية على التمييز ضد الماوريين في نيوزيلاندا.

ولا يعتقد بوتر وويذيريل أن العنصرية هي مجرد مسألة لغوية، فهما يقولان إن التركيز يجب أن ينصب أيضًا على الممارسات المؤسساتية والأبنية الاجتماعية التي هي خِطابية في جزء منها فحسب. لكنهما يعتبران أن الخِطاب هو شكل مهم من أشكال الفعل الاجتماعي وقد كان له تأثير في طرائق معاملة الماوريين(*) في سياقات اجتماعية عديدة ومختلفة، وهو بذلك ليس «مجرد كلام». وبعض النصوص التي يحللانها تشبه ما يأتي (الكلمات بين قوسين تمثل تجاوب المُستَجوِبين).

(*) راجع تعريفنا للباكيها والماوري ص 187.

أنموذج 1 ويذيريل وبوتر (1992: 120)

نايت (Knight): يبدو الماوريون أكثر تقدمًا من السكان الأصليين.

أنموذج 2 ويذيريل وبوتر (1992: 120)

دايفيسون (Davison): الماوري عمومًا ليس قياديًا. آه، أعتقد أن الماوري الذي يقود على هذا النحو تجري في عروقه تقريبًا الكثير من دماء الباكيها. لأنه لا يوجد ماوري أصيل في نيوزيلاندا، وهذا تقريبًا كما تعرف، هذا هو السبب في ذلك.

أنموذج 3 ويذيريل وبوتر (1992: 91 and 129)

شال (Shell): أنا إلى حد بعيد، وأنا بالتأكيد مع شيء من عادات الماوري، فهي شيء نيوزيلاندي مميز، وأعتقد أنني محافظة جدًّا (نعم) وبالطريقة ذاتها التي تجعلني لا أحب رؤية بعض الأنواع تنقرض، فإنني لا أحب رؤية (نعم) ثقافة ولغة (نعم) وكل شيء آخر يتلاشى.

أنموذج 4 ويذيريل وبوتر (1992: 129)

وليامسون (Williamson): أعتقد أنه من المهم أن يتشبثوا بثقافتهم (نعم) لأنني إذا حاولت أن أفكر في ذلك، فإن الباكيها النيوزيلاندي ليس لديه ثقافة (نعم)، ففي حدود ما أعرف ليس لديه ثقافة (نعم). إلا إذا كانت لعبة الرغبي (rugby) والسباقات والجعة

التي من شأنها أن تعني عنده الكثير! (نعم) لكن الماوريين يمتلكون قطعًا شيئًا، فأنت تعرف، بعض الأشياء المحددة التي يقومون بها و(نعم). لا، أنا أقول فليتشبثوا بثقافتهم.

أنموذج 5 ويذيريل وبوتر (1992: 132)

برودمان (Broadman): آه، أنت تعرف أن صغار البولينيزيين[*] غير الأصليين أكثر وضوحًا تقريبًا من صغار الأوروبيين غير الأصليين، على الرغم من أن هناك عددًا قليلًا جدًا من هؤلاء، وللأسباب نفسها وعلى نحو غريب، فهم لا يزالون يُشاهدون بوضوح في الطرقات (همم...). مم...، وكان جزء من الانتشار السريع للعادات الماورية مؤخرًا يرمي لتشجيع كثيرين منهم على العودة إلى الماضي واكتشاف أصولهم، وهو بالضبط ما كانوا في حاجة إليه (نعم).

يمثل الأنموذجان الأولان أوصافًا تحيل على «العنصر»، ولكنهما ليسا عنصريين تمامًا. وهما لا يتكلمان مباشرة عن العلوية والدونية، ولكنهما يعتمدان كلاهما على **مخزون عنصري** (Wetherell and Potter, 1992: 120). وعلى الرغم من أن الأوصاف تثني على الماوريين، فإنها قائمة على فرضيات عنصرية لأن «العنصر» باعتباره فئة يعامل الناس على أنهم موضوعات بيولوجية: أي أن الانتماء

(*) البولينيزيون هم السكان الأصليون لبولينيزيا وهي مجموعة جزر في المحيط الهادي تشمل جزر هاواي والساموا وبولينيزيا الفرنسية ونيوزيلاندا وغيرها من الجزر. وتطلق التسمية أيضًا على الناطقين باللغات الأصلية لبولينيزيا التي تشمل الماوري والهاواوية والساموان.

إلى مجموعة هو مسألة أصول بيولوجية (Wetherell and Potter, 1992: 122). في المخزون العنصري، فإن خصائص المجموعة تحدد الخصائص الفردية. والمجموعات العرقية يُنظر إليها على أنها منظمة ضمن تراتبية. ففي الأنموذج الأول، وُضع الماوريون في مكانة أرفع في التراتبية من «عناصر» أخرى مثل السكان الأصليين. وفي المثال الثاني اعتُبر «الأصليون» أدنى من أصحاب الدم «المختلط» وهم ليسوا بجودة البيض نفسها (Wetherell and Potter, 1992: 122). إن التبعات الاجتماعية والأيديولوجية لهذه الخِطابات واضحة: فمن منظور هذا الخِطاب، يكون التغيير الاجتماعي مستحيلًا (Wetherell and Potter, 1992: 122).

وعلى الرغم من أن نماذج عديدة للتفسيرات كانت قائمة على العنصر مثل هذه، فقد اكتشف بوتر وويذيريل أن نقلة خِطابية عامة حصلت اليوم من الخِطاب العنصري لفترة السبعينيات إلى الخِطاب الثقافي أو إلى **مخزون ثقافي** (Wetherell and Potter, 1992: 128). ولم يعد التركيز منصبًّا على الفروق البيولوجية، ولكن على الفروق الثقافية. وقد حدد ويذيريل وبوتر مخزونين تأويليين يصنفان «الثقافة» بطرائق مختلفة: الثقافة باعتبارها تراثًا (التراث الثقافي/ التقاليد ذات القيمة) والثقافة باعتبارها علاجًا.

«الثقافة باعتبارها تراثًا» (النموذجان 3 و4) هي بناء خِطابي للثقافة باعتبارها شيئًا تقليديًّا غير متحول، وهو على النقيض من تصور للثقافة على أنها عملية حركية. وقد وقع بناء الماوريين كأمناء

لمتحف عليهم واجب الحفاظ على ثقافتهم لأنفسهم (Wetherell and Potter, 1992: 129). ويعتقد ويذيريل وبوتر أن هذا المخزون التأويلي له آثار أيديولوجية لأنه يفصل بين الثقافة والسياسة، بحيث لا تصبح المشاكل التي تنطوي على اضطهاد الأقليات قضيةً. وتُفهم المشاكل الاجتماعية والسياسية باعتبارها مشاكل ثقافية. فالممارسات الاجتماعية الحديثة جدًّا للماوريين لا تُعَرَّف باعتبارها استراتيجيات ثقافية ولكن بدلًا من ذلك باعتبارها أشكالًا متفسخة من نشاط يلوث الثقافة الناصعة للماوريين. فقد وقعت مماهاة الثقافة بالثقافة التقليدية، والاتصال بالمجتمع الحديث يُنظر إليه على أنه خطر على أولئك المتجذرين في الثقافة «القديمة»، فيمكنهم، إن هم تكيفوا مع المجتمع الحديث، أن «يفقدوا ثقافتهم»، وهذا يؤدي إلى «صراع ثقافي» و«صدمة ثقافية» (Wetherell and Potter, 1992: 130).

وفي المخزون التأويلي الآخر، «الثقافة باعتبارها علاجًا» (الأنموذج 5)، يُفترض أنه إذا كان الماوريون يشعرون بالرضا عن أنفسهم، فإن المشاكل الاجتماعية ستزول (Wetherell and Potter, 1992: 131). فأن يكونوا متجذرين في ثقافتهم التقليدية أمر صحي، فذلك يُنتج الفخر والشعور بالثقة في النفس القائم على الاعتراف بالاختلافات الثقافية. إن هذا الخِطاب يبني احتجاجات الماوريين والسلوك «المعادي للمجتمع» باعتبارها نتيجة للمشاكل النفسية التي يعاني منها الماوريون عندما يفقدون ثقافتهم بدلًا من كونها نتيجة للمشاكل الاجتماعية من قبيل موقعهم في قاع المجتمع (كأعضاء من الطبقة الدنيا في المجتمع الرأسمالي). وإذا فقد الماوريون هويتهم

الثقافية فلن يصبحوا بطريقة آلية من الباكيها -النيوزيلانديين البيض - أو متحضرين، بدلًا من ذلك، سيصبحون «بلا جذور» (Wetherell and Potter: 131). ووفقًا لويذيريل وبوتر، فإن هذه الطريقة في استعمال الخِطاب حول الثقافة هي الطريقة الأيديولوجية.

أي هويات إذًا يبنيها خِطاب الثقافة للنيوزيلانديين البيض؟ إنه يبنيهم على أنهم أناس تقدميون، ليبراليون، من أنصار المساواة وهم مهتمون بالثقافات الأخرى ومنفتحون عليها. فبينما تُبنى الثقافة باعتبارها واجبًا بالنسبة إلى الماوريين، فهي أرضية للعب بالنسبة إلى الباكيها (Wetherell and Potter, 1992: 134). إذ بوسعهم تعلم لغة الماوريين وتقاليدهم بالطريقة ذاتها التي يتعلمون بها العزف على آلة موسيقية (Wetherell and Potter, 1992: 134). وهذا يؤدي إلى الحفاظ على الوضع الراهن. فبينما يمتلك الماوريون ثقافة، فإن البيض يمتلكون حضارة، هي أفكار العالم الحديث - بعبارة أخرى، حس مشترك (Wetherell and Potter, 1992: 135). في هذا الخِطاب، يغدو الماوريون شاذين وتغدو الأغلبية البيضاء ممثلة «للوضع السوي». فالماوري هو من يمثل «الاختلاف»، ويحيط مجتمع الباكيها الأوسع بثقافة الماوريين ويعين لها حدودها (Wetherell and Potter, 1992: 136).

تتعين الإشارة إلى عامل مهم متصل بهذه الدراسة، وهو أن الشخص نفسه يمكن أن يعتمد بشكل جيد على صيغتي خِطاب الثقافة كلتيهما في نقاط مختلفة من مقابلة. وقد وجد ويذيريل وبوتر، مثلًا، أن المُستجوَبين اعتمدوا في كثير من الأحيان على الثقافة

باعتبارها مخزونًا تراثيًّا عند الكلام على لغة الماوري، في حين أنهم تكلموا بعبارات مخزون «الثقافة باعتبارها علاجًا» عند مناقشة مشاكل الجريمة والفشل الدراسي بين الشباب الماوري (Wetherell and Potter, 1992: 91). ويمكن الناس أيضًا أن يعتمدوا على خِطاب العنصر، إضافةً إلى خِطاب الثقافة. والفكرة هنا تتمثل في أن الناس يعتمدون على خِطابات مختلفة في سياقات مختلفة. فالخِطابات تعمل باعتبارها موارد تُستعمل في الحجاج، وفي حجج مختلفة يعتمد الناس على خِطابات مختلفة، وبالنتيجة يعبرون عن هويات مختلفة.

ويديكومب ووفيت: الهويات الثقافية الفرعية

يركز ويديكومب ووفيت (Widdicombe and Wooffitt, 1995) على الكيفية التي يعتمد بها الناس على هوية معينة باعتبارها موردًا في تفسير فعل معين. ويتفق ويديكومب ووفيت مع بنائيين اجتماعيين آخرين في أنهما لا ينظران إلى الهويات باعتبارها ثابتة ومحددة بالماهية الباطنية للفرد، ولكن بدلًا من ذلك باعتبارها نتائجَ للتفاعل الاجتماعي مفتوحةً على التغيير. الهويات، كما يقولان، موجهة إلى الفعل، والتحليل يهدف إلى تحديد الطرائق الدقيقة التي تُبنى بها الهويات ويُتفاوض بشأنها في الكلام. في ما يلي نقدم مقتطفًا من مقابلة مع واحد من جماعة البانك (punk)(*) (م. ر.) يصف

(*) كلمة punk تعني في الأصل الحثالة وعديم النفع، وتستعمل للإشارة إلى فئة من الشباب في الولايات المتحدة وبريطانيا يتصفون بالتمرد على القيم السائدة في المجتمع. وهي فئة تُعرف بحركة البانك وتتجمع حول موسيقى البانك.

اشتباكًا عنيفًا بين أفراد من جماعة البانك والشرطة إثر حفل (ف. ر. هو المُستَجوِب):

م. ر. : وقد كان رجال الشرطة كلهم بالخارج هناك (آه) في الحفل. لم يكن هناك أي مشكلة باستثناء شجار أو شجارين صغيرين، كما تعرف؟

م. ر. : ولكن هذا يحصل كل مرة، في كل حفلة.

ف. ر. : حصل شجار؟

م. ر. : هذا كل شيء، شخص ما لا يحب شخصًا آخر.

ف. ر. : همم...

م. ر. : ليس مُهمًّا ماذا كان، هو يحصل دائمًا، أنت تعرف لا تستطيع إيقاف ذلك.

م. ر. : نذهب إلى الخارج وها هم هناك.

م. ر. : ثمانمئة من رجال الشرطة(*) اللعينين.

م. ر. : في انتظار فرصة سانحة فحسب.

م. ر. : دروع مكافحة الشغب، والهراوات، وأنت لا تفعل شيئًا، تحاول فحسب أن تستقل قطار الأنفاق وتعود إلى المنزل فماذا فعلوا؟ أنت تمر بالجوار وهم يدفعونك بالهراوات ويبدأون بضرب البانك المنفردين هنا وهناك

(*) استعمل النص الأصلي عبارة (old bill) وهي تسمية متداولة لرجال الشرطة، في اللغة العامية.

م. ر. : ثم ماذا حدث؟ ثا...ـ ثار البانك، فهم لا يريدون أن يتعرضوا للضرب في وجوههم بالهراوات. لا أحد يقبل ذلك. ثم ماذا تصنع؟ تدفع الشرطي إلى الخلف ثم ماذا حصل إذًا؟ انهال عشرة أو اثنا عشر منهم بالضرب المبرح على وغد مسكين كان يحاول أن يُبعدهم عنه.

م. ر. : آنذاك بدأت أعمال الشغب[86].

يُقصد بكثير من الأوصاف التي أطلقها م. ر. بناء أفعال جماعة البانك باعتبارها عادية تمامًا، أي أن كل الناس سيرُدون الفعل بالطريقة ذاتها في هذه الوضعية. الإشارة الأولى إلى جماعة البانك هي وصف يقلل من الأفعال التي قاموا بها بعد الحفل: «ونذهب إلى الخارج». وهذا يعني أن أفعالهم لم تخرج على المألوف. والإشارة الأخرى إلى أفعالهم أيضًا تعطي هذا الانطباع: «لا تفعل شيئًا»، «تعود إلى المنزل» فحسب. واستعمال الضمير «أنت»، بدلًا من «أنا» أو «نحن»، يتضمن أن فعلهم ليس خاصًّا بمجموعة معينة ولكنه عام (شيء يفعله الجميع في هذا النوع من الوضعية). واستعمال «صيغ الحالات القصوى» («**كل** حفلة»، و«**دائمًا** شخص ما»، و«يحصل **دائمًا**») يعطي الانطباع بأن هذه الأشياء عامة، وهي ليست حكرًا على حفلات البانك. في الجملة «يوجد دائمًا شخص ما لا يحب شخصًا آخر» يُقَدَّمُ العنفُ باعتباره نتيجة صراعٍ بين أشخاص بعيدًا عن عضوية المجموعة.

(86) مدونة ويديكومب ووفيت :Widdicombe and Wooffitt, 1995) (126 تعيد إنتاج لهجة غلاسكو، في حين قررنا أن لا نفعل ذلك لأنه يمكن أن يشوش الفهم على القراء كما أنه ليس ذا فائدة مباشرة للتحليل.

وجملة «إنه يحصل دائمًا» تؤكد أن الصراعات جزء طبيعي من الوجود البشري وأنها ليست حكرًا على بعض المجموعات[87]. م. ر. لا يُعبر عن هوية شخص من البانك، ولكن عن هوية شخص عادي. وخلال كامل النص وقع التأكيد أن البانك هم أناس عاديون لم يفعلوا إلا ما يفعله جميع الناس الآخرين.

في وصفه العنف، لم يقل م. ر. أن البانك كانوا مشاركين. وقد بُنِيَ البانك على أنهم ضحايا سلبيون للعنف وأنهم عندما انخرطوا في العنف، كان ذلك في حالة الدفاع عن النفس. كان التركيز على الكيفية التي كان بها سلوك البانك طبيعيًّا، بينما كان سلوك رجال الشرطة عنيفًا وغير طبيعي. بنى م. ر. سلسلةً من المقابلات بين سلوك البانك وسلوك رجال الشرطة: رجال الشرطة كانوا ينتظرون حاملين «دروع مكافحة الشغب، والهراوات»، بينما كان البانك «يحاولون أن يستقلوا قطار الأنفاق ويعودوا إلى منازلهم فحسب». وقد وصف البانك بـ«تَمُر بالجوار» ووصف رجال الشرطة بأنهم «يدفعونك بالهراوات». كل هذا يدل على أن المستجوَب يأخذ بعين الاعتبار الافتراضات السلبية حول البانك المنتشرة على نطاق واسع في وسائل الإعلام. فأوصافه بنيت بغاية التقليل من احتمال أن يشكل السامع انطباعًا بأن البانك مسؤولون عن العنف. هو يبني وصفه على هذا النحو عبر تأكيد الطابع الروتيني لأفعال البانك: فهو يلح على أن أفعالهم كانت شيئًا يفعله **الجميع**، وليس البانك فحسب.

---

(87) حددت (Pomerantz, 1986) استعمال «صياغات الحالات القصوى» بالوضعيات التي يوجد فيها احتمال أن لا يقبل السامع قصة أو خبرًا.

ملاحظات ختامية

في الختام سنناقش بعض الانتقادات التي وجهت إلى علم نفس الخِطاب. ونبدأ بالتوجهين المركزيين لعلم نفس الخِطاب اللذين وقع تقديمهما وتوضيحهما تباعًا في دراستي ويذيريل وبوتر ثم ويديكومب ووُوفيت. إثر ذلك، نشير إلى محاولة سيرج موسكوفيتشي (Serge Moscovici) تطوير المنظور البنائي الاجتماعي وتوسيعه من خلال إدماج منظور عرفاني في جزء منه.

من خلال الاستعمال النسقي لتقنيات تحليل المحادثة، بيَّن ويديكومب ووُوفيت كيف أن الناس يعتمدون على الموارد الخِطابية -بما في ذلك الهويات الاجتماعية- لبناء قصص معينة. ومع ذلك، فإن محللي الخِطاب في هذه المدرسة ليسوا معنيين بدراسة كيف أن خِطابات معينة متداولة في المجتمع تبني الذوات والموضوعات بطرائق لها تبعات اجتماعية أو أيديولوجية. هم لا يحاولون تحديد محتوى الخِطابات والعلاقات بين الخِطابات المختلفة وتبعاتها الاجتماعية. والنتيجة هي أنهم لم يسلطوا الضوء على دور الممارسة الخِطابية في الحفاظ على نظام اجتماعي محدد يتميز بعلاقات خاصة للسلطة ويستبعد صيغًا بديلة للانتظام الاجتماعي. سنعود إلى هذه القضية في الفصل الخامس في مناقشة عابرة للمقاربات الثلاث: نظرية لاكلاو وموف في الخِطاب، والتحليل النقدي للخِطاب، وعلم نفس الخِطاب.

النوع الآخر الذي ركزنا عليه من أنواع علم نفس الخِطاب (مستعملين ويذيريل وبوتر أنموذجًا) يشاطر ويديكومب ووُوفيت

الاهتمام بالاستراتيجيات البلاغية، إذ لم يقم بوتر وويذيريل بتحليل لغوي صارم. يقول ويذيريل وبوتر (Wetherell and Potter, 1992) إنهما مهتمان بمحتوى المقابلات لا ببنيتها اللغوية. وفي بعض الحالات يمثل هذا مشكلًا. ويحدد بوتر وويذيريل بعض المخزونات التأويلية في سلسلة من المقابلات ويزعمان أن هذه المخزونات تساهم في الحفاظ على نظام اجتماعي معين. ومع ذلك، فهما لا يقدمان ما يكفي من الوثائق على وجود هذه المخزونات. وهذا السند الاختباري يمكن إنتاجه، على سبيل المثال، من خلال التحليل اللغوي (انظر أيضًا الفصل الخامس).

من وجهة نظر عرفانية، يمثل المنهج أحد الإشكالات الرئيسة في علم نفس الخِطاب. ولا تعتبر الانتقادات العرفانية أن المناهج هي بالمقدار المطلوب من الصرامة لتثمر نتائج صحيحةً على أساس أنها لا تتضمن تقنيات مؤسسة على إبستيمولوجيا وضعية تشمل عينات عشوائية، «واختبارات موثوقية مشتركة بين المرمزين» وتحليل للبيانات الكمية (Potter, 1996a: 167). والحجة هي أنه، من دون هذه التقنيات، سيُرخى العنان لشتى أنواع التأويلات الذاتية، ولن يكون هناك من معيار لنميز الجيد من الرديء والصالح من غير الصالح.

يرفض علماء النفس العرفانيون كذلك -وهو أمر ليس بمستغرب- القبول بمعالجة الظواهر النفسية ودراستها على أنها

نشاطات خِطابية اجتماعية بدلًا من كونها عمليات وحالات باطنية. إن انخراط المرء أو عدم انخراطه في موقف عرفاني أو في موقف بنائي اجتماعي، يعتمد إلى حد كبير على فهم المرء الذات، أي يعتمد على ما إذا كان المرء يفهم الذات باعتبارها متكاملةً ومستقلةً، وبالنتيجة متميزةً من الجانب الاجتماعي، أو باعتبارها علاقية موزعة وبالنتيجة اجتماعيةً بأتم معنى الكلمة. فمع تبني نظرة علاقية للذات، تتحول بؤرة البحث من الأفراد المعزولين ومجموعات الأفراد إلى عمليات إنتاج المعنى خلال التفاعل الاجتماعي. ويشير علماء نفس الخِطاب إلى أن الاختلافات في كل من الأفهام والهويات التي يقع الكشف عنها عادة في خِطابات الناس في الدراسات الاختبارية تتماشى مع النظرة البنائية الاجتماعية للذات. في المقابل، يقول العرفانيون بأن التواصل خلال التفاعل الاجتماعي يتضمن ويقتضي ما هو أكثر من العمليات اللغوية فحسب. موسكوفيتشي (Moscovici, 1994) يدعي مثلًا أن التواصل قائم في جزء منه على تمثيلات للعالم («تمثيلات اجتماعية») لا يقع إبلاغها على نحو مباشر، أي أنها أنواع من المقتضيات تجعل التواصل ممكنًا، لكن من دون أن يقع التعبير عنها لغويًا. وهي تشكل الأفعال الاجتماعية من دون أن تكون جزءًا من الأفعال ذاتها .(Potter, 1996a)

موسكوفيتشي هو مؤسس مقاربة ـ هي نظرية التمثيل الاجتماعي ـ يمكن النظر إليها باعتبارها قائمة على دمج بين العرفانية والبنائية الاجتماعية، أو هي مهجنة منهما بما أنها تجمع بين عناصر من

كلا المنظورين. وهذا يعني أن العمليات التواصلية خلال التفاعل الاجتماعي والعمليات العرفانية هـي جميعًا محور التحليل. ونظرية التمثيل الاجتماعي هي واحـدة من المحاولات القليلة للجمع بين المنظورات[88]. وفي الفصل التالي، نواصل البحث في الكيفية التي يمكن بها الجمع بين تحليل الخِطاب ومنظورات نظرية أخرى.

---

(88) للاطلاع على رؤية شاملة للجدل بين علم نفس الخِطاب ونظريات التمثل الاجتماعي، انظر (de Rosa, 1994). وللاطلاع على الافتراضات النظرية داخل النظرية المتعلقة بالتمثلات الاجتماعية، انظر (Moscovici, 1984, 1988). وللاطلاع على تقارير من البحوث الاختبارية، انظر (Breakwell and Canter, 1993)، و(Jodelet, 1991). وللاطلاع على نقاط من النقد الموجه إلى نظرية التمثلات الاجتماعية من منظور علم نفس الخِطاب، انظر (Potter and Wetherell, 1987)، و(Potter, 1996a).

5- عبر المقاربات

انتظمت الفصول الثلاثة السابقة حول عرض مقاربات ثلاث مختلفة لتحليل الخِطاب. أما في هذا الفصل، فسيكون المبدأ عندنا في التنظيم مختلفًا بما أننا نركز الآن على القضايا المتعلقة ببناء مشاريع البحوث الاختبارية. وتشمل المسائل المركزية كيفية بناء إطار نظري لتحليل الخِطاب، وكيف نجعل التحليل يتقدم، وكيف ندمج منظورات مختلفة عن منظورات تحليل الخِطاب في البحث، وكيف نتحقق من صحة النتائج. وبما أننا نقترح الجمع بين مقاربات مختلفة في مشاريع محددة، مستفيدين من نقاط القوة الخاصة بها، فإن هذه المسائل ستُناقش عبر مقاربات مختلفة تعتمد تحليل الخِطاب أو لا تعتمد تحليل الخِطاب.

في القسم الأول من الفصل، نقترح طرائق يمكن من خلالها الجمع بين عناصر من المقاربات الثلاث المقدمة في الفصول الثلاثة السابقة جنبًا إلى جنب من أجل بناء إطار نظري للبحث. ويعطي مقترحنا الأولوية لمفهوم فركلاف عن «نظام الخِطاب» الذي نُفصل البحث فيه من خلال مناقشة العلاقة بين البنية والممارسة والتغيير أولًا، ثم التمييز بين «الخِطاب» و«نظام الخِطاب» بعد ذلك. ونناقش كذلك كيفية تعيين حدود الخِطابات في مشاريع محددة، وما الذي

ينبغي البحث عنه في تحليل النصوص التجريبية. وبذلك، وبعد أن نكون قمنا بتقريب صورة تحليل النص، نقترح أربع استراتيجيات لتنفيذ تحليل النصوص واكتساب فهم شامل للمواد الاختبارية. وبعد ذلك، نوسع آفاقنا مرة أخرى لتغطية الدمج بين مقاربات مختلفة قائمة على تحليل الخِطاب وقائمة على غير تحليل الخِطاب ضمن إطار متعدد المنظورات للبحث الاجتماعي. وهنا، نناقش أولًا المشاكل والقضايا المتعلقة بالجمع بين المقاربات ثم نقدم نموذجًا اختباريًّا لتوضيح بناء مثل هذا الإطار وتطبيقاته في تحليل المواد الاختبارية. وأخيرًا، نناقش مسألة الصلاحية في تحليل الخِطاب، ونشير إلى بعض المعايير التي يمكن أن تساعد على ضمان جودة نتائج البحث.

الخِطاب بما هو بنية وممارسة

كثيرًا ما تعرضت البنيوية للنقد لعدم تمكنها من تفسير التغيرات. والبنيويون النمطيون يحددون البنية في زمن معين ثم يعيدون الكرة في نقطة أخرى من الزمان فيستنتجون أن البنية تغيرت في غضون ذلك الوقت، ولكنهم لا يمتلكون أي أداة لتفسير ذلك التغيير. وذلك لأن موضوع دراستهم في مجال اللغة وقع اختزاله في **اللغة**، أي البنية الكامنة، بينما وقع تجاهل **الكلام**، أي ممارسة اللغة، فإذا لم تدرس الممارسة، فإنه يعسر أن نفسر من أين جاءت البنية وما الذي يمكن أن يغيرها.

إن تحليل الخِطاب، على الرغم مما يدين به للبنيوية، بذل وسعه لكي لا يرث هذا المشكل. وتأخذ المدرسة ما بعد البنيوية التغيير بعين

الاعتبار بفضل فرضيتها المتمثلة في أن البنية لا يقع تثبيتها مطلقًا بما أن الدلالات لا يمكن تثبيتها إلا جزئيًا ووقتيًا، البنية تخضع باستمرار للكيفية التي تتبلور بها في الممارسة العملية. وبهذه الطريقة، تحاول ما بعد البنيوية صهر المستويين، **اللغة والكلام**، في عملية واحدة، بحيث إن البنية، بدلًا من كونها كيانًا كامنًا، تكون موجودة فحسب في الممارسات الخِطابية التي تعيد إنتاجها أو تُحَولُها.

من بين مقارباتنا، فإن نظرية لاكلاو وموف للخِطاب هي الأكثر تجسيمًا لما بعد البنيوية، ولكن المقاربات الأخرى تمتلك أيضًا نظرة مزدوجة للممارسة الخِطابية. فهي تعترف جميعها بأنه من الضروري لكل ممارسة خِطابية، أن تعتمد على عمليات إنتاج المعنى السابقة من أجل أن يقع فهمها، ولكن بعض العناصر لا بد من أن توضع معًا على نحو جديد، محدثة تغييرًا في الأبنية الخِطابية.

ومفاهيم فركلاف المفاتيح لتحليل هذه العمليات هي «التناص» و«تقاطع الخِطابات». وهو يدرس، من خلال النظر في الكيفية التي تعتمد بها نصوصٌ معينة على تشكلات سابقة للمعنى وفي الكيفية التي تَمزج بها خِطاباتٍ مختلفةً، كيف يُعاد إنتاجُ الخِطابات وكيف -وهذا رأس أولوياته- يقعُ تغييرها. وهو يدرس، من بين أشياء أخرى، كيف تتمفصل خِطاباتٌ مختلفة جميعًا في نص واحد وإن كانت الخِطابات نفسها متمفصلة جميعًا عبر سلاسل من النصوص أو إن كانت خِطابات مختلفة جُمعت في تمفصلات جديدة. إن تقاطع الخِطابات هو على حد سواء علامةٌ للتغيير الاجتماعي والثقافي وقوةٌ دافعة له. ومن خلال تحليل التناص وتقاطع الخِطابات

يمكن أن نحصل على فهم أفضل لدور الخِطاب في عمليات التغيير الاجتماعي. وعند دراسة عمليات التغيير من منظور التحليل النقدي للخِطاب، من المهم أن نتذكر دائمًا أن الممارسات الخِطابية تعمل دائمًا في تفاعل جدلي مع أبعاد أخرى للممارسة الاجتماعية، وأن هذه الأبعاد الأخرى يمكن أن تضع قيودًا بنيوية على الطرائق التي يمكن أن تُستعمل بها الخِطاباتُ وتُغير.

ومن بين المقاربات المنتخبة، إن مقاربة التحليل النقدي للخِطاب لفركلاف هي الأكثر وضوحًا في الاهتمام بدراسة التغيير. ففي تحليله إعلانات الوظائف الجامعية الذي لخصناه في الفصل الثالث، أشرنا إلى تركيزه على الكيفية التي أحرز بها خِطاب مستهلكين موطئ قدم في الجامعات واستمر في تحويل الخِطاب التقليدي. لكن المقاربات الأخرى يمكن أن تُستعمل أيضًا لدراسة تحويل الخِطابات، فضلًا عن إعادة إنتاجها، بما أنها تشترك في النظر إلى الممارسة الخِطابية على أنها تمتلك قدرة كامنةً على زعزعة استقرار الأبنية الخِطابية السائدة. ومفهوم «التمفصل» في نظرية لاكلاو وموف للخِطاب يمتلك، إلى حد كبير، التأثير النظري نفسه الذي يمتلكه مفهوم التناص لدى فركلاف. والتمفصل هو توليفة لعناصر تُكسبها هوية جديدة، كما يقترح لاكلاو وموف. التمفصل، إذًا، يبني مفهوم التغيير، ولكنه يبني مفهوم إعادة الإنتاج كذلك. كل ممارسة خِطابية هي تمفصل، بما أنه لا توجد ممارسة تكون تكرارًا دقيقًا لأبنية سابقة. وكل إعادة إنتاج واضحة تتضمن عنصرًا من عناصر التغيير، مهما يكن قليلًا. ومِثل مفهومي التناص وتقاطع الخِطابات لدى فركلاف، يحيط «التمفصل»

بواقع أن الممارسة الخِطابية تعتمد على الأنماط السابقة وتزعزع استقرارها في آن واحد.

ويؤكد علم نفس الخِطاب على العلاقات غير المستقرة بين الخِطابات. ويحلل علماء نفس الخِطاب كيف يعتمد الناس على نحو انتقائي على موارد خِطابية مختلفة في سياقات اجتماعية مختلفة. مرة أخرى، فإن محور التركيز هو الطريقة التي تكون من خلالها الأبنية السائدة في آن واحد هي التي توفر الأساس للاستعمال اللغوي وأن يتم الاعتراض عليها وتحويلها فيه.

في المستوى النظري، تقوم كل المقاربات، إذًا، بإذابة القسمة البنيوية الصارمة بين البنية والممارسة، ناظرة إلى المستويين على أنهما موحدان في عملية واحدة. ولكن تمكن المجادلة بأنه لا بد، في الدراسات الاختبارية، من القيام بتمييز تحليلي بين البنية والممارسة، وأن أغلب المقاربات الآن تقوم بهذا التمييز التحليلي. وتحلل الدراسة الواحدة عددًا محدودًا من الأقوال الخِطابية، ومن أجل أن تقول عنها شيئًا ذا مغزى، من قبيل ما إذا كانت تساهم في إعادة إنتاجٍ أو تغييرٍ، على سبيل المثال، فمن الضروري جعلها إزاء نوع من الخلَفية. ومن الضروري أن تكون للمرء فكرة عما تعيد الممارسة إنتاجه أو تُغيره ـ أي أن المرء يحتاج إلى أن يمتلك فهمًا لنوع البنية التي ينبغي أن تُحلل [الأقوالُ] بالنظر إليها.

وفركلاف هو الأكثر وضوحًا في هذا الصدد. فهو يقترح أن الباحث يجب أن يحلل بعدين: الحدث التواصلي ونظام الخِطاب،

وينبغي تحليل الممارسة في ضوء البنية المتعلقة بها. ويعمل لاكلاو وموف بالاعتماد على تمييز مماثل، أي بين التمفصل والخِطاب. هنا، يكون الخِطاب هو التثبيت الأكثر تجريدًا للمعنى، والتمفصل هو الفعل المخصوص الذي يعتمد على الخِطاب أو يحوله.

يتبنى علماء نفس الخِطاب ثنائية شبيهة. فهم يحللون كيف أن الناس يعتمدون على موارد خِطابية مخصوصة في التفاعل الاجتماعي، مفترضين بذلك أن بعض الخِطابات تسود في الخلفية. ولكن بعض علماء نفس الخِطاب يمكن انتقادهم لأنهم لم يتعاملوا بوضوح مع مستوى مماثل لنظام الخِطاب، فنظام الخِطاب لا يوجد إلا على نحو ضمني في تحليلاتهم. ويبدو كما لو أن علماء نفس الخِطاب يقتربون من الطرف المقابل من أجل تجنب رؤية الخِطابات كظواهر مادية غير شخصية تختفي فيها فعالية الناس، أي من أجل تجنب أشكال التحليل الراجعة إلى فوكو ولاكلاو وموف، وبالتالي فهم ينزعون إلى إهمال أن الخِطابات وأنظمة الخِطاب تفرض قيودًا على أقوال الناس في التفاعل الاجتماعي.

ولكن كيف يكون من الممكن البحث في نظام الخِطاب باعتباره خلفيةً لتحليل الاستعمال اللغوي؟ هنا، يمكن أن يكون الاعتماد على الدراسات الموجودة لاكتساب فكرة عن الأنماط التي تسود المجال الاجتماعي قيد التحليل مثمرًا، فالنتائج التي يتوصل إليها المرء في تحليله الخاص يمكن إذًا أن تساهم في فهم أكثر شمولًا لنظام الخِطاب، على الرغم من أن دراسة واسعةً للغاية هي فحسب ما يتيح للباحث رسم خريطة لنظام الخِطاب بأكمله.

الخِطاب ونظام الخِطاب

إن الإطار التحليلي للخِطاب المُعَد للبحوث الاختبارية يمكن أن يُبنى وفق عدد من الطرائق المختلفة، بحسب قضايا البحث وكذلك بحسب منظور الباحث. هنا، سنطور الفكرة، التي قدمناها في الفصول السابقة، المتمثلة في استعمال مفهوم «نظام الخِطاب» باعتباره الركيزة الأساس لمثل هذا الإطار التحليلي. في المقاربات الثلاث جميعها وقع تعريف الخِطاب، بصفة عامة، على أنه تثبيت للدلالة داخل مجال مخصوص. ولكن إضافةً إلى ذلك، توجد حاجة إلى تصور لمختلف الخِطابات المتنافسة في المجال نفسه، وهذا يمكن تحقيقه من خلال مفهوم نظام الخِطاب الذي تشكل داخل التحليل النقدي للخِطاب. ويُعَرفُ نظام الخِطاب بأنه تشكيلة معقدة من خِطابات وأجناس داخل الحقل أو المؤسسة الاجتماعيين نفسيهما (انظر الفصل الثالث). وبذلك يمكن أن نعتبر نظام الخِطاب دالًّا على خِطابات مختلفة تُغطي جزئيًّا الحقل نفسه، حقلًا ينافس كلُّ خِطاب على ملئه بالمعنى على طريقته الخاصة.

وسواء أَمَيزَتِ النظرية المُطَبَقَةُ في بحوث تحليل الخِطاب تمييزًا صارمًا بين الأبعاد الخِطابية وغير الخِطابية للممارسة الخِطابية (كما فعل التحليل النقدي للخِطاب) أم لم تُميز (كما في نظرية الخِطاب للاكلاو وموف وعلم نفس الخِطاب)، فمن المهم أن نأخذ بعين الاعتبار المرتكزات المادية والمؤسسية لنظام الخِطاب بما أن النص والكلام، وفقًا لكل المقاربات، هما جزء لا يتجزأ من ممارسة اجتماعية أوسع.

وتتمثل الطريقة المشتركة في حصر البحث في التركيز على نظام خِطاب واحد. فمن خلال التركيز على الخِطابات المختلفة المتنافسة داخل المجال نفسه، يتسنى التحقق أين يكون خِطاب ما مهيمنًا، وأين يوجد صراع بين خِطابات مختلفة، وما هي الافتراضات المشتركة التي تتقاسمها كل الخِطابات السائدة. وكما ناقشنا في نهاية الفصل الثاني، فإن العلاقة بين العرضية والاستمرارية داخل مجال معين يمكن البحث فيها من خلال دراسة نظام الخِطاب: المواضع التي تتقاسم فيها كل الخِطابات الافتراضات المشتركة نفسها هي أقل انفتاحًا على التغيير وأكثر تهيؤًا لأن تبقى مستقرة، بينما تكون المواضع التي تتصارع فيها خِطابات مختلفة على تثبيت الدلالة بطرائق متنافسة غير مستقرة وأكثر انفتاحًا للتغيير.

إن تأطير الدراسة من حيث نظام الخِطاب يُمَكنُ، علاوة على ذلك، من تحليل **توزيع** الخِطابات في مجال معين. وأكثر من ذلك، فإن توزيع المنافذ إلى الخِطابات المختلفة داخل نظام الخِطابات هو أيضًا نقطة تركيز مهمة. إذ ليس لكل الناس إمكانات نفاذ متساوية لكل الخِطابات. مثال ذلك، أن التقارير الإخبارية التلفزيونية تتضمن غالبًا تعليقات لغير الصحافيين، ولكن بعض المعلقين يُمنَحُون وضع «الخبراء» ويُدْلُون ببيانات تُمنحُ سلطةً وتشتمل بوضوح على مزاعم امتلاك الحقيقة. ويُنَزلُ آخرون منزلة «الناس العاديين» ويقع تأطير تعليقاتهم باعتبارها «آراء»، وليست حقائق.

ينزع كثير من علماء نفس الخِطاب إلى تجاهل إمكان وجود اختلال في توازن القوة بين الخِطابات المختلفة وأن الناس يمكن

أن تكون لهم منافذ متفاوتة إلى الخِطابات. ونحن نعتقد أن تحليلًا لنظام الخِطاب يمكن أن يكون مجديًا، من خلال تحديد العلاقة بين الخِطابات داخل مجال معين، في أن يفسر سبب اعتماد بعض الناس على بعض الخِطابات بدلًا من غيرها في وضعيات محددة.

وعلى الرغم من أنه غالبًا ما يكون من الملائم للباحثين أن يركزوا على نظام خِطاب واحد في مشاريع البحوث الفردية، فلا ينبغي عليهم أن ينسوا العلاقة بين أنظمة الخِطاب المختلفة. ويشير فركلاف إلى أن التغيير يحصل خصوصًا عندما يتم نقل الخِطابات عبر تقاطعات الخِطابات بين أنظمة الخِطاب، كما في نموذجه الذي قامت فيه الجامعة بتضمين خِطابات مقتبسة من نظام خِطاب السوق. لذلك، فإن كان بحث المرء منحصرًا في نظام خِطاب واحد، فمن المهم أن يكون مطلعًا على الخِطابات التي تصدر عن أنظمة خِطاب أخرى. ويمكن المرء أن يركز بخاصة على من هم الفاعلون الذين ينجزون خِطابات «دخيلة»، وما هي الخِطابات التي تزيحها الخِطاباتُ الجديدة، وما هي تبعات ذلك.

تعيين حدود الخِطاب

لا يزال السؤال عن كيفية تعيين حدود الخِطاب ونظام الخِطاب قائمًا. كيف للباحث أن يقرر أين يتوقف خِطاب ويبدأ خِطاب آخر؟ لقد قدمت المقاربات تعريفات مختلفة إلى حدٍّ ما لمصطلح «الخِطاب»، ولكن كقاسم مشترك، يمكن النظر إلى الخِطابات على أنها تثبيتات للدلالة ترتبط في ما بينها بعلاقات غير مستقرة. الخِطاب

هو طريقة مخصوصة لتمثيل العالم (أو أجزاء من العالم). وعلى أساس هذا التعريف، يمكن القول إن حدود الخِطاب تكون حيث تتمفصل العناصر على نحو لا تعود به متناغمةً مع مفردات الخِطاب، ولكن هذا لا يحل المشكل. إذ يمكن المرء أن يسأل، مثلًا، إن كان من المنطقي أن نتحدث عن «الخِطاب الطبي». وهذا هو الوضع إذا قارنا بينه وبين «خِطاب العلاج البديل»، ولكن عندما يتخذ المرء نظرةً أقرب إلى «الخِطاب الطبي»، فإنه يلاحظ عدة خلافات وصراعات حول إسناد المعنى (في البحوث المنشورة، والممارسات العلاجية وهلم جرًّا). وإذا اتخذ المرء نظرة أكثر قربًا، فإن مادة العمل ستتحلل إلى عدد لا يحصى من خِطابات أكثر صغرًا (راجع Burr, 1995: 175). وإذا اقتصر المرء على تحليل النصوص (ولم يحلل استهلاكها) فإن الإشكال سيتضاعف، لأن كل المقاربات متفقة على أن متقبلي النصوص فاعلون في عملية الاستهلاك، فما كان غير ملتبس لدى أحد القراء ربما اعتبره غيره متناقضًا.

هذا مشكل عملي في البحوث الاختبارية، بما أن المحلل يحتاج لأن ينطلق من فكرة ما عن كيفية تعيين الحد الفاصل بين خِطاب وآخر. ولكنه أيضًا مشكل نظري لم تتمكّن أي من المقاربات من تقديم إجابة واضحة عنه. أحيانًا يبدو كما لو أن أي شيء وفي أي مستوى يمكن أن يكون خِطابًا. مثال ذلك أن فركلاف، في تحليل معين، لا يحدد «الخِطاب العسكري» فحسب، ولكن أيضًا «خِطاب الهجوم العسكري» الذي ينقسم بدوره إلى «خِطاب الهجوم العسكري الرسمي» و«خِطاب الهجوم العسكري الوهمي»

(Fairclough, 1995b: 95). وعلى الرغم من هذا، فإن كل المقاربات تقدم مصطلح «الخِطاب» إن قليلًا أو كثيرًا كما لو أنه يحيل على كيانات يمكن أن تكون فعلًا موجودة في الواقع.

ونحن نقترح أن نتعامل مع الخِطاب إلى حدٍّ أكبر باعتباره مفهومًا تحليليًّا، أي، باعتباره كيانًا يسقطه الباحث على الواقع من أجل إيجاد إطار للدراسة. هذا يعني أن مسألة تعيين الحدود تتحدد استراتيجيًّا بالنسبة إلى أهداف البحث. بذلك تحدد أهداف البحث «الرقعة» التي يقدّرها الباحث بالنسبة إلى المادة، وبالتالي بالنسبة إلى ما تمكن معاملته باعتباره خِطابًا واحدًا. مثال ذلك، أنه إذا كان الباحث مهتمًّا بدراسة الصراع بين الطب المعتمد والعلاج البديل خِطابيًّا، فقد يكون من المنطقي أن يعامل كليهما على أنهما خِطابان، أي على أنهما تثبيتان متجانسان للدلالة. أما إذا كان الباحث مهتمًّا بحقل الطب المعتمد فحسب، فقد يكون منطقيًّا أكثر أن يقسم خِطاب الطب المعتمد إلى خِطابات مختلفة من قبيل «خِطاب الممارسين للطب» و«خِطاب المنظرين للطب».

إن التعامل مع تعيين حدود الخِطابات باعتباره تمرينًا تحليليًّا يستلزم فهمًا للخِطابات على أنها أشياء يبنيها الباحث بدلًا من كونها أشياء توجد على شكل محدد في الواقع، جاهزة لأن يقع تحديدها وتعيينها، ولكن هذا لا يعني أن أي شيء على الإطلاق يمكن أن يوسم بأنه خِطاب. على الباحثين أن يؤسسوا في تقاريرهم معقولية الترسيم الذي قاموا به للحدود. ويمكن تعيين الحدود أن يبدأ بمساعدة الأدبيات الثانوية التي تحدد خِطابات معينة، ولكن العمل

يستمر بالتأكيد في تحليل المواد. وقد يتبين في التحليل أن الخِطابات المتمفصلة مختلفة جدًّا عما كان متوقعًا في الأصل. سنعود في الصفحات 273 ـ 277 إلى المسألة المتعلقة بكيفية توفير سند اختباري لتعيين حدود الخِطابات.

إن نظام خِطاب، متكون من مجموعة من الخِطابات المختلفة، ينشأ في الوقت ذاته وبالطريقة ذاتها التي تنشأ بها الخِطابات. فإذا كان تركيز البحث على العلاقة بين الطب المعتمد والعلاج البديل، فإن «علاج المرض» لا بد من أن يقع اختياره على أنه نظام الخِطاب الذي يَعملُ داخله خِطابا «الطب المعتمد» و«العلاج البديل». وإذا كان الاهتمام، مثلًا، منصبًّا بدلًا من ذلك على كيفية إنتاج الحقائق الطبية داخل علم الطب، فإن «علم الطب» يمكن أن يُستعمل على أنه نظام الخِطاب الذي تتصارع داخله خِطابات مختلفة على احتكار إنتاج الحقيقة.

محتوى الخِطابات

لقد قمنا الآن بتقديم طريقة معينة في تصور الخِطابات وأنظمة الخِطاب من أجل إعمالهما في التحليل الاختباري: نظام الخِطاب هو القاعدة المشتركة للخِطابات المختلفة، والخِطابات هي أنماط الدلالة داخل نظام الخِطاب. وباستعمال هذا الإطار، يمكن الباحث أن يحدد الخِطابات المختلفة، بالتركيز على ما يأتي:

- أبعاد العالم الذي تسند إليه الخِطاباتُ المعنى،
- والطرق المخصوصة التي يسند بها كل واحد من الخِطابات المعنى،

• والنقاط التي يدور حولها صراع مفتوح بين التمثيلات المختلفة،
• وأي من الأفهام المطبعنة (naturalised) في كل الخِطابات على أنها من قبيل الحس المشترك.

داخل هذا الإطار، يمكن أن يقع تأكيد التغير الخِطابي عبر الزمن (كما هو شأن أعمال فركلاف)، أو ـ كما هو الشأن في مقاربات علم نفس الخِطاب ـ على الكيفية التي يستعمل بها الناس الموارد الخِطابية بلاغيًّا في التفاعل الاجتماعي.

إن محتوى الخِطابات يخضع، طبعًا، إلى طبيعة الخِطابات قيد الدراسة. لكن الهدف يتمثل أساسًا في معرفة الكيفية التي يُسند بها معنى إلى العالم (أو جوانب منه) على نحو خِطابي وما هي التبعات الاجتماعية التي تترتب على ذلك. وتتمثل نقطة الانطلاق في أن الخِطابات، من خلال تمثيلها الواقع بطريقة واحدة بعينها بدلًا من طرائق أخرى ممكنة، تشكل الذوات والموضوعات بطرائق معينة، وتنشئ حدودًا بين الصادق والكاذب، وتجعل بعض الأنواع من الأفعال مناسِبًا وغيرها غير قابل للتصور. إنه بهذا المعنى يكون الخِطاب مشكّلًا للاجتماعي. وعلى الرغم من أن فركلاف يعتبر أن الخِطابات تعمل بالاشتراك مع قوى أخرى محركة على تشكيل الاجتماعي، في حين لا تميز مقاربات أخرى بين الخِطابي وغير الخِطابي، فإن كل المقاربات تتفق على أن الأوصاف الخِطابية للعالم مهمة ولها تبعات اجتماعية.

إن علماء نفس الخِطاب الأكثر تأثرًا بتحليل المحادثة ليسوا مهتمين بشكل خاص بتحليل الكيفية التي تَبْني بها بعض الخِطابات

المتداولة في المجتمع الذواتِ والموضوعاتِ بطرائق معينة وتعمل بالتالي على تشكيل صيغ معينة من التنظيم الاجتماعي. وتُعامل الخِطابات على أنها مواردُ متاحةٌ بحرية للاستعمال من جهة الناس في بناء الهويات بـدلًا من كونها قيودًا على بناء الهوية مترسبة اجتماعيًّا. ولا تُقَدرُ كذلك الاختلافات بين المجموعات الاجتماعية بالنظر إلى النفاذ إلى الخِطابات حق قدرها. ولكي تُؤخَذَ القيودُ الخِطابية على تشكيل الهوية في التحليل بعين الاعتبار، فإنه من الضروري أن يقوم المرء بالجمع بين هذه المقاربة ومقاربات أخرى تَمنح التشكيل الخِطابي للاجتماعي وتبعاتِه مقدارًا أكبر من الاعتبار، كما هو الأمـر في نظرية لاكـلاو ومـوف للخِطاب أو في التحليل النقدي للخِطاب.

إذا اتخذ المرء، كما اقترحنا، من نظام الخِطاب نقطة انطلاق له بدلًا من خِطاب واحد، فإن التفاعل بين الخِطابات داخل نظام الخِطاب يغدو نقطة تركيز مهمة في التحليل. وتتمثل ميزة من ميزات هذا التفاعل في أن الآثـار الاجتماعية تغدو أكثر وضوحًا: عندما يقدم خِطابان أو أكثر من المجال نفسه أفهامًا مختلفة للعالم، يتسنى للباحث أن يـدأ التساؤل عن التبعات الممكن أن تترتب لو وقع القبول بفهم من الأفهام بدلًا من الآخر.

تمثلت نقطة مركزية في هذا الكتاب في تشكل الذوات والهويات باعتباره بعدًا من أبعاد تشكل الواقع في الخِطابات. وقد أشار فركلاف إلى ذلك باعتباره بُعدًا جديرًا بالدرس (Fairclough, 1992b:

(chap. 7، لكن، بالمقارنة مع المقاربات الأخرى، نعتقد أن التحليل النقدي للخِطاب يمتلك الفهم الأقل تطورًا للذات والهوية. إن مفهوم الذوات والهويات المعتمد في علم نفس الخِطاب شبيه جدًّا بذلك المعتمد في نظرية لاكلاو وموف للخِطاب، فكلاهما يستند إلى النظرية ما بعد البنيوية. والفرق بين المقاربتين بهذا الاعتبار يكمن إلى حدٍّ كبير في مركز التحليل فيهما، وهذا فرقٌ مهم: علم نفس الخِطاب يقدم مساهمةً خاصةً في المستوى الاختباري لفهم الذات على أنها فاعل في عمليات الخِطاب النشطة خلال التفاعل الاجتماعي، ونظرية الخِطاب تكون قويةً من الناحية النظرية عندما يتعلق الأمر بتحليل تشكل المجموعة والهوية الجماعية.

إذا كان الإطار التحليلي الذي تم اختياره هو نظرية فركلاف، فربما كان ذلك مفيدًا في إدماج المقاربات الأخرى المتصلة بمسألة تشكيل الآراء، والذات، والمجموعات. إذ بوسعها توفير أدوات مجدية لتسليط الضوء على الروابط بين التطورات الثقافية والاجتماعية الأوسع نطاقًا من جهة وآراء الأفراد والجماعات وأفعالها من جهة أخرى.

أدوات التحليل

يمكن استقصاء محتوى الخِطابات باستعمال عدد من الأدوات المختلفة. وقد عرضنا في الفصول الثلاثة السابقة بعض الأدوات التي وفرتها المقاربات الثلاث، ففركلاف يؤيد تحليلًا لسانيًّا نسقيًّا، وباستعمال صندوق أدواته، سيكون من الممكن دائمًا

إيجاد طريقة للبدء في التحليل، ويمكن التعرف إلى كثيرٍ من السمات في النصوص لا تمكن ملاحظتها في قراءة عادية. إضافةً إلى ذلك، ومن خلال التحليل اللساني النسقي، يمكن الباحثين أن يوفروا دعمًا قويًّا لمزاعمهم حول النصوص، ويمكنهم أن يوثقوا الكيفية التي توصلوا بها إلى نتائج التحليل. والنقطة الأخيرة بخاصة، مهمة: فخلال تقديم التحليل، لا بد للباحث من أن يتأكد أنَّ بوسع القارئ متابعة المراحل المقررة للتوصل إلى النتائج، وهو ما يتيح للقارئ إمكان القيام بتقويمه الخاص. ويمكن توفير الحجج والتوثيق أيضًا من خلال المناهج غير اللسانية، مثال ذلك أن علم نفس الخِطاب يعتمد على تحليل المحادثة والبلاغة في التحليل النصي.

ومن بين المقاربات التي وقع تقديمها، توفر نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف أقل عددٍ من أدوات التحليل. لذلك، وفي بعض الحالات، قد يكون من المستحسن البدء بلسانيات فركلاف أو بالمنهج البلاغي لعلم نفس الخِطاب أو الجمع بين واحد منهما (أو كليهما) ونظرية الخِطاب. وعيب منهج فركلاف يتمثل في أنه، مع مستوى التفصيل الذي يتطلبه، لا يوجد وقت غالبًا إلا لتحليل عدد قليل من النصوص. ونتيجة ذلك، فإن المنهج يتطلب أن يقوم الباحث بانتقاء استراتيجي للنصوص المزمع تحليلها. ولكي يكون المرء قادرًا على القيام بانتقاء استراتيجي، فإن النصوص وأنظمة الخِطاب المرشحة تحتاج إلى أن يقع تحديدها خلال مسح أولي للنصوص المناسبة، بما في ذلك البحوث الموجودة حول الموضوع.

لكن لا يتصور جميع الناس تحليل الخِطاب باعتباره مشتملًا على معالجة شديدة التفصيل لعدد قليل جدًّا من النصوص فحسب. بعض محللي الخِطاب يعملون على عدد أكبر من النصوص، ولكن، للأسف، فإنهم نادرًا ما يقدمون وصفًا للأدوات التي استعملوها في التحليل. وللحصول على انطباع عن الشكل الذي يمكن أن تتخذه دراسة من هذا القبيل وللحصول على أفكار عن المشاريع البحثية التي يمكن أن ينجزها المرء بمفرده، فإنه من الضروري أن يقرأ نماذج من الدراسات الأخرى، مثل الأعمال الاختبارية للاكلاو وموف (Laclau and Mouffe, 1985: chap. 4) وفوكو (مثل: 1973، 1977، 1979).

قدمنا في الفصول السابقة، نماذج عن كيفية تحليل المضامين الخِطابية المختلفة باعتماد الأدوات التي توفرها المقاربات المختلفة. وفي الختام، فإننا ننظر الآن في الكيفية التي تُستعمل بها الأدوات كذلك لتوفير السند الاختباري للخِطابات وأنظمة الخِطاب التي يبنيها الباحث. زعمنا سابقًا في الصفحتين 267 و268 أن الخِطاب ليس شيئًا يجده الباحث في الواقع، وبدلًا من ذلك، فإنه يتم بناؤه بشكل تحليلي من نقطة انطلاق في أسئلة البحث. ومن الضروري دائمًا للمرء أن يبرر إفراده خِطابًا معينًا وتعيينه حدوده، والأمر نفسه ينطبق على أنظمة الخِطاب التي يقوم المرء ببنائها.

في الفصل الرابع عايَنا مشكلًا في علم نفس الخِطاب لدى بوتر وويذيريل على صلة بهذه القضية، فهما لم يوفرا، في نظرنا، ما

يكفي من السند الاختباري «للمخزونات التأويلية» (أو الخِطابات) التي يزعمان أن الناس يعتمدونها. ويمكن استعمال أدوات فركلاف لإصلاح هذا الخلل. ووفقًا لفركلاف، فإن المحتوى (على سبيل المثال، الكيفية التي تُبنى بها ثقافة الماوريين باعتبارها علاجًا) لا يمكن تحليله من دون تحليل الشكل اللغوي (المعجم، البنية النحوية، الاستعارات... إلخ). والسبب هو أن المحتوى يتم تنظيمه دائمًا في أشكال معينة، وأن الشكل أيضًا جزء من المحتوى (Fairclough, 1992b). وللتدليل على الشكل اللغوي الذي تتخذه مخزونات معينة، يمكن استعراض المناهج التي يقترحها فركلاف للتحليل النصي. وعلى الرغم من تشديد تحليل ويذيريل وبوتر للخِطاب على ما يفعله الناس بلغتهم المنطوقة والمكتوبة وبمخزوناتهم التأويلية أو خِطاباتهم، فإنهما لم يقوما بتحليل مُفَصل للكيفية التي يتم بها إنتاجْ الخِطابات وإعادةُ إنتاجها وتحويلُها من خلال سمات لغوية معينة. وعلى النقيض من ذلك، يُبينُ نموذج فركلاف لإعلانات الوظائف الجامعية، الذي لخصناه وناقشناه في الفصل الثالث، كيف يمكن تمييز الخِطابات على أساس مظهرها اللغوي.

يعتبر مفهوم «الـدال المتغير» الـذي وقـع تطويره في نظرية الخِطاب للاكلاو وموف أداةً مجدية في الكشف عن نظام من أنظمة الخِطاب وتوثيقه: الدوالّ المتغيرة التي يقوم فاعلون مختلفون بملئها بمحتويات مختلفة يمكن النظر إليها على أنها مؤشرات على أنظمه الخِطابات. مثال ذلك، أن الدال المتغير «الديموقراطية» يمكن أن يشير إلى نظام خِطاب في خِطابات سياسية (هنا تفهم السياسة بمعناها

الضيق)، تحاول خِطابات مختلفة ضمنه أن تُعرف «الديموقراطيةَ» بطريقة معينة خاصة بها. أن يكون الدال متغيرًا، فذلك يشير إلى أن خِطابًا ما لم يفلح في تثبيت مدلوله، وأن خِطابات أخرى تُصارع من أجل الاستيلاء عليه. الخِطابات المعنية وعلاقات بعضها ببعض هي، إجمالًا، ما يُشكلُ نظام الخِطاب.

استراتيجيات التحليل

تحتوي المقاربات الثلاث التي قدمناها على كتلة من المفاهيم التي يمكن استعمالها، إما على نحو مباشر وإما من خلال إعمالها، في كل مراحل البحث الاختباري انطلاقًا من صوغ أسئلة البحث وصولًا إلى إنتاج المواد وتحليلها(89). وفي ما يتعلق بتحليل المواد، يمكن أن يكون من العسير معرفة من أين نبدأ وما هي الأدوات التي يمكن أن تكون مجدية في التطبيق. ولا يمكن التقليل من المشكل، إذا وقع الجمع -على ما أوصينا به- بين مقاربات مختلفة في محاولة للاستفادة من العديد من نقاط القوة في المقاربات عند التحليل. ففي تحليل معين، قد يكون مشكل من المشاكل يتمثل في نقطة البداية وما هي الأدوات التي سننتقيها. في هذا القسم نقدم أربع استراتيجيات يمكن استعمالها عبر كل المقاربات لتوفير فهم شامل للمواد وتحديد نقاط التركيز للمزيد من الاستقصاء.

من المؤمل أن تكون طبيعة مركز التحليل تحددت مبدئيًا في صياغة أولية لأسئلة البحث، لكن الاستراتيجيات يمكنها أن تساعد

---

(89) نعتمد في هذا القسم على: (Jørgensen, 2001).

طوال التحليل في تفعيل هذه الأسئلة وتحديدها. في المرحلة الأولى من التحليل، يمكن استعمال الاستراتيجيات للحصول على انطباع عام أولي عن نص مفرد أو مدونة من النصوص ولإقامة فرضيات تحتاج إلى استقصاء أكثر تفصيلًا. وفي المراحل اللاحقة من التحليل، يمكن الاستراتيجيات أن تساعد الباحث في طرح الأسئلة الأكثر تحديدًا ودقةً عن «المواد- الأسئلة» التي يمكن أن تُبحث بدورها باستعمال أدوات أكثر تحديدًا في تحليل الخِطاب بالانطلاق من أي مقاربة من المقاربات. وكمثال يوضح الاستراتيجيات نستعمل النصوص المذكورة في المثال 1.2 في الفصل الثاني (الرسالة الموجهة إلى صفحة المشاكل في إحدى المجلات ورَدّ مُحررة صفحة المعذبين).

المقارنة

أبسط الطرائق لبناء انطباع عن طبيعة نص ما هي مقارنته بنصوص أخرى. وتقوم استراتيجية المقارنة من الناحية النظرية على النقطة البنيوية المتمثلة في أن الملفوظ يكتسب مدلوله دائمًا من كونه مختلفًا عن شيء آخر وقع قوله أو كان يمكن أن يقال. وبتطبيق هذه الاستراتيجية، يطرح الباحث الأسئلة الآتية: ما هي النواحي التي تجعل النص موضوع الدراسة مختلفًا عن النصوص الأخرى؟ وما هي تبعات ذلك؟ ما هو الفهم المسلّم به للعالم؟ وما هي الأفهام غير المعترف بها؟

مثل هذه الأسئلة يمكن أن تُعالَج من خلال المقارنة مع نصوص أخرى في الموضوع ذاته أو نصوص في موضوعات مختلفة موجهة

إلى الجمهور نفسه. والمقارنة استراتيجيةٌ مناسبة تمامًا لتسهيل العملية التي يتخذ بها المحللون مسافةً بينهم وبين موادهم. وعملية اتخاذ المسافة مهمة، بما أن هدفًا من أهداف تحليل الخِطاب يتمثل في تحديد الافتراضات المطبعنة والمسلّم بها في المواد الاختبارية، وهذا يكون صعبًا إذا كان المرء نفسه يشارك في تلك الافتراضات. إن المقارنة مع المواقف المختلفة الجذرية يمكن أن تساعد الباحث على التعرف إلى الطبيعة المحتملة المرتبطة بالثقافة لأبعاد النصوص في طور التحليل[90]. وبذلك، فإن مقارنة النص المُحَلل بممكنات أخرى موجودة هي المرحلة الأولى باتجاه الوصول إلى وصف أكثر دقة للطرائق المخصوصة التي يُنتج بها النص الدلالة.

لنقل مثلًا، إن المركز الاختباري هو «أعمدة الاستشارات في المجلات» وأن محورَ الاهتمام هو الطرائقُ التي يكوّنُ بها عمودُ الاستشارات في مجلة نسائية الهويات والعلاقات الاجتماعية للكتاب والقراء. وتتمثل طريقة من طرائق الابتداء في تحديد طبيعة الهويات التي تُبنى في أعمدة الاستشارات في مقارنة الرسالة (المثال 1.2) برسائل أخرى يتوقع المرء أنها تعبر عن هويات أخرى وتُنشئها، مثل الرسائل الموجهة إلى المحرر التي يعلن فيها القراء عن آرائهم بدلًا من طلب المشورة. أو أنها تمكن مقارنتها بأنماط أخرى من النصوص تُطلب فيها المشورة -كما في تدوينات الاستشارات الطبية التي يقدمها الأطباء للمرضى- من أجل أن يقع الاقتراب من وصف

(90) انظر الفصل السادس لمناقشة أكثر تفصيلًا لكيفية كشف الافتراضات المطبعنة المقبولة على نطاق واسع.

الطرائق المخصوصة التي تُشكلُ بها الوسائطُ المطبوعةُ للمجلات النسائية الهوياتِ التي يمكن أن يتبناها «المستشارُ» و«الزبون».

الاستبدال

الاستبدال هو شكل من أشكال المقارنة يقوم فيه المحلل بنفسه بإنشاء النص بغاية المقارنة. ويشمل الاستبدال تعويض كلمة بكلمة أخرى، وهو ما يعطي صيغتين للنص تمكن مقارنة إحداهما بالأخرى، بهذه الطريقة يمكن تثبيت مدلول الكلمة الأصلية (انظر van Leeuwen, 1993). عندما تقول «الشقيّة» في المثال 1.2 إنها «تخلت» عن حياتها في الجماعة الدينية، فكيف يؤثر لفظ «تخلت» في معنى الجملة؟ فقد كان بوسعها أن تقول بدلًا من ذلك إنها «غادرت» جماعتها الدينية. وهو ما كان سينطوي على درجة أكبر من حرية الاختيار في اتخاذ القرار، وإلا فقد كان بوسعها أن تقول إنها «اضطرت إلى أن تغادر» الجماعة الدينية، وهو ما كان سينطوي على درجة أكبر من القوة. بفضل مقارنات من هذا القبيل، يمكن أن تتشكل على نحو تدرُّجي صورةٌ عن الكيفية التي ينشئ بها النص هويتها بالنسبة إلى العالم من حولها بما في ذلك القرارات التي تبنيها على أنها اتخذت بإرادتها، وتلك التي تبنيها على أنها خارجة على إرادتها.

يعتمد الاستبدال بالاشتراك مع استراتيجية المقارنة، على النقطة البنيوية المتمثلة في أن الكلمات تكتسب مدلولاتها من كونها مختلفه عن الكلمات الأخرى. واختيار كلمة واحدة بعينها يستتبع عدم اختيار مجموعة من الكلمات الأخرى، ومن خلال هذه العملية تكتسب

النصوص دلالاتها المميزة. عندما يطبق المرء استراتيجية الاستبدال، فهو ينتقل في الاتجاه المعاكس: من خلال إدراج بعض الكلمات التي لم يتم اختيارها في النص، فإن المرء يكتسب فكرةً عن الكيفية التي تُغَيِرُ بها دلالة النص، وبذلك -ومن الباب الخلفي كما يقال- يكتسب المرء فكرةً عن الكيفية التي تُوجِدُ بها الكلماتُ المُختارة بالفعل معانيَ معينةً في النص.

في حالة النص الطويل، يمكن استبدال كلمة واحدة طوال النص من أجل ملاحظة الكيفية التي تُغير بها دلالةَ النص كلًّا. ولكن الجوانب النصية الأخرى المختلفة عن الكلمات المفردة يمكن أن تكون أيضًا موضوعًا للاستبدال. مثال ذلك، أن جنس المتقبل المتوقع للنص يمكن استبداله من أجل الحصول على فهم للمدلولات المخصوصة التي تنتجها هذه السمات.

تضخيم التفصيل

تضخيم التفصيل يشمل تضخيم تفصيل نصي معين بشكل غير متناسب. فيمكن المحلل أن يحدد سمةً نصيةً تبدو طريفةً أو دالّة، ولكن بما أن الأمر يتعلق بسمة واحدة معزولة، فإنه لا يعرف ما هي دلالتها أو كيف تتعلق بالنص في كليته. ولاستقصاء دلالة هذه السمة، يمكن المرء أن يفرط في تضخيمها، ثم يتساءل عن الشروط الضرورية من أجل أن يكون للسمة مدلول (انظر: Knudsen, 1989: 43) وإلى أي حدٍّ من التأويل الشامل للنص تكون السمة مناسبة. غالبًا ما تقع سمات مهمة في نقاط من النص يتعطل فيها

التواصل (انظر نقاط التأزم في الفصل الرابع)، لكن السمات الأخرى يمكن أن تخضع أيضًا للتضخيم.

في حالة رسائل صفحة المشاكل، يستعمل كلٌّ من القارئ ومقدم المشورة مصطلحات متصلة بالمشاكل النفسية (العلاج، الدونية، العُقَد). ويمكن تضخيم هذا التفصيل ليُشكل فرضيةً هي أن صفحات المشاكل في المجلات النسائية تنزع إلى جعل كل المشاكل نفسانية. فإذا كان المرء يمتلك مدونة من مواد صفحات المشاكل أكثرَ اتساعًا، فيمكنه البدء في قراءة النصوص الأخرى من أجل أن يحدد ما هي العناصر، إن وجدت، التي تدعم هذا التأويل وما هي السمات التي تتضارب معه. ومن الممكن جدًّا أن يكتشف أن بعض المشاكل لم يقع بناؤها باعتبارها مشاكل نفسية، ولكن باعتبارها مالية أو اجتماعية أو باعتبارها شيئًا آخر مختلفًا تمامًا. إذا كان الأمر كذلك، فإن التأويل الأصلي للمواد يحتاج إلى أن يقع تدقيقه عبر طرح الأسئلة الآتية: هل يمكن تعديل الفرضية لكي تأخذ بعين الاعتبار هذه العناصر الإضافية؟ هل تمتلك العناصر غير المتماشية مع الفرضية أي سمات مشتركة؟ وربما خضعت بعض الأجزاء من النص لمنطق واحد والأجزاء الأخرى لمنطق آخر. مثل هذه الأسئلة يمكن تدقيقها من خلال استعمال الاستراتيجية الرابعة والأخيرة: تعدد الأصوات.

تعدد الأصوات

تقوم استراتيجية تعدد الأصوات على تحديد أصوات مختلفة وأنواع مختلفة من منطق الخِطاب في النص. وتتأسس الاستراتيجية

على فرضية تحليل الخِطاب المتعلقة بالتناص، وهي الفرضية المتمثلة في أن كل الأقوال لا مناص لها من الاعتماد على أقوال سابقة أو تضمينها أو الاعتراض عليها (انظر الفصل الثالث). ويشمل التناص دائمًا إعادة إنتاج أصوات مختلفة أو تحويلها إلى تمفصلات جديدة، وإنتاج نصوص متعددة الأصوات. من ثم، لكي نبدي ملاحظةً بسيطة، فكون النص متعدد الأصوات ليس مهمًّا جدًّا في ذاته، بل إن هدف الاستراتيجية هو استعمال تعدد الأصوات لتوليد أسئلة جديدة تطرح على النص: ما الذي يميز الأصوات المختلفة في النص؟ أين يتكلم كل صوت من الأصوات؟ ما هي المعاني التي تساهم الأصوات المختلفة في إنتاجها؟

بالعودة إلى نموذج النصوص المقتبس من صفحة المشاكل، فإن استراتيجية تعدد الأصوات يمكن استعمالها للبناء على نتائج تضخيم التفصيل. وينصب التركيز على أسئلة من قبيل ما يلي: أين يقع دمج أسئلة طالب المشورة في خِطاب المشاكل النفسية وأين تُطبق الأطر التفسيرية الأخرى؟ كيف يُقام الحد بين المشاكل التي يستطيع الفرد العادي أن يتعامل معها والمشاكل التي تتطلب خبرة نفسية، وكيف يُبنى طالب النصيحة باعتباره شخصًا، هو في بعض السياقات فاعل حرٌّ مسؤول عن حياته الخاصة، وفي سياقات أخرى ضحية للظروف؟

من الاستراتيجيات إلى مزيد من التحليل

في تحليل نص واحد أو مدونة من النصوص ينبغي للمحلل غالبًا أن يختبر عددًا واسعًا من الفرضيات قبل أن يتوصل إلى تأويل

نهائي للمواد. وفي أفضل الأحوال، فإن اختبار الفرضية الأولى يعطي نتائج غير حاسمة: بعض الجوانب تكون مطابقة ولكن لا تزال هناك سمات نصية تشير إلى اتجاهات أخرى ويبقى المرء يتملكه شعور بأن الفرضية لا تمكنها الإحاطة بالسمات الأساسية للمواد. لذا يكون على المرء أن يحاول مجددًا.

كان الترتيب الذي قدمنا به الاستراتيجيات الأربع اعتباطيًا. فالتحليل يمكن أن يبدأ بأي واحدة من الاستراتيجيات، وبوسع المحلل الانتقال ذهابًا وإيابًا من واحدة إلى أخرى وليس من الضروري استعمالها جميعًا. والغرض من الاستراتيجيات هو في الوقت ذاته تطوير فهمٍ شامل للمواد وتقديم أفكارٍ أكثر تحديدًا حول طريقة تطبيق الأدوات الخاصة بمقاربة تحليل الخِطاب أو المقاربات المستعملة. وعندما تؤدي استراتيجية تعدد الأصوات (انظر ص 282-283)، على سبيل المثال، إلى اعتبارات حول اتخاذ القُراء موقع الفاعل أو الضحية داخل الأطر التفسيرية المختلفة، فإنه تمكن مواصلة هذا المسار باستعمال واحدة أو أكثر من المقاربات لتحليل الخِطاب، عبر تطبيق أدواتها المخصوصة من أجل مزيد استقصاء هذا البعد من أبعاد النص. في نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف التي قمنا بتطبيقها على صفحة المشاكل في الفصل الثاني، يكون التركيز على بناء مختلف الهويات داخل الخِطابات المختلفة، مع تحليل العلاقات التي يحتمل أن تكون عدائية بين الهويات المختلفة كما في المثال المقتبس من صفحة المشاكل. في التحليل النقدي للخِطاب، يمكن أن يدرس التموقع في مستوى الممارسة الخِطابية

من خلال العلاقات بين الخِطابات المختلفة التي تبني تفسيرات مخصوصة للعالم وللهويات. وفي مستوى النص، يمكن التحليل النقدي للخِطاب أن يلقي الضوء على الطبيعة الخِطابية للأطر التفسيرية والهويات من خلال تحليل التعدية في النص، فالتركيز على التعدية يوفر رؤيةً لكيفية ترابط الذوات مع (أو انفصالها عن) الموضوعات أو العمليات. وفي علم نفس الخِطاب، يمكن اكتساب نظرة إلى التموقع من خلال تحليل الطرائق التي يقوم بها الناس، من خلال موقعة ذواتهم وموقعتهم من طرف الآخرين، بالبناء والتفاوض والاعتراض على مختلف الأوصاف التي تمثل أفهامًا مختلفة للعالم، بما في ذلك تحميل المسؤوليات المختلفة عن الأفعال والحوادث. ونحن نوضح الصيغ الثلاث المختلفة للتحليل النصي عند تقديمنا تطبيق الإطار البحثي المتعدّد المنظورات المؤسس على المقاربات الثلاث جميعها في القسم التالي من هذا الفصل.

يمكن النظر إلى التحليل، إذًا، على أنه عملية دائرية، تتضمن التفاعل بين الفهم الشامل للمواد والتحليل الدقيق للأبعاد المنتخبة للمواد باستعمال أدوات محددة لتحليل الخِطاب. وينبغي للاستراتيجيات أن تساعد في إقامة الفهم الشامل والإشارة إلى الأدوات المناسبة، وتُستعمل الأدوات المحددة لمزيد الاستقصاء الذي قد يؤدي بدوره إلى إدخال تعديلات على الفهم الشامل.

من المهم أن يلج المرء إلى عملية التأويل بطريقة تُمكنُ المواد من «المقاومة». وباستعمال مصطلح «فرضيات» للتأويلات الأولية،

سعينا للإشارة إلى أن الأسئلة التي يطرحها المرء عن المواد الاختبارية لا بد من أن تُطرح بأكبر مقدار ممكن من الدقة لمعرفة إن كان التأويل لن يتحمل ذلك. وبالنتيجة، فإننا نناى بأنفسنا على حد سواء عن اختبارية تزعم أن المواد الاختبارية ذاتها توفر تأويلها الخاص بها ولا تعترف بأن التأويل هو دائمًا إعادة بناء للمواد، وعن نزعة إلى تقديم تأويلات عامة وجذرية بحيث نشك في أن الإجابة وقع تقريرها سلفًا.

يمكن أن ننظر إلى التحليل باعتباره حركةً دائرية بين فهم شامل وتحليل نصي أكثر قربًا، وهذا يفترض السؤال عن الوقت الذي نخرج فيه من الدائرة، ونقرر أن التأويل نهائي. ونحن نعود إلى هذا المشكل في نهاية هذا الفصل.

بحث متعدد المنظورات

أشرنا سابقًا في هذا الفصل إلى مجموعة من نقاط القوة والضعف في مختلف مقاربات تحليل الخِطاب بشكل عام، وحددنا المجالات التي يمكن أن يكون الجمع فيها بين مكونات المقاربات المختلفة لتحليل الخِطاب مُجديًا. وهذا الجمع يمثل شكلًا من أشكال العمل المتعدد المنظورات في ذاته، لأن كل مقاربة تمثل منظورًا متميزًا يُنتِج فهمًا مخصوصًا للظاهرة المدروسة. وبدلًا من الاعتماد على مقاربات مختلفة لتحليل الخِطاب، فإن الأكثر شيوعًا لدى محللي الخِطاب غالبًا هو استعمال مقاربة واحدة في تحليل الخِطاب وتطعيمها بنظريات ليست لتحليل الخِطاب حول الظاهرة الاجتماعية

المحددة قيد الدراسة، مثال ذلك، النظريات حول العولمة، أو القومية، أو المنظمات، أو الإعلام. ومن خلال الجمع بين مقاربات مختلفة ـ سواء أكان ذلك بين مقاربات مختلفة لتحليل الخِطاب أم بين مقاربات في تحليل الخِطاب ومقاربات ليست لتحليل الخِطاب ـ لتكوين إطار للعمل متعدد المنظورات، يمكن البحث أن يسلط الضوء على الظاهرة من زوايا مختلفة، وبالتالي يزيد تقديره تعقيد الظاهرة. لكن المشكل المركزي يكمن في كيفية الجمع بين مقاربات قائمة على فرضيات أنطولوجية وإبستيمولوجية مختلفة وأحيانًا متباينة. نحن نعتقد أنه من الضروري أن يقع ربط المقاربات المختلفة بعضها ببعض، محددين أشكال المعرفة (الموضعية) التي تنتجها كل مقاربة، ومترجمين المقاربات التي ليست لتحليل الخِطاب إلى مصطلحات تحليل الخِطاب، من أجل التأكد من أن تكون الفرضيات الفلسفية والنظريات والمناهج منسجمة.

سنناقش أولًا ما نعتبره قضايا محورية متصلة ببناء نوع إطار العمل المتعدّد المنظورات القائم على كل من مختلف مقاربات تحليل الخِطاب ومختلف المقاربات التي ليست لتحليل الخِطاب. والقضايا الأساسية المطروحة هي مسائل المنظورية (perspectivism)، والملاءمة، والترجمة. ثم نقدم شرحًا اختباريًّا، مركزًا على كيفية بناء إطار عمل لتحليل الخِطاب قائم على مختلف مقاربات تحليل الخِطاب، وكيفية استقدام مختلف المقاربات التي ليست لتحليل الخِطاب إلى هذا الإطار وكيفية تطبيق إطار العمل المتعدّد المنظورات الناتج في التحليل النصي للمواد الاختبارية.

وفي ما يتعلق ببناء إطار للعمل متعدد المنظورات، فإنه يتم تعليل إدماج كل مقاربة على أساس المعرفة التي يمكن أن ينتجها كل من المقاربات حول الظاهرة قيد الدراسة. والتطبيق المشترك للمقاربات في التحليل النصي يستهدف كلًّا من شرحِ شكل المعرفة المخصوص الذي تساهم به كل مقاربة ومن تفسيرِ قوة إطار العمل المتعدّد المنظورات ككل باعتباره منهجيةً في البحث الاجتماعي على حدٍّ سواء.

الجمع بين المقاربات المختلفة: قضايا أساسية

من المهم عند إجراء بحوث تحليل الخِطاب، أن نتقيد بفرضية البنائية الاجتماعية وهي أن موضوع البحث في ذاته لا يحدد الخيارات النظرية والمنهجية المعتمدة. فالبحث لا يعكس الواقع على هذا النحو. وبدلًا من ذلك، فإن إطار العمل الفلسفي والنظري يساهم في بناء حقل الدراسة بطريقة ما، ومختلف المقاربات تتصور الحقل «نفسه» بذلك على نحو مختلف، مركزةً على بعض الجوانب ومتجاهِلَةً أخرى. إن إطار العمل في تحليل الخِطاب، من ثمّ، يجب أن يتأسس على حوار مع حقل الدراسة، حيث يتعرفُ المحلل إلى الكيفية التي أنشأ بها إطارُ العمل الموضوعَ ويفسرُها، والعكس بالعكس، ويوضحُ الطبيعةَ المحتملة للمعرفة الناتجة. ومن المهم في هذه العملية، أن نضمن اندماج الفرضيات الفلسفية، والنظرية، والمنهج بعضها مع بعض، أي أن تُشَكل مجتمعةً حزمة كاملة، إذا استعملنا العبارة التي قدمناها في الفصل الأول.

نقطة البداية بالنسبة إلينا هي أن الجمع بين نظريات ومناهج مختلفة، مُشَكلَةً إطـارًا للعمل البحثي مُتَعَددَ المنظورات، ملائمٌ جدًّا ـباعتباره منهجيةً ـ للتحليل البنائي الاجتماعي للخِطاب في جزء منه بسبب **المنظورية** البنائية الكامنة فيه. فإذا كانت المعرفة لا يمكن الحصول عليها إلا من منظورات محددة، فإن المنظورات المختلفة تنتج أشكالًا مختلفة من المعرفة المحتملة المقيدة بالسياق بدلًا من المعرفة الكونية القائمة على أسس محايدة متحررة من السياق. وعند الجمع بينها، فإن الأشكال المختلفة للمعرفة لا تنتج فهمًا كونيًّا، ولكن فهمًا أشمل وإن يكن ظرفيًّا. ويتمثل أساس آخر من أسس البحث المتعدّد المنظورات في أنه يلائم البحث النقديَّ، بما أن المنظورات المختلفة تبين أن العالم الاجتماعي يمكن فهمه وبناؤه بطرائق مختلفة، مما يدل على أن الأشياء يمكن أن تكون مختلفة، ويُفسِحُ المجال لإمكان التغيير الاجتماعي. فالعمل المتعدّد المنظورات الذي يجمع بين تحليل الخِطاب ونظريات اجتماعية أخرى، هو أمر شائع بين محللي الخِطاب، كما أشرنا سابقًا.

وبينما ينتشر استعمال المقاربات التي ليست لتحليل الخِطاب جنبًا إلى جنب مع تحليل الخِطاب على نطاق واسع، فإنه يوجد نزوع قوي إلى تجاهل، أو في الأقل الحد من الآثار الإبستيمولوجية والنظرية والمنهجية لدمج النظريات التي ليست لتحليل الخِطاب ضمن إطـار تحليل الخِطاب. ويتمثل أحد الاستثناءات من ذلك في عمل تشولياراكي وفركلاف (Chouliaraki and Fairclough, 1999) اللذين يتَقَصيان طـرائـق نظريةً يتلاقح فيها التحليل

الاجتماعي من غير مجال تحليل الخِطاب مع تحليل الخِطاب، ويدافعان عن استعمال عدد من النظريات من أنواع مختلفة ضمن إطار التحليل النقدي للخِطاب، بشرط أن يكون المنظور الشامل نقديًّا. وفي ما يتعلق بالدراسات الاختبارية المحددة، فإنه يوجد نسبيًّا قلة من محللي الخِطاب ممن يعالجون مسألة الملاءمة عندما يصفون استعمالهم المقاربات القائمة على فرضيات فلسفية مختلفة.

ونحن نساند تحليلًا متعدد المنظورات للخِطاب يأخذ بعين الاعتبار المشاكلَ التي ينطوي عليها الجمعُ بين مقاربات مختلفة لتحليل الخِطاب واستقدامُ مقاربات ليست من تحليل الخِطاب. وموقفنا هو أنه من المهم أن يؤيد محللو الخِطاب مبدأ أساسيًّا للبحث المتعدّد المنظورات، كما أشرنا في الفصل الأول: وهو أن لا يقوم على خليط غير متجانس من المقاربات المتباينة من دون تقدير جدّي لعلاقات بعضها ببعضها الآخر (كما في أنواع عديدة من المقاربات الانتقائية). وبدلًا من ذلك، فإن تعدد المنظورات يتطلب من المرء أن يُوازن المقاربات بعضها ببعضها الآخر بالنظر إلى الفرضيات الفلسفية، والطروحات النظرية، والمنهجية، والمنهج، مُحَددًا نوع المعرفة المحتملة التي يمكن أن تضيفها كل مقاربة، ومُعدلًا المقاربات في ضوء هذه الاعتبارات. إنه من خلال تحديد فرضياتها الفردية والمقارنة بينها فحسب يمكننا أن نحدد طبيعة المعرفة الممكنة بدقة، وما تستطيع كل مقاربة القيام به وما لا تستطيع. فمن خلال تحديد ما تستطيع مقاربة ما أن تفعل، فإننا نوضح لأنفسنا

لماذا يمكن استعمالها، ونبرر إدراجها أيضًا، ومن خلال تحديد ما لا تستطيع القيام به، نبرر استعمالها جنبًا إلى جنب مع مقاربة أخرى. وغالبًا ما يعزز الإطارَ العملي للبحث استقدامُ مقاربات قائمة على فرضيات فلسفية مختلفة وغير متوافقة في الظاهر حول طبيعة اللغة والواقع الاجتماعي لأجل تشكيل إطار عملي للبحث، لكن -وهذه «لكن» كبيرة جدًا- من الضروري ترجمة النظريات المستقدَمة القائمة على فرضيات مختلفة إلى مصطلحات تحليل الخِطاب. ويخضع مدى عملِ الترجمة وطبيعتُه، بالطبع، لفرضيات إطار عمل الباحث في تحليل الخِطاب، وعلى نحو خاص لرؤيته للعلاقة بين الخِطاب والممارسة الاجتماعية. فإذا كان إطار العمل المستعمل -على سبيل المثال- قائمًا على نظرية الخِطاب للاكلاو وموف، فإن مقدارًا كبيرًا من عمل الترجمة سيكون ضروريًّا. ووفقًا لنظرية الخِطاب، فإن كل نزعة اجتماعية تُبنى على نحو خِطابي، والنظرياتُ التي تعترف بأشكال أخرى للمنطق غير الأشكال الخِطابية لا بد من ترجمتها إلى المصطلحات الخِطابية، مثال ذلك النظريات التي تُحدد منطقًا اقتصاديًّا يعمل باستقلالية عن المنطق الخِطابي، فهي تحتاج إلى أن تُعدلَ لكي تكون منسجمةً داخل عالم نظرية الخِطاب.

وإذا كان إطار البحث المستعمل هو التحليل النقدي للخِطاب لدى فركلاف، فإن النظرية الاجتماعية يمكن أن تُعتمد في تحليل الممارسة الاجتماعية الأشمل التي تكون الممارسةُ الخِطابيةُ جزءًا لا يتجزأ منها، من دون أن يحتاج المحلل إلى «ترجمة» النظريات إلى المصطلحات الخِطابية. ذلك أن فركلاف ينظر إلى الممارسة

الخِطابية باعتبارها بعدًا واحدًا فحسب من أبعاد الاجتماعي هو في علاقة جدلية مع أبعاد أخرى تعمل وفقًا لأنواع أخرى من المنطق. ولفهم هذه الأبعاد الأخـرى، يكون من الضروري الاعتماد على نظريات مناسبةٍ يمكن أن تسلط الضوء عليها.

سنقوم الآن، من خـلال وسائل إيضاح اختبارية، بالتصدي للمهمات المتعلقة بكيفية بناء وتطبيق إطار العمل لتحليل الخِطاب القائم على مقاربات مختلفة لتحليل الخِطاب، وكيف سنستقدم نظريات اجتماعية إلى إطار العمل البحثي لتحليل الخِطاب وكيف سنطبق إطـار العمل في التحليل النصي. وسنسلط الضوء على طبيعة المعرفة المحتملة التي تنتجها كل مقاربة لكي نبرر إدماجها في إطار العمل ولكي نحدد مساهمتها في الفهم الاجتماعي لحقل الدراسة على حد سواء. والغرض من تقديم هذا النموذج هو إتاحة أفكار عن كيفية إجراء بحث اختباري يجمع فيه المرء بين مقاربات مختلفة في تحليل الخِطاب ويستقدم نظريات من خارج مجال تحليل الخِطاب ويترجمها.

البيئة والعمل السياسي - أنموذجًا

الأنموذج مقتبس من دراسة للويز فيليبس (Louise Phillips) عن البيئة والعمل السياسي في الدانمارك[91]. وتقوم الدراسة على 33 مقابلة شبه منظّمة مع أفـراد، وأزواج، ومجموعات. والتركيز منصبٌّ فيها على خِطاباتهم المتصلة بالبيئة والعمل السياسي في

---

(91) للاطلاع على عروض للدراسة، انظر (Phillips, 2000a, 2000b).

ضوء التطورات المجتمعية في عصر الحداثة مؤخّرًا. هذه التطورات تشمل تنامي المخاطر، والعلاقات المتقلبة بين العالمي والمحلي المرتبطة بانتشار الاتصال عبر وسائل الإعلام الجماهيري، وتصاعد أشكال جديدة من السياسات القائمة على الفردانية وثقافة الاستهلاك. ويتمثل دافع رئيس للدراسة في النظرة القاضية بوجود حاجة إلى المزيد من البحوث الاختبارية التي تعتمد بشكل نسقي على النظرية الاجتماعية من أجل استقصاء الروابط بين التطور الاجتماعي العام وأقوال الناس في حياتهم اليومية. في هذا النموذج، نركز على أحد الموضوعات الرئيسة في الدراسة: نعني الطرائق التي تُقدمُ بها ممارسات المستهلكين من أنصار البيئة على نحو خِطابي. ونقاط التركيز الأساسية هي: كيف يتأقلم الناس في معيشتهم مع القلق المرتبط بالمخاطر؟ وكيف يناقشون المسؤولية عن مشاكل البيئة؟ وتُوجه هذه الأسئلة من خلال تحليل الكيفية التي تُسنِد بها الخِطاباتُ المختلفةُ معانيَ مختلفة لـ «الاستهلاك» وهوياتٍ مختلفةً للفاعلين باعتبارهم مسؤولين شخصيًّا عن المشاكل أو باعتبارهم غير ملتزمين من الناحية السياسية.

بناء إطار عمل لتحليل الخِطاب

إن إطار العمل البحثي إذ يعتمد على المقاربات الثلاث جميعها: نظرية الخِطاب للاكلاو وموف، والتحليل النقدي للخِطاب، وعلم نفس الخِطاب، فهو يقوم على رؤية للخِطاب على أنه في أقل الأحوال مكون جزئي من مكونات الممارسات والذوات الاجتماعية.

فالخِطابات تُفهم، بصفة عامة، على أنها مجموعات محدودة من الأقوال الممكنة تُعززُ مجموعة محدودة من المعاني، بحيث تقوم الخِطاباتُ بصوغ ما يمكن قوله في مقامات معينة، فالتغيير الخِطابي -وبالتالي التغيير الاجتماعي والثقافي- يجري فيما تتمفصل عناصر من خِطابات قائمة بعضها مع بعض لتشكيل خَلطات جديدة من الخطابات المتقاطعة. ومع ذلك، فإن إطار العمل يَحِيد عن نظرية الخِطاب للاكلاو وموف، معتمدًا في الوقت ذاته على كل من التحليل النقدي للخِطاب وعلم نفس الخِطاب، مركزًا في نحو اختباري على الاستعمال المقامي للغة في سياقات تفاعلية محددة بدلًا من التركيز، بعبارات أكثر تجريدًا، على الخِطابات المتداولة في المجتمع.

وقد استُعمل تحليل فركلاف النقدي للخِطاب في آن واحد منوالًا أساسيًّا للخِطاب بما هو ممارسة اجتماعية ومنهجية أساسية للتحليل المفصّل للخِطاب. ويُحلل الخِطاب فيه بالاعتماد على ثلاثة أبعاد: الممارسة الخِطابية والنص والممارسة الاجتماعية ولتحليل البعد المتصل بالممارسة الخِطابية، يقع أيضًا تطبيق مقاربة لاكلاو وموف للخِطاب والهوية. ومثل فركلاف، تُميزُ فيليبس بين الممارسة الاجتماعية الأوسع والخِطاب، معتمدةً على النظرية الاجتماعية من أجل تسليط الضوء على التطورات المجتمعية الأوسع نطاقًا التي يُعد الخِطاب جزءًا منها. ولكن على النقيض من فركلاف، لا تتأسس هذه الخطوة على تمييز **أنطولوجي** بين ما هو خِطابي وما ليس بخِطابي. وإقامة تمييز أنطولوجي، وفقًا لفيليبس،

تستلزم التقليل من دور الخِطاب -أي تمثيل الممارسة الاجتماعية من خلال المعنى- بما هو بعد مكون لكل ممارسة اجتماعية. وبدلًا من ذلك، يقوم إطار العمل لديها على تمييز تحليلي بين الممارسات الخِطابية -موضوع التحليل الاختباري، والتطورات المجتمعية الأوسع نطاقًا، أي خلفية التحليل. بعبارة أخرى، فإن مسألة الوضع الأنطولوجي للخِطاب تم وضعها جانبًا ووقع التعامل مع الممارسة الخِطابية باعتبارها بعدًا تحليليًّا متميزًا من أبعاد الممارسة الاجتماعية. وقد وقع استقدام النظريات الاجتماعية حول السياسات، والدعاية بواسطة وسائل الإعلام، والمخاطر، والهوية، إلى إطار عمل تحليل الخِطاب من أجل تسليط الضوء على الممارسة الاجتماعية وباعتبارها مؤشرات مرجعية للتحليل. ولم يقع استقدامها إلا بعد إخضاعها لعملية ترجمة من أجل أن تناسب إطار عمل تحليل الخِطاب.

وقع دعم مقاربة التحليل النقدي للخِطاب بمقاربة في علم نفس الخِطاب (Wetherell and Potter, 1992) تعطي أهمية كبرى للكيفية التي تستعمل بها الخِطابات، باعتبارها مخزونات مرنة، في تكوين تمثيلات العالم والهويات في الكلام آنَ التفاعل، وفي التداول بشأنها. وتجمع مقاربة ويذيريل وبوتر بين ما بعد البنيوية وتركيز نظرية الخِطاب على الطرائق التي تُشكل بها خِطاباتٌ مخصوصة الذواتِ والموضوعات والتركيز التفاعلي على الطرائق التي يستعمل بها الناس الموارد الخِطابية بفاعلية لإنجاز أعمال اجتماعية في سياقات تفاعل مخصوصة.

عند دمج النظريات الاجتماعية في إطار تحليل الخِطاب، يجب أن يتم تحويل النظريات من خلال ترجمتها إلى مصطلحات تحليل الخِطاب. وتصف استعارة الترجمة، إذًا، عملية **تحويل** تجري عند الانتقال من خِطاب تحليلي -أي نظرية الخِطاب- إلى آخر، أي تحليل الخِطاب (انظر كذلك Chouliaraki and Fairclough, 1999: 112ff.). وسنقوم الآن بعرض بعض النظريات الاجتماعية المُستَقدَمَة وعمل الترجمة الذي خضعت له.

إن النظريات الاجتماعية المعتمدة في الدراسة تتعامل مع انتشار المخاطر، ونشر الثقافة والسياسات عبر وسائل الإعلام (مثال ذلك Bauman, 1991; Beck, 1992, 1996; Thompson, 1995)، والأشكال الجديدة للسياسات (مثال ذلك Beck, 1996; Giddens, 1991). ونحن نتقيد هنا بعرض موجز لمساهمات أولريتش بيك (Ulrich Beck) وأنتوني غيدنز (Anthony Giddens) وزيغمونت باومان (Zygmunt Bauman). يصف بيك المجتمع المعاصر بأنه مجتمع مخاطر جلبَ فيه التحديثُ الصناعي مجموعةً من المخاطر غير محدودة في الزمان والمكان ذات مصادر وعواقب لا يمكن أن يقدرها أحد. ونتيجةً لهذه المخاطر، يشعر الناس بأن ذواتهم خاضعة للمعرفة العلمية وللعقلانية التي تنهض وسائل الإعلام بدور مهم في توفيرها. ولكننا في الوقت ذاته، فقدنا ثقتنا في العلم، وغدت العقلانية العلمية على نحو متصاعد عرضة لتحدي العقلانية الاجتماعية التي تستمد حججها من خارج عالم النخبة السياسة والعلمية. إن الإعلام

يمثل حقلًا أساسيًّا للصراع بين ادعاءات المعرفة الراجعة إلى مختلف صيغ العقلانية حول مصادر المخاطر وآثارها والحلول الممكنة لها. ونحن نُقصفُ باستمرار بعدد كبير من المشاكل نحن ملزمون باتخاذ موقف منها. وكثير من هذه المشاكل يتخذ شكل المخاطر البيئية من قبيل أنه «يمكن أن توجد مبيدات في الشاي الذي أحتسيه»، أو أن «الإفراط في قطع الأشجار هو المتسبب في الاحتباس الحراري». ومن خلال الارتفاع في الخبرات المنقولة عبر وسائل الإعلام، يدعي بيك أن الناس أصبحوا أكثر وعيًا وأكثر حساسيةً من الناحية العاطفية للموضوعات التي يختبرها الناس من خلال وسائل الإعلام فحسب (مثل المخاطر البيئية العالمية).

ووَفْقًا لبيك، فإن الوعي بالمشاكل العالمية ـبما في ذلك المخاطر البيئيةـ الذي يكتسبه الفرد من خلال وسائل الاتصال الجماهيري يعزز الشعور بالمسؤولية الأخلاقية الشخصية تجاه حل تلك المشاكل. والتركيز المتنامي على المسؤولية الشخصية يمكن أن يُفهم على أنه جزء من توجه عام إلى الفردانية، حيث يتم التعامل مع القيود الاجتماعية التقليدية على الفاعلية الفردية، التي كان ينظر إليها سابقًا أنه لا مفر منها وأنها ثابتة، باعتبارها موضوعاتِ اختيارٍ ومسؤولية. وظهرت أشكال لسياسات جديدة في ظل ظروف الفردانية وصفها بيك بأنها سياسات فرعية (Subpolitics) وغيدنز بأنها سياسات الحياة (life politics). والسياسات الفرعية هي عبارة عن واحد من أشكال الانعكاسية التي تميز مجتمع المخاطر. في السياسات الفرعية، يشارك الفاعلون من خارج النظام السياسي القائم

في التفكير في الأشكال الموجودة للانتظام الاجتماعي ونقدها، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بالقضايا الأخلاقية المتصلة بالبيئة مثلًا. والصراع في الإعلام بين ادعاءات المعرفة المتنافسة يمثل شكلًا من أشكال الجدل الفكري النقدي في حد ذاته وهو كذلك يعزز نشاط السياسات الفرعية من خلال تزويد الناس بالمعرفة الضرورية لتوجيه نقد مستنير إلى حجج الخبراء. ومفهوم غيدنز المماثل عن سياسات الحياة قائم على اعتراف الناس بالتفاعل بين المحلي والعالمي في الحياة اليومية الذي يتجلى في الفردي عندما تصطدم قوى العولمة بالذات، وعندما يقوم تحقيق الذات بتشكيل القوى العالمية. والعمل السياسي المؤسس على سياسات الحياة يمكن أن يشمل الممارسات الاستهلاكية.

وعلى النقيض من الرأي القائل بأن الفردانية تؤدي إلى أشكال جديدة من السياسات القائمة على التضامن، يؤكد باومان الآثار المدمرة للفردانية ولعمليات سلعنة(*) (commodification) أشكال السياسات القائمة على الحس التضامني. فالنزعة الاستهلاكية، المنتشرة عبر وسائل الإعلام، تنمي فردانية أنانية تعطل احتمالات وجود هويات صلبة ومستقرة. والنزعة الاستهلاكية تزود الناس بطريقة سهلة لمواجهة المسؤوليات. واختيار المستهلك يضع الثقل على المسؤولية الفردية عن المشاكل العامة. هذا يَستتبع، بمصطلحات باومان، «خصخصة المشاكل الإنسانية والمسؤولية عن حلها»

(*) المقصود بالسلعنة (commodification) هنا هو تحويل السياسات إلى سلعة يقع ترويجها.

(1991: 261). ووفقًا لباومان، فإن سلوك المستهلك ـأي اهتمامات التسوق الخاصةـ لا يمثل شكلًا فعالًا للعمل السياسي، وفي المجتمع الاستهلاكي لما بعد الحداثة، كما يقول، يتصرف الناس باعتبارهم مستهلكين فحسب، لا باعتبارهم مواطنين، ولم يؤد الفشل في حل المشاكل الاجتماعية إلى الاحتجاج السياسي، ولكن إلى الشعور بالذنب والعار والحيرة (1991: 261).

عندما تُستقدم نظريات ليست من مجال تحليل الخِطاب إلى إطار تحليل الخِطاب، يكون من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار العناصر التي لا تتماشى أنطولوجيًّا أو إبستيمولوجيًّا مع تحليل الخِطاب والمدى الذي تنتشر به هذه العناصر في بقية النظريات. والرأي عندنا أنه من الممكن استقدام النظريات من دون أن تدمج كل العناصر، لكن العناصر التي سَتُسْتَعمل لا بد من ترجمتها حتى يمكن استعمالها في تحليل الخِطاب.

تستند نظرية غيدنز عن سياسات الحياة إلى رؤية عرفانية للذات لا تلائم إطار تحليل الخِطاب. وعندما يتم استقدام نظرية ما إلى مشروع من مشاريع تحليل الخِطاب، يكون من الضروري للمرء أن ينأى بنفسه عن وجهة نظره حول الذات وأن يأخذ بعين الاعتبار إلى أي حد أخصبت بقية النظرية. ونحن نعتقد أنه من الممكن استقدامُ نظريته في سياسات الحياة من دون مراعاة منواله عن الذات. لكن لا بد من ترجمة النظرية بحيث يمكن تطبيقها في تحليلات ملموسة للخِطاب. والنظرية يمكن إِعْمالها من خلال التحقيق في البناءات

الخِطابية لـ «سياسات» و«الاستهلاك» لدى الناس، بدلًا من التعامل معها باعتبارها كيانات معطاة سلفًا.

إن نظرية بيك مفرطة في العقلانية ولا تفي بالحاجة الثقافوية (culturalist)، فلم يول بيك البعد الثقافي للعمليات المشتملة على تعريفِ المخاطر ومناقشتِها ما يكفي من الاعتبار (مثال ذلك، Alexander, 1996; Cottle, 1998). ووفقًا لبيك، فإن المخاطر ذاتها هي ما يحدد كيفية تعريفِها من الناحية الاجتماعية ومعالجتِها من الناحية العملية.

يقف هذا المنظور على طرفي نقيض مع المنظور الثقافي الذي ينتمي إليه تحليل الخِطاب، والذي يدّعي أن تعريف المخاطر يعتمد على الكيفية التي تُبنى بها المخاطر في الدلالة. ولكن بينما ينظر بيك إلى تعريف المخاطر على أنه مسألة تتعلق بالطبيعة الحقيقية للمخاطر في المقام الأول، فإنه يحدد الصراع بين ادعاءات المعرفة المتنافسة على أنه نشاط ثقافي ينطوي على صراع بين الأفهام المختلفة للبيئة وللمخاطر. والمشكل يكمن في تقليله من أهمية دور النشاط الثقافي في تعريف المخاطر ذاتها. ومع ذلك، فالرأي عندنا أن مقاربة بيك لا تزال قابلة لأن تُستعمل نقطةَ انطلاق للدراسات الاختبارية التي تركز على البعد الثقافي. إن الصراع بين الادعاءات المختلفة الذي حدده بيك يمكن النظر إليه باعتباره صراعًا بين خِطابات متنافسة ويمكن تحليله من خلال تحليل الخِطاب. المسؤولية يمكن أن تُعامل اختباريًّا على أنها شيء تتم مناقشته خِطابيًّا خلال استهلاك الجمهور لوسائل الإعلام. وتركز الدراسة، على الطرائق التي يتعامل بها الناس

المُستَجوَبون ويشاركون من خلالها في الصراعات الخِطابية على المعرفة، وعلى الآثار الاجتماعية والسياسية لممارساتهم الخِطابية.

إن الآثـار السلبية المحتملة للنزعة الاستهلاكية، كما طرحها باومان سابقًا، يمكن -باعتماد مصطلحات تحليل الخِطاب- أن تُفهم وتُبحث على أنها مسألة تتصل بما إذا كان الناس يقومون ببناء الاستهلاك خِطابيًا باعتباره شكلًا من أشكال العمل السياسي يقبل الاستمرار، ويتخذون مواقع لذواتهم باعتبارهم مستهلكين سياسيين فاعلين يتحملون مسؤوليتهم عن المشاكل العامة من خلال الاستهلاك. من ثمّ، وفي حالة باومان، فإن النظرية لا تحتاج إلى ترجمة لكي تتلاءم مع إطار العمل في تحليل الخِطاب.

إضافةً إلى النظرية الاجتماعية، تعتمد دراسـة فيليبس أيضًا على دراسـات التقبّل التي تُظهر أن المشاهدين يجدون صعوبةً في ربط جدول الأعمال السياسي الذي يقدم في نشرات الأخبار، بحياتهم اليومية الخاصة بهم (مثال ذلك، Hagen, 1994; Jensen, 1990). مشاهدة نشرة الأخبار إذًا، تساهم في شعور الناس بالبعد من مجال السياسات المُمَأسَسَة. لكن دراسات التقبل تحتاج أيضًا إلى أن تترجم إلى مصطلحات تحليل الخِطاب. ويقوم العديد من دراسـات التقبل على إبستيمولوجيا مختلفة عن تحليل الخِطاب. وينظر كثير من محللي التقبل إلى الأقـوال في المقابلات على أنها تقارير صادقة أو كاذبة حول مواقف الناس ونشاطاتهم، مثال ذلك، الأقوال في تأويلاتهم الفعلية لبرنامج معين. في المقابل، إن التركيز في تحليل الخِطاب يكون على الطرائق التي بها يَبني الناس

تمثيلات خِطابية معينة لممارساتهم ومواقفهم وهوياتهم في مقام المقابلة ويناقشونها.

بالجمع بين هذه الموارد المتأتية من مقاربات مختلفة ليست من تحليل الخِطاب، أمكن فيليبس أن تبدأ في بناء إطار عمل بحثي مهيأ للتعامل مع مجالات الاهتمام الخاصة بها. فالنظريات الاجتماعية توفر أولًا نظرة ثاقبة إلى الممارسات الاجتماعية الأوسع المتصلة بالبيئة والسياسة في مجتمع فترة الحداثة المتأخرة، وهو ما يُشكل خلفية دراستها. والنظريات تُمَكنُها ثانيًا من بناء فكرة أولية عن النظام المناسب للخِطاب، وهي توفر ثالثًا مؤشرات عما يمكن أن تكون عليه خِطابات معينة في أثناء العمل. وقد أشار بيك وغيدنز وباومان جميعهم إلى قوة احتمال أن يعثر المرء على نقاشات حول مشاكل البيئة وما يمكن فعله إزاءها في وسائل الإعلام والأحاديث اليومية. وقد قامت فيليبس، وهي تترجم ذلك إلى مصطلحات تحليل الخِطاب، بتحديد «العمل البيئي والسياسي» على أنه نظام الخِطاب الذي تهتم بدراسته. وفي ما يتعلق بمحتوى هذا النظام للخِطاب، فإن للمنظرين المختلفين مقترحاتٍ مختلفةً بشأنه، وهذه المقترحات تمت ترجمتها إلى فرضيات لمزيد البحث فيها خلال التحليل الاختباري لدى فيليبس. وبعبارات مترجمة إلى مصطلحات تحليل الخِطاب، يقترح بيك صدامًا بين الخِطابات العلمية والخِطابات الريبية العلمية (science-sceptical)، وهو يقترح نوعًا مخصوصًا من بناء الذات تتم فيه دَمَقْرَطَةُ المسؤولية ويُحمِّل فيه الأفرادُ الفاعلون أنفسَهم المسؤوليةَ الأخلاقية عن مشاكل البيئة. ويقترح غيدنز بناءً

للذات يرتبط فيه الفعل السياسي بالاستهلاك ضمن نظرة إلى العالم يتواشجُ فيها المحلي والعالمي. ويشير باومان إلى بناء مختلف للذات تقع فيه خصخصة المسؤولية ولا يؤدي فيه الوعي بالمشاكل العامة إلى الاحتجاج السياسي، ولكن إلى الشعور بالذنب والعار من جانب المستهلكين. وتوفر دراسات التقبل أيضًا إمكانًا آخر بما أن الذات هنا هي مُبعَدَة من مجال السياسة.

إن هؤلاء المنظرين، إذا تناولناهم مجتمعين، يوفرون إذًا صورة متناقضة جزئيًّا عن المجال، وتشير إلى خِطابات عديدة أو عناصر من خِطابات يمكن أن تكون مساهمة في الأمر. وهذه نقطة انطلاق مجدية جدًا للتحليل الاختباري، تؤدي إلى أسئلة من قبيل ما يلي: هل يمكن التعرف إلى هذه العناصر في المواد الاختبارية؟ هل تتمفصل العناصر معًا في خِطابات معينة؟ هل يهيمن خِطاب واحد أم أنه توجد خِطابات متنافسة؟ طوال التحليل تَعثُرُ فيليبس، مثلًا، على كل من «خِطاب بيئي» تُبنى فيه الذوات باعتبارها مسؤولة أخلاقيًّا عن المشاكل البيئية و«خِطاب استهلاكي» يقع فيه إبعاد الفرد من المشاكل البيئية، ويُنظرُ فيه إلى الاستهلاك على أنه شرعي بغض النظر عن الآثار البيئية. بالنتيجة، فإن أسئلة جديدة يمكن أن تطرح: كيف يتم توزيع الخِطابين المتصارعين ومناقشتهما؟ هل يتصادمان أم أن الخلافات يقع حلها في أشكال مهجنة جديدة؟

بهذه الطريقة، يقع استقدام النظريات التي ليست من مجال تحليل الخِطاب إلى المشروع من أجل تحصيل فهم أولي لنظام الخِطاب

وللمؤشرات على الخِطابات التي ينبغي البحث عنها في المواد. ونقطة مهمة ينبغي تذكرها في هذا الصدد هي أن النظريات المستقدمة قد لا تغطي كل ما تتيحه المواد من احتمالات: الخِطابات التي تشير إليها قد تكون غائبة وقد تسود خِطابات أخرى. بالنتيجة، فالخريطة الاختبارية لمختلف الخِطابات والعلاقات بينها قد تؤدي إلى إعادة صوغ الصورة الأولية لنظام الخِطاب، وإلى حوار نقدي مع النظريات المستقدمة لإقامة إطار العمل البحثي في المقام الأول، فبحوث تحليل الخِطاب الاختبارية يمكنها بالتالي أن لا تعتمد على التحليل الاجتماعي فحسب، لكن أن تدعم أيضًا فهمنا الاجتماعي للظاهرة المدروسة، من خلال تسليط الضوء على البعد الخِطابي للممارسة الاجتماعية.

لكي نلخص، فقد وقع بناء إطار عمل متعدد المنظورات من خلال الجمع بين مقاربات مختلفة في تحليل الخِطاب واستقدام نظريات للممارسة الاجتماعية إلى إطار تحليل الخِطاب، بعد ترجمتها إلى مصطلحات تحليل الخِطاب. وداخل إطار العمل المتعدّد المنظورات، وقع تمييز تحليل الخِطاب بمعنى أن النظريات الاجتماعية وتحليل التقبل تمت ترجمتها إلى مصطلحات تحليل الخِطاب وليس العكس. ولكن في الوقت ذاته، فإن شكل المعرفة التي يهدف تحليل الخِطاب إلى إنتاجها محدود. لم تُبذل أي محاولة لتقديم وصف شامل للممارسة الاجتماعية في علاقتها بالفردانية، والمواطنة، والديموقراطية أو لمعالجة مسألة كفاءة الاستهلاك السياسي باعتباره صيغةً للعمل السياسي، وقد اختُزل نطاق الدراسة في البعد الخِطابي، البعد الذي تمت معالجته على أنه مختلف من

الناحية التحليلية (لا الأنطولوجية) عن الأبعاد الأخرى. ومن خلال المقابلات، تستقصي الدراسة بناء الناس الخِطابي للعمل السياسي في ما يتعلق بالتغطية الإخبارية للمخاطر البيئية وللبيئة. وسنقوم الآن بالتمثيل لتطبيق إطار العمل على تحليل مقتطف واحد من مقابلة من أجل تقديم فكرة حول الكيفية التي يمكن بها استعمال أدوات مختلف مقاربات تحليل الخِطاب جنبًا إلى جنب مع مؤشرات التحليل التي توفرها النظرية الاجتماعية.

التحليل النصي باستعمال المقاربات الثلاث لتحليل الخِطاب: مثال

في المقتطف التالي من مقابلة يتلفظ المشاركون الأربعة (الذين يتقاسمون شقة واحدة) في مقابلة جماعية بخِطابات مختلفة كل واحد منها يبني فهمًا مختلفًا لمسائل البيئة وهويات مختلفة للمتكلمين تشير إلى مسارات مختلفة للعمل وتمنحها الشرعية:

1 المستجوِب : آه لا، إذًا استهلاككم. آه، اختياراتكم.

2 لاوريتس Laurits : م... ما من شك، وأنا لا يخامرني أدنى شك في آه، أن التركيز المتصاعد

3 على المنتوجات الفلاحية العضوية، آه المنتوجات العضوية معناه أنه

4 حصل ارتفاع في عدد الفلاحين في مجال الزراعات العضوية.

5 تيم Tim : نعم، إنه (.) بصفة كلية (قطعًا) مؤكد (و)

6 جوناثان Jonathan : نعم، أنا أيضًا أظن ذلك، وأنت تدرك، علاوةً على ذلك، وأنت تدرك، وأنت تدرك، أقول

7 إنه أحد الأشياء التي ينبغي عليك قولها لنفسك وينبغي عليك

8 تصديقها لأنه، إذا، إذا، إذا لم يصدق أحد ذلك، فإن العالم سيبدو (1)

9 يبدو مريعًا، إذا لم يكن من أحد يصدق أن (.) أي شيء يمكن أن يُغير (.)

10 بأي شيء. لا بد لكل الناس من الانطلاق من أن التغييرات يمكن

11 أن تحصل (لا بد لهم) أن يبدأوا بأنفسهم.

12 تيم : نعم، أعتقد ذلك بالضبط

13 جوناثان : وآخرون إذًا يفعلون الشيء نفسه كما آمل

14 تيم : ذلك، ذلك أن مثال البيئة، هو، هو ببساطة مثال نموذجي، في

15 نظري. فقد كان ذلك فعالًا. يمكنك أن ترى ذلك. وهذا أيضًا يجعلني أقتنع

16 بأن (.) نقطة التركيز المقبلة التي تأتي في وسائل الإعلام هي أنه إذا كان هناك

17 شيء طبعًا، بحسب رأيي له أي

18 فائدة، أوه، سيكون ذلك فعالًا، وبذلك سيكون بإمكاني أيضًا

19 القيام بالأشياء الصغيرة بسرعة أكبر، في الحياة اليومية، مثلًا

20 كشراء الأشياء العضوية بدل أي شيء آخر. لا أعرف، ليس

21 لدي أي مثال. لكن

22 لاوريتس : خذ مثالًا آخر، ك (.) آه، فرز القمامة. حيث توجد

23 أماكن عديدة الآن حيث تفرز القمامة.

24 تيم : نعم

25 لاوريتس : وهكذا، يمكنك القول إذًا إن المشكل يقع حيث

26 لا يُفيد لأنه يُلقى بها جميعًا في مكان ما بأي طريقة كانت. أوه إذًا

27 فالشيء الوحيد الذي (.) لا يزال لدينا في الواقع (1) باعتباره قمامة منفصلة هو معالجة

28 الزجاج والورق. أوه ولذلك يمكنك (2) يمكنك أن

29 تنزعج قليلًا من، أنه لا يحصل الكثير، أوه، في هذا المجال، عندما (.)

30 لا يقع حث المستهلكين الآن (.) على الأقل في بعض الأماكن، على العمل. أووه.

31 هذا أوه هو (1) في هذه الحالة أوه أولئك الذين يجمعونها معًا، الذين لا

32 (.) يتابعون ذلك.

33 جوناثان : هل يخلطونها معًا مرة أخرى عندما يجمعونها معًا،

34 أم ماذا تقول؟

35 لاوريتس : نعم أقصد أن أغلب القمامة التي، أقصد في المنزل في (.) أنا

36 قدمت من سكايلسكور (Skælskør)، هناك يقومون بفرزها إلى (1) قمامة خضراء و(.)

37 قمامة رمادية وهذا النوع من (.) الأشياء التي يمكن تدويرها. الأشياء التي، لا

38 الأشياء التي يمكن (.)

39 كريستيان Christian: النفايات القابلة للتحلل الحيوي

40 جوناثان : العضوية؟

41 لاوريتس : النفايات القابلة للتحلل الحيوي، والأشياء غير القابلة للتحلل

42 تيم : نعم

43 لاوريتس : أوه وقد قرأت في الأقل أن كمية ما هو قابل للتحلل

44 الذي يقع تحلّله محدود جدًّا. يمكنك قول ذلك

45 المستجوِب : هل يمكنكم التفكير في الذهاب إلى هناك (.) إلى الساحة هناك

46 ومعكم (.) قمامتكم القابلة للتحلل؟

47 لاوريتس : (سماد عضوي؟)

48 جوناثان : هل تستطيع فعل ذلك؟

49 المستجوب : نعم، لديهم حاوية للسماد العضوي.

50 جوناثان : آلة للسماد العضوي؟ لم أكن أعلم بذلك قط، لا.

51 تيم : لا

52 المستجوِب : يوجد واحدة أيضًا في شارع غاردنر.

53 تيم : يجب أن تكون هنا. يجب أن تكون حيث تقف وأنت على وشك أن

54 ترمي شيئًا، يجب أن لا تقوم بشيء إضافي من أجل ذلك.

55 لاوريتس : يمكن أن نرى أنه (لا يزال) لديـنا (1) ما يكفي من المشاكل أن نذهب مع

56 أشيائنا الزجاجية [قهقهة] وأوه، لا أعتقد أن (.) أهل هذا البيت في الأقل

57 يريدون فعل أي شيء (.) هو أكثر من ذلك.

58 المستجوِب : م...

59 لاوريتس : ذلك أوه، نعم الشيء الوحيد الذي أستطيع، أنت تريد أن، لكن أوه (.) أنت لا

60 تقوم به.

61 تيم : إذًا إن (1) وددت أن، أوه، يمكنني أن أفكر جيدًا في (.) يمكنك (.) فرز

62 قمامتك، إذا كنا نستطيع القيام بذلك في الأعلى من هنا، تمامًا كما (.) وجدته

63 هناك، جدتي

64 لاوريتس : إذا لم يكن هناك أي مشكلة، يمكننا أيضًا القيام به، ولكن المشكلة هي إذا كان عليك

65 أن تذهب إلى ثلاثة، تذهب إلى ثلاثة أمكنة مختلفة مع قمامتك.

66 تيم : نعم، نعم. حسنًا، نحن متفقون تمامًا مع ذلك. لكن حسنًا الآن (1) أعرف

67 أن (.) جدتي تعيش في فايله وكانت لهم بعض التجارب

68 مع ذلك، أي مع فرز القمامة وقد نجح الأمر فعلًا. أوه، أوه

69 ويوجد حقيقةً فرق كبير (.) أطنان معدودة أوه ممّا ينتهي

70 في مستودع القمامة وما ينتهي في المحرقة وفي أماكن

71 مختلفة أوه. والأمر، الأمر يعمل من خلال أنه، أنه يوجد كيسان صغيران، إذًا

72 (I) وعندما نفتح حاوية القمامة

73 لاوريتس : م...

74 تيم : لكن أي شيء مختلف عن ذلك فأنا لا أثق فيه. فهو لن ينفع.

75 لاوريتس : إذا كان ذلك لا يكلف عملًا إضافيًا، أنا أعتقد أيضًا أنه يمكن القيام به لكن أوه (2) أنا

76 لا أريد أوه (2) أريد، ولكن أنا (.) لا أقوم به، إذا
كان يؤدي (.) أوه

77 إلى صعوبات أكثر في الحياة اليومية.

من أجل تسليط الضوء على شكل المعرفة المخصوص الذي تنتجه كل واحدة من مقاربات تحليل الخِطاب، سنقدم تحليلات منفصلة طبقًا للمقاربات الثلاث بدلًا من تقديم تحليل جامع على أنه اتفاق بين تقارير البحوث في تحليل الخِطاب. وتجدر الإشارة على وجه الخصوص إلى أنه تم في الدراسة التي تولدت منها التحليلات التالية، إدماجُ نظرية الخِطاب للاكلاو وموف في تحليل مستوى الممارسة الخِطابية بالاعتماد على التحليل النقدي للخِطاب، بينما نقوم بتقديمها على أنها تحليل مستقل. وبينما تمتلك المقاربات الثلاث اهتمامات مختلفة، فإنه توجد درجة من التداخل متصلة بأنماط التحليل الذي تنزع إلى إنتاجه. والتحليلات التي نقدمها ليست معمقة أو شاملة ولكنها تهدف إلى إعطاء فكرة عن الكيفية التي يمكن بها استعمال كل واحدة من المقاربات الثلاث في التحليل. من المهم كذلك أن نلاحظ أن هذا التحليل المحدد هو جزء من تحليل أشمل لمجموعة من المواد الاختبارية وأن الخِطابات المحددة التي تمت الإحالة عليها في الأنموذج وقع تأسيسها على التحليل الأشمل للمواد بدلًا من هذا المقتطف المحدد. سنقوم أولًا بتطبيق مقاربة لاكلاو وموف، يليها التحليل النقدي للخِطاب ثم علم نفس الخِطاب.

لم يوفر لاكلاو وموف، كما لاحظنا في الفصل الثاني، مناهج ملموسة للتحليل، لكن مجموعة من نقاط ـالتركيز التحليلية يمكن استخراجها من منوالهما. ما هي الخِطابات التي تمفصلت في النص؟ ما هي المعاني التي أُنشِئت وما هي المعاني التي استبعدت؟ ما هي المعاقد في الخِطابات (أي العلامات المركزية التي تنتظم حولها العلامات الأخرى ومنها تشتق معانيها والتي تستبعد المعاني المحتملة الأخرى)؟ هل تحدد الخِطابات المختلفة المعاقد بطرق مختلفة، بحيث إنه يوجد صراع على تثبيت المعاني من خلال أحد الخِطابات بدلًا من الآخر؟ وما هي المعاني التي يقع التسليم بها عبر الخِطابات المختلفة؟ ما هي الهويات والمجموعات التي تُبنى على نحو خِطابي؟

في القسم الأول من المقابلة، تحدث لاوريتس وتيم وجوناثان جميعهم بمصطلحات **خِطاب بيئي** (الأسطر 2ـ21). والخِطاب البيئي خِطاب يؤكد أهمية حماية البيئة على أساس فهم شامل للعالم. فالبيئة هي معقد تنتظم حوله علامات أخرى من قبيل فرز القمامة، والنفايات القابلة للتحلل الحيوي والمنتوجات العضوية. والخِطاب يسند إلى الأفراد **هوية خضراء**، يكونون بها محمولين على الالتزام الفاعل بمشاكل البيئة والاعتراف بدورهم بوصفهم جزءًا لا يتجزأ من الطبيعة. فهوية الفرد تُبنى إذًا حول الدالّ الرئيس «الفاعل البيئي». ووفقًا لهذا الخِطاب، يكون الالتزام بحماية البيئة ضرورة أخلاقية ويكون ضعف الالتزام غير مبرر:

لاوريتس : م... ما من شك، وأنا لا يخامرني أدنى شك في
آه، أن التركيز المتصاعد
على المنتوجات العضوية، أوه المنتوجات
العضوية معناه أنه حصل ارتفاع
في عدد الفلاحين في مجال الزراعات العضوية.

تيم : نعم، إنه (.) بصفة كلية (قطعًا) مؤكد (و) [...]
يجعلني أقتنع بأن (.)
نقطة التركيز المقبلة التي تأتي في وسائل الإعلام
هي أنه أنه إذا كان هناك شيء طبعًا،
بحسب رأيي له أي فائدة، أوه، سيكون ذلك
فعالًا،
وبذلك سيكون بإمكاني أيضًا القيام بالأشياء
الصغيرة بسرعة أكبر، في الحياة اليومية،
مثلًا كشراء الأشياء العضوية بدل أي شيء آخر.
لا أعرف،
ليس لدي أي مثال.

الخِطاب البيئي، إذًا، تَمَفْصَلَ مع **خِطاب المستهلك**: فقد وقع تعريف الالتزام الشخصي على أنه سلوك استهلاكي: «شراء الأشياء العضوية» (السطر 20) و«فرز القمامة» (السطر 22). كل واحد من المتكلمين الثلاثة قدم التغطية الإعلامية للقضايا البيئية على أنها محفز لهم وللناس الآخرين على حد سواء لتبني الممارسات الاستهلاكية البيئوية.

عندما يحدد لاوريتس مشكلًا فنيًا في فرز القمامة (الأسطر 25ـ 32)، فإن اتجاه المناقشة يتغير من تعبير المتكلمين الثلاثة جميعهم عن التزامهم بسلوك المستهلك المحافظ على البيئة إلى شرح لاوريتس لمشكل مع فرز القمامة يهدد فاعليته وموثوقيته. يدعي لاوريتس أن القمامة المفروزة يقع خلطها جميعًا مرة أخرى في مرحلة لاحقة. وادعاء لاوريتس عدم جدوى نظام الفرز يتأسس على **خِطاب متشائم مشكك** هو ما يميز الحداثة المتأخرة، حيث تتم مساءلة السلطات العلمية أو غيرها (هذه المساءلة للسلطة تشكل جزءًا من الأساس الذي تقوم عليه السياسة الفرعية). وهو هنا، يتبنى هوية **المشكك المستقل**.

في إثر الشرح الذي قدمه لاوريتس للمشكل الفني في فرز القمامة والاستجابة الدنيا للمتكلمين الآخرين للشرح الذي قدمه، يبرر تيم ولاوريتس النقص في العمل البيئي لديهما، أي فشلهما في فرز قمامتهما، معتمدين **خِطابًا عن الإكراهات اليومية**. مثال ذلك، أن لاوريتس يقول: «إذا لم يكن هناك أي مشكلة، يمكننا أيضًا القيام به، ولكن المشكلة هي إذا كان عليك أن تذهب إلى ثلاثة، تذهب إلى ثلاثة أمكنة مختلفة مع قمامتك» (السطران 64ـ65). داخل خِطاب الإكراهات اليومية، تمثل صعوبات الحياة اليومية مَعْقِدًا يعمل باعتباره سببًا كافيًا للتقاعس عن المزيد من العمل لحماية البيئة، وقد وقع بناء الفرد على أنه ذو سلبية خاضعة للإكراهات اليومية بدلًا من كونه فاعلًا أخلاقيًا: لاوريتس: «إذا كان ذلك لا يكلف عملًا إضافيًا، أنا أعتقد أيضًا أنه يمكن القيام به لكن أوه أنا لا أريد أوه أريد، ولكن

أنا لا أقوم به، إذا كان يؤدي أوه إلى صعوبات أكثر في الحياة اليومية» (الأسطر 75ـ77). فقد بدأ تيم ولاوريتس، إذًا، بالتموقع داخل خِطاب بيئي وانتهيا بالتموقع داخل خِطاب الإكراهات اليومية. لقد بنيا هويةً ذاتية انطلاقًا من أجزاء من خِطابات مختلفة، تم الربط بينها جميعًا في رواية ذات بناء واحد، وبالتالي وقعت مفصلتها جميعًا لتشكل مزيجًا من تقاطع الخِطابات أو خِطابًا مهجّنًا. وهذا يتماشى مع فرضية أساسٍ في تحليل الخِطاب تتقاسمها المقاربات الثلاث جميعها، وهي أن هويات الناس تُبنى عبر خِطابات مختلفة متناقضة متعادية في الغالب. فالخِطاب المُهجن يُكثف أجزاء من **خِطاب بيئي** (يعمل على حماية البيئة على أساس الاعتراف بتأثير الأعمال الصغرى في الكل) مع عناصر من **خِطاب استهلاكي** (يعمل من خلال الاستهلاك الفردي ـ في هذه الحالة، رمي قمامتهم في الخارج بدل فرزها) و**خِطاب إكراهات يومية** (مقدمًا إكراهات العالم اليومي باعتبارها أسبابًا للتقاعس عن مزيد العمل لحماية البيئة).

التحليل النقدي للخِطاب

سيتم إنتاج وصف مماثل لتمفصل الخِطابات من طريق تحليل مستوى **الممارسة الخِطابية** في التحليل النقدي للخِطاب. ومع ذلك، فإن التحليل النقدي للخِطاب يسلط الضوء أيضًا على البناء اللغوي للخِطابات من خلال تحليل البعد النصي، وكما لوحظ سابقًا في هذا الفصل، فإن التركيز على اللغة يساعد أيضًا في تمييز الخِطابات وتعيين حدودها. وإضافةً إلى ذلك، يشملُ التحليلُ النقدي للخطاب

تحليلًا نسقيًا للممارسة الاجتماعية باعتبارها بعدًا متميزًا من الناحية التحليلية من أبعاد الممارسة الخِطابية. في ما يلي، نقدم تحليلًا موجزًا لمقتطف المقابلة لمستويي النص والممارسة الاجتماعية.

لقد بُني الخِطاب البيئي لغويًا، وفي جزء منه، من خلال أشكال مخصوصة من التعدية. مثال ذلك، أن المتكلمين يسندون إلى أنفسهم هويات أشخاص مسؤولين عن حل المشاكل البيئية من خلال موقعة أنفسهم على أنهم فاعلون في عمليات نشطة، كما يلي: «سيكون بإمكاني أيضًا القيام بالأشياء الصغيرة بسرعة أكبر، في الحياة اليومية» (السطران 18-19). إضافةً إلى ذلك، يتصور جوناثان المسؤولية الأخلاقية باعتبارها حالةً عامة تُحَمَّل للفرد بما هو جزء من مجموعة (نظرةً شموليةً للفرد بوصفه جزءًا لا يتجزأ من كل). وبذلك، هو لا يحمّلُ نفسه بالذات المسؤولية، ولكن لضمير «أنت» المعمم الذي يشمل كلًّا من المتكلم وعامة الناس، «إنه أحد الأشياء التي ينبغي عليك قولها لنفسك» (السطر 7). فبينما انطلق من وجهة ذاتية - «أنا أيضًا أظن ذلك»، مشيرًا إلى أن لقوله جذورًا في وجهة نظره الشخصية، فإن بقية تدخله اتخذ وجهةً موضوعية. والوجهة الموضوعية هنا تعمل على تعزيز سلطة الأقوال، مقدمة إياها على أنها حقائق مستقلة عن المتكلم بدلًا من كونها مجرد آراء ذاتية. وخلال وصف فرز القمامة بعدم الجدوى بعبارات خِطاب مشكك، استُعملت كذلك الوجهة الموضوعية، فعملت مرة أخرى في بناء الأقوال على أنها حقائق بدلًا من كونها وجهات نظر مؤسسة على مصالح المتكلمين الشخصية.

وبينما عملت الإكراهات اليومية على تبرير النقص في العمل، أشار تيم ولاوريتس أيضًا إلى أن نقص العمل لديهما ليس مشروعًا بالكامل، وهو موقف ينتمي إلى الخِطاب البيئي. وقد قام لاوريتس بذلك، على سبيل المثال، من خلال كلام متقطع ـقهقهات ووقفاتـ واستعمال «نحن» و«أهل هذا البيت» باعتبارهم الفاعلين لذلك العمل المنقوص: «يمكن أن نرى أنه (لا يزال) لدينا ما يكفي من المشاكل أن نذهب مع أشيائنا الزجاجية [قهقهة] وأوه، لا أعتقد أن (.) أهل هذا البيت في الأقل يريدون فعل أي شيء (.) هو أكثر من ذلك» (الأسطر 55_57). على هذا النحو، هو يسند الفاعلية إلى المجموعة بدلًا من نفسه، بحيث يُبرّرُ التقاعس عن العمل بالإجماع الذي ارتبطوا به جميعًا باعتبارهم متساكنين بدلًا من فشل الفرد في الاضطلاع بمسؤوليته الشخصية. بالمثل، يشير تيم إلى التناقض في ما يتعلق بتقاعسهم عن العمل من خلال رواية لحالة ناجحة لفرز القمامة يمتلك حولها معلومات ثرية (من خلال جدته). ومن خلال وصف الوضعية التي نجح فيها فرز القمامة ومن خلال الإشارة إلى أنها مختلفة عن وضعيتهم ـ فقد كان ذلك في مدينة أخرى وفي محاولة اختبارية ـ يقترح تيم أن المشكل يكمن في الوضعية بدلًا من أنفسهم.

لكن الخِطاب المهجن ليس مهيمنًا بالكامل وفقًا لكل من لاكلاو وموف والتحليل النقدي للخِطاب: وهو لم ينجح في تثبيت المعنى بطريقة واحدة، بحيث يكون تمثيله العالم مقبولًا بالكامل على أنه من قبيل الحس المشترك. وبدلًا من ذلك وُجد صراع بين هذا الخِطاب

وخِطاب آخر يقدم إطارًا تفسيريًا مضادًا، هو الخِطاب البيئي الذي عبر عنه جوناثان. ويتم تحليل الصراع الخِطابي في ما يلي بمصطلحات علم نفس الخِطاب. والتركيز هنا ينصب على الطرائق التي يتم بها الصراع خلال التفاوض على المعنى الذي يشارك فيه كل متكلم من خلال الموقع الذي يتخذه لنفسه وللآخرين في الخِطاب.

قبل ذلك، سنقدم فكرة عن كيفية تطبيق التحليل النقدي للخِطاب في تحليل البعد الخاص **بالممارسة الاجتماعية** عبر تلخيص الكيفية التي طُبق بها في دراسة فيليبس. ونحن إذ نعتمد على نظريات سياسات الحياة والسياسات الفرعية والتأثيرات السلبية للنزعة الاستهلاكية في السياسات القائمة على التضامن، فإن غرضنا يتمثل في تسليط الضوء على الآثار الاجتماعية والسياسية للخِطابات. وبالنسبة إلى نظرية سياسات الحياة، فإنه يمكن الاستنتاج على أساس تحليل الممارسة الخِطابية والنص، أن هناك طرائق مختلفة للاقتراب من المشاكل البيئية: فأحيانًا يُفهم العمل المتصل بمشاكل بيئية كبرى باعتباره جزءًا من الممارسة المعتادة، بينما يقع في أحيان أخرى الاحتفاظ به خارجها بحجج متعلقة بالمُعوقات اليومية. إن تمفصل الخِطاب البيئي وخِطاب المستهلك والخِطاب المشكك وخِطاب الإكراهات اليومية في الوقت ذاته باعتبارها خِطابات مهجنةً وباعتبارها في صراع أحادي الواحد منها مع الآخر، يمكن النظر إليه على أنه تعبير عن السياسات الفرعية حيث تُقدمُ الخِطابات المختلفة ادعاءات معرفيةً مختلفةً بما في ذلك الادعاءات المتصلة بتحميل المسؤولية.

يمكن فهم الخِطاب المهجن باعتباره نتاجًا لعملية التفاوض بين خِطاب بيئي يُحمّل مسؤولية المشاكل البيئية للفرد، وخِطاب استهلاكي يعمل فيه المرء من خلال الاستهلاك وخِطاب إكراهات يومية يشرّع للمرء عدم تحمل مسؤولية المشاكل. إن شعورًا بالمسؤولية ناشئًا من التجارب المنقولة عبر وسائل الإعلام وقع التعبير عنه، ولكن وقعت محاصرته من خلال التعبير عنه داخل الخِطاب المهجن الذي يُزود الناس بطرائق لتبرير عدم الالتزام بسياسات الحياة أو بالسياسات الفرعية في ما يتجاوز مقدارًا محدودًا من الاستهلاك السياسي، وهذا يؤكد في ما يبدو النظرة المتشائمة لباومان، القاضية بأن «خصخصة المشاكلِ الإنسانية والمسؤوليةِ عن حلها» تقف سدًّا أمام العمل السياسي الذي يتحدى الأشكال القائمة للانتظام الاجتماعي.

علم نفس الخِطاب

بالاشتراك مع نظرية الخِطاب للاكلاو وموف والتحليل النقدي للخِطاب، فإن صيغة علم نفس الخِطاب لدى ويذيريل وبوتر يمكن استعمالها لتحديد الخِطابات المختلفة المحللة أعلاه باستعمال مقاربة لاكلاو وموف. وعند تطبيق علم نفس الخِطاب، غالبًا ما يحدد الباحثون سمات لغوية من قبيل الضمائر والجهات كما نفعل في التحليل النقدي للخِطاب. ومع ذلك، فعلماء نفس الخِطاب يميلون إلى إيلاء اهتمام أكبر للطرائق التي يستعمل بها المتكلمون الخِطابات باعتبارها موارد مرنة (مخزونات تأويلية) في سياقات تفاعلية محددة، وللسمات اللغوية التي يجريها المتكلمون باعتبارها استراتيجيات

بلاغية لإقامة أوصافهم للعالم باعتبارها أوصافًا صلبة موضوعية وباعتبار الأوصاف المنافسة كاذبة وذاتية. وكما لوحظ سابقًا، فهم كذلك يولون اهتمامًا أكبر لتموقع المتكلمين المرن داخل الخِطابات المختلفة ولطرائق دعم موقعة المتكلمين ذواتِهم والآخرين البناءاتِ المخصوصةَ للعالم أو الاعتراض عليها، منتجين إما إجماعًا على المعنى أو جدلًا حول المعنى. ونحن هنا نوضح كيف يُستعمل علم نفس الخِطاب لاستقصاء الإنتاج الخِطابي للإجماع على المعنى الذي حددته التحليلات الأخرى والجدل حوله.

امتد وصف لاوريتس عدمَ جدوى العمل البيئي على أربع مداخلات (من السطر 25_44)، ولم يُقطع إلا بسؤالٍ من جوناثان وإجابات موجزة من تيم. ويفصل سؤال جوناثان «هل يخلطونها معًا مرة أخرى عندما يجمعونها معًا، أم ماذا تقول؟» بين وصف لاوريتس الشامل للمشكل (الأسطر 25_32) ووصفه حالةً خاصة هي عملية الفرز وعدم جدواها في بلدته (الأسطر 35_38، 41، 43_44). وربما وقع تأويل سؤال جوناثان من لاوريتس باعتباره اعتراضًا خفيفًا، ما دفعه إلى توفير الدعم لمزاعمه العامة في صيغة سرد لحالة ملموسة يمتلك عنها معلومات ثرية على أساس انتمائه الأصلي إلى المكان المذكور. وبينما انطلق تيم ولاوريتس وجوناثان جميعهم في النقاش من طروحات حول أهمية البيئة وقيمتها، فإن جوناثان وحده عبر عن إيمان بالتغيير باعتباره ضرورة أخلاقية: «لا بد لكل الناس من الانطلاق من أن التغييرات يمكن أن تحصل (لا بد لهم) أن يبدأوا بأنفسهم» (السطران 10_11). وهذا يعني أن الإيمان شرط

مسبق لقبول الناس تحمل المسؤولية عن المشاكل. وهو يشير أيضًا إلى فهم انعكاسي(*) لعدم اليقين المرتبط بأعمال الناس. وقد عبر تيم عن دعمه وجهة نظر جوناثان في ثلاث مناسبات (الأسطر 12، 14ـ 21)، ومع ذلك، فعندما يتساءل لاوريتس عن نجاعة فرز القمامة، وتتحول وجهة النقاش ليتركز أولًا على عدم نجاعة العمل، ثم على الحدود التي تفرضها الإكراهات اليومية على عملهم، فإن جوناثان يختفي من المحادثة، باستثناء تدخل واحد سابق في صيغة السؤال الذي أشرنا إليه أعلاه (السطران 33ـ34) الذي يمكن تأويله على أنه اعتراض خفيف على لاوريتس، وباستثناء بعض التدخلات القصيرة لاحقًا (الأسطر 40، 48، 50). وطوال التبادل النهائي للحديث بأكمله ـتبادل الحديث بين لاوريتس وتيم حول معوقات عملهما (الأسطر 53ـ77)ـ لازم جوناثان الصمت. وهو لا ينتمي إلى التوافق أو الإجماع على المعنى الذي بناه تيم ولاوريتس، بما أنه يقدم الدعم للنظام البيئي على أساس واجب أخلاقي يتجاوز النقص في الثقة أو الشك في العلم والسلطة الذي ينتمي إلى الخِطاب المُشكك المُحدد في التحليل المُعتمِد على نظرية الخِطاب للاكلاو وموف.

في ما يتعلق بعلم نفس الخِطاب، يبين التحليل إذًا، كيف وقعت محاصرة التعبيرات عن المسؤولية الشخصية، وأصبح الفشل في الانخراط في عمل سياسي مشروعًا من خلال استعمال الناس المرن

(*) الفهم الانعكاسي هو نوع من الفهم القائم على تأمل الشخص طريقة تفكيره الخاصة، حيث تتحول الذات نفسها إلى موضوع للفهم.

الخِطابات على أنها موارد للمحادثة: تموقع لاوريتس وتيم داخل الخِطاب المهجن الذي يُشرّع لضعف الالتزام بعمل سياسي، يؤدي إلى استبعاد خِطاب جوناثان البيئي الذي يكون فيه ضعف الالتزام غير مشروع. من ثمّ، فإن تحليل علم نفس الخِطاب للتنظيم البلاغي للتفاعل يتماشى مع رؤية التحليل النقدي للخِطاب للآثار الاجتماعية المترتبة على الممارسة الخِطابية، رؤية تدعم، كما لوحظ سابقًا، فهمَ باومان لخصخصة المسؤولية.

إن غرضنا من تقديم هذا النموذج لاستعمال تحليل الخِطاب المتعدّد المنظورات باعتباره منهجية في البحث الاجتماعي كان يتمثل في بيان آليات إطار العمل، كيف يجمع مقاربات مختلفة لتحليل الخِطاب، وكيف يعتمد على النظرية الاجتماعية باستقدام مقاربات ليست من مجال تحليل الخِطاب وترجمتها، وكيف يمكن تطبيق المقاربات المختلفة جميعها في التحليل لإنتاج صيغ مختلفة للمعرفة المتعلقة بحقل الدراسة. وقد وقع تمييز تحليل الخِطاب، بمعنى أن إطارَ تحليلِ الخِطاب المستعملَ هو ما يحددُ الطرائق التي يتم بها استقدامُ النظريات الاجتماعية وترجمتُها. وقد وقع تعريف حقل البحث بدقة على أنه البعد الخِطابي للتغيرات الاجتماعية المتصلة بالتجربة المنقولة المتعلقة بالمخاطر البيئية وللعمل السياسي الذي حددته النظرية الاجتماعية. وفي الوقت ذاته، سعينا إلى إبراز القدرة التفسيرية لتحليل الخِطاب المتعدّد المنظورات، مبينين أنه لا يعتمد على التحليل الاجتماعي فحسب، ولكنه يمكن أن يثري هذا التحليل، بتسليط الضوء على البعد الخِطابي للممارسة الاجتماعية.

الصلاحية

بالانطلاق من عدد من الزوايا المختلفة، ركز هذا الفصل على بناء مشاريع بحثية محددة. والقضية الأخيرة التي ستتم مناقشتها هنا هي كيفية تقويم البحث، بحثنا الخاص وكذلك بحوث الآخرين. والصلاحية هي مسألة معرفة ما هي المعايير التي ينبغي على البحث تلبيتها من أجل أن يعتبر بحثًا أكاديميًا مؤهلًا. عبر قياس البحث بالنظر إلى معايير معينة، يمكن تقويمه على أنه جيد أو رديء. هذه الإجراءات مشتركة بين كل الأعمال العلمية، لكن المعايير المقبولة تختلف. ومناقشة المعايير هي جزء من مناقشة إبستيمولوجية أوسع لخصائص المعرفة العلمية ووضعها. في الإبستيمولوجيات الوضعية يُفترض أن المعرفة يمكن أن تعكس الواقع من دون تحيز، ويقع وضع معايير لضمان مثل هذا الانعكاس. أما في تحليل الخِطاب، وفي البنائية الاجتماعية بشكل عام، فيتم رفض هذا الافتراض، لكن لا يوجد اتفاق على المعايير التي تُطبقُ بدلًا من ذلك.

سنستعمل، نقاطًا أساسية في هذه المناقشة الوجيزة للصلاحية، معيارين من المعايير المعتمدة لـدى بوتر وويذيريل (Potter and Wetherell, 1987)، والمعروضة في الفصل الرابع: هما الانسجام والإثمار. ومعظم البنائيين الاجتماعيين يوافقون على هذين المعيارين، على الرغم من أنهما ليسا مما لا ينازَع فيه. وأحد الاعتراضات على **الانسجام** باعتباره مقياسًا للصلاحية كامن في حجة كون المفارقات والتناقضات تساعد على إثبات أن منظورين قد يكونان غير متوافقين، ولكن كلًّا منهما يبقى صالحًا (مثال ذلك

(Ashmore, 1989; Haraway, 1991; Lyotard, 1984). وهنا، فإن معيار الانسجام يسطّح رسالة البحث، وهي أن الحقائق المتقابلة لا بد من الاحتفاظ بها كما هي. وفي بعض صيغ البحوث الحوارية (انظر الفصل 6)، على سبيل المثال، يقع تقديم **صلاحية السخرية** (Lather, 1993) على أنها مقياس للمعرفة التي تم إنتاجها، حيث يكون الهدف هو تقديم الأصوات المختلفة، وربما المتناقضة، للباحثين والمخبرين على حد سواء، من دون تفضيل أي واحد من المنظورات.

يثير الانسجام مشكلةً أخرى باعتباره معيارًا للصلاحية، وفق تمشي علم نفس الخِطاب، وهي الحجة المتمثلة في أن الانسجام ليس سمةً داخلية في النص: بعض الناس قد يرون فيه تنافرًا بينما يرى فيه آخرون حجة صارمة. ومعيار الصلاحية الذي يأخذ هذا الاعتراض بعين الاعتبار، هو أن البحث لا بد من أن يكون **معقولًا في مجتمع العلماء** (على سبيل المثال Howarth, 2000: 130). وهنا يكون التركيز على البعد الجماعي لإنتاج المعرفة، وما يُعتبر أفضل منتَج بحثي يُنظر إليه باعتباره نتيجة العمليات الخِطابية لإنشاء الحقيقة داخل مجال معين. مع ذلك، فإن هذا المعيار، إذا تناولناه بمفرده، ينطوي على نزعة محافظة كامنة، حيث يتم إنتاج المعرفة وفق الطرائق القائمة المعترف بها فحسب، من أجل كسب القبول، وبالتالي الصلاحية. وإذا تذكرنا وجهة نظر فركلاف حول إعادة الإنتاج والتغيير الاجتماعيين، فيمكن القول إن التمثيلات التي تعيد إنتاج ممارسة خِطابية معطاة تنزع أيضًا إلى إعادة إنتاج النظام الاجتماعي الذي تكون جزءًا لا يتجزأ منه، وعلاقات السلطة السائدة هناك.

إن النزعة إلى المحافظة يمكن أن تُوازن بمعيار **الإثمار**، تأكيدًا لأهمية إنتاج معرفة جديدة. ويركز هذا المعيار على آثار إنتاج المعرفة، أي الطريقة التي يمكن البحث أنْ يعزز بها أنماطًا جديدة من التفكير والعمل. ولكن توجد مقترحات مختلفة حول السياق الذي ينبغي أن ينطبق فيه معيار الإثمار، وفي فهم بوتر وويذيريل يحيل الإثمار على قدرة البحث في توليد تفسيرات علمية جديدة للظاهرة المدروسة، في حين تعتمد كارن ترايسي (Tracy, 1995: 210) المعيار الإضافي المتعلق **بالتأطير المساعد للمشكل**، مؤكدةً أن البحث لا بد من أن يكون مفيدًا على نحو مباشر للمخبرين، مساعدًا لهم على التفكير في أعمالهم[92].

حتى إن انطلقنا من هذه النبذة المختصرة من معايير الصلاحية، فإنه يتضح جليًّا أن اختيار المعايير والجمع بينها يتوقف على نظرة المرء إلى المعرفة العلمية: ما هو الوضع الذي يُسنِده المرء إلى المعرفة العلمية وما الذي يفكر أنها ينبغي أن تُستعمل فيه. هذه هي المناقشة التي ننتقل إليها في الفصل التالي. لذلك، وبدلًا من استباق هذا واتخاذ موقف شامل في هذه المرحلة، سوف نحد مجال عملنا هنا في تحليل نص محدد. طبعًا، فإن مسألة الصلاحية في تحليل النص لا يمكن فصلها عن مسألة الصلاحية في مشروع البحث عمومًا، ولكن السؤال التداولي المتعلق بمعرفة متى نخرج من الدائرة

---

(92) للاطلاع على نقاشات لهذا المعيار للصلاحية وغيره، انظر على سبيل المثال (Denzin, 1997: 7ff.)، و(Potter and Wetherell, 1987: 169ff.)، و(Tracy, 1995: 208ff.).

يُطرح إذا نُظر إلى التحليل، على غرار ما اقترحناه، على أنه حركة دائرية بين فهم شامل للمواد الاختبارية وتحليل لنصوص محددة. متى يكتمل تحليل ما؟ أين يمكن المحلل أن يقطع الدائرة التأويلية ويُنهي التحليل؟ إذا كان موضوع التحليل مدونةً واسعة أو نصوصًا طويلة، أو إذا كان المرء بصدد إجراء تحليل مفصل جدًّا لنص واحد، فسيكون هناك دائمًا المزيد مما يمكن تحليله أو منظورات جديدة يمكن استقصاؤها. وما هو مقدار التحليل الذي ينبغي أن يُضمّن في تقرير البحث؟ لا توجد إجابات نهائية، لكننا نقترح اتباع القواعد العامة الآتية:

- لا بد من أن يكون التحليل **صلبًا**. إذ من الأفضل أن يؤسس التأويل على مجموعة من السمات النصية المختلفة بدلًا من الاقتصار على سمة واحدة.
- لا بد من أن يكون التحليل **شاملًا**. وهذا لا يعني أن كل أبعاد النص يجب أن تُحلل بكل الطرائق الممكنة ـوهو ما يكون مستحيلًا في حالات عديدةـ ولكن أن تتم الإجابة عن الأسئلة المطروحة على النص بشكل كامل، ويجب أن تؤخذ كل السمات النصية التي تتعارض مع التحليل بعين الاعتبار.
- كما ذُكر في الفصل الرابع، لا بد من أن يُقدم التحليل بطريقة **واضحة**، تتيح للقارئ، قدر الإمكان، أن «يختبر» الادعاءات المقترحة. ويمكن تحقيق ذلك من خلال توثيق التأويلات التي تم التوصل إليها ومن خلال تمكين القارئ من النفاذ إلى المواد

الاختبارية أو في الأقل من خلال استنساخ مقتطفات أطول خلال عرض التحليل.

في هذا القسم قدمنا عددًا من معايير الصلاحية، بعضها متوافق وبعضها متعارض. وفي وضع عدم الاتفاق هذا، فإن المعيار الوحيد الأكثر أهمية يتمثل في **شرح معايير الصلاحية** التي نتقيد بها **واتباعها**. وبتحديد المعايير التي يسعى إلى بلوغها، فإن البحث يستدعي مناقشة المعرفة المنتَجَة ونقدها من خلال فرضياته الخاصة به. إن شرح مجموعة القواعد الموجهة والإجراءات التي اتبعت يُمكّن القارئَ من إجراء **نقد محايث** للبحث هو تقويم له من حيث اتساقُه الداخلي. هل تفعل الباحثة ما تقول إنها تفعله؟ وهل إن الفرضيات الفلسفية والادعاءات النظرية والمنهجية المعتمدة تشكل حزمةً متكاملة؟ إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن صلاحية البحث تُنتَقص، ولكن ربما تكون دروب جديدة للمزيد من البحوث قد فتحت.

مناقشة موضوع محدد في البحث قد لا تنتهي إلى نقد محايث. وحتى مع الشرح، فإن معيار صلاحية مشروع البحث قد لا يكون مقبولًا لدى القارئ. والحد من معيار صلاحية الشرح واتباع معيار الصلاحية الذي يلزم به المرء نفسه لا يُمكّنه من الحكم: ما هو أفضل معيار للصلاحية بين أبدال أخرى متاحة. وهو لا يتمكن من الإجابة عن السؤال: إذا كان تقريران للبحث مع مجموعات مختلفة من المعايير يؤديان إلى نتائج مختلفة، فأيهما يُعتمَدُ. إذا لم تكن بالإمكان مناقشة البحوث إلا من حيث اتساقها الداخلي، فإن كل تقرير للبحث،

أو كل مدرسة في البحث، ستصبح جزيرة منغلقة على نفسها، غير قادرة على المشاركة في مناقشة أوسع حول المعرفة والمجتمع. إذا قبل الباحث بفرضية البنائية الاجتماعية، وهي أن المعرفة متجذرة دائمًا في التاريخ والثقافة، وهو ما ينطبق أيضًا على المعرفة العلمية، بما في ذلك النتائج التي توصل إليها الباحث نفسه، فهذه الفرضية تستلزم رفض المعايير الكونية التي يمكن وفقًا لها قياس كل معرفة. ولكن كيف يتسنى لنا بذلك أن نقيم نقاشًا مجديًا عبر معايير صلاحية مختلفة، وعبر رؤى مختلفة للعالم؟ هذه هي القضية المركزية في الفصل التالي.

6- البحث البنائي الاجتماعي النقدي

أي نوع من المعرفة تنتجه بحوثُ تحليل الخِطاب؟ ما هي منزلة نتائجها؟ وفيم يمكن أن تستعمل؟ هذه الأسئلة، التي تُطرح تقليديًّا في كل الأعمال الأكاديميّة، تُشكل جزءًا من نقاش أوسع حول طبيعة المعرفة العلمية الاجتماعية. في هذا الفصل سنقدم جوانب من هذا النقاش بالصيغة التي اتخذها داخل البنائية الاجتماعية. في الفصل الأول أشرنا بإيجاز إلى قضية منزلة المعرفة البحثية، مقدمين الفرضيةَ المضادة للتأسيسانية المتبناة في البنائية الاجتماعية، وهي أن كل معرفة إنما تُنْتَجُ على نحو خِطابي، وهي بالتالي عرضية، وأنه لا يوجد أي إمكان لتحقيق معرفة مطلقة وكونية بما أنه لا يوجد أي أساس لادعاء حقيقة محايدة متحررة من كل سياق. فإذا كانت كل معرفة مندمجة تاريخيًّا واجتماعيًا، وإذا كانت الحقيقة واقعة خِطابيةً بدلًا من كونها وصفًا شفافًا للواقع، فكيف، كما تساءلنا، نتعامل مع المعرفة التي نمتلكها؟ ناقشنا في الفصل الرابع، تحت عنوان الانعكاسية، كيف أن الباحثين يحاولون الإقرار بالدور الخاص بهم في عملية البحث ويُقَوِّمون النتائج بالنظر إلى آثاره. هذه المخاوف تمثل محاولات للأخذ بعين الاعتبار أن الباحث لا يمكن أبدًا أن يكون مجرد «كاميرا على

جدار»(*) ترى الأشياء كما هي فعلًا، وأن إنتاج الباحث للمعرفة، كما هو حال كل الخِطابات الأخرى، هو مُنْتِجٌ، فهو ينشئ الواقع في الوقت ذاته الذي يقوم فيه بتمثيله.

لكن حتى لو كنّا نتابع بوعي هذه الإجراءات الانعكاسية، فلن يكون بوسعنا أبدًا أن ننتج معرفةً «شفافة» بالكامل، تُصور فيها نتائجُنا الواقعَ بدقةٍ لحظةً بلحظةٍ، بحيث نتمكن بذلك من تحقيق سيطرة كاملة على آثار تلك النتائج (راجع Rose, 1997). إن إمكان المعرفة المطلقة هو بدقة ما ترفضه الفرضيات البنائية الاجتماعية.

ويجادل بعض نقاد البنائية الاجتماعية، بالتالي، بأن البنائية الاجتماعية غير صالحة للاستخدام علميًّا وسياسيًّا على حد سواء. هي غير صالحة للاستخدام علميًّا لأنها غير قادرة على تحديد ما هو حقيقي: فكل نتيجةٍ هي مجرد رواية واحدة من بين روايات أخرى عديدة ممكنة للواقع. وهي غير قابلة للاستخدام سياسيًّا لأنها غير قادرة على تحديد ما هو الجيد وما هو الرديء. وعندما يحددُ أحد البنائيين الاجتماعيين ظروفًا اجتماعية ينبغي تغييرُها، فذلك مجرد تعبير عن رأيه العَرَضي الخاص به، كما يجادل النقاد. (Soper, 1990 على سبيل المثال).

(*) حاولنا هنا ترجمة العبارة الإنكليزية (a fly on the wall)، وتعني الإنسان الذي يعرف كل شيء بتلصص وسرية من دون أن يأبه لوجوده أحد، وترجمتها الحرفية «ذبابة على جدار» لا تؤدي الغرض منها في اللغة العربية كما أننا لم نعثر له على مقابل عربي. والمثل الإنكليزي يضرب لمن يراقب الحوادث صامتًا من دون أن يتدخل ويبدي إزاءها موقفًا.

وموقفنا هو أن هذه القراءةَ للبنائية الاجتماعية تشاؤميةٌ جدًا، وفي هذا القسم الأخير من الكتاب، سنبين أن تحليل الخِطاب هو في الواقع مناسب تمامًا للبحوث النقدية الاجتماعية. سنقوم بذلك من خلال تقديمِ مجموعة من المواقف البنائية الاجتماعية المختلفة في هذا الجدل ومناقشتِها، ومن خلال تحديد موقع مقاربات تحليل الخِطاب الثلاث التي تناولناها في هذا الكتاب ضمن الحقل البنائي الاجتماعي الأوسع. وسيكون التركيز على الطرائق التي يمكن الباحثين البنائيين الاجتماعيين أن يعالجوا بها إنتاجهم الخاص للمعرفة. ما هو وضع نتائجه؟ كيف يعزز البحث التغيير الاجتماعي؟ كيف يمكن الكشف عن الجوانب المسلّم بها والمطبعنة لعالمنا؟ كيف يمكن الباحثين أن يأخذوا الدور الخاص بهم في إنتاج المعرفة بعين الاعتبار عند إجراء بحوثهم؟

يتمثل الهدف العام من هذا الفصل في المساهمة بالنقاش الشامل للبحث الاجتماعي بما هو نقد. وسوف نقيم الحجة على أن البحث الاجتماعي البنائي، بما في ذلك تحليل الخِطاب، هو حتمًا، وينبغي له أن يكون مشروعًا نقديًا. وبعد مناقشة مبدئية لما يَدعي تحليلُ الخِطاب أنه يُنتج المعرفةَ به، نمر لتقديم فهم تقليدي للنقد: البحث بما هو نقد للأيديولوجيا. إن تصور البحث على أنه نقد للأيديولوجيا وقع انتقاده بقوة داخل البنائية الاجتماعية، والنقطة الأولى التي نتناولها هي ما إذا كان النقد يجب أن يكون فعلًا الهدف من البحث على الإطلاق. بما أن إجابتنا هنا ستكون بالإيجاب، فإننا نمر إذًا إلى فحص تعريف للنقد في حده الأدنى بما هو إماطة اللثام عن الأفهام

السائدة والمسلّم بها للواقع. وهدفنا هنا هو التنظير لموقف يتخذه الباحث أو الباحثة يُمْكِنه أو يمكنها بالانطلاق منه الكشف عما يُعتبر بطريقة أخرى مسلّمًا به. ونحن نقدم ثلاث استراتيجيات مختلفة لإنتاج المعرفة حول ما هو مسلم به، ونناقش وضع هذه المعرفة. إن مناقشة النسبية ملازمة للفرضيات البنائية الاجتماعية، ونحن نتبين مواقف مختلفة في مناقشة النسبية في مراحل مختلفة من مشروع البحث. وتتمثل نقطة مهمةٌ هنا في أن مسألة النقد ووضع المعرفة العلمية لا تقتصر على إعلان المبادئ الإبستيمولوجية في مقدمة تقارير البحوث. وبدلًا من ذلك، من الضروري التفكير في تبعات المبادئ الإبستيمولوجية في كل مرحلة من عملية البحث، بما في ذلك اختيار النظرية والمنهج وتقديم النتائج في تقارير البحوث، وعلى العكس، من المهم أن نأخذ بعين الاعتبار الكيفية التي تساهم بها الاختيارات التي يقوم بها المرء في مَوْقَعَةِ الباحث بالنظر إلى الإبستيمولوجيا. وأخيرًا، نقوم بجمع الخيوط المختلفة للنقاش في عرض لموقفنا الخاص، محتجين بأن اتباع معايير علمية يُمكّنُ الباحثَ من إنتاج صيغة مخصوصة وقَيِّمَةٍ للمعرفة، وأن درجة السلطة المسندة إلى المعرفة العلمية في النقاشات العامة ينبغي أن تكون موضوع التفاوض الجاري.

«ولكن ماذا عن الواقع؟»

عندما يقدم محللو الخِطاب نتائجهم يُواجَهُونَ أحيانًا بالسؤال «نعم، ولكن هل هو مجرد خِطاب، أم...؟». ويتضمن السؤال

تمييزًا بين الخِطابات وشيء آخر لا يُنظر إليه على أنه خِطابي، وبواسطة الكلمة «لكن»، يُستنتج أيضًا أن هذا الكائن الآخر أساسيٌّ أكثر من الخِطابات. نتعامل مع هذا السؤال على مرحلتين. أولًا، ما الذي يوجد خارج الخِطابات؟ وثانيًا، هل إن العلاقة بين المجالين تراتبية؟ هناك مجموعة من الأبعاد المختلفة التي من المفترض أن تحليل الخِطاب لا يغطيها. هذه الأبعاد تشمل التجارب والمشاعر والجسد، والعالم المادي وأعمال الناس. وللمقاربات الثلاث، كما ناقشنا سابقًا، أفهام مختلفة للعلاقة بين ما هو خِطابي وما ليس بخِطابي. علم نفس الخِطاب، على سبيل المثال، حرص على معالجة بعض المقولات النفسية التي ينظر إليها تقليديًّا على أنها ليست خِطابية -من قبيل المواقف والمشاعر والذكريات- باعتبارها مُشَكّلَةً على نحو خِطابي. وتُعَممُ نظريةُ الخِطاب للاكلاو وموف هذا الموقف، ناظرةً إلى كل واقع على أنه مشكّل على نحو خِطابي، ومضفيةً المشروعية، بالتالي، من حيث المبدأ، على استعمال أدوات تحليل الخِطاب لتحليل كل أبعاد العالم، بما في ذلك الجسد والعالم المادي. ولكن على الرغم من أن المقولات من قبيل الجسد يمكن من حيث المبدأ، أن تُؤخذ بعين الاعتبار في تحليل الخِطاب نظريًّا، فذلك لا يعني أن نظرية الخِطاب توفر تنظيرًا مُرْضِيًا للجسد. فلا واحدةَ من مقارباتنا قامت بذلك. وإذا كان مركز الاهتمام هو الجسد، فإن فكرةً جيدة تتمثل في قراءةِ نظريةٍ أكثرَ تطورًا للجسد ومحاولةِ ترجمتِها إلى منظور تحليل الخِطاب الذي وقع اختياره.

ويميز التحليل النقدي للخِطاب بوضوح أكثر بين ما هو خِطابي وما ليس بخِطابي. وفي ما يتعلق بهذه المقاربة، فإنه من المنطقي بحسب ما يبدو، أن نتساءل إذا ما كان شيء ما «مجرد خِطاب» أو إن كانت الممارسات غير الخِطابية ذات الصلة قد درست أيضًا. ولكن ما يبدو غير منطقي في كل من هذه المقاربات أن نتساءل إذا كان شيء ما «مجرد خِطاب»، إذا كان مقصود المرء أن الخِطابات ظاهرة سطحية وأن جوهر الاجتماعي لا بد من أن يُحلل في مستوى أكثر جوهرية، ذلك أنه إذا كان ما يسأل عنه المرء حقًّا هو «هل هو مجرد خِطاب، أم أنه أيضًا واقع؟»، فإن كل المقاربات تنظر إلى الخِطاب على أنه (في الأقل جزئيًّا) مكون من مكونات الاجتماعي، لكن أن يكون الاجتماعي مكوَّنًا، فذلك لا يعني أنه ليس واقعيًّا. العالَم الاجتماعي المكوَّن يوفر شروط إمكان العمل وينتج آثارًا بطريقة العالم المادي المُحْكَمَة نفسها.

إن الواقع هو ما نقول إنه كذلك، وفقًا لرسم ساخر في البنائية الاجتماعية، فإن قلنا إنه مختلف، يكون مختلفًا. وإن قلتُ صباحًا إنني رجل، فهذا إذًا ما أنا عليه، ثم إن قلت في المساء إنني امرأة، فأنا كذلك. هذا الرسم الساخر هو صحيح وخاطئ في آن واحد. في مستوى المبدأ هو صحيح، من خلال إسناد المعاني إلى ذواتنا وإلى العالم المحيط بنا يمكننا أن نفهم ونفعل في العالم، وبهذا المعنى فإن كلًا من ذواتنا ومن عالمنا هي المعاني التي نسندها إليها. إن المعاني عرضية، ولذلك هي متغيرة، فإن تغيرت، فإن الذات والعالم المحيط بها يتغيران أيضًا، متيحيْن إمكانات أخرى للتفكير والفعل. لكن، في

وضعية معينة، تكون أغلب المعاني ثابتة نسبيًا، ولا تمتلك الذوات الفردية إلا إمكانات محدودة للتصرف فيها. إن التغيرات في عمليات إسناد الدلالة هي عمليات اجتماعية جماعية. إن أعلن فرد واحد أنه، خلال المساء، خضع لتغيير جنسه، فمن غير المرجح أن هذا التغيير في الهوية سيكون مقبولًا لدى المحيطين به أو أن فهمنا لنوع الجنس سيتغير فجأة. الثوابت القائمة في الدلالة هي أكثر استقرارًا من ذلك.

إن أغلب محللي الخِطاب (وربما أغلب الباحثين بشكل عام) يرغبون في المساهمة، من خلال بحوثهم، في تغيير العالم نحو الأفضل. بالنسبة إلى محللي الخِطاب، يقع السعي إلى تحقيق هذا الطموح من خلال إبراز الآثار السلبية لتثبيتات معينة للدلالة بهدف فتح المجال لطرائق أخرى في فهم العالم، فهُم يسعون، بذلك إلى زعزعة أنظمة الدلالة السائدة. لكن أحد الأسباب المهمة لهذه الدرجة من استقرار أنظمة الدلالات يتمثل في أن كثيرًا من أفهامنا للعالم هي مطبعنة، أي أننا، ننظر إليها لا على أنها أفهام للعالم ولكن على أنها هي العالم. لذلك، فإن هدفًا أساسيًا من أهداف تحليل الخِطاب يتمثل في إماطة اللثام عن الأفهام المسلّم بها والشائعة ورسم حدودها، محولًا إياها إلى موضوعات محتملة للمناقشة والنقد، وبالتالي، مفتوحة للتغيير.

يعاني هذا التطبيق للمعرفة المتأتية من تحليل الخِطاب صعوبةً إبستيمولوجية، إذ كيف يمكن الباحثين اكتشاف الأفهام الشائعة في مجتمعاتهم إذا كانوا هم أنفسهم جزءًا من المجتمع، ويتقاسمون

كثيرًا من تلك الأفهام؟ إن مسألة إمكانات تحديد الأفهام الاجتماعية المُطَبعنة هي محور مركزي في ما يلي، ضمن سياق المناقشة الشاملة للبحث النقدي، ما هو وما يمكن أن يكون عليه.

نقد الأيديولوجيا

كل مقاربات تحليل الخِطاب التي قُدمَت في هذا الكتاب تَفهمُ نفسها على أنها نقدية بطريقة أو بأخرى. وعلى أساس بحثي، هي تهدف إلى نقد الظروف الاجتماعية غير العادلة وإلى المساهمة في تحسين تلك الظروف. للبحث النقدي تاريخ طويل في العلوم الاجتماعية والإنسانيات على حدّ سواء، لكن فهم النقد ما هو، وعلى نحو خاص، ما هي أسسه، فذلك يختلف وفق التقاليد المختلفة.

إن نقد الأيديولوجيا ـالذي انتشر على نطاق واسع في السبعينيات من القرن العشرين والذي تمتد جذوره التاريخية إلى ماركس ومدرسة فرانكفورتـ يمثل أحد أنواع النقد المهمة. في هذه الرؤية، تكون علاقات السلطة في المجتمع مصحوبة بلغة هيمنةٍ تقوم على نحو منهجي بحجب الواقع. والهدف من النقد هو تقويض السلطة من خلال الكشف عن الحقيقة وراء الأيديولوجيا. مثال ذلك، أن الناس قد يشيرون إلى أنه توجد في مجتمعاتنا مساواة بين الجنسين. وفي الوقت ذاته، قد يكشف البحث الاجتماعي أن الرجال يتقاضون أجورًا أكثر من النساء، وأن النساء ينفقن بشكل منهجي وقتًا أكثر من الرجال في المهمات المنزلية. يوجد إذًا تباين بين ما تكون عليه الأشياء حقًّا وفهم الناس لما تكون عليه الأشياء،

وهذا التباين يوفر مبررات النقد. إن الناس لا يرون الواقع بشكل صحيح لأن الأيديولوجيات تزيف رؤيتهم إلى العالم. مثال ذلك، أنه قد توجد أيديولوجيا تعتبر أن الجنسين متساويان الآن، بعد عدة سنوات من الصراع. وهذه الأيديولوجيا قد تعزز التراتبية المُهَيْمَن عليها ذكوريًا في سوق العمل، وربما عززت الهيمنة النسوية على الشؤون المنزلية. الأيديولوجيا إذًا تعزز العلاقات غير المتكافئة للسلطة ولكن الناس لا يتمكنون من رؤيتها لأنهم يعانون من الوعي الزائف: فما يرونه هو الأيديولوجيا بـدلًا من الواقع. وفي نقده الأيديولوجيا المهيمنة، يتمثل دور الباحث في فضح الأيديولوجيا بما هي تزييف، حتى يكتسب الناس إمكان رؤية ما وراء الأيديولوجيا وتغيير الواقع.

بإيجاز، فإن نقد الأيديولوجيا المهيمنة يهدف إلى كشف السلطة بواسطة الحقيقة. هذا الفهم للنقد كان موضوعًا لنقد شديد من طرف الباحثين الاجتماعيين البنائيين. انتُقد أولًا، لتمسكه بالمفهوم الماركسي التقليدي للمجتمع، حيث تُحَدد القاعدةُ البنيةَ الفوقية، أو بمصطلحاتنا، إن الخِطابات تتشكل بالظروف غير الخِطابية، وفي المقام الأول الاقتصاد. ثانيًا، لأنه يفترض وجود حقيقة عن الأوضاع الاجتماعية وراء الخِطابات وأن الباحث لديه امتياز النفاذ إلى تلك الحقيقة. ثالثًا، لأنه يعتبر أن هذه الحقيقة متحررة من السلطة (راجع :Foucault, 1980 118، وانظر أيضًا Barrett, 1991; Billig and Simons, 1994).

هذه الفرضيات تتضارب مع البنائية الاجتماعية، حيث يُنظر إلى الحقيقة على أنها متداخلة مع السلطة ويُنظر إلى الحقائق

التي يقع إنتاجها (بما في ذلك تلك التي ينتجها الباحث) على أنها عَرَضية تاريخيًّا واجتماعيًّا. ولكن هل يعني هذا أن البحث النقدي الاجتماعي البنائي مستحيل؟ هل يعني ذلك أن كل الحقائق متساويةٌ في الجودة (أو متساوية في السوء)؟ وفقًا لتشخيص مايكل بيليغ وهربرت سايمونز (Simons, 1994)، فإن مقدارًا كبيرًا من البحوث النقدية يقع إنتاجه، لكن النقد فيها تجاوز الحد، فأي شيء، وكل شيء، يُنتقد، وكل حقيقة هي مُعرضة للنقد والتفكيك. لقد أصبح النقد «فوضويًّا»، كما يقولان، بما أنه لم يعد مرتبطًا بمشروع سياسي، منذ أن فقدنا الإيمان الراسخ بالمبادئ السياسية الحقيقية على نحو ما يقوم به المنظرون لنقد الأيديولوجيا (6 :1994).

كان هذا النقاش للعلاقة بين العلم والسياسة، وبالتالي لإمكانات البحث النقدي، طويلًا ومكثفًا داخل البنائية الاجتماعية. ويبدو كما لو أن حقل النقاش يعاني من مفارقة، حيث يُنظر إلى البحث على أنه في آن واحد أكثر وأقل تسييسًا من ذي قبل. من جهة، فإن من ضمنيات المنظور البنائي الاجتماعي أن البحث هو دائمًا سياسي. البحث لا يستطيع أبدًا أن يحرر نفسه من القيم بما أنه يتنزل دائمًا في سياق ثقافي وتاريخي محدد. والبحث الذي يتم إنتاجه عن العالم هو سياسي بحكم طابعه الإنجازي: أي أنه يفعل في العالم من خلال تشكيله على أنحاء معينة بدلًا من أخرى. مثال ذلك أن علم الإناسة التقليدي يساهم بقسمته العالم إلى «نحن» و«هم» في إضفاء المشروعية على هيمنة الغرب من خلال الاحتلال والاحتلال الجديد

(Fabian, 1983). من وجهة نظر بنائية اجتماعية، لا يستطيع البحث أن يتجنب أن يكون سياسيًا.

من جهة أخرى، فإن القلق المعبر عنه من جهة منظرين مثل بيليغ وسايمونز هو أن الفرضيات البنائية الاجتماعية تجعل البحث أقل تسييسًا. والحجة هي أنه إذا لم تعد البنائية الاجتماعية قادرةً على تقديم حقائقَ مطلقةٍ أو مُثُلٍ معيارية، فإن البحث بذلك سينتهي إلى النسبية حيث إن الناس إما أن ينتقدوا أي شيء على الإطلاق من دون أي استراتيجية سياسية، وإما أن يقبلوا كل شيء من دون اتخاذ موقف سياسي، لأنهم لا يريدون أن يمنحوا أنفسهم سلطةً زائفة من خلال نقد حياة الآخرين وآرائهم.

نناقش في بقية الفصل، على أساس مسألة النقد، مجموعةً من المقترحات المختلفة لما يمكن أن يستعمل فيه البحث البنائي الاجتماعي. نحن لا نأمل بأن نستنفد النقاش ولن نحاول تقديم عروض مفصلة لأعمال الكُتاب التي نتناولها. بدلًا من ذلك، فإننا نستعمل الكُتابَ المختلفين لتحديد مجموعة من المواقف الأساسية في النقاش - ومجموعة من الإجابات الممكنة عن سؤال البحث النقدي.

كل المساهمات في النقاش تتقاسم الاهتمام المشترك بما يمكن ويجب أن يستخدم البحث فيه. هي تتفق كلها في أن العلم لا يمكن أن ينسب إلى المعرفة الخاصة به منزلة «الحقيقة» في مقابل «الوعي الزائف» لدى الآخرين. لكن الإجابات عن ماهية النقد وعن كيفية النظر إلى العلاقات بين النقد والعلم والمجتمع، مختلفة. ولها

تبعات مختلفة، ليس بالنسبة إلى ما نفعله بالنتائج عند اكتمال البحث فحسب، ولكن أيضًا بالنسبة إلى الكيفية التي سنجري بها عملية البحث ذاتها، على نحو خاص، كيف نبني إطار عمل تحليليًّا، وكيف ننتج المواد الاختبارية ونحللها وكيف نُحَرر بحوثنا ونقدمها. هكذا، وعلى الرغم من أنه لا توجد إجابات سهلة عن سؤال وضع المعرفة التي تم إنتاجها علميًّا وكيف يمكن تطبيقها بطريقة مسؤولة، فمن المهم أن نتخذ موقفًا وأن نُفَصل البحث وفقًا له.

نقد معدَّل للأيديولوجيا

إحدى الإجابات عن السؤال حول إن كان من الممكن القيام ببحوث نقدية يمكن وسمها «بنقد الأيديولوجيا المعدل». هذه المقاربة تحتفظ بالمبادئ الأساسية لنقد الأيديولوجيا، وهي أن رؤى الناس للعالم لا تتطابق مع الواقع دائمًا، وأن البحث يجب أن يجعل رؤى أفضلَ للعالم متاحةً. وفي الوقت ذاته، هي تعدل نقد الأيديولوجيا من خلال تلطيف التراتبية بين معرفة الباحث ومعرفة الناس الآخرين، فالوصول إلى الحقيقة لم يعد يُنظر إليه على أنه امتياز علمي.

يمثل تحليل فركلاف النقدي للخِطاب مثالًا لهذه الصيغة المعدلة لنقد الأيديولوجيا. ووفقًا للتحليل النقدي للخِطاب، يمكن الخِطاب أن يكون أكثر أدلجةً أو أقل أدلجة. أكثر الخِطابات أدلجةً هي تلك التي تقدم تمثيلًا مشوهًا للواقع (تمثيل مزيف)، وبذلك تساهم في الحفاظ على علاقات الهيمنة في المجتمع (Chouliaraki and Fairclough,

(.1999: 32f). في هذا، نحن نستمع إلى صدى نقد الأيديولوجيا: لا بد لتحليل الخِطاب من أن يكشف التمثيلات الأيديولوجية وأن يسعى إلى تعويضها بتمثيلات أكثر ملاءمةً للواقع.

مع ذلك، فالتحليل النقدي للخِطاب يعدل نقد الأيديولوجيا التقليدي في بعض الجوانب، لا سيما لدى تشولياراكي وفركلاف (Chouliaraki and Fairclough, 1999). والمؤلفان لا يزالان يصران على أن بعض التمثيلات أكثر صدقًا من أخرى، ومع ذلك، فهما يريان أن ما هو صادق لا ينبغي أن يتم تحديده من النخبة العلمية لكن من خلال مناقشة عامة ديموقراطية تتم فيها مقارنة تمثيلات مختلفة بعضها مع بعض في ما يتعلق بكل من محتواها وآثارها الاجتماعية. هذه هي مهمة العلم، وهي أن يساهم في ضروب النقاش العام للمعرفة التي لا ينتجها الناس عادةً أو تكون متاحةً لهم في الممارسات المعتادة (1999: 33). وبالتالي، فإن المعرفة العلمية يتم التعامل معها هنا على أنها مساهمة في النقاش العام بدلًا من كونها القول الفصل في الحقيقة.

لكن حتى مع هذه التعديلات، فإن التحليل النقدي للخِطاب يصوغ سؤال النقد بطريقة ينأى كثير من البنائيين الاجتماعيين الآخرين بأنفسهم عنها. مثال ذلك، كما ناقشناه فعلًا في الفصول السابقة، وسنراه في ص 350، أنه يوجد خلاف حول مسألة إن كان من الممكن التمييز بين خِطابات أكثر أدلجةً أو أقل أدلجة. قبل المزيد من النقاش حول النقد المعدل للأيديولوجيا الذي صاغه التحليل النقدي

للخِطاب، سَنُحَدد مجموعةً من المواقف الأخرى في النقاش. ونبدأ بالتراجع خطوةً إلى الوراء. حتى الآن قدمنا المناقشة على أنها سؤال حول كيفية إنتاج المعرفة النقدية. هذا السؤال يتضمن مقتضيين اثنين، أن البحث يمكن أن ينتج معرفةً وأنه ينبغي لها أن تكون نقدية. لكن ليس كل البنائيين الاجتماعيين يقبلون بهذين الافتراضين.

نقد النقد

استَعملَ نقدُ الأيديولوجيا البحثَ لإنتاج معرفة بالعالم كانت معارضةً لأفهام الناس وأفضلَ منها. وتنأى البنائية الاجتماعية بنفسها عن ذلك على أساس فرضية أن المعرفة ليست أبدًا انعكاسًا مباشرًا للعالم، فرضية تنطبق على المعرفة العلمية تمامًا بمقدار ما تنطبق على أشكال المعرفة الأخرى. وتوجد طريقتان لتناول نتائج هذه الفرضية. فبالنسبة إلى معظم البنائيين الاجتماعيين، لا يزال الهدف من البحث هو معرفة شيء ما عن العالم وإنتاج تمثيلات للعالم هي على أكبر مقدار ممكن من الجودة، وفرضيةُ أن المعرفةَ محددةٌ تاريخيًا وثقافيًا، تمكنُ معالجتُها من خلال أشكال مختلفة من الانعكاسية. لكن بالنسبة إلى قلة من البنائيين الاجتماعيين، فإن المعرفة، بمعنى التمثيل، مستحيلةٌ، وبالتالي فليس من مهام البحث أن ينتج المعرفة بهذا المعنى. وسنبدأ بمناقشة هذا الموقف الأخير.

ينتقد عالم الإناسة ستيفن تايلر (Tyler, 1986) نموذج التمثيل المتبع في العلم الحديث، ألا وهو الاعتقاد بأن الواقع يمكن أن ينعكس في النصوص العلمية، إذ من خلال الحقيقة المطلقة

الموعودة، مارس العلم سلطة على حياة الناس العاديين وانتقص معرفتهم المعتادة. إن التمثيل أو **المحاكاة** مستحيلان، وفقًا لتايلر، لذلك ينبغي للعلوم من قبيل علم الإناسة أن تتخلص من مُثُلِها العلمية وأن تتوقف عن محاولة إخبارنا عن العالم ما هو. وبدلًا من ذلك، يجب عليها أن «تستحضر» على نحوٍ باطني وأكثر شاعريةً ما لا يمكن قوله، من أجل أن تجعلنا نفكر في أنفسنا، من نحن؟ وما الذي يجب علينا القيام به[93]؟

في هذا النوع من النظريات، لا يُطرح سؤال النقد على الإطلاق، بما أن هدف العلم ليس إنتاج وصف للعالم، ولكن إنتاج تأثيرات في العالم. وفي الوقت ذاته الذي يهدف فيه إلى تغيير العالم، فإن النقد يستلزم أن يتم استبدال تمثيل أفضل للعالم بتمثيل آخر، وهذه هي الفكرة التي يعتبرها تايلر ساذجةً وحتى مدمرة.

وتتوقف حجة تايلر على إمكان كتابة النصوص غير التمثيلية. والنص الخاص به لم يُكتب في صيغة علمية تقليدية، وبدلًا من ذلك هو يمزج الحجج بمقاطع تغلب عليها الصبغة السردية الشعرية، وبذلك هو يستحضر رسالته بدلًا من التعبير عنها صراحة. ولكن حتى مع هذه الصيغة التجريبية للتقديم، فإننا لا نعتقد أن النص يتحاشى تمثيل العالم. ومن الواضح جدًّا، في المقطع التالي، أن تمثيلًا معينًا للعالم استعمل حجةً لكيفية كتابة إثنوغرافيات (ethnographies) في الموضوع المتناول:

---

(93) انظر (Deleuze and Guattari, 1987: chap. 1) للاطلاع على تصور للتمثل شبيه بهذا من نواح عديدة.

«إن إثنوغرافيا ما بعد الحداثة متشظية لأنها لا تستطيع أن تكون على خلاف ذلك. إن الحياة في الواقع هي نفسها متشظية، وليست منتظمة كليًّا حول مقولات عرقية مألوفة من قبيل القرابة والاقتصاد والدين [...]» (Tyler 1986: 131).

هنا يصف تايلر حالة الحياة في الواقع -وهي أنها متشظية- وكيف يجب أن تكون الإثنوغرافيا متشظيةً تبعًا لذلك. وبذلك، فإن تايلر يؤسس حجته على وصف للواقع، على تمثيل. وفي هذا المقطع المحدد، هو يُحاجُّ بأن الإثنوغرافيا لا بد من أن تعكس العالم (بأن تكون متشظيةً)، في مقابل ادعائه أن التمثيل مستحيل.

ووجهة نظرنا هي أنه حتى إن كان من المستحيل، وفقًا لفرضيات البنائية الاجتماعية، أن نميز على نحو قاطع بين التمثيل والواقع، وإن لم يكن التمثيل قط انعكاسًا مباشرًا للواقع، فإننا في نصوصنا لا نستطيع تجنب التمثيل، وبالتالي تقديم صورة ما للواقع. ويتمثل مشكل آخر مع نظرية تايلر في أنه يدعو إلى إخراج علم الإناسة من دائرة العلم واعتناقه بدلًا من ذلك نوعًا من الشعرية أو العلاج. وعلى الرغم من أن العلم الحديث قد يكون اتبع مُثُلًا ساذجةً وأن له آثارًا سلبية، فنحن لا نرى أي مبرر لرفض كل القواعد والمعايير العلمية. وعلى النقيض من ذلك، كما سنبين، فإنه يجب الحفاظ على الإنسانيات والعلوم الاجتماعية باعتبارها مجالًا لإنتاجِ مختلف تمثيلات العالم ومناقشتِها وتقويمِها على أساس مجموعة من المعايير المشتركة.

إذا كانت النصوص العلمية، كما أوضحنا، تُمثل العالم حتمًا، فإن هذا يفتح إمكان استبدال تمثيل عالم ما بآخر من خلال النقد. ولكن لا

يوافق كل الناس على هذا التصور المثالي. والمشكل هو أن النقد، في الغالب، يتضمن علاقةً غير متكافئة بين من يَنقدون ومن يُنقدون، كما هو الحال في نقد الأيديولوجيا، حيث يمتلك الباحث الحقيقة بينما يمتلك الآخرون وعيًا زائفًا. وإذا أردنا القيام بالبحث وفقًا لفرضيات البنائية الاجتماعية، فلا يمكننا تمييز المعرفة العلمية على هذا النحو. وهذا يثير السؤال عن ماهية المعرفة العلمية، وإن كان يمكن القول إنها بأي حال أفضل من أشكال المعرفة الأخرى، وهو سؤال سنعود إليه لاحقًا. ويرى بعض الباحثين أن العلاقة غير المتكافئة بين الباحث والمبحوث فيه التي يميل النقد إلى أن يجعلها من مقتضياته هي على مقدار من الإشكال، بحيث يجب علينا أن نكون حذرين من القيام بنقد الهدف الذي رسمناه للبحث.

من بين أولئك الذين يجعلون النقد إشكاليًّا على هذا النحو عالم إناسة العلوم برونو لاتور (Latour, 1999)، الذي يحتج بأن النقد ليس ضروريًّا بما أن الناس يعرفون مسبقًّا ما يجب أن يعرفوه، فالناس لا يحتاجون إلى باحثين يدورون ويحورون ناشرين أوهامهم، وهو ما يحتج له عالم النفس الاجتماعي كينيت غرغن بطريقة مشابهة. وعلى الرغم من أنه لا يرفض مفهوم النقد تمامًا، فإنه يحذر من الآثار السلبية للبحث بما هو نقد (Gergen 1994b, 1998). ويجادل غرغن بأن النقد يتضمن ما يسميه «الأنطولوجيا المزدوجة» (1994b: 60) ووفقًا لغرغن، فإن النقد هو دائمًا في تبعية لما ينقده. والمرء عند نقده شيئاً ما، هو في الوقت ذاته يقويه. وأصبح النقاش مستقطبًا بين «مع» و«ضد»، بحيث إن الحجج غير الموافقة لهذا المعسكر أو ذاك يقع استبعادها،

وقد وقع الاحتفاظ بنقاشات أخرى أيضًا خارج جدول الأعمال. إضافةً إلى ذلك، كما يستدل غرغن، فغالبًا ما يُتعامل مع النقاش على أنه نوع من الحرب ومع النقد على أنه هجوم على جوهرنا الباطن. لذلك، لا يؤدي النقد إلى حوار، ولكن إلى قطيعة. وفي استعارة أخرى، فإن المرء عندما ينتقد آراء شخص آخر، فهو يبني موقفه كما لو كان أبًا حكيمًا يهذّب طفلًا، كما ينص عليه غرغن (1994b: 63). وبقيامه بذلك، فإن النقد يُسكت الطرف المقابل، مُعيقًا النقاش الديموقراطي، وهو أمر ينطوي على مفارقة بارزة في حالة النقد لدى البنائيين الاجتماعيين بما أن البنائية الاجتماعية تسعى إلى تجنب كل النزَعات الشمولية (1994b: 67f.). والنتيجة بذلك هي أن النقد يُجمد النقاش، إذ يختزل الأصوات التي تمكنها المشاركة فيه ويجمعها في أقطاب.

والأمر المثالي لدى غرغن هو نقاش يتشكل من مشاركات مختلفة متنافسة. ونقطة الانطلاق لديه هي أن إنتاج المعرفة هو عملية اجتماعية تُتخذ فيها القرارات جماعيًا. هذه الشراكة تستلزم، في مناقشة موضوع محدد، أن يكتسب كل واحد من الأفراد معرفةً بعدد مختلف من الحجج. ويقترح غرغن، على سبيل المثال، أن لا نُخضع النقاش حول موضوع معين لاستقطاب حول من هو «مع» ومن هو «ضد» بُعْدٍ واحد من أبعاد الموضوع، ولكن أن نتابع بدلًا من ذلك الحجج المختلفة باعتبارها شبكةً من الخيوط تشكل تدرُّجيًا مشهدًا مركبًا (1994b: 71ff.).

ونحن نتفق تمامًا مع الرؤية البنائية الاجتماعية التي قدمها غرغن وهي أن إنتاج المعرفة لا بد من أن يُفهم على أنه عملية جماعية

(راجع Calhoun, 1995: chap. 6)، ومقترحه بأن نأخذ ذلك بعين الاعتبار في نقاشات محددة يمكن أن يمثل طريقةً جيدة للحفاظ على تعقيد موضوع النقاش. ومع ذلك، ففي حين أن تجارب من هذا النوع الذي يقترحه غرغن يمكن أن تكون إضافةً نوعية للنقد بما هو ممارسة علمية، فإننا لا نعتقد أنها بديل ملائم للنقد. إن مقترحات غرغن يمكن أن تساهم في رؤية موضوع النقاش من منظورات عديدة وفي فهم أفضل لحجج الآخرين. ولكن مقترحاته، في نظرنا، تعني أيضًا أن كل الحجج جيدة على حد سواء، وأنه من خلال الفهم، يمكننا حل كل صراعات الدلالة.

تستند شكوك غرغن حول مفهوم النقد إلى التراتبية التي يبنيها بين الباحث والعالم المحيط به. وهو يصوغ العلاقة بينهما كأحد أبوين راعيين في مقابل طفل ويسعى إلى تعويضها بعلاقات أكثر توازناً. ويترتب على استعارة الأب/ الطفل أن يقع إنكار أحد طرفي المحادثة بطريقة شرعية. ونحن نوافق على أن مفهوم النقد ينطوي على عدم التوازن، ولكننا لا نعتقد أن ذلك يستلزم بالضرورة إنكار شرعية الطرف المقابل. علاوة على ذلك، فنحن نرى أن معادلةَ النقد بأنطولوجيا مزدوجة لدى غرغن تُقَلصُ بشكل غير عادل من نطاق مفهوم النقد. وفي استعارة أخرى، يشمل النقد غالبًا ـ باعتباره ممارسة علمية ـ «فضْحَ» معرفة مطبعنة مسلمٍ بها قد تكون مشتركةً بين المساهماتِ المتنافسةِ داخل نقاشٍ ما. وإلى حد كبير، نحن نقبل هذه الاستعارة، ونحافظ على النقد هدفًا للبحوث الاجتماعية. ولكن هل تعود بنا هذه الصياغات إلى الوراء إلى ما يتضمنه نقد الأيديولوجيا

من بحث عن الحقيقة في ما وراء كل الأوهـام؟ ليس بالضرورة، وسنقوم، في الصفحات التالية، باستقصاء بعض الاحتمالات البديلة.

نقد المسلمات

كشف المعرفة المسلّمة والمطبعنة هدف يُعَبرُ عنه غالبًا على نحو صريح في البحوث البنائية الاجتماعية (انظر مثلًا Marcus and Fischer, 1986: chap. 6؛ وراجع Brown, 1994: 24). هنا يكون المشروع النقدي مسألة إزالة الطبعنة عن الأفهام المسلّمة للواقع. ونقطة الانطلاق هي أن تمثيلاتنا للعالم هي دائمًا عرَضية ـوكان من الممكن أن تكون مختلفة ـ وعندما نتعامل مع شيء ما على أنه مسلم، فإننا ننسى أنه كان من الممكن أن يكون مختلفًا. وبما أن المسلمات تحد من مجال إمكانات التفكير والفعل، فإن كشفها يمكن أن يفتح مجالًا سياسيًّا للإمكانات الأخرى، ويمكن أن يُمثل تبعًا لذلك هدفًا في حد ذاته للبحوث النقدية.

وهذه هي الحال، على سبيل المثال، بالنسبة إلى نظرية لاكلاو وموف في الخِطاب[94]، ففي نظريتهما حول ممارسات الهيمنة في الخِطاب، يبني لاكلاو وموف تصورًا للكيفية التي يَتَوصل بها الواقع لأن يبدو طبيعيًّا وغير عَرَضي. وهما يقترحان أن الخِطاب من خلال حواجز الهيمنة، يُثَبتُ الدلالات بطرائق محددة، وبذلك يستبعد كل ممكنات الدلالة الأخرى، وأنه من خلال الأساطير حول المجتمع

---

(94) انظر أيضًا (Butler, 1993: chaps. 7 and 8) للاطلاع على فهم شبيه جدًّا للحس المشترك والنقد والديموقراطية الجذرية.

والهوية، تبدو البناءات الخِطابية أبعادًا طبيعية ومُحَدِّدةً للواقع. إن هدف لاكلاو وموف هو مجابهة حواجز الهيمنة من خلال السير في الاتجاه المعاكس: فهما يسعيان، من خلال التفكيك، إلى إظهار أن الكيانات التي نراها موضوعيةً وطبيعية هي، في الواقع، توليفاتٌ عَرَضيةٌ من العناصر كان من الممكن دائمًا أن تتمفصل على نحو مختلف.

كما ذُكر في الفصل الثاني، فإن لاكلاو يُسوي بين الأيديولوجيا والموضوعية، ومشروع نظرية الخِطاب هو بذلك، بمعنى من المعاني، مشروع نقد الأيديولوجيا، على الرغم من أنه مختلف جدًّا عن نقد الأيديولوجيا التقليدي. ومع أن لاكلاو يلتزم بتعريف الأيديولوجيا في نقد الأيديولوجيا على أنها تشويه للواقع، فإنه يرى هذا التشويهَ جزءًا لا مفر منه من كل تمثيل للعالم. ولكي نكون قادرين على الانخراط في كلام مفيد، يجب علينا دائمًا أن نَحُد من ممكنات دلالة الكلمات التي نستعملها، وعلينا أن نفترض أن هناك أشياء من قبيل المجتمع والأشخاص يمكن أن نقول فيها شيئًا مفيدًا. وهنا يكمن التشويه الأيديولوجي بما أن هذه العمليات تستلزم إضفاءً للموضوعية ينفي الطابع العَرَضِي الملازم لكل إسناد للمعنى (Laclau, 1990: chap. 2; 1996a).

نظرية لاكلاو وموف في الخِطاب هي إذًا نقد للأيديولوجيا بمعنى أنها تهدف إلى كشف العَرَضية وتفكيك الموضوعية لكنها، على النقيض من نقد الأيديولوجيا التقليدي، لا تستطيع أن تقدم أي

حقيقة متحررة من الأيديولوجيا، فالباحث محكوم عليه أيضًا بأن يشوه الواقع من خلال تعريف الأشياء والكلام المفيد حولها.

إن صياغة نظرية الخِطاب للمشروع النقدي تثير عددًا من الأسئلة. فقد انتقد كرايغ كالهون (Craig Calhoun)، على سبيل المثال، نوع النظريات التي ترى السلطةَ في كل مكان وترى كل ملفوظٍ أيديولوجيا. ومن خلال النظر إلى كل البناءات على أنها أيديولوجية على قدم المساواة، فإن هذا النوع من النظريات، كما يدعي كالهون، يستبعد إمكان التمييز بين تلك المساهمات التي تحسن العالم وتلك التي لا تحسنه، ونتيجةً لذلك، يغدو النقد موجهًا، على نحو هدام، إلى كل شيء على الإطلاق (Calhoun, 1995: 64). انطلاقًا من منظور كالهون، يمكن المرء أن يتساءل كيف تُحدد نظرية الخِطاب ما يُنقد، وما الذي ينبغي للباحث أن يقدمه في المقابل. هل تتعاطى نظرية الخِطاب لدى لاكلاو وموف «النقدَ السلبي» فحسب (Brown, 1994: 23f.)، حيث تنتقد الأوضاع القائمة من دون اقتراح أبدال أفضل؟ إن نظرية الخِطاب تقوم، في الواقع، بتقديم يوتوبيا إيجابية، حيث يمكن البحث أن يساعد في تحقيق ـ وهو ما نعنيه ـ يوتوبيا «الديموقراطية الجذرية» (Laclau and Mouffe, 1985: chap. 4 ; Mouffe, 1992). إن ديموقراطية تُوفر حريةً ومساواة كاملتين للجميع هي مستحيلة والجماعات السياسية لا يمكنها أبدًا أن تشمل الجميع بما أنها تبني دائمًا مقابلة بين «نحن» و«هم». ولكن من الممكن الحصول على حرية ومساواة كاملتين بما هما أفق نسعى إليه ويمكن القيام بمسعى لتضمين المزيد والمزيد من المجالات في النقاش السياسي

حول المساواة (Mouffe, 1992: 378f.). وتزودنا الديموقراطية بإطار عمل يمكننا من خلاله أن نقارن أنفسنا بعضنا ببعض، وبهذه الطريقة نحدد المظالم. إذا كان للرجال الحق في التصويت، مثلًا، فلم لا يكون للمرأة كذلك الحق ذاته، كما طالب أنصار الحركة النسوية في بدايات القرن العشرين. والطريق إلى الديموقراطية الجذرية يكمن في أن نجعل من الممكن طرح المزيد والمزيد من هذا الصنف من الأسئلة. إذا كان الآخرون يمتلكون حرية أن يمارسوا الجنس مع المغاير، فلم لا نمتلك حرية أن نكون مثليين جنسيًّا؟ إذا كان يُقبل بالآخرين باعتبارهم بيضًا، لم لا يقع القبول بنا باعتبارنا سودًا؟ كل هذه الأسئلة وقع طرحها من جهة الحركات الاجتماعية الجديدة وساهمت في فتح المجال لأسئلة يمكن أن تُناقش سياسيًّا من ناحية مفهومي الحرية والمساواة.

في ديموقراطية جذرية، من المهم أن لا يتصلب المجال السياسي أبدًا ضمن مجموعات تُرسم الحدود بينها على نحو صارم، ومواقفَ موحدةٍ على جدول الأعمال السياسي. إن كل سؤال سياسي يُقسّم الناس إلى مجموعات محددة ويمنحهم هويات محددة، إنه يُثَبتُ أسطورة المجتمع بطرائق محددة. وبما أن طريقةً واحدة لا يمكنها أن تستنفد كل أجزاء هوياتنا المتشظية والبالغة التحديد ولا تُحققُ أبدًا كل التشكلات الممكنة للمجموعات، فمن المهم أن يكون بالإمكان تفكيكُ المجموعات القائمة طوال الوقت وتشكيلُ مجموعات جديدة، وأن يكون بالإمكان إدراجُ أسئلة جديدة في جدول الأعمال. إن المجموعات التي تنخرط في العمل السياسي

على مسألة معينة لا بد من أن تُفهم من ثمّ لا على أنها مجموعات من الناس المتطابقين الذين يشتركون في الماهية ذاتها، ولكن على أنها تحالفات وقتية يقع فيها تشكيلُ أبعادٍ محددةٍ لهويات الأعضاء وتفعيلُها في علاقة بالمسألة المطروحة. إذا ما احتفظ المرء بالقضايا مفتوحة، القضايا المتعلقة بما هي الصراعات التي ينبغي أن تكون على جدول الأعمال السياسي وما هي المجموعات التي تكون في صراع، فقد يكون من الممكن باستمرار إدراج موضوعات جديدة للنقاش على علاقة بالمساواة والحرية. إن المشروع النقدي لكشف المسلمات لدى لاكلاو وموف، يمكن إذًا أن يقال عنه إنه مشروعٌ سياسيٌ يجعلُنا تفكيكُ الموضوعية فيه متيقظين للطبيعة الأيديولوجية والعَرَضية للموضوعية التي نُسندها إلى العالم، وهو يقوم، على نحو أكثر تحديدًا، بعرض مجالات جديدة للنقاش السياسي.

مع ذلك، وإجابةً عن سؤال كالهون عن كيفية تحديد ما ينبغي نقدُه، فلا توفر رؤية نظرية الخِطاب للديموقراطية الجذرية إلا إجابةَ متواضعة فحسب. ويشتمل المشروع النقدي لنظرية الخِطاب على تفكيك المسلّمات، ولكن النظرية لا تقدم أي توجيهات حول أي أفهام مسلّمة هي أحوج إلى التفكيك ومن خلال أي معايير سياسية. وفي نظرنا، فإن عدم ضبط مقاييس معيارية مسبقًا لا يشكل بالضرورة عائقًا أمام البحوث النقدية. ومع ذلك، فإذا عملنا على غرار فرضيات البنائية الاجتماعية التي تتأسس عليها نظرية الخِطاب ذاتها، بمعنى أن لا ينتج البحث تمثيلًا للعالم فحسب، ولكن أيضًا آثارًا في العالم، فمن المهم أن نجعل أهداف البحث واضحة لنا وللآخرين.

يمكن أن يُضاف هذا البعد السياسي إلى مشروع نظري للخِطاب بالجمع بينه وبين مقاربات أخرى للبحث تمكّن الباحث من تحديد أهداف المشروع المعين للبحث وتوجهه السياسي. و**البحث الإجرائي** (action research)، الذي يعرف الآن مزيدًا من الانتشار، هو مقاربة من هذا القبيل (انظر، على سبيل المثال ,Reason and Bradbury 2001; Tracy, 1995; Willig, 1999a). ويرتبط البحث الإجرائي بمجال الدراسة ارتباطًا أشد بكثير من المقاربات العلمية التقليدية، بما أنه يعتبر أن البحوث لا بد من أن يتم إجراؤها **مع** الناس، بدلًا من إجرائها **حولهم**. وهذا يعني أن أهداف البحث لا بد من أن تقع صياغتها في سياق محدد للممارسة الاجتماعية، بالاشتراك مع الناس في ذلك السياق، حيث يتعاون المخبرون والباحث في تحديد مشاكل معينة في المجال، ينبغي للباحث أن يساعد في حلها. في أشكال عديدة من البحث الإجرائي المعاصر، يُنظر إلى الناس في هذا المجال باعتبارهم **مشاركين** في عملية البحث، مساهمين بمعرفتهم بالمجال في التنمية المشتركة للمعارف الجديدة سويًّا مع الباحث (للاطلاع على مقاربة متصلة، انظر مناقشتنا البحوث الحوارية ص 373-377).

تتمثل طريقة أخرى، أكثر تقليديةً، لإدماج بعد سياسي معين في مشروع البحث في إدخال منظور نظري يستثمر مفهوم النقد مع توجه سياسي أوضح. وفي الأقسام التالية سنقدم بعض المنظورات النسوية التي يتبع البحث وفقًا لها، من بدايته إلى نهايته، مسارًا سياسيًّا.

تحديد المسلمات

لنعد أولًا إلى مسألة المسلمات وكيف يمكن تحديدها. والمسلمات ـكما ذُكر سابقًاـ هي، بحكم تعريفها، ما لم يُجعل إشكاليًّا، أي ما لم يقم أحد حتى بالتفكير مطلقًا في أنه يمكن أن يكون إشكاليًّا. ومن أجل تحديد عمليات إسناد المعاني المسلمة المطبعنة، يحتاج الباحثون إلى النأي بأنفسهم عنها بطريقة أو بأخرى. وفي هذا القسم سنقدم ثلاث إجابات مختلفة عن السؤال الإبستيمولوجي المتعلق بكيفية التنظير لموقع الذات بالنسبة إلى الباحثة بما يمكّنها من تحديد المسلمات.

الإجابة الأولى هي ما نطلق عليه **إعادة الوصف التحليلي**. يقترح بايزل بيرنشتين (Basil Bernstein) أن نفكر في النظريات على أنها «لغات للوصف»، وفي تطبيق النظرية على أنها ترجمة للمادة الاختبارية إلى لغتها (Bernstein, 1996, chap. 6). وخلال عملية الترجمة هذه، تقع إزالة الطبعنة عن بعض الأبعاد المسلمة للمادة (راجع Chouliaraki and Fairclough, 1999). وكل مقاربات تحليل الخِطاب المُقدمَة في هذا الكتاب توفر إمكان إعادة وصف المادة الاختبارية. ونظرية لاكلاو وموف في الخِطاب والتمفصل ومفاهيمها عن الدوالّ المتغيرة، والأساطير وما شابه ذلك يمكن، على سبيل المثال، أن يُنظر إليها على أنها شكل لغوي يمكنه وصف المادة الاختبارية بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تصف بها نفسها. وبالمثل، فإن الأدوات اللسانية للتحليل النقدي للخِطاب والأدوات البلاغية لعلم نفس الخِطاب يمكن

النظر إليها على أنها لغات متميزة يمكنها أن تُوجِدَ مسافة بين الباحث والمادة.

وكما هو الشأن مع كل الترجمات، فإن هذه الترجمة ليست محايدةً ولا بريئة، وهي تنطوي على نوع من التعسف على المادة الاختبارية (Silverstone, 1999: 14). وهذا هو القصد أيضًا، هدف تحليل الخِطاب هو استخراج دلالات أخرى من المادة غير تلك التي تكون في المقدمة. ولكن تصور تحليل الخِطاب على أنه نوع من الترجمة يحمل معه أيضًا بعض القيود، مثل الكيفية والمقدار اللذين يمكننا بهما تحريفُ مادتنا، بما أنه يجب علينا أن نُقيد أنفسنا بتلك التأويلات التي تناسب لغة تحليل الخِطاب التي اخترناها بوصفها إطار عمل لتحليلنا. إن تصور مختلف مقاربات تحليل الخِطاب مفهوميًا (وكل نظرية علمية أخرى) على أنها إذًا لغاتٌ للوصف، يمكّن الباحثَ من جهة من إقامة مسافة بينه وبين المادة الاختبارية، إذ يحولها من خلال إعادة الوصف، ويضمن من جهة أخرى بعض الوفاء للنصوص الاختبارية الأصلية من خلال تقييد التأويل الذي يمكن إجراؤه لها.

النقد من الخارج

لكي ننتقل إلى مناقشة وسائل أخرى لتحديد المسلمات، نحتاج إلى تسليط الضوء على افتراض مشترك بين أغلب البحوث الاجتماعية البنائية: افتراض أن المسلّمات تنتظم حول مركز من مراكز السلطة. وهو يمكن أن يكون على درجة كبيرة أو قليلة من الوضوح

أو التنظير له. وقد ناقشه لاكلاو وموف كلاهما على سبيل المثال على نحو صريح ونظرا إليه بشكل صلب، لذا فلنستعمل نظرية الخِطاب مثالًا للإيضاح. وفقًا لنظرية الخِطاب تثبت الخِطاباتُ الدلالة من خلال استبعاد كل ممكنات الدلالة الأخرى. ويمكن خِطابين اثنين أن يتواجها في علاقة عدائية أحدهما مع الآخر، عندما يحاولان تعريف المجال ذاته بطريقتين متعارضتين. تقع إذابة العداوات من خلال الهيمنة، حيث يُخضِعُ أحد الخِطابين المجالَ ويظهر كما لو كان واقعًا موضوعيًّا، هذا الموضوعي هو ذلك الذي يصبحُ مسلمًا، والذي ننسى أنه عَرَضي. إن المسلمات تبرز إذًا عندما تُدْفَعُ الأبدال إلى الخروج من دائرة رؤيتنا.

إن المسلّمات ليست بالطبع منتشرة في كل مكان، إن نقطة أساسيةً في البنائية الاجتماعية هي أنه لا يوجد شيء طبيعي أو معطى حول العالم المسلّم به. لكن النقطة التي يبدأ منها فهمُ مسلمٍ معينٍ وينتهي، يمكن أن تُفهم بطريقتين، فإما أن يُفهم المسلم على أنه منبعث من مركز ما متجاوزًا شعاعًا ما خارج المحيط، أي لا يعود مسلَّما به تمامًا، وإما أنه يمكن المرء أن يفهم المسلم على أنه بنية تفرض سيطرتها على كل شيء، وتحتوي على ثغرات توفر مواطئ أقدام محتملة للنزاع. هاتان الاستعارتان لا تلغي إحداهما الأخرى. ونحن نعتقد ـمثلًاـ أن نظرية الخِطاب يمكن أن تُفهم بكلتا الطريقتين، ومع ذلك فصلنا بينهما من أجل أن نتمكن من التمييز بين نوعين مختلفين من الإجابات عن السؤال عن كيفية كشف المسلمات. كلا الاستعارتين تحددان مركز المسلمات، وبالتالي فهما تحددان أيضًا

النقاط التي يمكننا منها أن نتعرف إلى الأفهام التي خلافًا لكونها منحرفة هي مسلّمة. ونعود الآن إلى النظرية النسوية من أجل توضيح بعض الطرائق لإثبات هذه النقاط.

إن الفرضية البنائية الاجتماعية حول الخصوصية الثقافية والتاريخية للمعرفة تستلزم أن الناس الذين تمت موقعتهم على نحو مختلف في الزمان وفي الفضاء يرون العالم أيضًا على نحو مختلف ويمتلكون أفهامًا مسلمة مختلفة. هذه هي الفرضية التي استعملها النسويون، من بين فرضيات أخرى، للتنظير للمعرفة التي ينتجونها هم أنفسهم. لقد كان المفكرون النسويون في طليعة العاملين على تطوير النظريات حول المعرفة المقامية، فتبني موقع معين لإنتاج المعرفة، من بين مواقع أخرى ممكنة، هو نقطة الانطلاق بالنسبة إلى أغلب البحوث النسوية.

إن الفرضية الأساس التي تقوم عليها البحوث النسوية هي أن النساء يمثلن مجموعة مخصوصةً، مجموعة تم تجاهلها واضطهادها في المجتمع والعلم كليهما. ومن وجهة نظر تحليلنا للنقد، فإن لهذه الفرضية نتيجتين مهمتين: الأولى أن البحث النسوي معياري، والهدف منه هو جعلُ النساء وحياتهن وتجاربهن واضحة، والكفاحُ ضد الأبنية الاضطهادية. وفي ما يتصل بالسؤال عما ينبغي نقده، تُوَفرُ النسويةُ أنموذجًا للبحث مع توجه سياسي أكثر وضوحًا، إذًا، من نظرية الخِطاب للاكلاو وموف على سبيل المثال: وهو أن ما ينبغي نقده هو ما يضطهد النساء. ثانيًا، أن نقطة الانطلاق النسوية أدت إلى نقاش مثمر حول الكيفية التي يتمكن بها المرء من إبراز الأفهام السائدة والمطبعنة

ونقدها بأن يحدد المرء لنفسه موقعًا ضمن موقف معين، والكيفية التي يمكن أن يقع بها التنظير لترسيخ المعرفة التي أنتجها الباحث. ويتمثل موقفٌ مؤثر في هذا النقاش في **نظرية المنظور النسوي**، كما صاغتها عالمة الاجتماع دوروثي سميث (Dorothy Smith).

تزعم دوروثي سميث (Smith, 1987) أن مُثُل العِلم الغربي المعاصر المتصلةَ بالموضوعية والتجريد كليهما، تعكس وتعزز تهميش المرأة في مجتمع أبوي ورأسمالي، وهي تقترح لذلك علم اجتماع يقوم على منظور النساء. وليست الحجة هي أن النساء تمكنهن رؤية الواقع على نحو مختلف لأنهن بيولوجيًّا مختلفات عن الرجال، بل إن النساء كونهن مجموعة اجتماعية يمتلكن تجارب منفصلة عن الرجال نتيجةً لتوزيع العمل بحسب نوع الجنس. المرأة غالبًا، كما تُحاجُّ سميث، هي من يقوم بأعمال المنزل كلها، فتصنع الغذاء وترعى الأطفال (1987: 83). وهذا العمل في الغالب لا يُرَى. وفي حين أن النساء يواجهن باستمرار الواقع المحلي المباشر والتجارب الملموسة للأجساد والاحتياجات الأساسية، فمن الأيسر بكثير بالنسبة إلى الرجال أن يتجاوزوا بيئتهم المحلية وأن يتخذوا مسافة من الواقع المباشر، تمامًا كما ينأى العلماء بأنفسهم عن موضوع دراستهم. وبالتالي، على الرغم من أن العلم يقدم نفسه على أنه محايد من ناحية نوع الجنس، فهو قائم في الواقع على وجهات نظر الرجال إلى العالم وعلى مصالحهم، وهو يعززها.

تستعمل سميث تجارب النساء لبناء أرضية يتسنى لها انطلاقًا منها أن تلاحظ الأفهام المسلمة المهيمنة وتنقدها. ولا تعتقد

سميث أن تجارب النساء تؤدي **بالضرورة** إلى منظور نسوي ونقدي لعلاقات السلطة السائدة بما أنه يجب على أفـراد كلا الجنسين أن يفهموا أنفسهم والعالم حولهم من خلال الخِطاب السائد. إن فهمًا نسويًا للعالم لا بد من أن يتم بناؤه بفاعلية (1987: 107)، لكن شروط الإمكان لفهم نسوي تكمن في تهميش حياة النساء وعملهن. فتجارب النساء تقع خارج الأطر الأبوية للفهم، وهذا «الخارج» (62ff., 78ff.) يوفر المورد لنقد نسوي للأفهام السائدة التي لا تناقش.

تروي سميث كيف أنها هي ذاتها باعتبارها أُمًّا أكاديميّة وعزباء جربت انشطار وعيها إلى قسمين: وعي علمي مجرد باعتبارها أكاديميّة، ووعي اختباري ذي وجهة محلية باعتبارها أُمًّا. إن النساء «غريباتٌ» في العالم الأكاديميّ، وهنا ينبثق إمكان لوجهة نظر نقدية. بالانطلاق من التجربة يمكن النساء -احتمالًا- أن يرين **كلًا** من البنية المهيمنة وما يقع خارج نطاقها، وبحكم وعيهن المتشعب يمكنهن إذًا انتقادُ أجهزة السلطة المتنفذة.

لنعد الآن إلى الاستعارتين من أجل تصور حدود المسلمات: لقد بيَّنا أن المسلمات يمكن أن تُفهم إما على أنها بنية منبعثة من مركز وقابلة للتعرف إليها في محيطه، وإما على أنها بنية فيها ثغرات يمكنها أن تكشف المسلمات وتجعلها إشكالية. ونظرية سميث متماشية أكثر مع الاستعارة الأولى: أي أن تجارب النساء تمثل موقعًا خارج الخِطاب السائد يمكن استعماله نقطة انطلاق لصوغ إشكالية للأفهام المطبعنة باعتبارها مُضطهِدة للنساء.

يمكن استعمال تنظير مواز لإزالة الطبعنة عن المفاهيم بالنظر إلى مجموعات أخرى مضطهدة. فالطبقة العاملة والأقليات العرقية والمثليون جنسيًّا، على سبيل المثال، بوسعهم أيضًا على أساس تجاربهم، أن يقدموا وجهات نظر يمكن بالانطلاق منها التعرف إلى الأفهام السائدة ونقدها (Smith, 1987).

باختصار، توفر سميث تنظيرًا مخصوصًا لشروط إمكان النقد، ومع ذلك فإن منظورها يطرح بعض المشاكل. على الرغم من أنها تشير إلى أن النساء مختلفات بعضهن عن بعض ولهن تجارب مختلفة، فإنها تنزع إلى تقديم النساء مجموعة متجانسة، وأنهن يتخذن مواقع متشابهة في مواجهة أجهزة السلطة المتنفذة. ونتيجة لذلك، فإن نظرية المنظور لديها تخاطر بحجب الاختلافات بين النساء. مثال ذلك المجتمع الذي يكون فيه التصنيف العرقي أساسيًّا، فقد يكون الاختلاف فيه كبيرًا بين النساء من مختلف المجموعات العرقية بالنظر إلى تجاربهن ومواقعهن في المجتمع. وتعد أعمال باتريشيا هيل كولينز (Patricia Hill Collins) مفيدة في هذا الصدد (على سبيل المثال، 1986). فقد وضعت كولينز صيغةً لنظرية المنظور النسوي تطرح قضية التجانس. وقد أدرجت مفهوم **الأجنبي الداخلي** للربط بين نوع الجنس والعنصر. وهي تقترح أن النساء السود يمكن النظر إليهن تاريخيًّا على أنهن أجنبيات في مجتمعات مثل الولايات المتحدة، حيث يأتين منازلَ البيض خادماتٍ مثلًا، ولم يُقبلن قط بوصفهن متساويات مع البيض. هذه التجربة المشتركة لأن نكون في الوقت ذاته في الخارج وفي الداخل يمكن أن تُشكل أساسًا ـوفقًا لكولينزـ

للتفكير النسوي الأسود، حيث يمكن تطوير نظرية واستراتيجية سياسية في آن واحد، موجهتين لتعزيز المساواة بين الأجناس والطبقات والجماعات العرقية. وتؤكد كولينز (1998) أن النساء مختلفات وأن النساء السود لا يمثلن مجموعة متجانسةً فوق ذلك. ومع ذلك فهي تصر على أن بعض المجموعات في ظروف معينة يمكن أن تتقاسم عددًا كبيرًا من ظروف الحياة نفسها وأن هذه الظروف المشتركة يمكن أن تشكل أساسًا لنظرة مخصوصة للعالم، لمنظور مخصوص.

مع ذلك، فإن إشكالًا يرتبط بصيغتي نظرية المنظور كلتيهما، وهو أنهما تنطويان على تمييز لمقولة التجربة. ويحذر كالهون من ربط المنظور النقدي على نحو وثيق جدًّا بتجارب محددة، فمنذ أن تُحدد التجربة على نحو كامل ما يمكن أن يراه الناس، فإننا نخسر إمكان النقاش مع الناس الذين تكون لهم تجارب مختلفة (Calhoun, 1995: 180f.). والخطر يكمن في أننا نـزرع شكلًا من أشكال الماهوية حيث، على سبيل المثال، يُستَبْعَدُ الرجال كليًّا من التفكير النسوي على أساس أنهم لن يكونوا أبدًا قادرين على رؤية العالم من منظور النساء. وربما كانت لكالهون وجهة نظر في هذا، مع أننا نعتقد أن سميث أقل حسمًا في هذه النقطة: الرجال يميلون إلى تجارب أكثر تجريدًا وسياقاتُها أقل تحديدًا، بدلًا من أن يكونوا مُستَبَعَدين جملةً من التجارب الملموسة المحدّدة السياق (راجع Smith, 1987: 82).

إن المشكل الأكبر الذي نراه في نظرية المنظور، بالأحرى، هو أنها تجازف بإعادة إنتاج ما تنقده. وبالاعتماد على استعارتنا حول

حدود المسلمات، فإننا إذا استعملنا التمييز السائد في الخِطاب بين «هم» و«نحن»، بين المركز والهامش، للكشف عن معرفة المركز المطبعنة (إذا اتخذنا موقعًا في جهة «هم»، في الهامش)، فإننا نتوصل بسرعة إلى إعادة إنتاج التمييز المطبعن بين «هم» و«نحن» باعتباره فهمًا مسلمًا نتقاسمه مع المركز. إن هدف سميث من جهة هو صياغة إشكالية اضطهاد النساء في المجتمع ونقده، ولكنها تتخذ من جهة أخرى حياة «النساء» وتجاربهن نقطة انطلاق لها. على هذا النحو، وعلى الرغم من تأكيداتها أنه لا الرجال ولا النساء يمثلون مجموعتين متجانستين، فإنها تعيد إنتاج القسمة الأبوية ذاتها للعالم إلى «رجال» و«نساء» التي تهدف إلى انتقادها (راجع Prins, 1997: 76)[95].

توفر نظرية المنظور استراتيجية للنأي بالنفس عن المركز، من أجل النظر إلى المركز من الخارج. وتتمثل استراتيجية أخرى لإقامة مثل هذه المسافة في «الانتقال بعيدًا» من المركز في الزمان أو في الفضاء. ويمكن الجنسانية في المجتمع الغربي، على سبيل المثال، أن تصاغ إشكاليًا من خلال قراءة الدراسات الإناسية للجنسانية في مجتمعات أخرى حيث يُمكن أن يُعثر على وجهات نظر مختلفة تمامًا حول الجنسانية والحب والجسد ونوع الجنس. وبالمثل، يمكن المرء أن يتبنى مقاربة تاريخية كما فعل فوكو غالبًا. وعبر تقصي أفهام الجنسانية السائدة في الماضي ومن خلال عملية المباعدة الملازمة لذلك، كان فوكو قادرًا على تقديم أفهام معاصرة للجنسانية كبناءات

(95) راجع (Harding, 1991) للاطلاع على نظرية للمنظور تحاول أن تأخذ بعين الاعتبار هذه النقاط النقدية.

غريبة كان يمكن أن تكون مختلفة (Foucault, 1979, 1987, 1988). هذا المنظور التاريخي يزودنا بمادة تساعد على إلقاء الضوء على الكيفية التي اتخذت بها بعض المقولات مثل الجنسانية شكلًا محددًا.

وبالاعتماد على مادة تاريخية وإناسية «غريبة» على المرء وعلى المادة الاختبارية الخاصة به، فإنه بوسعه أن ينشئ موقعًا خارج ثقافته يمكنه انطلاقًا منه أن يتعرفَ إلى المسلمات داخلها. «الوجود خارجًا» (outsideness) موقع لا ينبغي أن يعتبر مع ذلك مطلقًا، بما أن المرء لا يستطيع أن يتخلص تمامًا من أفهامه الخاصة. ولكن بما أن النفاذ إلى المواد «الخارجية» يكون غالبًا بواسطة الأفهام القائمة لدينا، فإن الرأي عندنا أن اعتبار رؤى مختلفة تمامًا للعالم يمكن، في الأقل، أن يجعل طرح أسئلة جديدة حول أفهامنا والأفهام التي تم تحديدها في المواد الاختبارية أمرًا ممكنًا.

النقد انطلاقًا من الثغرات في البنية

ما زلنا نتقصى مسألة كيفية الكشف عن الأفهام السائدة المطبعنة للواقع، وسنعرض الآن تنظيرًا ختاميًا يحاول أن يقيم فهمًا بديلًا للعالم، بالنظر إلى العالم من خلال ثغرات في البنية وليس من محيطها. وقد قامت بمحاولة من هذا القبيل، على سبيل المثال، المُنظرةُ النسوية دونا هاراواي (Donna Haraway)[96]. ولم تقم

---

(96) انظر (Butler, 1993: chap. 8) للاطلاع على منظور الشذوذ الذي يقوم على «الشواذ» باعتبارهم فئة واقعة بين الفئات المهيمنة، وانظر (Bhabha, 1994: Introduction) للاطلاع على محاولة للتفكير انطلاقًا من الثغرات في الأفهام السائدة في الثقافة.

هاراواي بتأسيس بحثها على منظور «النساء» أو «الطبقة العاملة» أو «السود»، بما أن هذه الفئات هي بالفعل جزء من البنية التي تريد نقدها، بدلًا من ذلك حاولت أن تتخذ موقعًا بين الفئات القائمة وأن تنظر إلى العالم منه. الكون الذي تنطلق منه، بالتالي، تَعْمُرُهُ كائنات من قبيل الناس الآليين، والوحوش، والفئران المعدلة وراثيًّا، بما لا يتناسب مع التقسيمات المعتادة إلى إنسان وحيوان وآلة وهلم جرًّا. وباعتمادها منظورًا من قبيل منظور «الآخرين غير الملاءَمين» (inappropriate/d others) وتلبسها به، بما أنها تنص على أنها تستعمل مفهوم ترين مين ها (Trinh Minh-Has) (Haraway, 1992: 299)، فقد تمكنت من استيضاح كيف أن الأصناف التي نستعملها عادةً هي تمفصلات عرَضية لعناصر مقسمة، مثلًا، على نحو صارم بين «الطبيعة» و«الثقافة». وهذه الخلخلة لبناء الأصناف تجعل من الممكن تخيل عوالم مختلفة (وأفضل) تتمفصل فيها العناصر على نحو مختلف (1992: 313f.).

تستعمل هاراواي في بحثها الفريد **بيان الإنسان الآلي** (1991)، صورة الإنسان الآلي لتتقصى، من بين أشياء أخرى، أفكارنا عن الهوية. الإنسان الآلي هو مزيج من كائن حي وآلة، طبيعة وثقافة، وهو بذلك يهدم الأصناف التي نحتفظ بها عادة مفصولة. ويستخدم التقليد الغربي قائمةً طويلة من الثنائيات المشابهة (الذات/ الآخر، الرجل/ المرأة، المتحضر/ البدائي... وهلم جرًّا) تساهم في الحفاظ على نظام للهيمنة يهيمن فيه الرجال على النساء، و«المتحضرون» على «البدائيين»... وهلم جرًّا (1991: 177). وتستعمل هاراواي

استعارة الإنسان الآلي لتحديد الثنائيات ونقدها. ووجهة نظرها هي أننا جميعًا أناس آليون، مزيج من الإنسان والآلة (1991 :150). من دون جميع الوسائل التقنية لدينا، فإننا لن نكون ما نحن عليه ولن نتمكن من القيام بما نقدر على فعله. وبشكل أعم، فإن الفكرة هي أن هوياتنا كانت دائمًا «ملوثة»، فهي لم تتوافق قط مع الأصناف التي نبنيها.

تنقد هاراواي البنية انطلاقًا من ثغراتها، وهذه وجهة نظر قائمة على الهوة بين أصنافنا. ولكن هذا لا يعني أنها اكتشفت مكانًا يمكنها منه أن ترى الواقع كما هو «حقًّا»، متحررًا تمامًا من كل بنية، وهو أمر -في نظرها- مستحيل. وهي من خلال استعمال الإنسان الآلي الذي يملك تاريخًا سابقًا في الصناعة العسكرية، تحاول أن تستولي على صورة متداولة بالفعل في أدواتنا وممارساتنا اللغوية من أجل إعادة ترميزها. لقد استولت على الإنسان الآلي، مستعملةً إياه لرواية قصة مختلفة، قصة تُنشئ «أسطورة سياسية» (1991 :157) من أجل تقديم وصف للكيفية التي نكوِّنُ بها أنفسنا والعالَم بالجمع بين عناصر غير متجانسة. ومن خلال نقد الثنائيات الغربية، هي تفتح المجال لإمكان أن تأتلف العناصر بطرائق جديدة يُؤملُ أن تكون أفضل في المستقبل. وفي وصفها، فإن البحث، كما هو الحال بالنسبة إلى هوياتنا، لا يمكن أبدًا أن يكون «نقيًّا»، هو مُعد للإبحار في عالم مُهيكَل مسبقًا بطرائق كثيرة مختلفة. ولكن ما يمكنه القيام به احتمالًا هو خلخلة أفهامنا وإعـادة تجميعها بطرائق جديدة.

منزلة المعرفة

قدمنا الآن ثلاثة أفهام نظرية مختلفة للكيفية التي يمكن الباحثين أن يتعرفوا بها إلى المباني المسلمة المطبعنة التي يسعون إلى كشفها. وقد اقترحنا أولًا أن النظريات هي لغات لإعادة الوصف تستلزم ترجمة المادة الاختبارية، وناقشنا ثانيًا النظرات من الخارج التي نكتسب منها وجهة نظر خارجية إلى المركز، وأشرنا ثالثًا إلى الثغرات في البنية السائدة التي تمكن بالانطلاق منها صياغة الأصناف المطبعنة صياغةً إشكالية. إن سؤال المباني المطبعنة وإمكان كشفها كان وجيهًا، لأن النقد تمت صياغته في البنائية الاجتماعية غالبًا -في حده الأدنى على الأقل- على أنه إزالة الطبعنة عن المسلّمات. وهذه الاستراتيجيات جميعها تهدف إلى التنظير للمسافة بين الباحث والمسلّمات، حيث تصبح المسلمات بارزة باعتبارها موضوعًا للدراسة. وبعبارة أخرى، إن هذه الأبدال، المستعملة منفردة أو مجتمعة، توفر أساسًا إبستيمولوجيًا يمكن إنتاج المعرفة انطلاقًا منه. لكن على نحو ضمني في الفرضيات البنائية الاجتماعية يكمن السؤال عن المنزلة التي نسندُها إلى هذه المعرفة الجديدة. إن أغلب الباحثين البنائيين الاجتماعيين يتفقون على أن البحث نفسه ينشئ أشكالًا جديدة من الأفهام المسلمة، وأن المعرفة العلمية هي بناء عَرَضي للواقع، تمامًا كما هو الأمر بالنسبة إلى التمثيلات الأخرى. كيف لنا إذًا أن نضمن أن الفهم الذي نقدمه للواقع هو أفضل من ذلك الذي ننتقده؟ وكيف لنا أن نقوّم المعرفة العلمية؟ وإجمالًا، (كيف) لنا أن نستثمر ادعاءاتنا لدى السلطة الأكاديميّة والقوة السياسية من دون الرجوع إلى أساس ثابت للمعرفة؟

النسبية والانعكاسية

هل إن النسبية الملازمة للفرضيات البنائية الاجتماعية تجعل من المستحيل تمييز الأوصاف الجيدة للواقع عن تلك الأقل جودة، والمبادئ السياسية التقدمية عن تلك الرجعية؟ وإذا كان هذا هو الحال، فهل هو شيء ينبغي علينا القلق بشأنه؟ سنقوم الآن بتقديم عدد من المواقف في هذا النقاش، بـدءًا من علم نفس الخِطاب. وهنا تنقسم الآراء (راجع الفصل 4): إلى مجموعة ترى في النسبية عائقًا سياسيًّا في حين لا ترى مجموعة أخرى ذلك. ويحتج أعضاء المجموعة الثانية ديريك إدواردز، ومالكولم آشمور وجوناثان بوتر (Edwards, Ashmore and Potter, 1995)، بأن النسبية لا مفر منها، ولكن لا شيء فيها يدعو إلى القلق. إن النسبية، وفقًا لهؤلاء، ليست برنامجًا علميًّا، ولكنها شك جوهري في مواجهة كل ادعاء للمعرفة بالواقع، شك يجعل من الممكن أن نتساءل عن كل شيء. ولكن هذا لا يعني أننا لا يمكننا إطلاق ادعاءات وأحكام حول هذا الواقع، والحقيقة أنه لا يمكننا تجنب القيام بذلك، لكن ما يعنيه هو أن كل الادعاءات مطروحة للنقاش، وهنا يكمن إمكان النقاش الديموقراطي الجاري. وفي المقابل، فإن حجج الواقعية وهي تسعى، على النحو الذي تقوم به، إلى معرفة ما هو العالم حقًّا، تُجمد النقاش.

تتمثل استراتيجية إدواردز والآخرين في **اعتناق النسبية**، بقبولها من دون قيد أو شرط على أنها شرط لكل إنتاج للمعرفة. ويحذر بعض من علماء نفس الخِطاب الآخرين، مثل باركر (Parker, 1992) وويليغ (Willig, 1999b)، من هذا القبول الإجمالي بالنسبية، وهما يحتجان

بأن البحوث النقدية ستغدو مستحيلة لو أن كل التقارير حول العالم هي من حيث المبدأ متساوية في الجودة، ولتجنب هذا الخطر، اختارا توليفةً من البنائية الاجتماعية وأنطولوجيا الواقعية النقدية، من أجل أن يأخذا بعين الاعتبار ما يعدانه أبعادًا غير خِطابية للعالم. وقد اختار التحليل النقدي للخِطاب إلى حد ما هذا الطريق. وميز تشولياراكي وفركلاف (Chouliaraki and Fairclough, 1999) بين أشكال مختلفة من النسبية، قابليْن شكلًا بسيطًا من النسبية أقرته الواقعية النقدية، ورافضيْن ما يريان أنه شكل أكثر تطرفًا لها، وقبِلا ـ معتمدَيْن على مفاهيم الواقعي النقدي روي باسكار ـ بنسبية إبستيمية تنشأ كل الخِطابات وفقًا لها من موقع معين في الحياة الاجتماعية، ورفضا نسبية حُكمية تتشبث بأن كل الخِطابات هي تمثيلات للواقع متساوية في الجودة. لقد رفضا النسبية الحُكمية بحجة أن الحكم على الخِطابات بالضعف والقوة يتم باستمرار في الممارسات المعتادة عندما يختبر الناس، على سبيل المثال، مدى جودة الخِطاب للتفكير بواسطته أو لاستعماله إطارًا للفعل الجماعي (راجع .Brown, 1994: 27ff).

ما إذا كان موقف تشولياراكي وفركلاف مختلفًا فعلًا عن ذلك الذي تبناه إدواردز وآشمور وبوتر، فتلك مسألة تأويل. ويتمثل أحد التأويلات في أن رفض تشولياراكي وفركلاف النسبية الحُكمية يقوم على حجة أن كل مقام خِطابي، يقتضي معايير معينة لما هو الصواب والخطأ، وما هو صالح وما ليس كذلك. فلا يمكن كل الخِطابات أن تكون متساويةً في الجودة بما أننا نقول دائمًا إنه توجد داخل فضاء خِطابي مجموعة من المعايير السابقة التي تضبط ما يُقبل على أنه

جملة صحيحة. في هذا التأويل، تكون معايير القياس للتمثيلات، أيها هو الأفضل، عَرَضية، مدمجة في فضاءات خِطابية محددة، وهو موقف قريب من تبني إدواردز والآخرين النسبية. ولكن لئن كان هذا هو الوضع، فلِمَ نقوم بالتمييز بين النسبية الإبستيمية والنسبية الحُكمية في المقام الأول؟ في تأويل آخر لموقف تشولياراكي وفركلاف، فإن هذا التمييز منطقي أكثر. فوفقًا لهذا التمييز، يحتج تشولياراكي وفركلاف لأن بعض التمثيلات تعكس الواقع على نحو أوفى من تمثيلات أخرى بحسب بعض الأقيسة الخارجية. ومثل هذا التأويل لا يتماشى مع تعريفهما الحقيقة على أنها نتاج نقاش ديموقراطي، ولكنه يتناسب جدًّا مع تمييزهما بين خِطابات أكثر أدلجةً أو أقل أدلجة[97]. وفقًا لهذا التأويل، فإن تشولياراكي وفركلاف **يقيدان النسبية**، ناظِرَين إلى التمثيلات على أنها مبنية اجتماعيًّا (موقف نسبي)، ولكن معتبَرَين بعضها أكثر وفاءً للواقع من الأخرى (موقف غير نسبي). ومن منظور البنائية الاجتماعية، فإن السؤال الذي يتبادر هنا هو حول معرفة مَن ينبغي أن يُصدر الحكم حول أي من التمثيلات هي أفضل من غيرها. إذا كان اختيار تمثيل ما من بين تمثيلات أخرى ليس نتيجةً صراع في حقل خِطابي، فلا بد من أن يوجد شخص -مثل الباحث- هو من يقرر، بفضل رؤيته الثاقبة[98].

---

(97) انظر (Potter, 1996b: 224ff.) للاطلاع على قراءة نقدية للتحليل النقدي للخِطاب في هذا الاتجاه.

(98) ولكن انظر (Chouliaraki, 2002) للاطلاع على إعادة صياغة للعلاقة بين تحليل الخِطاب والواقعية النقدية، ما يؤثر أيضًا في مسألة النسبية.

لقد ناقشنا للتو الفرق بين اعتناق النسبية وتقييدها في مستوى استعاري إبستيمولوجي، ولم يكن الفرق هنا واضحًا دائمًا كما رأينا. ولكن النقاش يمكن أن يُجرى أيضًا في ما يتعلق بالمراحل الأخرى لعملية البحث، وهنا يكون الفرق بين تحليل فركلاف النقدي للخِطاب ومقاربة إدواردز والآخرين لعلم نفس الخِطاب أكثر وضوحًا. إن النقاش حول النسبية ليس حول المبادئ الإبستيمولوجية فحسب، ولكن أيضًا حول الكيفية ـ والدرجة ـ التي يأخذ بها الباحثون المبادئ بعين الاعتبار في بناء مخططات بحوثهم. وعلى الرغم من أن تشولياراكي وفركلاف أشارا إلى ضرورة الاعتبار الانعكاسي لدور الباحث في إنتاج المعرفة (Chouliaraki, 1999: 9, 29؛ وراجع 1995)، فإن التوجه العام في التحليل النقدي للخِطاب يتمثل في تطبيقِ المناهج العلمية المتعارفة في إنتاج المواد الاختبارية وتقديم نتائج البحث في نصوص أكاديميّة تقليدية من دون مساءلة انعكاسية لهذه الممارسات. في المقابل، فإن حقل علم نفس الخِطاب كلًّا يقدم مناقشةً مستفيضة لاحتمالات البحث الانعكاسي[99]. وكما أشرنا في الفصل الرابع، فإن الانعكاسية محاولةٌ لأخذ دور الباحث الخاص في إنتاج المعرفة بعين الاعتبار في ضوء فرضية النسبية الأساس في البنائية الاجتماعية، وهو أن معرفة المرء الخاصة

---

(99) إن الانعكاسية، بصيغها المختلفة قليلًا، هي موضوع للنقاش في تخصصات أخرى، مثل علم الإناسة والنسوية والدراسات العلمية. وقد قدمنا بإيجاز فهمًا نسويًّا للانعكاسية في القسم التالي، ولكن في هذا القسم نركز أساسًا على علم النفس الاجتماعي النقدي الذي يشمل علم نفس الخِطاب.

تُبنى اجتماعيًّا وثقافيًّا. والهدف هو إعادة تعريف علاقات السلطة التقليدية بين الباحث والناس موضوع الدراسة، وتجنب تنصيب المرء نفسه في موقع السلطة ذات السيادة التي تمتلك امتياز الوصول إلى الحقيقة.

وتتمثل إحدى الاستراتيجيات في جعل المخبرين يتطوعون باحثين مساعدين، ويؤيد كثير من علماء نفس الخِطاب **بحثًا حواريًّا** مؤسسًا على مناهج أكثر حواريةً لإنتاج المواد الاختبارية وتحليلها (مثل Condor, 1997 ; Sampson, 1991). وبدلًا من رؤية المادة الاختبارية شيئًا موجودًا «في الخارج هناك» متاحًا لباحث محايد أن يلاحظها ويجمعها، فإن هذه المقاربة تؤكد أن المادة الاختبارية هي بناء اجتماعي، هو ثمرة التفاعل بين الباحث والمبحوث. بعبارات أخرى، فإن الباحثين يكوّنون موضوعات تحليلهم ومادتهم الاختبارية من خلال الحوار المستمر مع المجال. والبحث الحواري يُنظر إليه على أنه بديل أكثر ديموقراطية للأشكال التقليدية في البحث بما أن مساحة أكبر تُمنح فيه لأصوات المخبرين في إنتاج المواد وفي تحرير النتائج: على سبيل المثال، من خلال تقديم موادهم الاختبارية نتيجةً لحوار بين الباحث والمبحوث، عبر استنساخ مقتطفات أطول من المقابلة، أو عبر تنفيذ التحليل بالتعاون مع المخبرين، أو عبر إدراجهم مشاركين في تأليف النص. وعلى الرغم من أن كثيرًا من علماء نفس الخِطاب وغيرهم من علماء النفس النقديين ينهضون بدور فاعل في النقاشات حول الانعكاسية ويؤيدون فكرة البحث الحواري (انظر على سبيل المثال، Ibáñez and Íñiguez, 1997)، فإن تطبيقهم

المبادئ في مشاريع بحثية معينة يميل إلى أن يكون محدودًا، وغالبًا مقتصرًا على الاعتراف بأن مادتهم الاختبارية هي نتاج حوار بين الباحث والمبحوث، ومثال ذلك أنهم يناقشون في الغالب المادة التي هي على علاقة بالمخبرين حصرًا، متجاهلين الدور الخاص بهم كباحثين في بناء المادة، وتحديدًا هم يحللون غالبًا إجابات المقابلة من دون تحليل الأسئلة، مهملين بالتالي السياق الحواري الذي تنتمي إليه الإجابات (Condor, 1997)[100].

بالنظر إلى هدف البحث الحواري المتمثل في تحدي سلطة الباحث، يُطرح السؤال عما إذا كان ذلك ممكنًا ومطلوبًا. إن التسوية بين الباحثين، والمخبرين، وأشكال المعرفة الخاصة بكل منهم يُفترض أن تجعل البحث أكثر ديموقراطيةً. لكن هذه التسوية، في نظرنا، لا يمكنها أبدًا أن تكون كاملة: الباحث هو من يقرر أن مشروعًا ما ينبغي أن يُنفذ ويحدد له موضوعه ومن ينبغي أن يقع تشريكهم مخبرين. والباحث هو من ينسق العملية برمتها، وهو من يجني أي تقدير أكاديميّ يأتي به البحث. وكما تشير سوزان كوندور (Susan Condor)، فإنه يوجد خطر يتمثل في أن يقوم الباحثون الحواريون بمجرد حجب العلاقة غير المتكافئة بين الباحث والمخبرين، مقدمين أنفسهم على أنهم ناقلون محايدون لكلام المخبرين (Condor 1997: 133، وراجع Chouliaraki, 1995).

---

(100) أجريت محاولات أكثر التزامًا بالبحث الحواري في مجالات متصلة بالبحث، انظر على سبيل المثال علماء الاجتماع النسوي ما بعد البنيوي، مثل (Lather and Smithies, 1997).

حتى إن حاول المرء أن يجعل العلاقة بين الباحث والمبحوث متكافئة تمامًا، فإن السؤال عما إذا كانت هذه الفكرة جيدة أم لا يبقى قائمًا. ونحن نرى إمكانًا مثمرًا لتطوير ممارسات البحث الحواري، سواء في ما يتعلق بتصميم البحوث، حيث يحاول الباحثون ـما وسعهم ذلكـ أن يأخذوا في الاعتبار الدور الفاعل الخاص بهم في إنتاج المعرفة، أو في ما يتعلق ببناء دور الباحثين، حيث يقوم الباحثون بالتنازل عن جزء من سلطتهم من أجل أخذ أصوات المخبرين ومصالحهم بأكبر مقدار من الاعتبار. إن النقاش داخل البحث الحواري حول ما هي (ولمن تعود) المعرفة المقبولة على أنها مشروعة يوفر مساهمةً مركزية في الحوار الديموقراطي، معززًا الاطلاع على من يحتكر معرفة ماذا، ومن وقع إسكاته، وما هي المعرفة التي لم يُعترَفْ بها على أنها معرفة. إضافةً إلى ذلك، سيساعد البحث الحواري في إنشاء منصات مشتركة لتبادل المعرفة بين الخِطابات المختلفة، كما بين المعرفة العلمية والمعرفة المعتادة. ولكننا نجد في البحث الحواري نزعةً إلى الرفض الكامل للسلطة، كسلطة الباحث والتسوية بين المعرفة العلمية وأشكال المعرفة الأخرى.

في المقابل، فإننا نؤكد النقطة المتمثلة في أنه حتى لو أمكن، مبدئيًّا، تسوية كل أنواع المعرفة على أساس أن كل معرفة هي عَرَضية، فإنه توجد في نقطة معينة في مجتمع معين، أنواعٌ مختلفة من المعرفة، مبنيةٌ وفق أنواع مختلفة من المنطق وموجهة نحو تطبيقات مختلفة. ونحن لا نعتقد أن هذه الأشكال المختلفة للمعرفة يمكن، أو يجب،

أن يُختزل بعضها في بعض، أو بشكل أكثر تحديدًا، أن المعرفة العلمية والمعرفة المعتادة يمكن قياسهما بالاعتماد على المعايير نفسها، أو أن لهما السلطة نفسها في كل الحالات. وعلى الرغم من عَرَضِيتِه، فإننا نعتقد أن شرعية العلم تعتمد في وجه التحديد على كونه يُنظر إليه باعتباره شكلًا متميزًا من المعرفة، له معاييره الخاصة لإنتاج المعرفة والسلطة الناتجة عنها.

إن البحث الحواري هو رد انعكاسي على نسبية البنائية الاجتماعية في المراحل البحثية لجمع المادة الاختبارية وتحليلها وعرضها، في محاولة لتفكيك العلاقة التراتبية بين الباحث والمخبر. والكتابة التجريبية التي سنتناولها الآن، تركز على عرض البحث، جاعلةً بذلك من علاقة تراتبية أخرى علاقة إشكالية، هي تلك التي تكون بين الكاتب والقارئ. لقد انتُقِد العرض التقليدي للبحث العلمي لتقديمه المعرفة العلمية على أنها محايدة وموضوعية، وبالتالي لأنه يسند إليها سلطة غير مستحقة. على أساس هذا النقد، سعى بعض الباحثين إلى إظهار بناء النص في النص، بحيث يقع تذكير القارئ باستمرار بأن ما تقرأه ليس هو الحقيقة، ولكنه تمثيل عَرَضي للواقع. مثال ذلك، أن إدواردز وبوتر (Edwards and Potter, 1992) قطعا الانسياب التقليدي للنص في كتابهما عن علم نفس الخِطاب بمربعات «انعكاسية» يناقشان فيها وضع معرفتهما وكيف توصلا إليها. أحد تلك المربعات، على سبيل المثال، يتخذ شكل الحوار بين المؤلفين، ويناقشان فيه التسمية التي ينبغي لهما إعطاؤها للمنوال الذي وضعاه (1992 :155). بهذه الطريقة، بيّنا أن المعرفة لا توجد

مجرد وجود، بل يتم إنتاجها بواسطة اختيارات يقوم بها أشخاص معينون في حالات محددة[101].

على الرغم من أن الهدف من هذه العروض هو الاعتراض على علاقات السلطة التراتبية بين المؤلف والقارئ، فقد يكون للنصوص نتيجة مفارقة متمثلة في الظهور كمتفضلة على القارئ، بما أنها تلمح إلى أنه إن لم يتم تنبيه القارئة فإنها ستصدق كل شيء تقرأه. إذا كان هذا هو واقع الأمر، فمن الواضح إذًا أن الهدف من إيجاد علاقة أكثر تكافؤًا بين المؤلف والقارئ لم يتحقق.

في تجارب أكثر تطرفًا، يبدو تقريبًا أن هدف النص هو قول أقل مقدار ممكن من الأشياء، أو في الأقل تقويض أي شيء وقع قوله لكي لا يكون القارئ متحفزًا لتصديقه (على سبيل المثال Woolgar and Ashmore, 1988). إن نصوصًا تجريبيةً من هذا النوع قد تصعب بالنتيجة مناقشتها لأن الرسالة التي يكون المؤلفون مستعدين للالتزام بها لا تزال غير واضحة. إن عدم اتخاذ موقف يؤدي إذًا في نظرنا إلى

---

(101) انظر (Ashmore, 1989)، و(Lather and Smithies, 1997)، و(Woolgar, 1989) للاطلاع على تجارب مماثلة مع أشكال العرض. (Lather and Smithies, 1997)، على سبيل المثال، هو نص ما بعد بنيوي مكتوب من قبل منظرَيْن نسويين وهما في مستويات عديدة يفضلان معرفة المخبرين على تلك التي للباحثين وهما يحاولان باستمرار أن يوضحا للقارئ أنه لا توجد أبدًا رواية واحدة وأنه لا توجد رواية ثابتة. ويحتوي (Lather, 2001) على أفكار إضافية مؤسسة على كتابة (Lather and Smithies, 1997). وانظر أيضًا (Denzin, 1997) للاطلاع على مناقشة لأشكال مختلفة من الكتابة التجريبية.

مشكل، لأن النصوص بذلك تنغلق على نفسها من دون أي نقاش أو نقد. والأمر المثالي عندنا هو أن تعمل النصوص العلمية مساهمةً في مناقشة جارية، وأن تكون المؤلفة، بالنتيجة، ملزمة بأن توضح ما تريد قوله وما هي المعايير التي تقبلها أساسًا للنقد والمناقشة[102]. وعلى الرغم من هذا المشكل، فإن الكتابة التجريبية يمكن أن تكون استراتيجيةً انعكاسيةً فعالةً وبناءةً لإعادة تحديد العلاقة بين إنتاج المعرفة والمؤلف والقارئ وللتعبير عن ذلك نصيًّا. وفي القسم التالي، سنعود بإيجاز إلى هذا السؤال.

كان الهدفُ من مناقشتنا البحث الحواري والكتابة التجريبية توضيحَ كيف أن مسألة النسبية لا تقتصر فحسب على تحديد الوضع الإبستيمولوجي المتبع (اعتناق النسبية أو تقييدها). وفي كل مراحل عملية البحث، وقع التفاوض على مسألة النسبية، واتخذت خيارات كانت لها نتائج على درجة نسبية الموقف في البحث. وإذا اخترنا المناهج التقليدية لإنتاج المواد وتحليلها، حيث يكون الباحث دائمًا هو صاحب القول الفصل، وإذا كنا نحرر النتائج في نص علمي تقليدي، حيث تُستبعَدُ ذاتُ الباحث وظروفُ المعرفة، فإن المعرفة التي يتم إنتاجها إذًا، تُقدمُ على أنها «نظرة من مكان غير محدد» (Nagel, 1986). وإذا كنا، في المقابل، نستخدم واحدةً أو أكثر من الاستراتيجيات الانعكاسية، فإن نتائج البحث

(102) هذا النقد يمكن أن يوجه أيضًا إلى أفكار ستيفن تايلر (Steven Tyler) وهو أن النصوص يجب أن تقوم بالاستحضار بدلًا من التمثيل، كما أشرنا سابقًا.

يقع تنزيلها بـدلًا من ذلك في موضع شكل بين أشكال المعرفة الممكنة. في الحالة الأولى، فإنَّ العيب يتمثل في أننا نظهرُ سريعًا باعتبارنا ناطقين بالحقيقة ونمتلك منفذًا متميزًا إلى الواقع. وفي الحالة الثانية، فإن العيب يتمثل في أن تحجب الاستراتيجياتُ الانعكاسيةُ السلطةَ التي تُسندُ إلى الباحث ويُسندُها إلى نفسه من دون إقرار بالأمر.

النسبية والموضوعية

كما رأينا، فإن التقيد بفرضيات البنائية الاجتماعية ينطوي على مناقشة للنسبية في كل من الادعـاءات المبدئية المقدمة في البحث والطريقة التي تُدار بها مختلف مراحل عملية البحث من الناحية العملية. وسنعود الآن إلـى مناقشة النسبية في مستوى المبدأ، متفحصين وضعية المعرفة التي تنتجها البحوث النسبية. إن النسبية تُعامل غالبًا على أنها مقابلة للموضوعية. والمعرفة التي يقع ربطها بمنظور معين -برؤية من مكان ما- لا يمكنها أن تكون موضوعيةً، وإذا كانت كل معرفة مترسبةً تاريخيًّا وثقافيًّا، فإن الموضوعية بذلك تكون مستحيلة. هذه المقابلة هي عماد طرائق معالجة النسبية التي قدمناها في القسم السابق. عندما يعتنق إدواردز وآخرون معه النسبية، فهم يفترضون استحالة الموضوعية. وعندما يحاول تشولياراكي وفركلاف تقييد النسبية، فذلك لأنهما يعتبران أن بعض أوصاف العالم هي أفضل، وفي الأقل، أقل تشويهًا في تمثيلها له من أخرى، ويعتبران بالتالي أن نسبيةً مطلقةً تستبعدُ النقاشَ في معرفة أكثر أدلجةً أو أقل أدلجة.

داخل البحوث النسوية جُعلت المقابلة ذاتها بين النسبية والموضوعية إشكالية. وتعتبر ساندرا هاردينغ (Harding, 1991, 1996)، على سبيل المثال، أن المعرفة تصبح أكثر موضوعيةً عندما يتم إنتاجها داخل سياق تاريخي وثقافي محدد. ولكي يكون كلامنا أكثر دقةً، فإن كل معرفة تتشكل تاريخيًّا وثقافيًّا. لكن العلم الحديث يقدم نفسه **كما لو** أن معرفته لا سياق لها، وقد قام بطبعنة نفسه بنفسه على أنه انعكاس خالص للعالم. وقد وضعت هاردينغ مفاهيم الموضوعية «القوية» و«الضعيفة» (1991: chap. 6; 1996). ويمثل العلم الحديث «موضوعيةً ضعيفةً»، لأنه لم يأخذ بعين الاعتبار شروط الإمكان الثقافية والتاريخية الخاصة به. وتتحقق الموضوعية القوية من خلال **انعكاسية قوية** تشتمل على دراسة المواقع الثقافية والاجتماعية الخاصة بنا باعتبارنا باحثين (Harding, 1991: 16ff.). عندما نأخذ بعين الاعتبار، على هذا النحو، المكان الذي «تنحدر منه» معرفتنا الخاصة، يمكننا أن ننتج تمثيلات للعالم أكثر موضوعيةً وأقل تشوهًا (راجع Bourdieu and Wacquant, 1996).

ووضعت دونا هاراواي (Haraway, 1996) مفهوم **المعرفة المقامية** (situated knowledge) ذا الصلة، إجابةً لها عن السؤال كيف نقبل بأن كل معرفة هي عَرَضية من الناحية التاريخية من جهة، ولكننا نريد من جهة أخرى أن ننتج أوصافًا مقنَّعةً للعالم (1996: 252). إن المعرفة ـوفقًا لهاراواي- هي دائمًا جزئية ويتم إنتاجها دائمًا عبر اتباع رؤية معينة للعالم تكون ممكنة بفضل «تصور التقنيات» التي نرى بواسطتها، سواء أكانت نظارات أم مجاهر أم بناءات نظرية. ومن

خلال فحص الكيفية التي تتنزل بها رؤية ما في المقام، ومن خلال وصف «التقنية» التي تجعل الرؤية ممكنة، يمكننا أن نبين أن تمثيلنا الخاص للعالم ينحدر من مكان محدد وأنه هو نفسه أيضًا بناءٌ.

وتقترح هاردينغ وهاراواي كلاهما إذًا، أن تقديم تفسير كيفَ تأتي تمثيلاتنا الخاصة للعالم إلى الوجود، ومن أين، يجعلُ المعرفة أفضل، ولكنهما تفهمان مفهوم «الأفضل» بطرائق مختلفة قليلًا. هاردينغ متفائلة جدًّا في ما يتعلق بالإمكانات التي تُتيحها الاستراتيجية الانعكاسية التي بها يتتبع الباحثون كلَّ افتراضاتهم نقديًّا ونسقيًّا (Harding, 1991: 307). هذا الفهم للانعكاسية يستلزم أنه من الممكن لدور الباحث أو الباحثة وموقعهما الثقافي والتاريخي أن يصبح واضحًا لديه أو لديها. وهذا كما نعتقد، هو أكثر ما نطمح إليه، بما أنه يُعيدنا إلى موقع الباحث الذي يمكننا بالانطلاق منه أن ننتج وصفًا للواقع شفافًا ومحايدًا (راجع Rose, 1997).

وترتاب هاراواي أيضًا في هذه النقطة (Haraway, 1997: 16, 37f.). على الرغم من أنها تعتبر أنه ينبغي للباحثين أن يبذلوا أفضل ما في وسعهم كي يصفوا ظروف إمكان رؤيتهم للعالم، فهي تؤكد في الوقت ذاته أن البحث هو دائمًا إنجازي لأنه يُشكل العالم بطرائق معينة، وهو بذلك يميز بعض العوالم الممكنة من الأخرى (1997: 37). وهي تحاول إثبات ذلك باستعمال أسلوب اختباري في العرض تنتقل فيه بين تقارير سردية وتحليلات تفصيلية وتعليقات انعكاسية. وكما ذكر سابقًا، فهي تُعرف بناء الإنسان الآلي لديها باعتباره «أسطورة سياسية»، وهي تؤكد أنها لم تقم بتمثيل العالم فحسب،

ولكنها جعلت العناصر تتمفصل بطرائق معينة (Haraway, 1992: 313ff.). بذلك، فهي تحتفظ بنسبية أساسية من دون أن تقيدها، بما أنها تحاول أن تجعل وضعَ معرفتها الخاصة، بما هي بناءٌ عَرَضيٌّ، قابلًا للمعاينة. ولكن اعتناق النسبية، في حالتها ليس نتيجةً لتعطيل الإمكان الخاص بها لقول شيء ما أو لرفضها كل معايير التقويم لدعاوى المعرفة الخاصة بها. وفي قراءتنا إياها، هي تقبل المعايير السياسية والعلمية جميعًا لإنتاج المعرفة: بعض تمثيلات العالم أفضل من غيرها، ويمكن تقويمها من خلال الأهداف السياسية التي تضعها الباحثة لبحثها، ومن خلال المعايير العلمية، من قبيل الحجج المتماسكة والشفافية في عرض عملية إنتاج المعرفة.

النقد بما هو فتح للنقاش من موقع محدد

سنحاول الآن تجميع كل الخيوط التي اتبعناها خلال مناقشتنا إمكانات البحث النقدي وننسج بعضها معًا لتشكيل مقترح للكيفية التي يمكن الباحثين البنائيين الاجتماعيين بها أن يفهموا ويعالجوا إنتاج المعرفة الخاص بهم. وموقفنا هو أن البحث ينبغي أن يحتوي منظورًا نقديًا. إضافة إلى هذا، وبمعنى واسع جدًّا لكلمة «نقد»، فإننا نعتقد أنه من المستحيل عليكَ تجنبُ أن تكون نقديًا. وكما بيَّنا سابقًا، فإنه لا يمكننا، في إنتاج النصوص، تجنب قول شيء ما عن العالم، ممثلين العالم بواسطة المعنى. وكما تدعي نظرية الخِطاب للاكلاو وموف، فإن النصوص تحتوي دائمًا على افتراضات عن الكيفية التي يكون عليها العالم، وبالتالي فإن إنتاج الموضوعية (بالمعنى

الاصطلاحي لنظرية الخِطاب) أمر لا مفر منه. ولذلك، نحن نتفق مع ستيفن تايلر ودونا هاراواي كليهما عندما يؤكدان إنجازية النصوص العلمية، هي نصوص تعمل حتمًا شيئًا في العالم، بدلًا من مجرد وصفه. ولكننا، في مقابل تايلر، لا نوافق على أن المرء يستطيع عند كتابة النصوص الأكاديمية، أو ينبغي له أن يسعى إلى تجنب وصف العالم أو تمثيله. تمثيل العالم بطريقة أو بأخرى لا مفر منه في كل إنتاج للمعنى. وهذا التمثيل للعالم يقع ترشيحه دائمًا على حساب تمثيلات أخرى كان يمكن القيام بها، وهو في تنافس مع تمثيلات أخرى تم القيام بها فعلًا.

بالنتيجة، إذا فهم النقد بمعنى واسع على أنه اقتراح فهم واحد للعالم على حساب أفهام أخرى ممكنة، فإننا لا نعتقد أن المرء يمكنه تجنب أن يكون نقديًّا على الإطلاق.

ولكننا سنقترح أيضًا فهمًا أضيق للنقد، فبأي معنى يمكن بعض الرؤى للواقع أن تُفهم على أنها أفضل من أخرى؟ لقد اعترضت بعض المساهمات التي قدمناها على بناء التكافؤ في الممارسة العلمية، حيث إن العلم ميز تقليديًّا معرفته الخاصة على جميع أشكال المعرفة الأخرى. ويدافع تايلر، على سبيل المثال، عن تراجع كلي عن العلم وادعاءاته الحقيقة. ويحتج كينيث غرغن وبرونو لاتور بأن النقد يُنزل الباحث دائمًا منزلة من يمتلك معرفة أسمى. ويدعو بعض علماء النفس والمنظرين للنسوية إلى استعمال الاستراتيجيات الانعكاسية التي تعزز درجة أعلى من المساواة بين الباحث والمبحوث والقارئ.

في كل هذه الحالات، فإن الاتجاه هو نحو تقويض السلطة العلمية لمصلحة علاقة أكثر مساواة بين أنواع المعرفة المختلفة ومعارف أنواع مختلفة من الناس (راجع Jørgensen، قيد الطبع).

الرأي عندنا أن عملية التسوية هذه تنزع إلى حجب علاقات السلطة التي لا يمكن تجنبها في الممارسة العلمية، وتتغاضى عن فرادة مواصفات المعرفة العلمية وقيمتها في آن واحد. وإذا كان شرط عام من شروط إنتاج المعرفة هو تعزيز بعض تمثيلات العالم على حساب أخرى، فإننا نفضل أن يعترف الباحثون أنهم بصدد قول شيء ما عن شيء آخر، وأن يتحملوا المسؤولية عن هذه الادعاءات، بدلًا من التظاهر بأنهم لم يقدموا أي رسالة خاصة بهم حول العالم (كما هو التوجه في حالة تايلر ولاتور وبعض صيغ البحث الانعكاسي). وعدمُ تحمل المسؤولية على هذا النحو يحرمهم أنفسهم من سلطة أسندوها بالفعل إلى ذواتهم باعتبارهم منتجين لنصوص. كذلك، نحن نتأى بأنفسنا عن المحاولة ذات الصلة لتسوية المعرفة العلمية بكل أشكال المعرفة الأخرى (كما هو التوجه في حالة غرغن وأجزاء من البحث الحواري)، وموقفنا هو أن المعرفة العلمية تمثل، بحق، شكلًا مخصوصًا للمعرفة يمتلك، بفضل «علميتِه»، مواصفات تميزه من أشكال المعرفة الأخرى.

في الوقت ذاته، نحن نوافق على أن العلم لا ينبغي له أن يُنَزِلَ نفسَه منزلةَ الحقيقة في مقابل «الوعي الزائف» لدى كل من سواه. ونحن نقترح تقسيم المناقشة إلى مستويين. **في مستوى المبدأ**،

يجب أن يكون مقبولًا أن المعرفة التي ننتجها بأنفسنا كوننا باحثين، ليست أفضل من كل أشكال المعرفة الأخرى، بمعنى أن المعرفة التي ينتجها العلم تخضع للظروف نفسها التي تخضع لها أي معرفة أخرى، أي أنها محددة تاريخيًا وثقافيًا، وبالتالي عَرَضية (ويمكن أن تكون دائمًا مختلفة). وهذا يستلزم أن الباحثين لا بد من أن يكونوا منفتحين للاستماع إلى تمثيلات الناس الآخرين للعالم وللنقاش معهم، فالتمثيلات الأخرى لا يمكن رفضها على أساس أن الباحثين يمتلكون منفذًا متميزًا للحقيقة. ومن المهم أن نحافظ على هذا التكافؤ على مستوى المبدأ، بما أنه يصبح من الصعب إجراء نقاش سياسي ديموقراطي إذا كنا نقوم بتمييز قَبلي بين هؤلاء الناس الذين يمتلكون معرفة مشروعة وأولئك الذين لا يمتلكونها. فالعَرَضية في مستوى المبدأ توفر إذًا منفذًا للنقاش المتواصل (راجع Butler, 1992)، وهي في الوقت ذاته محرك مركزي للبنائية الاجتماعية: على أساس من الفرضية المتمثلة في أن كل معرفة هي تاريخيًا وثقافيًا عَرَضية، يحاول الباحثون البنائيون الاجتماعيون النأيَ بأنفسهم عن المسلّمات وجعلَها موضوعًا للنقد والنقاش. والنتيجة في مستوى المبدأ هي أن الأفهام المسلّمة الخاصة بالباحثين يمكن أيضًا أن تصبح موضوعًا للكشف والتتبع.

لكن لا الحياة ولا البحث يتنزلان في هذا المستوى المبدئي الذي يكون كل شيء فيه عَرَضيًا (راجع Hall, 1993). والتلفظ بالأقوال يقع دائمًا في سياقات معينة تضع حدودًا ضيقةً لما يفهم على أنه أكثر دلالةً وأقل دلالةً، وعلى أنه صواب وخطأ. وفي هذا المستوى

المؤَسس الملموس، ليس لنا من خيار إلا تقديم بعض تمثيلات الواقع على حساب أخرى. وكما تدعي هاراواي، فإن الناس يتكلمون دائمًا داخل فضاء منظم مسبقًا، بحيث إن كل كلام -بما في ذلك كلام الباحث- يخضع لأنواع المنطق الخِطابي السائدة. الأقوال التي ينشئها المرء تتنزل دائمًا في مقام أو في موقع. وعلى الرغم من أن هدف البنائية الاجتماعية هو تحديد هذه الفضاءات وزعزعة صيغ المنطق المنتظمة فيها، فإن البنائية الاجتماعية، مثل كل خِطاب آخر، تخضع لهذه الصيغ من المنطق، جيدِها ورديئِها.

ومقترحنا هو أن نستعمل مفهوم النقد للجمع بين هذين المستويين -مستوى المبدأ والمستوى المؤسس الملموس- وننظر إلى النقد على أنه **موقع لافتتاح النقاش** (Jørgensen, 2001). وفي نظرنا، لا بد للبحث النقدي من أن يتحمل المسؤولية في توفير وصف علمي محدد للواقع على أساس اهتمام إبستيمي محدد، أي أن البحث النقدي ينبغي له أن يتخذ لنفسه موقعًا واضحًا وينأى بنفسه عن التمثيلات البديلة للواقع على أساس أنه يكافح للقيام بشيء محدد لأسباب محددة. وفي الوقت ذاته، لا بد للبحث النقدي من أن يوضح أن التمثيل المحدد الذي يوفره للواقع هو واحد فقط من بين تمثيلات أخرى ممكنة، مستدعيًا بذلك المزيد من النقاش.

وفي ما يتعلق بالنقاش حول النسبية، فإن موقفنا يعني أننا نصطف بشدة إلى جانب هاراواي عندما تتكلم على بحثها باعتباره «أسطورة سياسية». ونحن لا نحاول تقييد النسبية، ولا نرى كيف يمكن تقييدها

ضمن شروط الفرضيات البنائية الاجتماعية. ولكننا لا نرغب في اعتناقها إلى درجة تقويض كل مشاريع المعرفة بالقول دائمًا «إنها جميعها كان يمكن أن تكون مختلفة». وكون المعرفة سياسية فذلك يعني أن المرء لا يمكنه أن يقدم الحقيقة المطلقة ولا أن يتجنب تمامًا قول شيء ما. وما يقوله المرء خلال بحثه يمكن أن يصنع فارقًا في العالم، ولا بد له من تحمل مسؤوليته عنه. وهذا يمكن أن يحصل من خلال تقديره أهداف بحثه ونتائجه المحتملة ضمن سياق اجتماعي أوسع (على سبيل المثال، شكل من أشكال «النقد التفسيري»، انظر الفصل 3).

ونحن نميز أنفسنا عن هاراواي، تقريبًا، بإيلاء اهتمام أكبر لقيمة **العلمية**. ولا يعني كون المعرفة إنتاجًا سياسيًّا فحسب أنه لا يمكنها اكتساب قيمة علمية. وربما كانت هاراواي ستوافق على هذه النقطة، ولكنها بتعريفها مشروعها بأنه «أسطورة سياسية» تؤكد العَرَضية، أي حقيقة أن التمثيل كان يمكن أن يكون مختلفًا. وهذا ما أكدناه أيضًا في مستوى المبدأ، ولكن فهم المعرفة العلمية الذي نؤيده يهدف إلى الحفاظ على مستوى المبدأ ومستوى الملموس معًا في المنظور، وبالتالي فإن وصفًا أكثر ملاءمةً لمنزلة المعرفة العلمية من شأنه أن يكون **حقيقة قابلةً للنقاش**. وهنا تحيل «الحقيقة» إلى المستوى الملموس المؤسس الذي تم بموجبه تأييد بعض الروايات على أنها أفضل من أخرى، ويحيل «النقاش» على مستوى المبدأ الذي ينبغي للمرء بموجبه أن يكون دائمًا منفتحًا على ادّعاءات الحقيقة البديلة.

ما الذي يُشَكل، إذًا، قيمة المعرفة العلمية وكيف لنا أن نمارس البحث باعتباره حقيقةً قابلةً للنقاش؟ إن العلم يمكن النظر إليه على أنه خِطاب واحد من بين عدة خِطابات أخرى، خِطاب يتميز بإنتاج المعرفة بطرائق محددة على أساس قواعد محددة. وتشمل القواعد المبادئ العامة المتمثلة في أن مراحل البحث ينبغي أن يتم توضيحها قدر الإمكان، وأن الحجج ينبغي أن تكون متناسقة، وأن النظرية ينبغي أن تشكل نظامًا منسجمًا، وأن سندًا اختباريًّا ينبغي تقديمه للتأويلات المعروضة. ومن منظور بنائي اجتماعي، يُنظر إلى هذه القواعد على أنها عَرَضِية، وهو ما يستلزم أنها قابلة للنقد والتغيير خلال الزمن. إن كثيرًا من المنظرين الذين تم تقديمهم هنا، على سبيل المثال، يعلنون انتقادات للممارسة العلمية التقليدية ولقواعدها وإجراءاتها، وهم يساهمون أيضًا في الصراع الخِطابي حول أي القواعد ينبغي أن تُتبع في البحث البنائي الاجتماعي. إن المعرفة العلمية هي، مثل كل معرفة أخرى، بناءٌ عَرَضي يخضع لتنظيم خِطابي. وما يميز المعرفة العلمية عن أغلب الأشكال الأخرى للمعرفة هو محاولتها التمسك بمجموعة أو بأخرى من القواعد **الصريحة**. وضمن مجموعة معينة من القواعد -في المستوى المؤسس الملموس- **ليست** كل التوصيفات العلمية للواقع متساوية في الجودة. إن نتائج بحث محدد يمكن وينبغي أن تُقوَّم على أنها أفضل تمثيلات علمية للواقع أو أفقرها من خلال تقويم ما إذا كان الإجراء والنتيجة يرقيان إلى القواعد التي أُعلن عن اتباعها (راجع Phillips, 2001).

في مشاريع بحثية محددة، نحن نعتقد إذًا أنه من الأهمية بمكان أن تُجعل الأسسُ التي تقوم عليها المعرفة التي وقع إنتاجها

صريحة. وأن يتخذ المرء لنفسه ولبحثه موقعًا، فذلك يتضمن تقديم وصف لما يهدف إلى قول شيء حوله، وما هي القواعد التي يتبعها في عملية البحث. وهذا ينطبق على القواعد العامة جدًّا حول الشفافية والانسجام وعلى القواعد الخاصة جدًّا التي وضعتها النظريات المفردة. لقد اقترحنا سابقًا في هذا الفصل أن مقاربات تحليل الخِطاب المختلفة يمكن أن تُفهم على أنها «لغات للوصف» مختلفة، إليها يترجمُ المرء المادةَ الاختبارية. ومن المهم أن يوضح المرء أي لغة يعتمدُ في التحليل وبالتالي ما هي القواعد التي يتبعها في عملية «الترجمة». التناسق النظري والمنهجي هو، على هذا النحو، قَيْدٌ بحثي: الباحث يفهم العالم بطريقة معينة بدلًا من طرائق أخرى ممكنة. ولكنه قَيْد ضروري، وهو أيضًا مُنْتِجٌ. إن استعمال نظرية معينة في إنتاج المواد وتحليلها يُمَكنُ الباحثين من النأي بأنفسهم عن أفهامهم المعتادة للمواد، وهي عملية أساسية في البحث البنائي الاجتماعي.

إن العلمية التي تُفهم على أنها بحث يقدم المبررات لمجموعة من القواعد الصريحة ويتبعها، هي بدقة ما يميز المعرفة العلمية عن أشكال أخرى للمعرفة. وهذا لا يعني أن إنتاجَ أشكال أخرى للمعرفة لا تحكُمُه قواعدُ، فهذه القواعد والترتيبات هي في الحقيقة ما يهدف تحليل الخِطاب إلى تحديده، كما أنه لا يعني أن أشكال المعرفة الأخرى لا تعتمد من حين إلى آخر على إجراءات علمية ولا تطبقها. مثال ذلك أنه يمكن الناس في المحادثة اليومية أن يرفضوا أوصاف الآخرين للواقع على أساس أنها تفتقر إلى الاتساق: «أي أنها

لا تتماشى مع ما قلته سابقًا». ولكن الفرق هو أن الباحثَ ملزمٌ، باعتباره عضوًا في المجتمع العلمي، باتباع مجموعة معينة من القواعد المنتظمة قدر الإمكان، وهو ما يفتح الباب لإمكان إنتاج معرفةٍ لا يتم إنتاجها عادةً داخل أشكال أخرى للممارسة الخِطابية. وهذا، في رأينا، هو ما يمنح المعرفة العلمية مشروعيتها باعتبارها مساهمةً في نقاش ديموقراطي أوسع حول ما هو المجتمع وما ينبغي أن يكون عليه.

في النقاشات الديموقراطية الأوسع نطاقًا، تجتمع أشكال مختلفة للمعرفة سوية، وهنا يصبح مبدأ العرضية باعتباره شرطًا لكل إنتاجٍ للمعرفة، مرة أخرى، مهمًّا. وتعمل أشكال مختلفة للمعرفة وفقًا لصيغ مختلفة من المنطق الخِطابي، وعندما تجتمع سوية في نقاش ديموقراطي أوسع، فليس بالضرورة أن مجموعة علمية من القواعد أو من صيغ المنطق الخِطابي هي التي تعمل -أو يجب أن تعمل- باعتبارها أساسًا مشتركًا للنقاش. ومن شأن هذا التفضيل للعلم أن يفوض الخبراء العلميين باعتبارهم المجموعة الوحيدة التي يُسمح لها بإطلاق الادعاءات المعرفية. إن تحديد قواعد النقاش المشترك هو جزء أساسٌ من الصراع الدائر في علاقته بالنقاش العمومي. وما يُعتبر «أسئلة علمية» في النقاش العمومي لا بد من أن يُنظر إليه على أنه نتاج صراع مستمر بين أشكال مختلفة للمعرفة بدلًا من كونه شيئًا يتم تقريرُه مرة واحدة وإلى الأبد، والبحث الناتج هو ذاته جزء من هذا الصراع.

لقد قدمنا مقترحنا للبحث النقدي باعتباره فعل موازنة بين مستوى المبدأ والمستوى المؤسس الملموس، فعلَ موازنة بين

معالجةِ كل معرفة، بما في ذلك معرفتنا الخاصة، باعتبارها عَرَضية ومفتوحة للنقاش، من جهة، ومعالجتِها باعتبارها مساهمةً في سياقات محددة يكون فيها بعض التوصيفات للواقع أفضل من غيرها، من جهة أخرى. والموازنة بين الاثنين لا يمكن تحديدها نهائيًّا على أساس هذه الاعتبارات العامة. وبدلًا من ذلك، لا بد من تحديدها في علاقتها بمشروع البحث المعين موضعِ النظر، الذي يكون على المرء فيه أن يقرر كيف يتموقع باعتباره باحثًا وأن يأخذ بعين الاعتبار نتائج الموقف المُتخذ على تصميم البحث وعلى تقديم البحث، وبالتالي فالكيفية التي يقدم بها المرء نفسه ومعرفته الخاصة في وضعية محددة، هي خيارٌ محددٌ واستراتيجي، فعلى المرء أن ينظر أين يكون الموقع الذي سيتخذه لنفسه في سلم يمتد من موقع الباحث باعتباره مشارِكًا على قدم المساواة في النقاش مقدمًا مساهمةً مساوية لكل أشكال المعرفة الأخرى، إلى موقع الباحث باعتباره خبيرًا علميًّا مخولًا بحكم السلطة بتوفير تمثيل أفضل للواقع، على أساس أن هذا التمثيل هو نتاج بحث علمي في الموضوع قيد المناقشة.

إذا اختار المرء تأكيد عَرَضية البحث، فإن استراتيجيات انعكاسية مختلفة يمكن أن تُستعمل، كما هو الشأن في البحث الحواري، لبناء جسور بين أشكال المعرفة المختلفة. هذه الاستراتيجيات يمكن أن تكون قيمةً للغاية من منظور اهتمامات إبستيمية معينة، بشرط أن لا يستنتج المرء أنه يمكنه القيام بتحييد سلطته الخاصة تمامًا. في هذا الكتاب، اخترنا أسلوبًا في العرض أكثر تقليدًا وأكاديميّة. لقد أردنا أن ننتج المعرفة حول تحليل الخِطاب وننشرها وادعينا سلطةً

معينة في ذلك، وأعلنّا أنه «شيء نعرف عنه بعض الأمور». وقد قمنا، على سبيل المثال، بموقعة أنفسنا على أننا على علم بالحقل وموقعة القارئ على أنه أقل علمًا. وفي مواضع أخرى، حاولنا أن نعبر عن أنفسنا بحيث نجعلها منفتحة لنقاشات مهمة وأن نتركها منفتحة. مثال ذلك، هذه الخلاصة للنقاش حول البحث النقدي التي استعملنا فيها عددًا من الجهات الذاتية («نحن نعتقد» و«في نظرنا»... وهلم جرًّا). من أجل أن نشير إلى أننا نعترف هنا بوجود مواقف أخرى تمتلك حججًا جيدة. وتماشيًا مع نظرتنا للبحث باعتباره حقيقةً قابلةً للنقاش، قمنا عند صياغة النص بالتنقل بين «موقع ـ الحقيقة»، أي بعض المواضع التي تعلن صراحةً «كيف هي الأشياء»، و«موقع النقاش» المبين للعَرَضِية، في مواضع نعاين فيها حاجة إلى المزيد من النقاش[103]. أما إن كنا رسمنا الحد الفاصل بين الحقيقة والنقاش في المكان الصحيح، فذلك متروك للقارئ ليتخذ بشأنه قراره. إن مفهوم النقد باعتباره موقعًا لافتتاح النقاش يتضمن دائمًا دعوة للقارئ لولوج النقاش بنفسه ومواصلته.

في عرضنا السابق لموقفنا، كتبنا كثيرًا حول ما نعتقد أن الباحث ينبغي له «أن يأخذه بعين الاعتبار» و«أن يتحمل المسؤولية فيه»، كما لو كان الباحثون في مواجهة خيارات واضحة وكانوا يمتلكون رؤيةً شاملة لظروف الإنتاج ولآثار مشاريعهم البحثية. لقد أعلنا، على سبيل المثال، أن الباحثين عليهم أن يتخذوا مواقع على نحو

(103) انظر (Harré and van Langenhove, 1999) للاطلاع على نقاش للكتابة الأكاديميّة من منظور نظرية التموقع.

صريح، موضحين طبيعة الاهتمام الإبستيمي لمشروع البحث والإطارين النظري والمنهجي له. مع ذلك، وكما قمنا أيضًا ببيانه، من المهم أن نعترف بأن هذه الممارسات الانعكاسية هي خاضعة لقيود تضعها ظروف إنتاج المعرفة. والباحثون هم دائمًا جزء من سياق اجتماعي أوسع، وبالتالي هم لا يستطيعون أن يتخذوا مواقع لأنفسهم ولمعرفتهم بحرية فحسب. وكما لاحظنا للتو، فإن القارئ، بمعنى من المعاني، هو من تكون له الكلمة الأخيرة في ما يتعلق بالنص، فمن دون القراء واستعمالهم المتنوع للنصوص كان يمكن النصوص أن تبقى غير مكتوبة. الباحث الفرد إذًا لا يمكنه أن يدعي سيطرة كاملةً على معرفته. وكما أكدنا خلال هذا الفصل، الأمر نفسه ينطبق على الجانب الآخر من إنتاج المعرفة: معرفة الباحث هي ذاتها نتاج ظروف اجتماعية وثقافية لا تمكنه السيطرة عليها ولا يمكنه فهمها فهمًا كاملًا. ويمكن استعمال الاستراتيجيات الانعكاسية، كما اقترحت ساندرا هاردينغ، على سبيل المثال، لتسليط الضوء على الظروف الاجتماعية والتاريخية التي أُنتجت فيها معرفتُنا، ولكنها لا توفر شفافيةً كاملة. ومن المستحيل أن نجعل كل الأفهام المسلمة ظاهرة، ولا يمكننا تجنب إقحام أفهام مسلمة جديدة.

أن تتم موقعته إذًا فتلك هي -إلى حد ما- ماهية الباحث بالضبط، ونقص الشفافية الذي يستلزمه ذلك لا بد من أن يُقبل. ولكن الموقَعَة أمر يقوم به الباحث أيضًا. نظرية المنظور تَفهَمُ المعرفة على أنها شيء يمكن تحقيقه بفضل موقع معين تُوفره تجاربُ معينة. ونحن نتفق مع هذا إلى حد ما، ولكننا نعتقد أنه من المهم كذلك التعاملُ مع المَوقَعَة

باعتبارها جهدًا **فاعلًا** يُموقع فيه الباحثُ نفسَه على نحو استراتيجي في مكان معين من أجل رؤية العالم من منظور أهداف معينة وإطار نظري معين (راجع Haraway). ونحن نعتقد أنه من المهم تقديم وصف للموقع الذي يوجد فيه المرء والتقنيات التي ينظر من خلالها إلى العالم، وإن كان من المستحيل تجاوزُ الظروف العَرَضِية للإنتاج وتقديمُ وصفٍ كامل.

سنختم بالعودة إلى نقدِ الأيديولوجيا، مقاربة النقد التي أصبحت تُنتقد كثيرًا داخل البنائية الاجتماعية لأنها تَعتبر أن الباحث يمكنه أن يكشف أيديولوجيات الناس بمساعدة الحقيقة. في الواقع، وفي جوانب مهمة منه، فإن اقتراحنا لفهم نظري للبحث النقدي يسير على خطى نقد الأيديولوجيا. ونحن لا نميز، كما يفعل نقد الأيديولوجيا، بين تمثيلات للواقع أكثر أو أقل أدلجة، كما أننا لا نعتبر بعض التوصيفات للواقع أكثر موضوعيةً من أخرى، ولكننا نحتفظ بعدم التكافؤ، الذي هو جزء لا يتجزأ من نقد الأيديولوجيا. وعلى الرغم من أنه، ومن حيث المبدأ، توجد دائمًا إمكانات أخرى عديدة لتمثيل العالم، فإن كتابة نصوص معينة تستلزم دائمًا ادعاءً بأن الواقع قابل للتمثيل وأن التمثيلَ المُقدم في النص أفضل من تأويلات أخرى ممكنة.

إن البحث البنائي الاجتماعي، كما رأينا، معني غالبًا بإماطة اللثام عن المسلمات، وبما هو كذلك، هو يطمح إلى «مراقبة» أفهام الناس المعتادة. وهو في هذا المضمار، أيضًا، يشبه نقد الأيديولوجيا. والفرق الإبستيمولوجي هو أننا لا نرى أن الهدف هو الوصول إلى

الواقع وراء الأقنعة، فكل كشف للقناع يتضمن هو ذاته «وضعًا لقناع» جديد، بناءً عَرَضيًا جديدًا للواقع. إذا كانت الحقيقة العلمية، كما هو الشأن في نقد الأيديولوجيا، تُتَصوَرُ على أنها في تقابل مع الوعي الزائف للحياة اليومية، فذلك يُقِيمُ تَراتُبِيةً تنزع الشرعية عن أشكال المعرفة الأخرى في النقاش العمومي. وفي الوقت ذاته، تكمن قوة العلم في أنه يمتلك الوقت والنظرية التي ينأى بها بنفسه عن بعض أفهامنا المشتركة المسلمة، وبالتالي يساهم العلم ما وسعه ذلك في النقاش الديموقراطي، من خلال إبراز مجالات كانت حتى الآن خارج النقاش لأن وضع الأشياء كان يُعتبر طبيعيًّا. إن صيغة الواقع التي يقدمها المرء على غيرها في البحث ليست أفضل من أي واحدة أخرى في مستوى المبدأ، وتمكن دائمًا تنحيتها جانبًا خلال الصراعات الخِطابية في كل من الحقل العلمي والمجال العام ككلّ. ولكن بتقديم وصف مؤهلٍ (لأنه علمي) ومختلفٍ للواقع عن تلك الأوصاف التي هي على خلاف ذلك متاحة، فإن المعرفة البحثية يمكن أن تساهم كما هو مأمول في إضافة منظورات جديدة للنقاش العمومي.

بأي حق يجب علينا أن نساهم في هذه المنظورات الجديدة والنقدية، يمكن المرء أن يتساءل. باعتبارنا بنائيين اجتماعيين، فإننا لا نمتلك الحق المُكتسب من خلال امتلاكنا حقيقة نهائية. ولكننا نمتلك الحق الذي يمتلكه كل الناس، مبدئيًّا، للتدخل في نقاش ديموقراطي حاملين حقيقةً قابلة للنقاش، من أجل تعزيز تصوراتنا لمجتمع أفضل.

ثبت المصطلحات

عربي - إنكليزي

آثار أيديولوجية	Ideological effects
آثار الحقيقة	Truth effects
أبنية عرفانية	Cognitive structures
اتحاد	Affinity
اتصال عبر وسائل الإعلام الجماهيري	Mass mediated communication
إثمار	Fruitfulness
أجنبي داخلي	Outsider within
اختبار الفرضية	Hypothesis testing
إدراكية	Perceptualism
أساطير	Myths
استبدال	Substitution
أسئلة البحث	Research questions

Leading questions	أسئلة موجهة
Questionnaire	استبيان
Psychological investment	استثمار نفسي
Metaphor	استعارة/ تشبيه
Technologisation of discourse	استعمال تقني للخِطاب
Interpellation	استنطاق
Political myth	أسطورة سياسية
Dominant ideology thesis	أطروحة الأيديولوجيا السائدة
Everyday constraints	الإكراهات اليومية
Cyborg	إنسان آلي
Coherence	انسجام
Orders of discourse	أنظمة الخِطاب
Reflexivity	انعكاسية
Positivist epistemology	إبستيمولوجيا وضعية
Ethos	إيثوس
Ideology	أيديولوجيا
Action research	بحث إجرائي

Dialogical research	بحث حواري
Attitude research	بحث موقفي
Critical research	بحث نقدي
Opinion poll research	بحوث حول استطلاع الرأي
Social constructionism	بنائية اجتماعية
Social structure	بنية اجتماعية
Structuralism	بنيوية
Foundationalism	تأسيسانية
Interactional control	تحكم تفاعلي
Macro-sociological analysis	تحليل اجتماعي كلي
Discourse analysis	تحليل الخِطاب
Conversation analysis	تحليل المحادثة
Content analysis	تحليل المحتوى
Linguistic analysis	تحليل لغوي
Multiperspectival discourse analysis	تحليل متعدد المنظورات للخِطاب
Critical discourse analysis	تحليل نقدي للخِطاب

Hedge	تحوط
In-group favouritism	تحيز لمن هو داخل المجموعة
Hegemonic interventions	تدخلات مهيمنة
Transcription	تدوين
Translation	ترجمة
Coding	ترميز
Personification	تشخيص
Research design	تصميم البحث
Visualising technologies	تصور التقنيات
Stereotype	تصور نمطي
Exaggeration of textual detail	تضخيم التفاصيل النصية
Multivocality	تعدد الأصوات
Polysemy	تعدد المدلولات
Transitivity	تعدية
Change/ variation	تغيير
Interactionism	تفاعلية
Deconstruction	تفكيك

Interdiscursivity	تقاطع الخطابات
Research report	تقرير البحث
Group formation	تكوين المجموعة
Representation	تمثيل، تمثل
Articulation	تمفصل
Out-group discrimination	تمييز ضد من هو خارج المجموعة
Intertextuality	تناص
Antagonism	تنافر/ تنازع
Cognitive dissonance	تنافر عرفاني
Rhetorical organisation of text and talk	تنظيم بلاغي للنص والكلام
Distribution of discourse	توزيع الخِطاب
Imagined communities	جماعات متخيلة
Genre	جنس
Modality	جهة/ جهة الحكم
Closure	حاجز
Economic determinism	حتمية اقتصادية

Communicative event	حدث تواصلي
Freedom of action	حرية الفعل
Package	حزمة
Common-sense	حس مشترك
Field of discursivity	حقل الخِطابية
Truth	حقيقة/ صدق (في سياق منطقي)
Privatisation of responsibility	خصخصة المسؤولية
Discourse	خِطاب
Ecological discourse	خِطاب بيئي
Promotional discourse	خِطاب ترويجي
Neoliberal discourse	خِطاب الليبرالية الجديدة
Sedimented discourse	خِطاب مترسب
Conversational discourse	خِطاب المحادثة
Consumerist discourse and culture	خِطاب وثقافة الاستهلاك
Discursive, the, and the non-discursive	خِطابي وغير خِطابي
Schemata	خطاطات
Signifiant and signifié	دالّ ومدلول

Reception studies	دراسات التقبل
Master signifiers	دوالّ رئيسة
Floating signifiers	دوالّ متغيرة
Key signifiers	دوالّ مفاتيح
Radical democracy	ديموقراطية جذرية
Self	ذات
Subject	ذات
Chains of equivalence	سلاسل التكافؤ
Intertextual chains	سلاسل تناصية
Authority	سلطة
Power	سلطة
Commodification	سلعنة
Marketisation of discourse	سلعنة الخِطاب
Politics	سياسة/ سياسات
Life politics	سياسة/ سياسات الحياة
Subpolitics	سياسة/ سياسات فرعية
Identity politics	سياسة/ سياسات الهوية

Social semiotics	سيميائيات اجتماعية
Transparency of presentation	شفافية العرض
Discursive struggle	صراع خِطابي
Group conflicts	صراعات الجماعات
Validity	صلاحية
Ironic validity	صلاحية السخرية
Visual image	صورة مرئية
Wording	صياغة
Passive tense	صيغ الأفعال المبنية للمفعول
Extreme case formulations	صيغ الحالات القصوى
Pronouns	ضمائر
Naturalisation of discourse	طبعنة الخِطاب
Social class	طبقة اجتماعية
Contingency	عرضية
Cognitivism	عرفانية
Social relations	علاقات اجتماعية
Dialectical relationships	علاقات جدلية

Sign	علامة
Rhetorical psychology	علم نفس بلاغي
Discursive psychology	علم نفس الخِطاب
Scientificity	علمية
Planned action	عمل مخطط له
Agency	فاعلية
Base/ superstructure	قاعدة/ بنية عليا/ بنية فوقية
Repression	كبت
Experimental writing	كتابة تجريبية
Overdetermination	كثرة التعريفات
Parole	كلام
Unconscious	لاوعي
Dialogic unconscious	لاوعي حواري
Moments (Laclau and Mouffe)	لحظات (لاكلاو وموف)
Structuralist linguistics	لسانيات بنيوية
Language	لغة
Langue	لغة، شكل (دو سوسير)

Poststructuralism	ما بعد البنيوية
Research material	مادة البحث
Naturally-occurring material	مادة حادثة حدوثًا طبيعيًّا
Historical materialism	مادية تاريخية
Essentialism	ماهوية
Idealism	مثالية
Post-traditional society	مجتمع مابعد تقليدي
Risk society	مجتمع المخاطر
Taboos	محرمات
Interpretative repertoires	مخزون تأويلي
Culture repertoire	مخزون ثقافي
Race repertoire	مخزون عنصري
Scripts	مدونات
Taken-for-granted	مسلمات
Anti-foundationalism	مضاد للتأسيسانية
Anti-essentialism	مضاد للماهوية
Nodal points	معاقِد

Knowledge	معرفة
Scientific knowledge	معرفة علمية
Dilemmas of stake	معضلات المصلحة
Meaning	معنى/ دلالة/ مدلول
Interviews	مقابلات
Discursive practices	ممارسات خِطابية
Social practice	ممارسة اجتماعية
Logic of difference	منطق الاختلاف
Logic of equivalence	منطق التكافؤ
Perspectivism	منظورية
Ethnomethodology	منهج إثني
Survey method	منهج استقصائي
Quantitative method	منهج كمي
Qualitative method	منهج كيفي
Reliability	موثوقية
Theme	موضوع
Objectivity	موضوعية

Subject position	موقع الذات
Positioning	موقَعة/ تموقُع
Intonation	نبرة
Functional grammar	نحو وظيفي
Hailing	نداء
Relativism	نسبية/ نسبانية
Multi-modal texts	نصوص متعددة الوسائط
Objectivist view of science	نظرة موضوعية للعلم
Consistency theory	نظرية الاتساق
Psychoanalytic theory	نظرية التحليل النفسي
Encoding/ decoding theory	نظرية التشفير/ فك الشفرة
Social representations theory	نظرية التمثلات الاجتماعية
Object relations theory	نظرية العلاقات مع الموضوع
Standpoint theory	نظرية المنظور
Feminist theory	نظرية نسوية
Crisis points	نقاط التأزم
Ideology critique	نقد الأيديولوجيا

Explanatory critique	نقد تفسيري
Immanent critique of research	نقد محايث للبحث
Modified ideology critique	نقد معدل للأيديولوجيا
Critique of critique	نقد النقد
Discourse type	نمط الخِطاب
Identity	هوية
Hegemony	هيمنة
Critical realism	واقعية نقدية
Nominalisation	وسم اسمي
False consciousness	وعي زائف
Critical language awareness	وعي لغوي نقدي

ثبت المصطلحات

إنكليزي - عربي

Access to discourses	منفذ إلى الخِطابات
Action research	بحث إجرائي
Agency	فاعلية
Affinity	اتحاد/ ائتلاف/ تماثل
Antagonism	تنازع
Anti-essentialism	مضاد للماهوية
Anti-foundationalism	مضاد للتأسيسانية
Articulation	تمفصل
Attitude research	بحث موقفي
Authority	سلطة/ نفوذ
Base/ superstructure	قاعدة/ بنية عليا
Chains of equivalence	سلاسل التكافؤ
Change	تغيير

Closure	حاجز
Coding	ترميز
Cognitive dissonance	تنافر عرفاني
Cognitive structures	أبنية عرفانية
Cognitivism	عرفانية
Coherence	انسجام/ اتساق
Commodification	سلعنة
Common-sense	حس مشترك
Communicative event	حدث تواصلي
Consistency theory	نظرية الاتساق
Consumerist discourse and culture	خِطاب وثقافة الاستهلاك
Content analysis	تحليل المحتوى
Contingency	عرضية
Conversation analysis	تحليل المحادثة
Conversational discourse	خِطاب المحادثة
Crisis points	نقاط التأزم
Critical discourse analysis	تحليل نقدي للخِطاب

Critical language awareness	وعي لغوي نقدي
Critical realism	واقعية نقدية
Critical research	بحث نقدي
Critique of critique	نقد النقد
Culture repertoire	مخزون ثقافي
Cyborg	إنسان آلي
Deconstruction	تفكيك
Dialectical relationships	علاقات جدلية
Dialogic unconscious	لاوعي حواري
Dialogical research	بحث حواري
Dilemmas of stake	معضلات المصلحة
Discourse	خِطاب
Discourse analysis	تحليل الخِطاب
Discourse type	نمط الخِطاب
Discursive, the, and the non-discursive	خِطابي وغير خِطابي
Discursive practices	ممارسات خِطابية
Discursive psychology	علم نفس الخِطاب

Discursive struggle	صراع خِطابي
Distribution of discourse	توزيع الخِطاب
Dominant ideology thesis	أطروحة الأيديولوجيا السائدة
Ecological discourse	خِطاب بيئي
Economic determinism	حتمية اقتصادية
Encoding/ decoding theory	نظرية التشفير/ فك الشفرة
Essentialism	ماهوية
Ethnomethodology	المنهج الإثني
Ethos	إيثوس
Everyday constraints	الإكراهات اليومية
Exaggeration of textual detail	تضخيم التفاصيل النصية
Experimental writing	كتابة تجريبية
Explanatory critique	نقد تفسيري
Extreme case formulations	صيغ الحالات القصوى
False consciousness	وعي زائف
Feminist theory	نظرية نسوية
Field of discursivity	حقل الخِطابية

Floating signifiers	دوالّ متغيرة
Foundationalism	تأسيسانية
Freedom of action	حرية الفعل
Fruitfulness	إثمار
Functional grammar	نحو وظيفي
Genre	جنس
Group conflicts	صراعات الجماعات
Group formation	تكوين المجموعة
Hailing	نداء
Hedge	تحوط
Hegemonic interventions	تدخلات مهيمنة
Hegemony	هيمنة
Historical materialism	مادية تاريخية
Hypothesis testing	اختبار الفرضية
Idealism	مثالية
Identity	هوية
Identity politics	سياسة/ سياسات الهوية

Ideological effects	آثار أيديولوجية
Ideology	أيديولوجيا
Ideology critique	نقد الأيديولوجيا
Imagined communities	جماعات متخيلة
Immanent critique of research	نقد محايث للبحث
In-group favouritism	تحيز لمن هو داخل المجموعة
Interactional control	تحكم تفاعلي
Interactionism	تفاعلية
Interdiscursivity	تقاطع الخطابات
Interpellation	استنطاق
Interpretative repertoires	مخزون تأويلي
Intertextual chains	سلاسل تناصية
Intertextuality	تناص
Interviews	مقابلات
Intonation	نبرة
Ironic validity	صلاحية السخرية
Key signifiers	دوالّ مفاتيح

Knowledge	معرفة
Language	لغة
Langue	لغة، شكل (دو سوسير)
Leading questions	أسئلة موجهة
Life politics	سياسة/ سياسات الحياة
Linguistic analysis	تحليل لغوي
Logic of difference	منطق الاختلاف
Logic of equivalence	منطق التكافؤ
Macro-sociological analysis	تحليل اجتماعي كلي
Marketisation of discourse	سلعنة الخِطاب
Mass mediated communication	اتصال عبر وسائل الإعلام الجماهيري
Master signifiers	دوالّ رئيسة
Meaning	معنى/ دلالة/ مدلول
Metaphor	استعارة/ تشبيه
Modality	جهة/ جهة الحكم
Modified ideology critique	نقد معدل للأيديولوجيا

Moments (Laclau and Mouffe)	لحظات (لاكلاو وموف)
Multi-modal texts	نصوص متعددة الوسائط
Multiperspectival discourse analysis	تحليل متعدد المنظورات للخِطاب
Multivocality	تعدد الأصوات
Myths	أساطير
Naturalisation of discourse	طبعنة الخِطاب
Naturally-occurring material	مادة حادثة حدوثًا طبيعيًّا
Neoliberal discourse	خِطاب الليبرالية الجديدة
Nodal points	معاقد
Nominalisation	وسم اسمي
Object relations theory	نظرية العلاقات مع الموضوع
Objectivist view of science	نظرة موضوعية للعلم
Objectivity	موضوعية
Opinion poll research	بحوث حول استطلاع الرأي
Orders of discourse	أنظمة الخِطاب
Out-group discrimination	تمييز ضد من هو خارج المجموعة

Outsider within	أجنبي داخلي
Overdetermination	كثرة التعريفات
Package	حزمة
Parole	كلام
Passive tense	صيغ الأفعال المبنية للمفعول
Perceptualism	إدراكية
Personification	تشخيص
Perspectivism	منظورية
Planned action	عمل مخطط له
Political myth	أسطورة سياسية
Politics	سياسة/ سياسات
Polysemy	تعدد المدلولات
Positioning	موقَعة/ تموقُع
Positivist epistemology	إبستيمولوجيا وضعية
Poststructuralism	ما بعد البنيوية
Post-traditional society	مجتمع ما بعد تقليدي
Power	سلطة

Privatisation of responsibility	خصخصة المسؤولية
Promotional discourse	خِطاب ترويجي
Pronouns	ضمائر
Psychoanalytic theory	نظرية التحليل النفسي
Psychological investment	استثمار نفسي
Qualitative method	منهج كيفي
Quantitative method	منهج كمي
Questionnaire	استبيان
Race repertoire	مخزون عنصري
Radical democracy	ديموقراطية جذرية
Reception studies	دراسات التقبل
Reflexivity	انعكاسية
Relativism	نسبية/ نسبانية
Reliability	موثوقية
Representation	تمثيل، تمثل
Repression	كبت
Research design	تصميم البحث

Research material	مادة البحث
Research questions	أسئلة البحث
Research report	تقرير البحث
Rhetorical organisation of text and talk	تنظيم بلاغي للنص والكلام
Rhetorical psychology	علم نفس بلاغي
Risk society	مجتمع المخاطر
Scientific knowledge	معرفة علمية
Scientificity	علمية
Schemata	خطاطات
Scripts	مدونات
Sedimented discourse	خِطاب مترسب
Self	أنا
Signifiant and signifié	دالّ ومدلول
Sign	علامة
Social class	طبقة اجتماعية
Social constructionism	بنائية اجتماعية

Social practice	ممارسة اجتماعية
Social relations	علاقات اجتماعية
Social representations theory	نظرية التمثلات الاجتماعية
Social semiotics	سيميائيات اجتماعية
Social structure	بنية اجتماعية
Standpoint theory	نظرية المنظور
Stereotype	تصور نمطي
Structuralism	بنيوية
Structuralist linguistics	لسانيات بنيوية
Subject	ذات
Subject position	موقع الذات
Subpolitics	سياسة/ سياسات فرعية
Substitution	استبدال
Survey method	منهج استقصائي
Taboos	محرمات
Taken-for-granted	مسلمات
Technologisation of discourse	الاستعمال التقني للخِطاب

Theme	موضوع
Transcription	تدوين
Transitivity	تعدية
Translation	ترجمة
Transparency of presentation	شفافية العرض
Truth	حقيقة / صدق (في سياق منطقي)
Truth effects	آثار الحقيقة
Unconscious	لاوعي
Validity	صلاحية
Variation	تغيير
Visual image	صورة مرئية
Visualising technologies	تصور التقنيات
Wording	صياغة

المراجع

Abrams, D. and Hogg, M. (eds) (1990) *Social Identity Theory*. Brighton: Harvester Wheatsheaf.

Alexander, J. (1996) «Critical reflections on «reflexive modernization»»», *Theory, Culture and Society*. 13(4): 133-8.

Althusser, L. (1971) «Ideology and ideological state apparatuses», in L. Althusser *Lenin and Philosophy and Other Essays*. London: New Left Review.

Anderson, B. (1983) *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*. London: Verso.

Antaki, C. (1994) *Explaining and Arguing*. London: Sage.

Antaki, C. and Widdicombe, S. (eds) (1998) *Identities in Talk*. London: Sage Publications.

Aries, P. (1962) *Centuries of Childhood: A Social History of Family Life*. New York: Vintage.

Ashmore, M. (1989) *The Reflexive Thesis. Wrighting Sociology of Scientific Knowledge*. Chicago: The University of Chicago Press.

Atkinson, J. and Heritage, J. (eds) (1984) *Structures of Social Action: Studies in Conversation Analysis*. Cambridge: Cambridge University Press.

Austin, J. (1962) *How to do Things with Words*. London: Oxford University Press.

Azjen, I. (1988) *Attitudes, Personality and Behaviour*. Buckingham: Open University Press.

Bakhtin, M. (1981) *The Dialogical Imagination*. Austin: University of Texas Press.

Bakhtin, M. (1986) *Speech Genres and Other Late Essays*. C. Emerson and M. Holquist (eds). Austin: University of Texas Press.

Barrett, M. (1991) «Ideology, politics, hegemony: from Gramsci to Laclau and Mouffe», in M. Barrett *The Politics of Truth. From Marx to Foucault*. Cambridge: Polity Press.

Barthes, R. (1982) «Inaugural lecture, Collège de France», in S. Sontag (ed.) *A Barthes Reader*. London: Jonathan Cape.

Bauman, Z. (1991) *Modernity and Ambivalence*. Cambridge: Polity Press.

Beck, U. (1992) *The Risk Society*. London: Sage.

Beck, U. (1996) *The Reinvention of Politics*. London: Routledge.

Berelson, B. (1971) *Content Analysis in Communication Research*. Glencoe, IL.: Free Press.

Berger, A.A. (1991) *Media Analysis Techniques*. London: Sage.

Bernstein, B. (1996) *Pedagogy, Symbolic Control and Identity. Theory, Research, Critique*. London: Taylor & Francis.

Bhabha, H. (1994) *The Location of Culture*. London: Routledge.

Bhaskar, R. (1986) *Scientific Realism and Human Emancipation*. London: Verso.

Billig, M. (1982) *Ideology and Social Psychology*. Oxford: Blackwell.

Billig, M. (1991) *Ideology and Opinions*. London: Sage.

Billig, M. (1992) *Talking of the Royal Family*. London: Routledge.

Billig, M. (1996) *Arguing and Thinking: A Rhetorical Approach to Social Psychology*, 2nd ed. Cambridge: Cambridge University Press.

Billig, M. (1997) «The dialogic unconscious: discourse analysis, psychoanalysis and repression», *British Journal of Social Psychology*, 36(2): 139-59.

Billig, M. (1999a) «Whose terms? Whose ordinariness? Rhetoric and ideology in conversation analysis», *Discourse and Society*, 10(4): 543-58.

Billig, M. (1999b) «Conversation analysis and the claims of naivity», *Discourse and Society*, 10(4): 572-6.

Billig, M. and Simons, H. W. (1994) «Introduction», in H.W. Simons and M. Billig (eds), *After Postmodernism. Reconstructing Ideology Critique*. London: Sage Publications.

Bourdieu, P. and Wacquant, L. J. D. (1996) *An Invitation to Reflexive Sociology*. Cambridge: Polity Press.

Bracher, M. (1993) *Lacan, Discourse, and Social Change*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Breakwell, G. and Canter, D. (1993) *Empirical Approaches to Social Representations*. Oxford: Clarendon Press.

Brown, G. and Yule, G. (1983) *Discourse Analysis*. Cambridge: Cambridge University Press.

Brown, R.H. (1994) «Reconstructing social theory after the postmodern critique», in H.W. Simons and M. Billig (eds), *After Postmodernism. Reconstructing Ideology Critique*. London: Sage Publications.

Brundson, C. (1991) «Pedagogies of the feminine: feminist teaching and women's genres», *Screen*, 32(4): 364-81.

Burr, V. (1995) *An Introduction to Social Constructionism*. London: Sage.

Butler, J. (1990) *Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity*. New York: Routledge.

Butler, J. (1992) «Contingent foundations: feminism and the question of «postmodernism» », in J. Butler and J. Scott (eds), *Feminists Theorize the Political*. New York: Routledge.

Butler, J. (1993) *Bodies that Matter. On the Discursive Limits of «Sex»*. New York: Routledge.

Calhoun, C. (1995) *Critical Social Theory*. Oxford: Blackwell.

Cheesman, R. and Mortensen, A.T. (1991) *Om Målgrupper*. Papirer om Faglig Formidling, No. 15/87. Roskilde Universitetscenter: Kommunikation. [*Target Groups*. Communication Studies, Roskilde University: Papers on Specialist Communication.]

Chouliaraki, L. (1995) «The constitution of ethnographic texts in social scientific discourse: «realist» and «polyphonic» representations», *Interface. Journal of Applied Linguistics* 10(1): 27-46.

Chouliaraki, L. (1998) «Regulation in «progressivist» pedagogic discourse: individualized teacher-pupil talk», *Discourse and Society*, 9(1): 5-32.

Chouliaraki, L. (1999) «Media discourse and national identity: death and myth in a news broadcast», in M. Reisigl and R. Wodak (eds), *The Semiotics of Racism*. Vienna: Passager Verlag.

Chouliaraki, L. (2002) «Capturing the «contingency of universality»: some reflections on discourse and critical realism», *Social Semiotics* 12(2): 84-114.

Chouliaraki, L. and Fairclough, N. (1999) *Discourse in Late Modernity: Rethinking Critical Discourse Analysis*. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Collier, A. (1994) *Critical Realism*. London: Verso.

Collin, F. (1997) *Social Reality*. London: Routledge.

Collins, P.H. (1986) «Learning from the outsider within: the sociological significance of Black feminist thought», *Social Problems* 33(6): 14-32.

Collins, P.H. (1998) *Fighting Words. Black Women and the Search for Justice*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

Condor, S. (1997) «And so say all of us?: Some thoughts on «experiential democratization» as an aim for critical social psychologists», in T. Ibáñez and L. Íñiguez (eds), *Critical Social Psychology*. London: Sage.

Condor, S. and Antaki, C. (1997) «Social cognition and discourse», in T. van Dijk (ed.), *Discourse as Structure and Process. Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction*. Vol. 2. London: Sage.

Cottle, S. (1998) «Ulrich Beck, «risk society» and the media: a catastrophic view?», *European Journal of Communication*, 13(1): 5-32.

Davies, B. and Harré, R. (1990) «Positioning: the discursive production of selves», *Journal for the Theory of Social Behavior*, 20(1): 43-63.

Deleuze, G. and Guattari, F. (1987) *A Thousand Plateaus. Capitalism and Schizophrenia*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

Denzin, N.K. (1997) *Interpretive Ethnography. Ethnographic Practices for the 21st Century*. Thousand Oaks: Sage.

de Rosa, A. (1994) «From theory to metatheory in social representations - the lines of argument of a theoretical methodological debate», *Social Science Information*, 33(2): 273-304.

Derrida, J. (1998) *Of Grammatology*. Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.

Dyrberg, T. (1997) *The Circular Structure of Power. Politics, Identity, Community*. London: Verso.

Edwards, D. (1996) *Discourse and Cognition*. London: Sage.

Edwards, D. and Potter, J. (1992) *Discursive Psychology*. London: Sage.

Edwards, D., Ashmore, M. and Potter, J. (1995) «Death and furniture: the rhetoric, politics and theology of bottom line arguments against relativism», *History of the Human Sciences*, 8(2): 25-49.

Fabian, J. (1983) *Time and the Other. How Anthropology Makes its Object*. New York: Columbia University Press.

Fairclough, N. (1989) *Language and Power*. London: Longman.

Fairclough, N. (ed.) (1992a) *Critical Language Awareness*. London: Longman.

Fairclough, N. (1992b) *Discourse and Social Change*. Cambridge: Polity Press.

Fairclough, N. (1992c) «Text and context: linguistic and intertextual analysis within discourse analysis», *Discourse and Society*, 3(2): 193-217.

Fairclough, N. (1993) «Critical discourse analysis and the marketization of public discourse: the universities», *Discourse and Society*, 4(2): 133-68.

Fairclough, N. (1995a) *Critical Discourse Analysis*. London: Longman.

Fairclough, N. (1995b) *Media Discourse*. London: Edward Arnold.

Fairclough, N. (1998) «Political discourse in the media: an analytical framework», in A. Bell and P. Garrett (eds), *Approaches to Media Discourse*. Oxford: Blackwell.

Fairclough, N. (2000) *New Labour, New Language?* London: Routledge.

Fairclough, N. (2001) «The discourse of New Labour: critical discourse analysis» in M. Wetherell, S. Taylor and S. Yates (eds), *Discourse as Data: A Guide for Analysis*. London: Sage Publications.

Fairclough, N. and Wodak, R. (1997) «Critical discourse analysis», in T. van Dijk (ed.), *Discourse as Social Interaction:*

Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction. Vol. 2. London: Sage.

Featherstone, M. (1991) *Consumer Culture and Postmodernism*. London: Sage.

Festinger, L. (1957) *A Theory of Cognitive Dissonance*. New York: Row, Peterson & Co.

Fielding, N. (1993) «Interviews», in N. Gilbert (ed.), *Researching Social Life*. London: Sage.

Fishbein, M. and Azjen, I. (1975) *Belief, Attitude, Intention and Behavior: An Introduction to Theory and Research*. Reading, MA: Addison Wesley.

Fiske, J. (1982) *Introduction to Communication Studies*. London: Methuen.

Fiske, J. (1987) *Television Culture*. London: Methuen.

Foucault, M. (1972) *The Archaeology of Knowledge*. London: Routledge.

Foucault, M. (1973) *The Order of Things. An Archaeology of the Human Sciences*. New York: Vintage Books.

Foucault, M. (1977) *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. Harmondsworth: Penguin.

Foucault, M. (1979) *The History of Sexuality*. Vol. 1. Harmondsworth: Penguin.

Foucault, M. (1980) «Truth and power», in C. Gordon (ed.) *Power/Knowledge. Selected Interviews and other Writings 1972-1977*. Hemel Hempstead: Harvester Wheatsheaf.

Foucault, M. (1987) *The Use of Pleasure. The History of Sexuality*. Vol. 2. Harmondsworth: Penguin.

Foucault, M. (1988) *Care of the Self. The History of Sexuality.* Vol. 3. Harmondsworth: Penguin.

Fowler, R. (1991) *Language in the News: Discourse and Ideology in the Press.* London: Routledge.

Fowler, R., Hodge, B., Kress, G. and Trew, T. (1979) *Language and Control.* London: Routledge & Kegan Paul.

Gergen, K. (1985) «The social constructionist movement in modem social psychology», *American Psychologist*, 40(3): 266-75.

Gergen, K. (1991) *The Saturated Self.* New York: Basic Books.

Gergen, K. (1994a) *Realities and Relationships: Soundings in Social Construction.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Gergen, K. (1994b) «The limits of pure critique», in H.W. Simons and M. Billig (eds), *After Postmodernism. Reconstructing Ideology Critique.* London: Sage Publications.

Gergen, K. (1998) «Constructionist dialogues and the vicissitudes of the political», in I. Velody and R. Williams (eds), *The Politics of Constructionism.* London: Sage Publications.

Giddens, A. (1991) *Modernity and Self-Identity.* Cambridge: Polity Press.

Gramsci, A. (1991) *Selections from Prison Notebooks.* London: Lawrence and Wishart.

Hagen, I. (1994) «The ambivalences of TV news-viewing: between ideals and everyday practices», *European Journal of Communication*, 9(2): 193-220.

Hall, S. (1980) «Encoding and decoding the television discourse», in S. Hall, D. Hobson, A. Lowe and P. Willis (eds), *Culture, Media, Language*. London: Hutchinson.

Hall, S. (1990) «Cultural identity and diaspora», in J. Rutherford (ed.), *Identity. Community, Culture, Difference.* London: Lawrence and Wishart.

Hall, S. (1991) «Old and new identities, old and new ethnicities», in A. King (ed.), *Culture, Globalization and the World System*. Houndmills: Macmillan.

Hall, S. (1993) «Minimal Selves», in A. Gray and J. McGuigan (eds), *Studying Culture: An Introductory Reader.* London: Edward Arnold.

Hall, S. (1996) «Who needs «identity»?», in S. Hall and P. du Gay (eds), *Questions of Cultural Identity.* London: Sage.

Hall, S., Hobson, D., Lowe, A. and Willis, P. (eds) (1980) *Culture, Media, Language.* London: Hutchinson.

Halliday, M. (1994) *Introduction to Functional Grammar.* London: Edward Arnold.

Haraway, D. (1991) «A cyborg manifesto: science, technology, and socialist-feminism in the late twentieth century», in D. Haraway, *Simians, Cyborgs, and Women. The Reinvention of Nature*. London: Free Association Books.

Haraway, D. (1992) «The promises of monsters: a regenerative politics for inappropriate/d others», in L. Grossberg, C. Nelson and P.A. Treichler (eds), *Cultural Studies.* New York: Routledge.

Haraway, D. (1996) «Situated knowledges: the science question in feminism and the privilege of partial perspective», in E.F. Keller and H.E. Longino (eds), *Feminism and Science.* Oxford: Oxford University Press.

Haraway, D. (1997) *Modest_Witness@Second_Millennium. FemaleMan©_Meets_OncoMouse™*. New York: Routledge.

Harding, S. (1991) *Whose Science? Whose Knowledge? Thinking from Women's Lives*. Milton Keynes: Open University Press.

Harding, S. (1996) «Rethinking standpoint epistemology: what is «strong objectivity»?», in E.F. Keller and H.E. Longino (eds), *Feminism and Science*. Oxford: Oxford University Press.

Harré, R. (1983) *Personal Being: A Theory for Individual Psychology*. Oxford: Blackwell.

Harré, R. and Gillett, G. (1994) *The Discursive Mind*. London: Sage Publications.

Harré, R. and van Langenhove, L. (eds) (1999) *Positioning Theory*. Oxford: Blackwell.

Harvey, D. (1996) *Justice, Nature and the Geography of Difference*. London: Blackwell.

Henriques, J., Hollway, W., Urwin, C., Venn, C. and Walkerdine, V. (eds) (1984) *Changing the Subject: Psychology, Social Regulation and Subjectivity*. London: Methuen.

Heritage, J. (1984) *Garfinkel and Ethnomethodology*. Cambridge: Polity Press.

Heritage, J. (1997) «Conversation analysis and institutional talk: analysing data», in D. Silverman (ed), *Qualitative Research: Theory, Method and Practice*. London: Sage.

Heritage, J. (2000) «Goffman, Garfinkel and conversation analysis», in M. Wetherell, S. Taylor and S. Yates (eds), *Discourse Theory and Practice: A Reader*. London: Sage.

Hobsbawm, E. (1990) *Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality*. Cambridge, UK: Columbia University Press.

Hodge, B. and Kress, G. (1988) *Social Semiotics*. Cambridge: Polity Press.

Hollway, W. (1984) «Gender difference and the production of subjectivity», in J. Henriques, W. Hollway, C. Urwin, C. Venn and V. Walkerdine (eds), *Changing the Subject: Psychology, Social Regulation and Subjectivity*. London: Methuen.

Hollway, W. (1989) *Subjectivity and Method in Psychology: Gender, Meaning and Science*. London: Sage.

Hollway, W. (1995) «Feminist discourses and women's heterosexual desire», in S. Wilkinson and C. Kitzinger (eds), *Feminism and Discourse: Psychological Perspectives*. London: Sage.

Hollway, W. and Jefferson, T. (1997) «The risk society in an age of anxiety: situating fear of crime», *British Journal of Sociology*, 48(2): 255-66.

Holsti, O. (1969) *Content Analysis for the Social Sciences and Humanities*. Reading, MA: Addison Wesley.

Howarth, D. (2000) *Discourse*. Buckingham: Open University Press.

Howarth, D., Norval, A.J. and Stavrakakis, Y. (eds) (2000) *Discourse Theory and Political Analysis*. Manchester University Press.

Ibáñez, T. and Íñiguez, L. (eds) (1997) *Critical Social Psychology*. London: Sage.

Jensen, K.B. (1990) «The politics of polysemy: television news, everyday consciousness and political action». *Media, Culture and Society*, 12(1): 57-77.

Jensen, K.B. and Jankowski, N. (eds) (1991) *A Handbook of Qualitative Methodologies for Mass Communication Research.* London: Routledge.

Jodelet, D. (1991) *Madness and Social Representations.* Hemel Hempstead: Harvester Wheatsheaf.

Johannessen, H. (1994) «The dance of ideas in the health service», in J. Liep and K.F. Olwig (eds), *Complex Lives. Cultural Plurality in Denmark.* Copenhagen: Akademisk Forlag.

Johannessen, H. (1994) «Ideerness dans i sundhedssystemet», in J. Liep and K.F. Olwig (eds), *Komplekse liv. Kulturel mangfoldighed i Danmark.* [«The dance of ideas in the health service», in *Complex Lives. Cultural Diversity in Denmark.*] Copenhagen: Akademisk Forlag.

Jäger, S. (1993) *Kritische Diskursanalyse: eine Einführung.* [*Critical Discourse Analysis: An Introduction.*] Duisberg: Diss.

Jäger, S. and Jäger, M. (1992) *Aus der Mitte der Gesellschaft.* [*From the Middle of Society.*] Duisberg: Diss.

Jørgensen, M.W. (2001) «Diskursanalytiske strategier», in H. Christrup, A.T. Mortensen and C.H. Pedersen (eds), *At begribe og bevæge kommunikationsprocessor. Om metoder i forskningspraksis.* Papirer om Faglig Formidling, No. 47/ 01. Roskilde Universitetscenter: Kommunikation. [«Discourse analytical strategies», in *To Understand and Influence Communication Processes. Methods in Research Practice.* Communication Studies, Roskilde University: Papers on Specialist Communication.]

Kellner, D. (1989) *Critical Theory, Marxism and Modernity*. Cambridge: Polity Press/Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Kellner, D. (1995) *Media Culture: Cultural Studies, Identity and Politics between the Modern and the Postmodern*. London: Routledge.

Knudsen, A. (1989) *En Ø i Historien*. [*An Island in History*.] Basilisk.

Kress, G. and van Leeuwen, T. (1996) *Reading Images: The Grammar of Visual Design*. London: Routledge.

Kress, G. and van Leeuwen, T. (2001) *Multi-Modal Discourse: The Modes and Media of Contemporary Communication*. London: Arnold.

Kress, G., Leite-Garcia, R. and van Leeuwen, T. (1997) «Discourse semiotics», in T. van Dijk (ed.), *Discourse as Structure and Process. Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction*. Vol. 2. London: Sage.

Krippendorff, K. (1980) *Content Analysis: An Introduction to its Methodology*. London: Sage.

Kristeva, J. (1986) «Word, dialogue and novel», in T. Moi (ed.), *The Kristeva Reader*. Oxford: Blackwell.

Kvale, S. (1992) «Postmodern psychology: a contradiction in terms?», in S. Kvale (ed.), *Psychology and Postmodernism*. London: Sage.

Kvale, S. (1996) *InterViews. An Introduction to Qualitative Research Interviewing*. London: Sage.

Lacan, J. (1977a) «The agency of the letter in the unconscious or reason since Freud», in J. Lacan, *Écrits: A Selection*. New York: W.W. Norton & Co.

Lacan, J. (1977b) «The mirror stage as formative of the function of the I as revealed in psychoanalytic experience», in J. Lacan, *Écrits: A Selection*. New York: W.W. Norton & Co.

Laclau, E. (1990) *New Reflections on the Revolution of Our Time*. London: Verso.

Laclau, E. (1993a) «Discourse», in R. Goodin and P. Pettit (eds), *The Blackwell Companion to Contemporary Political Philosophy*. Oxford: Blackwell.

Laclau, E. (1993b) «Power and representation», in M. Poster (ed.), *Politics, Theory and Contemporary Culture*. New York: Columbia University Press.

Laclau, E. (1996a) «The death and resurrection of the theory of ideology», *Journal of Political Ideologies*, 1(3): 201-20.

Laclau, E. (1996b) «Universalism, particularism and the question of identity», in E. Laclau, *Emancipation(s)*. London: Verso.

Laclau, E. and Mouffe, C. (1985) *Hegemony and Socialist Strategy. Towards a Radical Democratic Politics*. London: Verso.

Laclau, E. and Mouffe, C. (1990) «Post-Marxism without apologies», in E. Laclau, *New Reflections on the Revolution of Our Time*. London: Verso.

Laclau, E. and Zac, L. (1994) «Minding the gap: the subject of politics», in E. Laclau (ed.), *The Making of Political Identities*. London: Verso.

Larrain, J. (1994) *Ideology and Cultural Identity. Modernity and the Third World Presence*. Cambridge: Polity Press.

Larsen, H. (1999) «Danish and British policies towards Europe in the 1990s: A Discourse approach». *European Journal of International Relations* 5(4): 464-91.

Larsen, H. (forthcoming) *Still A Danish Foreign Policy? Danish Foreign Policy in an EU Context.* Houndmills: Palgrave/ Macmillan.

Lather, P. (1993) «Fertile obsession: validity after poststructuralism», *Sociological Quarterly*, 34(4): 673-94.

Lather, P. (2001) «Postbook: working the ruins of feminist ethnography», *Signs: Journal of Women in Culture and Society* 27(1): 199-227.

Lather, P. and Smithies, C. (1997) *Troubling the Angels: Women Living with HIV/AIDS.* Boulder, CO: Westview/Harper Collins.

Latour, B. (1999) *Pandora's Hope. Essays on the Reality of Science Studies.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Leech, G. (1983) *The Principles of Pragmatics.* London: Longman.

Lunt, P. and Livingstone, S. (1996) «Rethinking the focus group in media and communications research», *Journal of Communication*, 46(2): 79-98.

Lyotard, J.-F. (1984) *The Postmodern Condition.* Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

Maas, U. (1989) *Sprachpolitik und politische Sprachwissenschaft [Language Politics and the Political Science of Language.]* Frankfurt am Main: Suhrkamp.

Marcus, G.E. and Fischer, M.M.J. (1986) *Anthropology as Cultural Critique. An Experimental Moment in the Human Sciences.* Chicago: The University of Chicago Press.

Mey, J. (1993) *Pragmatics: An Introduction*. Oxford: Blackwell.

Middleton, D. and Edwards, D. (eds) (1990) *Collective Remembering*. London: Sage.

Mills, S. (1997) *Discourse*. London: Routledge.

Mishler, E. (1986) *Research Interviewing: Context and Narrative*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Morgan, D. (1997) *Focus Groups as Qualitative Research*. London: Sage.

Morley, D. (1992) *Television, Audiences and Cultural Studies*. London: Routledge.

Moscovici, S. (1984) «The phenomenon of social representations», in R. Farr and S. Moscovici (eds), *Social Representations*. Cambridge: Cambridge University Press.

Moscovici, S. (1988) «Notes towards a description of social representations», *European Journal of Social Psychology*, 18(3): 211-50.

Moscovici, S. (1994) «Social representations and pragmatic communication», *Social Science Information*, 33(2): 163-77.

Mouffe, C. (1992) «Feminism, citizenship and radical democratic politics», in J. Butler and J. Scott (eds), *Feminists Theorize the Political*. London: Routledge.

Mumby, D. and Clair, R. (1997) «Organisational discourse», in T. van Dijk (ed.), *Discourse as Social Interaction. Discourse Studies. A Multidisciplinary Introduction*. Vol. 2. London: Sage.

Nagel, T. (1986) *The View from Nowhere*. New York: Oxford University Press.

Norval, A.J. (1996) *Deconstructing Apartheid Discourse.* London: Verso.

Ochs, E. (1979) «Transcription as theory», in E. Ochs and B. Schieffelin (eds), *Developmental Pragmatics*. New York: Academic Press.

O'Shea, A. (1984) «Trusting the people: how does Thatcherism work?», in *Formations of Nation and People.* London: Routledge.

Parker, I. (1992) *Discourse Dynamics: Critical Analysis for Social and Individual Psychology.* London: Routledge.

Parker, I. and Burman, E. (1993) «Against discursive imperialism, empiricism and construction: thirty-two problems with discourse analysis», in E. Burman and I. Parker (eds), *Discourse Analytic Research: Repertoires and Readings of Texts in Action.* London: Routledge.

Pecheux, M. (1982) *Language, Semantics and Ideology.* London: Macmillan.

Phillips, L. (1993) *Reproduction and Transformation of the Discourse of Thatcherism across Socio-political Domains.* Ph.D. thesis. London School of Economics and Political Science.

Phillips, L. (1996) «Rhetoric and the spread of the discourse of Thatcherism», *Discourse and Society*, 7(2): 209-41.

Phillips, L. (1998) «Hegemony and political discourse: the lasting impact of Thatcherism», *Sociology*, 32(4): 847-67.

Phillips, L. (2000a) «Mediated communication and the privatization of public problems: discourse on ecological risks and political action», *European Journal of Communication.* 15(2): 171-207.

Phillips, L. (2000b) «Risk, reflexivity and democracy: mediating expert knowledge in the news», *Nordicom Review*, 21(2): 115-35.

Phillips, L. (2001) «Forskning i tvivl - en refleksiv evaluering af det diskursanalytiske interview som metode til kritiske studier», in H. Christrup, A.T. Mortensen and C.H. Pedersen (eds), *At begribe og bevæge kommunikationsprocesser. Om metoder i forskningspraksis*. Papirer om Faglig Formidling, No. 47/01. Roskilde Universitetscenter: Kommunikation. [«Research in doubt - a reflexive evaluation of the discourse analytical interview as a method for critical research», in *To Understand and Influence Communication Processess. Methods in Research Practice*. Communication Studies, Roskilde Universtiy: Papers on Specialist Communication.]

Pomerantz, A. (1986) «Extreme case formulations: a way of legitimizing claims», *Human Studies*, 9 (2/3): 219-29.

Potter, J. (1996a) «Attitudes, social representations and discursive psychology», in M. Wetherell (ed.), *Identities, Groups and Social Issues*. London: Sage.

Potter, J. (1996b) *Representing Reality: Discourse, Rhetoric and Social Construction*. London: Sage.

Potter, J. (1997) «Discourse analysis as a way of analysing naturally occurring talk», in D. Silverman (ed.), *Qualitative Research: Theory, Methods and Practice*. London: Sage.

Potter, J. (2001) «Wittgenstein and Austin: developments in linguistic philosophy», in M. Wetherell et al. (eds), *Discourse Theory and Practice. A Reader*. London: Sage.

Potter, J. and Reicher, S. (1987) «Discourses of community and conflict: the organisation of social categories in accounts of a «riot» », *British Journal of Social Psychology*, 26(1): 25-40.

Potter, J., Stringer, P. and Wetherell, M. (1984) *Social Texts and Context: Literature and Social Psychology*. London: Routledge and Kegan Paul.

Potter, J. and Wetherell, M. (1987) *Discourse and Social Psychology*. London: Sage.

Prins, B. (1997) *The Standpoint in Question. Situated Knowledges and the Dutch Minorities Discourse*. Utrecht.

Reason, P. and Bradbury, H. (eds) (2001) *Handbook of Action Research. Participatory Inquiry and Practice*. London: Sage Publications.

Richardson, K. (1998) «Signs and wonders: interpreting the economy through television», in A. Bell and P. Garrett (eds), *Approaches to Media Discourse*. Oxford: Blackwell.

Rose, G. (1997) «Situating knowledges: positionallity, reflexivities and other tactics», *Progress in Human Geography*, 21(3): 305-20.

Rosengren, K. (ed.) (1981) *Advances in Content Analysis*. Beverly Hills/London: Sage.

Sacks, H. (1992) *Lectures on Conversation*. 2 Volumes. Edited by G. Jefferson. Oxford: Basil Blackwell.

Sampson, E.E. (1991) «The democratization of psychology», *Theory and Psychology*, 1(3): 275-98.

Saussure, F. de. (1960) *Course in General Linguistics*. London: Peter Owen.

Schegloff, E. (1997) «Whose text? Whose context?», *Discourse and Society*, 8(2): 165-83.

Schegloff, E. (1999a) «««Schegloff's texts» as «Billig's data»: a critical reply», *Discourse and Society*, 10(4): 558-72.

Schegloff, E. (1999b) «Naivete vs sophistication or discipline vs self-indulgence: A rejoinder to Billig», *Discourse and Society*, 10(4): 577-82.

Schrøder, K. (1998) «Discourse analysis and the media-society nexus: towards a notion of discourse ethnography?» Paper presented to the international conference «Discourse and Social Research», Sørup Herregård Denmark.

Shotter, J. (1993) *The Cultural Politics of Everyday Life*. Buckingham: Open University Press.

Shotter, J. and Gergen, K. (eds) (1989) *Texts of Identity*. London: Sage.

Silverman, D. (1985) «The articulation of elements: the parts and the whole», in D. Silverman: *Qualitative Methodology and Sociology*. Brookfield: Gower.

Silverstone, R. (1999) *Why Study the Media?* London: Sage Publications.

Smith, D.E. (1987) *The Everyday World As Problematic. A Feminist Sociology*. Boston: Northeastern University Press.

Smith, J. (1995) «Semi-structured interviewing and qualitative analysis», in J. Smith, R. Harré and L. van Langenhove (eds), *Rethinking Methods in Psychology*. London: Sage.

Soper, K. (1990) «Feminism, humanism and postmodernism», *Radical Philosophy*, 55(1): 11-17.

Tajfel, H. (1981) *Human Groups and Social Categories*. Cambridge: Cambridge University Press.

Taylor, S.J. and Bogdan, R. (1984) *Introduction to Qualitative Research*. New York: John Wiley.

Ten Have, P. (1999) *Doing Conversation Analysis: a Practical Guide*. London: Sage.

Thompson, J. (1984) *Studies in the Theory of Ideology*. Cambridge: Polity Press.

Thompson, J. (1990) *Ideology and Modern Culture*. Cambridge: Polity Press.

Thompson, J. (1995) *The Media and Modernity: A Social Theory of the Media*. Cambridge: Polity Press.

Torfing, J. (1999) *New Theories of Discourse: Laclau, Mouffe and Zizek*. Oxford: Blackwell.

Tracy, K. (1995) «Action-implicative discourse analysis», *Journal of Language and Social Psychology*, 14(1-2): 195-215.

Tyler, S.A. (1986) «Post-modern ethnography: from document of the occult to occult document», in J. Clifford and G.E. Marcus (eds), *Writing Culture. The Poetics and Politics of Ethnography*. Berkeley: University of California Press.

van Dijk, T. (1991) *Racism and the Press*. London: Routledge.

van Dijk, T. (1993) *Discourse and Elite Racism*. London: Sage.

van Dijk, T. (ed.) (1997a) *Discourse as Social Interaction: A Multidisciplinary Introduction* Vol. 2. London: Sage.

van Dijk, T. (ed.) (1997b) «Introduction», in *Discourse as Structure and Process: A Multidisciplinary Introduction*. Vol. 1. London: Sage.

van Dijk, T. and Kintch, W. (1983) *Strategies of Discourse Comprehension*. London: Academic Press.

van Leeuwen, T. (1993) «Genre and field in critical discourse analysis: a synopsis», *Discourse & Society* 4(2): 193-223.

Walkerdine, V. (1990) *Schoolgirl Fictions*. London: Verso.

Walkerdine, V. (1993) ««Daddy's gonna buy you a dream to cling to (and mummy's gonna love you just as much as she can)»: young girls and popular television», in D. Buckingham (ed.), *Reading Audiences: Young People and the Media*. Manchester: Manchester University Press.

Watson, R. (1997) «Ethnomethodology and textual analysis», in D. Silverman (ed.), *Qualitative Research: Theory, Method and Practice*. London: Sage.

Wernick, A. (1991) *Promotional Culture*. London: Sage.

Wetherell, M. (1982) «Cross-cultural studies of minimal groups: implications for the social identity theory of intergroup relations», in H. Tajfel (ed.), *Social Identity and Intergroup Relations*. Cambridge: Cambridge University Press.

Wetherell, M. (1995) «Romantic discourse and feminist analysis: interrogating investment, power and desire», in S. Wilkinson and C. Kitzinger (eds), *Feminism and Discourse: Psychological Perspectives*. London: Sage.

Wetherell, M. (1996) «Group conflict and the social psychology of racism», in M. Wetherell (ed.), *Identities, Groups and Social Issues*. London: Sage.

Wetherell, M. (1998) «Positioning and interpretative repertoires: conversation analysis and post-structuralism in dialogue», *Discourse and Society*, 9(3): 387-412.

Wetherell, M. and Maybin, J. (1996) «The distributed self: a social constructionist perspective», in R. Stevens (ed.), *Understanding the Self*. London: Sage.

Wetherell, M. and Potter, J. (1988) «Discourse analysis and the identification of interpretive repertoires», in A. Antaki (ed.), *Analysing Everyday Explanation*. London: Sage.

Wetherell, M. and Potter, J. (1992) *Mapping the Language of Racism: Discourse and the Legitimation of Exploitation*. Hemel Hempstead: Harvester Wheatsheaf.

Wetherell, M., Stiven, H. and Potter, J. (1987) «Unequal egalitarianism: a preliminary study of discourses concerning gender and employment opportunities», *British Journal of Social Psychology*, 26(1): 59-71.

Widdicombe, S. and Wooffitt, R. (1995) *The Language of Youth Subcultures: Social Identity in Action*. Hemel Hempstead: Harvester Wheatsheaf.

Willig, C. (ed.) (1999a) *Applied Discourse Analysis: Social and Psychological Interventions*. London: Sage.

Willig, C. (1999b) «Beyond appearances: a critical realist approach to social constructionist work», in D. Nightingale and J. Cromby (eds), *Social Constructionist Psychology: A Critical Analysis of Theory and Practice*. Buckingham: Open University Press.

Wittgenstein, L. (1953) *Philosophical Investigations*. Oxford: Blackwell.

Wodak, R. (1991) «Turning the tables: antisemitic discourse in post-war Austria», *Discourse and Society*, 2(1): 47-64.

Wodak, R. and Menz, F. (eds) (1990) *Sprache in der Politik - Politik in der Sprache: Analysen zum Öffentlichen*

Sprachgebrauch. [*Language in Politics - Politics in Language: An Analysis of Public Language Use.*] Klagenfurt: Drava.

Wodak, R., de Cillia, R., Reisigl, M. and Liebhart, K. (1999) *The Discursive Construction of National Identity.* Edinburgh: Edinburgh University Press.

Woodward, K. (ed) (1997) *Identity and Difference.* London: Sage.

Wooffitt, R. (2001) «Researching psychic practitioners: conversation analysis»; in M. Wetherell, S. Taylor and S. Yates (eds), *Discourse as Data: A Guide for Analysis*, London: Sage Publications.

Woolgar, S. (1980) «Discovery: logic and sequence in a scientific text», in R. Krohn, K. Knorr and R. Whitley (eds), *The Social Process of Scientific Investigation.* Dordrecht: Reidal.

Woolgar, S. (1989) «The ideology of representation and the role of the agent», in H. Lawson and L. Appignanesi (eds), *Dismantling Truth. Reality in the Post-Modern World.* New York: St. Martin's Press.

Woolgar, S. and Ashmore, M. (1988) «The next step: an introduction to the reflexive project», in S. Woolgar (ed), *Knowledge and Reflexivity. New Frontiers in the Sociology of Knowledge.* London: Sage Publications.

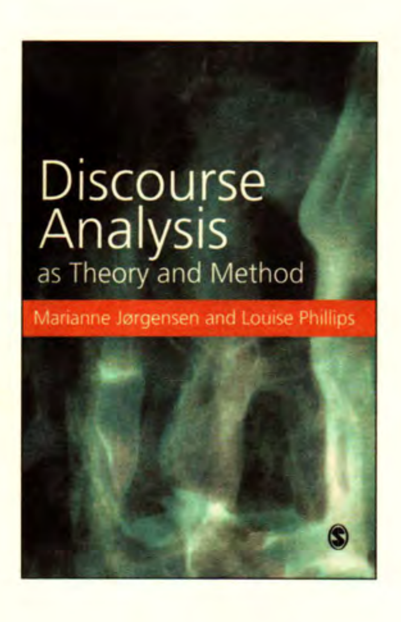
الفهـــرس

- ش -

- ص -

- ض -

- و -



13 دولارًا أو ما يعادلها

ISBN 978-99958-4-100-3









هيئة البحرين للثقافة و الآثار
Bahrain Authority for Culture & Antiquities

مشروع نقل المعارف
Knowledge Transfer Project